

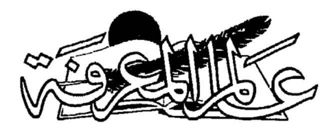
الأيديولوجية الصهيونية

دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة

(طبعة ثانية مزيدة ومنقحة)

تأليف الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

الأيديولوجية الصهيونية

دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة

(طبعة ثانية مزيدة ومنقحة)

تأليف الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري

العدد (٦٠ - ٦١) شوال ١٤٠٨ هـ - يونيه / حزيران ١٩٨٨م

المراسلات:
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب ٢٣٩٩٦ الصفاة / الكويت - 13100

الأيديولوجية الصهيونية

دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة

(طبعة ثانية مزيدة ومنقحة)

مقدّمة

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ ما يزيد عن خمسة أعوام بعد معركة بيروت المجيدة، وبعد مذبحة صابرا وشاتيلا التي أعقبتها . وهاهي ذي الطبعة الثانية تصدر وثورة الحجارة المجيدة تزلزل العدو، وتفشل خطط «كبار» الاستراتيجيين الذين ظنوا أن هذه الأمة قد قبلت الوضع القائم وأنه قد تم ترويضها واستئناسها وتطبيعها،ثم أسسوا حساباتهم على ذلك. وهي تطرح أمام كل العرب مرة أخرى، إمكانية أن تحسم القضايا عن طريق الجهاد والكرامة لا عن طريق الاستسلام الذي يتخفى تحت اسم السلام.

ولذا يمكن القول مرة أخرى إن الطبعة الثانية من كتاب **الايديولوجية الصهيونية** تصدر مثل سابقتها في لحظة من تلك اللحظات التاريخية التي تُسجل في الصحف اليومية فحسب (وهي على أي حال لاتسجل كل شيء)، وإنما في كتب التاريخ التي تتناول ما هو أساسي وجوهري ودال. وإذا كانت الطبعة السابقة قد صدرت في وقت كانت الثورة الفلسطينية قد تراجعت فيه قليلا حتى لا تبدد طاقتها البشرية سدى، وكانت كل الأطراف ـ كما قلنا في حينه ـتلم الشمل وتعيد الحسابات استعدادا للمعركة التالية فإن الطبعة الثانية تصدر بينما يعيد الطرفان حساباتها مرة أخرى، وشتان بين اللحظتين، فثورة الحجارة قد غيرت كثيراً من المفاهيم والموازين، وعدلت كثيراً من الرؤى،وهي وإن لم تصلح الماضي ؛(ومن ذاالذي يمكنه أن يفعل ذلك؟) فهل قد أضفت عليه المعنى وأعطت مدلولا لكل التضحيات، أو بينت أن تلك الرقعة الزمنية لم تكن كالصحراء الجرداء مرت سدى، وإنما هي كالرقعة الخضراء التي تشرنقت فيها الثورة لتخرج منها بعد ذلك الفراشات ـ والأطفال والنساء والشباب ـ بالحجارة. وبذا أصبح الماضي هو الزمان الذي احتضن المستقبل ليخرج منه منيراً شامخاً : يطرح مزيداً من إمكانات الحرية والحركة الفاعلة.

وهذه الطبعة الثانية من الكتاب، مثل سابقتها، تطمح إلى أن تكون دراسة شاملة ومنهجية للأيديولوجية الصهيونية من جميع جوانبها لا تركز على بعض الجوانب منها مستبعدة البعض الآخر ـ كأن تركز على الجوانب الدينية دون الاقتصادية، أو الجوانب السياسية دون الوجدانية، أو على موقف الصهيونية من أعضاء الجماعات اليهودية دون رد فعلهم. ـ

والدراسة الحالية هي أيضا دراسة في علم اجتماع المعرفة، تستخدم الأيديولوجية الصهيونية حالة للدراسة، وعلم اجتماعغ المعرفة هو العلم الذي يتناول علاقة حركة الافكار بتجربة المجتمع، وكيف تتشكل هذه الأفكار، وكيف تتبنى بعض الجماعات والطبقات مجموعة من الأفكار فتصبح نسقا فكريا مشتركا بينها ويعبر عن مصالحها ورؤيتها للكون، ويحدد سلوكها السياسي، بل والاقتصادي في كثير من الأحيان. وكيف تواجه هذه الأفكار والتحديات التي تنشأ عن داخل النسق الفكري ذاته، ومن خارجه، وكيف تدخل عليه التغيرات نتيجة ذلك. (انظر مناقشة هذه القضايا، والقضايا الأخرى المتعلقة باصطلاح «الأيديولوجيا» في الملحقين الأول ولثاني في آخر هذا الكتاب).

وحتى تصدر هذه الطبعة في جزء واحد قمنا بتلخيص الفصول الثلاثة الأولى التي تتناول وضع يهود مشرق أوروبا وجذور المسألة اليهودية في فصل واحد يعطي الخطوط العريضة لهذا الجانب دون الخوض في التفاصيل، وبذلك نكون قد خفضنا عدد الصفحات دون أن نفصل النسق الأيديولوجي الصهيوني عن جذوره في الحضارة. (وقد حذفنا كذلك الفصل الخاص بالممارسات الصهيونية ضد العرب ربما لأن الإرهاب الصهيوني أصبح حدثاً يومياً يقرأ عنه الجميع، ولذا أصبح من العسير أن نوفيه حقه في هذه الدراسة، وسنترك هذا لدراسة أخرى. ومع هذا لم نسقط من دراستنا الإدراك الصهيوني للعرب، كما تناولنا أثر رد الفعل العربي [أساسا ثورة الحجارة] على النسق الأيديولوجي الصهيوني).

إن الأفكار الصهيونية التي نشأت أساسا في شرق أوروبا في ظروف التحديث

المتعثر هناك ما كان يمكن أن يقدر لها أن تتحول إلى كيان سياسي دون مساعدة قوة خارجية، وهنا نأتي للدور الذي لعبته الإمبريالية الغربية (ويهود الشتات)، فتناولنا في الفصل الثاني علاقة الصهيونية بالاستعمار، وكيف استفادت الصهيونية من حاجة الاستعمار الغربي إلى قاعدة في الشرق الأوسط، وكيف استفادت من المناخين الفكري والحضاري اللذين خلفتهما الإمبريالية.

ولكن على الرغم من أن الصهيونية، على المستويين الحضاري والاقتصادي؛ مدينة بوجودها للاستعمار الغربي، إلا أنها جزء متميز من كل، ولذا عرضنا للسمات الخاصة والفريدة للاستعمار الصهيوني في الفصل الثالث، كما عرضنا لاعتذارياته لنبين كيف اكتسبت شكلها الخاص. وقد ركزنا في هذه الطبعة الثانية على عمالة الاستعمار الصهيوني باعتبار أنها أصبحت الصفة الواضحة والأساسية له، وتحت باب مصطلح «الأقتصاد التسولي» لمحاولة فهم الديناميات الاقتصادية والسياسية للدولة الصهيونية في ضوء اعتمادها المتزايد على الولايات المتحدة وعمالتها المتزايدة لها.

وقد حاولنا في الفصل الرابع أن نأتي بتعريف للصهيونية، فدرسناها بوصفها نسقا فكريا متكاملا يتسم بالاتساق البالغ مع نفسه. وقد وجدنا أن ثمة تشابها في البيئة بين الأفكار الصهيونية وبعض الأفكار اليهودية، ووجدنا أن السمة الأساسية لهذه الأفكار هي أنها تخلط بين المقدس والقومي وبين المطلق والنسبي وتمزجهما، وان الصهيونية نقلت هذه المقولة الحلولية الأساسية من النسق الديني وطبقتها على الظواهر التاريخية والزمنية، وطورت مفهوماً للإنسان والزمان والمكان يستند إلى هذه الحلولية. وقد سمينا بنية الصهيونية بالبنية الحلولية العلمانية، وسمينا مقولاتها بالغيبية العلمانية، وفي نهاية الفصل حاولنا أن نأتي بتعريف للصهيونية مبني على تحليلنا السابق. واقترحنا الطريقة المثلى لقراءة «النصوص» الصهيونية.

أما في الفصل الخامس فقد تناولنا إدراك الذات وإدراك الآخر فأشرنا إلى فكرة

اليهودي الخالص أي اليهودي الذي لا تشوبه شائبة غير يهودية، وهو التعبير الحقيقي الوحيد عن المثل الأعلى الصهيوني. وقد بيّنا أيضا أنه، على مستوى النسق الفكري، تفترض فكرة اليهودي الخالص غياب العربي، وإلا اختل النسق الأيديولوجي وجابه تحديا واضحاً.

وفي مجال وضع هذا النسق موضع التنفيذ توجهت الصهيونية اتجاهين: نحو اليهود ونحو العرب، فحاولت نقل اليهود من المنفى إلى أرض الميعاد، ونقل العرب من فلسطين إلى المنفى. وقد تناولنا في الفصل السادس علاقة الصهيونية بيهود العالم، وهي علاقة عنصرية في جوهرها، فالصهيونية تنطلق من افتراضها أن ثمة شعباً يهودياً واحداً يجب أن ينقل -شاء أم أبى- إلى الوطن القومي المزعوم أي أرض الميعاد. وفي محاولة ترجمة هذا الافتراض إلى واقع تنتقد الصهيونية الشخصية اليهودية (التي نمت وترعرعت في المنفى) وتهاجم يهود الشتات وتحاول قلقلة أوضاعهم بل تتعاون مع معادي يهود السامية والنازيين لتحقيق أهدافها. وقد تناولنا في الفصل السابع الاستجابة اليهودية للصهيونية وأشكالها الواضحة النادرة وأشكالها المستترة الكثيرة فيما سميناه التملص اليهودي من الصهيونية. وقد بيّنا كيف ساهمت ثورة الحجارة في تحرير يهود العالم من قبضة الصهيونية.

وإذا كنا قمنا بتلخيص الفصول الثلاثة الأولى من الطبعة السابقة في فصل واحد، وأعدنا كتابة الفصلين السادس والسابع من الطبعة السابقة في فصل واحد من هذه الطبعة، ونقحنا الفصول الأخرى فإن الفصلين الثامن والتاسع هما إضافة جديدة بشكل كامل تقريبا لهذه الطبعة وهما يتناولان ما نسميه مشكلة الشرعية. وقد قسمناها إلى نوعين: الشرعية الصهيونية، وشرعية الوجود. والشرعية الصهيونية هي الشرعية التي يحاول أن يسبغها الصهاينة على أنفسهم من خلال مشروعهم الصهيوني الذي كان يهدف إلى طرح تصور جديد لليهودي بحيث يتحول من شخصية هامشية إلى شخصية منتجة قتالية ذات سيادة. ولكن الصهيونية (كما بيّنا في الفصل الثامن) فشلت في تحقيق مشروعها الحضاري الشامل، فهي لم تعرّف من هو اليهودي، ولم تنجح في تطبيعه، ولم يهاجر «الشعب

اليهودي» إلى فلسطين، مما تسبب في أزمة سكانية تترجم نفسها إلى أزمة في الاستيطان ـعمود الصهيونية الاستيطانية الفقاري-.

ولكن الشرعية الصهيونية هي في نهاية الأمر شرعية سطحية مغلّقة تخبىء القضية الأعمق ألا وهي شرعية الوجود ذاته. فالإسرائيليون (كما بيّنا في الفصل العاشر) يعرفون أنهم سرقوا فلسطين، وأن أهلها لا يزالون متربصين بهم، ومن هنا كانت أهمية ثورة الحجارة التي تطرح ـوبحدةـ هذا المستوى من الشرعية، فهي تقودنا إلى عام ١٩٤٨ مرة أخرى. وعلى الرغم من إدراك بعض الشخصيات السياسية والثقافية الاسرائيلية، وبعض الجماعات السياسية الصغيرة المدركة لطبيعة الورطة التاريخية التي يوجد فيها المجتمع الإسرائيلي، والتي تفرض على الإسرائيليين القتال ضد العرب والعمالة للغرب، وعلى الرغم من محاولتهم التملص من الأيديولوجية الصهيونية التي نقلتهم من أوطانهم ووضعتهم في هذه الورطة، إلا أن محاولاتهم محكوم عليها مسبقاً بالإخفاق. فالمجتمع الإسرائيلي مجتمع صهيوني بالدرجة الأولى، وهو ـ برغم كل التحديات التي تواجه النسق الأيديولوجي الصهيوني المهيمنـ محتفظ بسيطرته على الاسرائيليين، نظراً لعوامل سياسية واقتصادية كثيرة، لعل أهمها أن المجتمع الاسرائيلي مجتمع تدعمه الامبريالية دعماً شاملاً. وقد بيّنا كيف ينعكس هذا الوضع على الوجدان الاسرائيلي الذي تحول إلى وجدان جبري، يقبل أن تكون حالة الحرب حالة نهائية .وقد ختمنا الدراسة بمحاولة طرح حل داخل اطار ما نسميه الحوار المسلح .

وقد يكون من غير المعتاد أن تتناول دراسة في علم اجتماع المعرفة الممارسات المختلفة للأيديولوجية، ولكنني أرى أنه لا يمكن اكتشاف الطبيعة الحقيقية لأي نسق فكري خارج نطاق الممارسة، وفي حالة الصهيونية يصبح الأمر أكثر الحاحاً إذ إنها أيديولوجية تحتوي على قسط كبير من الأوهام وادعاءات وتزييف التاريخ، ولذا تناولنا باسهاب الممارسات الصهيونية المختلفة وبيّنا أثر احتكاك الصهاينة مع الواقع على فكرهم ورؤيتهم لأنفسهم وللآخرين.

وقد حاولنا توثيق كل تعميماتنا وأحكامنا من أكثر من مصدر، فاعتمدنا

بالدرجة الأولى على النصوص الصهيونية ذاتها، ثم على المراجع الصهيونية أو اليهودية أو غير العربية بالدرجة ذاتها، وقد اعتمدنا أيضا على المراجع العربية في الأحوال النادرة. وسيلاحظ القارىء أن كثيراً من الأفكار والآراء التي وردت في دراسات سابقة لنا في هذا الحقل خصوصاً في **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، وأرض الوعد** قد وردت في هذه الدراسة أيضا، بل إننا في بعض الأحيان قمنا بنقل عدة صفحات من دراسات سابقة (بعد تعديلها بما يتفق مع السياق الجديد). والعملان الأساسيان اللذان أشرنا إليهما أولهما موسوعة مرتبة مادتها العلمية ترتيباً أبجدياً، ولذا فهو ليس كتاباً يقرأ بهذا المعنى، وإنما مرجع يعود إليه القارىء أينما قابل اسما أو مصطلحاً صهيونياً غير معروف لديه. كما أن الموسوعة صدرت في مصر عام ١٩٧٥ في وقت تغير فيه المناخ السياسي لم يسمح بتوزيعها وتناولها، وظلت نسخها، أو العدد الأكبر منها، حبيسة مخازن الأهـرام مدة طويلة وقد نفدت في نهاية الأمر من السوق. أما الكتاب الثاني فقد صدر باللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة، وهو غير متاح للقارىء العربي، ولكن مع هذا يتميز العمل الحالي من كـل ما سبق بـأنه يحـاول أن يكون دراسـة شاملة ومتكاملة للأيديولوجية الصهيونية، الأمر الذي لا يتوافر في أي من الدراسات السابقة. وقد أدرجنا عناوين هذه الدراسات في ثبت المراجع في نهاية الكتاب.

وسيلاحظ القارىء أيضا أن التوثيق قد يكون مكثفا أكثر مما هو مألوف في مثل هذه الدراسات، ولعل الذي دفعنا إلى هذا طبيعة الأيديولولوجية الصهيونية، فهي أيديولوجية مبنية على كذبة، ولكنها كذبة تساندها أجهزة إعلامية وأكاديمية كثيرة تنجح في خلق انطباع عام لدى الجميع من الأعداء والأصـدقاء بصـدق مقولاتها، فنجد أنفسنا نردد مقولـة مثل «الشعب اليهـودي»، أو «الاضطهـاد النازي اليهودي»، ودحض مثل هذه الأكاذيب المألوفة يتطلب مثل هذا التوثيق المكثف.

كما سيلاحظ القارىء أننا حاولنا ـ قدر استطاعتنا ـ أن نبتعد عن استخدام المصطلحات المتخصصة، وحيثما استخدمناها قمنا بشرحها في المتن ذاتـه، كما

حاولنا أن تظل القضايا المنهجية، مثل قضية علاقة البناء الفوقي والبناء التحتي أو الأبنية التحتية، وعلاقة الأفكار بالحركة التاريخية، وقضية تعريف الأيديولوجية، في المرتبة الثانية. ولم تفصح هذه القضايا عن نفسها بشكل مباشر أو سافر في الدراسة ذاتها، وإنما كانت بمثابة الافتراض الكامن الذي ينظم الدراسة ويعطيها هيكلها، دون أن يعوق مسارها أو تسلسلها، واكتفينا بمناقشة القضايا المنهجية بشكل مباشر في الملحق. وبذا تظل دراستنا - أساسا - دراسة في الأيديولوجية الصهيونية، تهدف إلى التعرف عليها، على أصولها وبنائها الفكري وممارساتها السياسية المختلفة، بهدف فهمها وتعريفها وتعريتها، وإن كنا لا نفرق بين الفهم والتعريف والتعرية، فكلما ازدادت عملية الفهم والتعريف دقة ازدادت عملية التعرية عمقاً وحدة.

لكل هذا يمكننا القول إن هذه الدراسة ليست دراسة أكاديمية بالمعنى «الحيادي» الشائع، وذلك عل الرغم من استفادتها من كل الأدوات المستخدمة في مثل هذه الدراسات، وعلى الرغم من اتباعها كل القواعد المتبعة في مثل هذا المجال، وعلى الرغم من استعدادهالأن يحكم عليها بالمعايير الأكاديمية المعتمدة للحكم على مثل هذه الأبحاث، فهي دراسة لا تطمح إلى أن يصل قارئوها إلى فهم الأيديولوجية الصهيونية وتفسيرها فحسب، وإنما تطمح إلى أن يتحول الفهم والتفسير إلى نضال من أجل ما نتصور أنه الحقيقة والعدل، أي أن تتحول المعرفة المجردة إلى فعل فاضل.

وفي الختام أحب أن أتوجه بالشكر إلى الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا الذي تحمس لهذه الدراسة منذ البداية، وناقشني في بعض افتراضاتها الفلسفية والسياسية العامة مما كان له أكبر الأثر على هذه الدراسة، وقد شجعني هو والدكتور سليمان العسكري على اصدار الطبعة الثانية. وبما أن فترة اعارتي لجامعة الملك فيصل على وشك الانتهاء فإني أعطي لنفسي الحق أن اشكر صديقي الدكتور عزت خطاب رئيس قسم اللغة الإنجليزية وآدابها فهو ظاهرة إنسانية رائعة. قليليون مثله قادرون على التحرك بتقوى الأولين ووعي المعاصرين بتلقائية غير عادية. وكم هم الذين

يمكنهم التحدث عن الذات والموضوع أو عن الشكل والمضمون، ويقطعون كل هذا ليقيموا الصلاة ولاتفارق الابتسامة وجوههم. وفي هذا الجـو عملت مدة خمسة أعوام الأمر الذي مكنني من أداء واجباتي الأكاديمية ومن الدخول في حوار وافٍ معه ومع الزملاء في كلية الآداب، ومن متابعة الصحف الاسرائيلية والفكر الصهيوني، وانجاز الطبعة الثانية من هذا الكتاب و**الموسوعة العربية للمفاهيم والمصطلحات اليهودية والصهيونية** التي ستصدر العام القـادم بإذن الله. كـما أتوجه بالشكر لأصـدقائي الأسـاتذة عـادل حسين وتـوفيق عبدالـرحمن وهدى حجازي (زوجتي) لتشجيعهم اياي على الاستمرار في الكتابة وحوارهم المستمر معي. وقد قام الاستاذ ابراهيم الشرقاوي بكتابة مخطوطة هذا الكتاب (ومخطوطة الطبعة الثانية) على الآلة الكاتبة، فالمخطوطة الخطية التي دفعت بها إليه تبعث اليأس في قلب أي محارب، ولكنه قبل التحدي كعادته، وانجز عمله في وقت وجيز وفي اتقان ومهارة. فله مني الشكر على صبره ومثابرته واحتماله.

الدكتور عبد الوهاب المسيري
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



الفصل الاول

جذور المسألة اليهودية

المسألة اليهودية مصطلح عام يعني المشاكل التي تواجهها الجماعات اليهودية، وبطبيعة الحال لاتوجد مسألة يهودية واحدة وانما توجد مسائل يهودية مختلفة، تختلف باختلاف الزمان والمكان، فمشاكل يهود الإمبراطورية الرومانية تختلف عن مشاكل يهود اليمن التي تختلف بدورها عن مشاكل يهود الولايات المتحدة، ومع هذا يستخدم الصهاينة والمعادون لليهود هذا المصطلح وكأن ثمة مسألة يهودية واحدة ثابتة لها حل واحد وهو «التخلص من اليهود عن طريق إبادتهم أو تهجيرهم».

ولذا فالمصطلح في صيغة المفرد وشكله المجرد لايفيد كثيراً. ولذا فنحن نفضل الحديث عن المسائل اليهودية وهي المشاكل التي واجهها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي أثناء عملية التحديث التي خاضتها المجتمعات الغربية. وإذا ماتحدثنا عنه في المفرد وجب أن نخصص ونقول المسألة اليهودية في فرنسا في القرن الثامن عشر.وهذا التحديد الزماني والمكاني يعطي المصطلح مضمونه ودلالته. وإذا مااستخدمنا المصطلح في صيغة المفرد دون تخصيص فالإشارة عادة للمسألة اليهودية في شرق أوروبا في القرن التاسع عشر وهي المسألة التي أفرزت الصهيونية. بل يمكن القول إن الأدبيات الصهيونية عندما تستخدم المصطلح في صيغة المفرد فهي عادة ماتعني ذلك وحسب.

لعل عملية التحديث، سواء في الشرق الإسلامي أم في الغرب، هي أهم عمليه تاريخية في العصر الحديث، بل هي السمة الأساسية للعصر التي تمس كل جوانب المجتمع الإنساني من الاقتصاد إلى أسلوب الحياة. يعود تاريخ عملية التحديث والعلمنة في الغرب إلى بدايات عصر النهضة، ولكنها زادت حدتها مع بداية القرن التاسع عشر، ووصلت هذه المرحلة نهايتها مع الحرب العالمية الأولى،

حيث تحولت المجتمعات الغربية من كـونها مجتمعات زراعيـة «اقطاعيـة وشبه اقطاعية» إلى مجتمعات تجارية، أخيرا إلى مجتمعات صناعية رأسمالية امبريالية. وهذه العملية التاريخية تركت أعمق الأثر في أعضاء الجماعات اليهودية. ولايمكن فهم الحركات السياسية والفكرية وحركة الهجرة بين اليهود إلا بفهم أثر عملية التحديث فيهم.

وتحديث اليهود عملية لم تنبع من الديناميات الداخلية للطوائف اليهوديـة، وإنما نبعت من ديناميات المجتمع المحيط بها. ولذا فالتحديث في معظم الأحوال قد فرض فرضا على اليهود. وقد أخذ أساسا شكلين أساسين: شكل سياسي مباشر وهو مايطلق عليه العتق، أي منح اليهود حقوقهم المدنية والسياسية نظير أن يدينوا بالولاء للدولة التي عرّفت القومية على أساس لاديني عرقي أو اثني. وهو الأمر الذي خلق عند اليهود أزمة هوية، حيث إن تعريف الشريعة لليهودي على أنه «من تهود أو من ولد لأم يهودية» يتضمن عناصر اثنية تتناقض مع فكرة الولاء الكامل للدولة. كما أخذ التحديث شكلا اجتماعيا واقتصاديا أكثر عمقـا وهو الذي نطلق عليه اصطلاح «التحديث»، وفي الأدبيات التي تتناول ذلك الموضوع يرد المصطلح مرادفا لاصطلاحات مثـل «دمج اليهـود، أو «صبغهم بالصبغـة البولندية أو الروسية او النمساوية في بولندا أو روسيا أو النمسا»، أو «تحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج»، أو «تخليصهم من هامشيتهم الانتاجية، أو «إصلاحهم»، أو «تحويلهم إلى عنصر نافع». والصعوبات التي واجهت عملية التحديث هذه، ومدى نجاحها وفشلها، هي التي تشكل جوهر مايسمى المسالة اليهودية.

ويمكن تقسيم أوروبا إلى ثلاث منـاطق أساسيـة من منظور نمط التحـديث وتاريخه وأثره على أعضاء الطوائف:

١ ـ غرب اوروبا «إنجلترا، وفرنسا، وهولندا، وغيرها»، ثم الولايات المتحدة فيما بعد، وهي دول التحديث الحر. وهي مجتمعات حققت معدلات عالية من التقدم الاقتصادي في فترة مبكرة وكان لها مشروع استعماري قوي ساهم في حل معظم مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية، وحقق لها قدرا من الوفرة خفض من حدة

الصراعات الطبقية والتوترات الاقتصادية الداخلية.

وقد قادت الطبقة البرجوازية عملية التحول الاجتماعي في هذا البلد وتبنت مثلا ليبرالية منفتحة، كما ان الرؤية القومية التي سادت في هذه المجتمعات رؤية منفتحة، فكانت مسألة الانتماء ليست مسالة عضوية أو عرقية، وإنما هي مسألة انتماء قومي مفتوح أمام كل من ولد داخل المجتمع ونشأ على أرضه وكان على استعداد للاضطلاع بوظيفته وأداء واجبه، لذا تستبعد المثل القومية في هذه المجتمعات أعضاء الطوائف اليهودية، وإنما فتحت الأبواب والفرص أمامهم، فحققوا الحراك الاجتماعي الذي يستحقونه.

ومعظم هذه البلاد لم يكن يضم طوائف يهودية كبيرة حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، إما لعدم وجود يهود فيها أصلا وإما لأنه كان قد تم طردهم منها في مرحلة سابقة. وحينما استوطن اليهود في هذه البلاد مرة أخرى ابتداء من القرن السادس عشر «مع بدايات التحديث» استقروا في بلاد كانت قد تحددت ملامح الاقتصاد التجاري الرأسمالي الأساسية فيها، وكانت تضم طبقة تجارية محلية قوية لاتخشى منافسة الرأسمال اليهودي، وترحب به لحاجتها إلى الاستثمارات في المشاريع الرأسمالية والاستعمارية المختلفة.

وقد كان لليهود الذين استقروا في هذه البلاد من أصل سفاردي كثير من الكفاءات المطلوبة والاتصالات الدولية الهامة، كما أنهم كانوا متقدمين من الناحية الحضارية، ثم انضمت إليهم عناصر من الاشكناز اصبحت بعد مدة هي الاغلبية. وعلى الرغم من أن العنصر الاشكنازي كان متميزا حضاريا ووظيفيا، إلا ان هذا التمييز قد تقوض بمرور الوقت من خلال معدلات التحديث السريعة، وفتح فرصة الحراك الاجتماعي والتقاليد السياسية الليبرالية السمحة. بدأت عملية دمجهم في المجتمع حتى زال التمايزان الوظيفي والاقتصادي تماما ثم تبعها التمايزان السياسي والحضاري.

ولم تكن عملية التحديث في أول الأمر سهلة ومتيسرة طوال الوقت، بل على

العكس اضطرت بعض الحكومات، مثل فرنسا، إلى استصدار قوانين خاصة لفرض التحديث على اليهود الاشكناز في الالزاس واللورين، كما حدث بعض المشاكل والتراجعات والترديات، كما ظهر في حادثة دريفوس في فرنسا، ولعل ظهور الفكر العرقي في أواخر القرن التاسع عشر وانتشاره فيها هو شكل آخر من التردي. وقد ظهر بعض التوترات ذات الطابع العرقي في إنجلترا في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي بعد هجرة يهود شرق أوروبا بأعداد متزايدة إلى الولايات المتحدة في الثلاثينات مع الأزمة الاقتصادية فيها. ولكن مثل هذه المشاكل والتوترات لاتختلف كثيرا عن تلك التي تنشأ في أي مجتمع في فترات الأزمات الاقتصادية بين أعضاء الاقليات فيها من جهة، وبعض العناصر المتطرفة من أعضاء الاغلبية الذين يضخمون من خطر أعضاء الأقلية من جهة أخرى، وهي عادة مايتم التغلب عليها، كما حدث بالفعل في نهاية الأمر.

٢ ـ وسط أوروبا «النمسا وغيرها» وألمانيا وهي دول التحديث المختلط، والشمولي، والتحديث تحت رعاية الدولة. وقد بدأ التحديث في هذه الدول وغيرها من دول وسط أوروبا في وقت متأخر قليلا، فلم تبدأ الا مع منتصف القرن التاسع عشر تحت إشراف بعض العناصر التقليدية في المجتمع «الملك وبعض النبلاء» وبإشراف الحكومة.

ولم يكن لهذه الدول مشروع استعماري قوي يساهم في تخفيف حدة التوترات الاقتصادية، ولم تسد المثل البورجوازية الليبرالية في هذه المجتمعات لأن الطبقة البورجوازية لم تكن قوية بما فيه الكفاية، ولم تتول قيادة كل الطبقات، وقنعت في غالب الأمر بدور التابع. وفي مجال الرؤية القومية ظهرت فكرة القومية العضوية «الجامعة الألمانية» وهي التي تحدد مسألة الانتماء القومي على أساس عضوي ثقافي ضيق، ثم حولته في مرحلة لاحقة إلى مسألة انتماء عرقي أو إلى انتماء قومي ديني «القومية المسيحية». وهذا الأمر ينطبق على ألمانيا أكثر من انطباقه على الامبراطورية النمساوية/ المجرية التي كانت تشجع التعددية كما هو الحال مع الامبراطوريات متعددة القوميات. وإن كان هذا لم يمنع من انتشار الرؤية الألمانية

العضوية في النمسا، فالنمسا كانت دائما في محيط ألمانيا الثقافي.

ولم يكن هناك طائفة يهودية كبيرة في وسط أوروبا. فيهود ألمانيا، على سبيل المثال، لم يكن يزيد عددهم على ١٪ من عدد السكان. ولذا فهم لم يكونوا «جماهير» بمعنى الكلمة. وقد حققوا معدلات عالية من الاندماج في محيطهم الثقافي، فكانوا يتحدثون اللغة الألمانية، ويتبعون اسلوب الحياة السائد في المجتمع وازداد الزواج المختلط، إلا أن ثمة عدة عناصر فصلتهم عن محيطهم الثقافي وخلقت لهم وضعا خاصا:

أ ـ يلاحظ أن الهجرة من شرق أوروبا والتي كانت هجرة داخلية ـ اي من بلد أوروبي لآخر، من منتصف القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠ ـ كانت تقذف بأعداد كبيرة من اليهود اليديش المتخلفين، المتميزين حضاريا وطبقيا. وحينما ضمت ألمانيا والنمسا وأجزاء من بولندا ضمت معها أعدادا كبيرة من اليهود اليديش أنفسهم الذين هاجرت أعداد منهم إلى المدن الألمانية والنمساوية، وبدأوا يصبغون الجماعات اليهودية فيها بصبغة يهودية فاقعة «وكان هؤلاء يشكلون التربة الخصبة للأفكار الصهيونية».

ب ـ على الرغم من أن يهود المانيا والنمسا لم يكونوا متميزين طبقيا أو وظيفيا إلا أن عددا كبيرا منهم «يهود ألمانيا خاصة» كانوا من العاملين بالتجارة وشؤون المال بنسبة تفوق بمراحل نسبتهم إلى عدد السكان. بعد تصاعد عملية التحديث في المانيا، بعد حرب ١٨٧٠ خاصة، وبعد ضم الالزاس واللورين مع بدايات المشروع الاستعماري الألماني ازداد الممولون اليهود نشاطا، وازداد وجودهم وضوحا حتى ارتبط اليهود في الوجدان الشعبي بالمشروع الحر، وبالاستغلال الرأسمالي والمضاربات «على الرغم من وجود أعداد كبيرة من اليهود المتسولين والفقراء».

ج ـ ارتبطت عناصر يهودية أخرى بالحركات الثورية بحيث ارتبط اليهود في الوجدان البورجوازي في هذه الدول بالشيوعية والحركات الفوضوية

والثورية، وقد زادت هذه العناصر من تمييز اليهود وعـزلتهم عن كثير من الطبقات والقطاعات داخل المجتمع .

وقد ظل الجو وسط اوروبا مشحونا بالكراهية العنصرية ضد اليهود حتى الحرب العالمية الأولى حين تحولت النمسا إلى بلد صغير لا أهمية له، وتم تحطيم ألمانيا وإذلالهـا والقضاء عـلى مشروعهـا الاستعماري وتحـويلها هي ذاتهـا إلى شبـه مستعمرة.

وعندما عاودت ألمانيا التحديث تم ذلك تحت مظلة الدولة وتحت لواء فلسفة شمولية ترفض كلا من البلشفية والليبرالية، وتطرح رؤية عرقية عضوية صارمة تهمش أعضاء الطوائف المختلفة الذين لاينتمون انتماء عضويا كاملا للأغلبية، خصوصا اليهود الذين تركزوا في اليمين واليسار.

٣ـ شرق أوروبا أي روسيا وبولندا ورومانيا وهي الدول التي تعثر فيها التحديث، ثم توقف تماما تقريبا مع الحرب العالمية الأولى واستؤنف على النمط الاشتراكي وهي المنطقة التي تهمنا. ويمكننا الآن أن نترك التقسيم الجغرافي والتاريخي لننظـر للغرب ككل كوحدة اقتصادية وحضارية تتسم بشيء من التجانس «وهو كان كذلك إلى حد كبير حتى عهد النهضة» حتى يتسنى لنا فهم المسألة اليهودية في شرق أوروبا.

تعود جذور المسألة اليهودية إلى ارتباط الأقليات اليهودية «في اوروبا بالذات» بمهنة التجارة والربا، حتى صاروا يشكلون مجموعة اجتماعية حضارية لها دور اقتصادي محدد، وبتعبير آخر صاروا يشكلون مايشبه الأمة/ الـطبقة «اصـطلاح ابراهام ليون الذي استفدنا من دراسته في هذا الجزء من الدراسة»، وما نسميه نحن الجماعة الوسيطة. وقد كان اليهود في المجتمعات الغربية يكونون جماعة بشرية تعيش داخل المجتمعات الإقطاعية، وتضطلع بوظـائف التجارة والـربا وبعض الحرف التي تتطلب كفاءات خاصة وتأتي بعائد سـريع. وكـان اليهود يتوارثون الكفاءات الخاصة بهذه المهن والحرف ويعيشون في عزلة عن بقية أعضاء المجتمع «مثل كل الجماعات الوسيطة» خصوصا وأن المجتمع الإقطاعي مبنى على

الفصل الحاد بين الطبقات والجماعات. وقد كان الأرمن في المجتمع البولندي لهم الجيتو الخاص بهم، والقوانين والمحاكم المقصورة عليهم، كما كانوا يتحدثون لغتهم الأرمنية، وكان لهم كنيستهم الأرمنية الخاصة المختلفةعن الكنيسة الكاثوليكية التي كان يدين بها معظم البولنديين. أي أنهم كانوا كاليهود الذين كانوا يتحدثون اليديشية ولهم محاكمهم وقوانينهم وكنائسهم. وكان الأرمن يتنافسون مع اليهود إذ إن كليهما كان جماعة وسيطة يعمل في نفس المهنة وهي التجارة.

والتجارة التي يشتغل بها اليهود والأرمن كانت تجارة بدائية. فالتاجر اليهودي لايوظف أمواله في الانتاج كما كان يفعل تجار مدن العصور الوسطى الكبيرة، فقد كان لايشتري مواد اولية ولاينفق على صناعةالأقمشة جزءامن رأسماله، إذا إنه لم يكن سوى «وسيط» يوزع منتجات لايسيطر عليها ولايخلق ظروف انتاجها. وهكذا لم تكن التجارة اليهودية تنطوي على أسلوب انتاج معين تنتج فائض قيمة، وإنما كانت تعيش على فائض القيمة الذي ينتجه الفلاحون «على عكس التجارة المسيحية المحلية التي كانت تجارة تبادلية مرتبطة بالاقتصاد والانتاج ذاته». وحينما تحول الرأسمال اليهودي إلى الإقراض كان إقراضه ايضا استهلاكيا «على عكس الإقراض المصرفي الذي كان يساهم مباشرة في انتاج فائض القيمة لانـه يمول المشاريع التجارية والصناعية».ولقد لعب اليهود دور التاجر والمرابي والخمار ووكيل السيد الإقطاعي والوسيط في جميع الأمور («لقد عاش اليهود التجار والوسطاء في مسام المجتمع البولندي الزراعي»ماركسي). والمجتمع الإقطاعي المستند إلى انتاج القيم الاستعمالية لايتناقض مع «الراسمالية» بشكلها التجاري الربوي البدائي. ولذلك لم يكن هناك وجود لاي مسألة يهودية في المجتمعات الإقطاعية، فالتاجر والمرابي اليهوديان كانا يقومان بدور حيوي مهم إذ كان التاجر يورد للمجتمع الاقطاعي السلع الكمالية التي يحتاج إليها ويصدر الفائض الانتاجي، بينما كان المرابي يقرض الأمير الإقطاعي، وكذلك الفلاح لشراء السلع الكمالية.

وقد بدأت المسألة اليهودية في الظهور في أوروبا ابتداء من القرن الثاني عشر ببداية ظهور رأسماليات محلية. وقد حسم التناقض بين التجار اليهود والتجار المسيحيين بطرد اليهود الى شرق أوروبا او باندماجهم في مجتمعاتهم، أي أن اليهود كانوا يحلون مشاكلهم بالتقهقر إلى الماضي، والماضي كان يقع في شرق أوروبا.

وقد بدأ اليهود دورة جديدة في مجتمعات شرق أوروبا وخصوصا بولندا حيث لعبوا دور التاجر والمرابي مرة اخرى «كان ٨٦٪ من اليهود يعملون في التجارة عام ١٨١٨»، واستمر وضعهم يزدهر حتى القرن الثامن عشر. . ومايجدر ذكره أن اليهود رغم ثرائهم ورغم تملكهم كميات وافرة من المال لم يصلوا قط إلى مصاف الطبقة المسيطرة لأنهم لم يكونوا مرتبطين بالعملية الانتاجية، بل ظلوا يلعبون دور التابع للطبقة الإقطاعية «على عكس التاجر المسيحي الذي كان يرتبط نشاطه بحرف وصناعات مستقلة عن الاقتصاد الإقطاعي».

ولكن بانتقال مجتمعات شرق أوروبا بدورها من الإقطاع إلى الرأسمالية بدأ اليهود يواجهون مشكلة التأقلم مع الاقتصاد الجديد. فقد بدأت مراكز التجارة الإقطاعية تضمحل وحلت محلها مدن صناعية وتجارية جديدة مما ضيق على التجار اليهود، وأدى الى تدفق المهاجرين من بولندا الى روسيا إلى مناطق لها قدرة على استيعابهم داخل روسيا، ثم إلى غرب أوروبا وأخيرا إلى الولايات المتحدة. ومن ثم بدات تطرح قضية «هامشية اليهود وانتاجيتهم» «وهي موضوعة أساسية في الفكر الصهيوني» وكذلك قضية التركيب الاجتماعي لليهود «والتي تشير اليها على انها تحديث اليهود» فبذلت محاولات شتى لتحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج كعمال مصانع. وخصصت الجوائز للحرفيين ولأصحاب العمل الذين يشغّلون الصناع اليهود، وأرسل ألوف من اليهود لاستصلاح الأراضي في بعض المناطق الروسية، وحاولت الحكومة إدخال التعليم العلماني بين اليهود ليكتسبوا خبرات تؤهلهم للتعامل مع البنيان الاقتصادي الجديد. واستمرت هذه المحاولات التي ساهم فيها اثرياء اليهود في الغرب حتى عام ١٨٨٠ تقريبا،

ولذلك نلاحظ أن الهجرة اليهودية حتى ذلك الوقت كانت هجرة داخلية من المراكز الإقطاعية إلى المراكز الصناعية.

ومما ساعد على تخفيف حدة الانتقال إلى النمط الرأسمالي في الانتاج «في رحلة ماقبل ١٨٨٠» أن النمط الرأسمالي في مراحله الأولى كان يتسم بأشكال بدائية، مما أتاح لعدد من اليهود أن يجدوا مجالا رحبا للعمل في التجارة في المدن الصناعية الجديدة وفي الحرف. وقد ظهرت حركة التنوير اليهودية كتعبير عن محاولة اليهود واليهودية دخول العصر الحديث.

غير أن النمو الراسمالي لم يتوقف عند هذه المرحلة، بل اتسعت رقعة الصناعة لتشمل الصناعة الخفيفة أيضا، فكان ذلك بمثابة ضربات دمرت الاقتصاد الإقطاعي ودمرت معه الفروع الرأسمالية الحرفية، حيث كان اليهود يتركزون بنسبة مرتفعة. وهكذا تشابكت عملية تحويل التاجر اليهودي فيما قبل الرأسمالية الى عامل حرفي، أو تاجر رأسمالي مع عملية أخرى وهي القضاء على عملية اليهودي الحرفي.ولم يتمكن الحرفي اليهودي من التحول إلى بروليتاري بسبب منافسة الفلاحين الروس المقتلعين من مزارعهم ذات المستوى المعيشي المنخفض.

ومما زاد الأمر تشابكا وتعقيدا أن الحرفي اليهودي كان يعمل فيما يمكن تسميته الحرف اليهودية التي ولدت في الظروف الخاصة بالمدينة اليهودية والجيتو. فالحرفي اليهودي لم يكن يعمل من أجل الفلاحين المنتجين بل من أجل التجار والصيارفة. ولذلك نجد أن انتاج السلع الاستهلاكية هو الشاغل الرئيس للحرفي اليهودي، لكون زبائنه يتألفون من رجال متخصصين بتجارة الأموال والبضائع أي غير منتجين أساسا. أما الحرفي غير اليهودي فإن ارتباطه بالاقتصاد الزراعي جعله لاينتج سلعا استهلاكية، لأن الفلاح كان لايكفي نفسه بنفسه. وهكذا إلى جانب الفلاح كان يوجد الحرفي غير اليهودي «الحداد»، وإلى جانب رجل المال اليهودي كان يوجد الحرفي اليهودي «الخياط». وقد ساعد على تطوير الحرفي غير اليهودي ارتباطه بالتاجر المسيحي الذي كان يوظف أمواله في حرف متخصصة غير مرتبطة

بالنظام الإقطاعي مثل نسيج الأصواف، وهي حرف كان الغرض منها الانتاج للتصدير وليس للاستهلاك المباشر، أي أنها حرف كانت تقع خارج نطاق النظام الإقطاعي، وتمثل نواة الاقتصاد الجديد وبالتالي لم تسقط مع الاقتصاد القديم.وقد انعكس هذا الوضع على الطبقة العاملة اليهودية فالحرف الأقل قابلية للتطور الصناعي كانت محصورة في أيدي الحرفيين اليهود، على حين انحصرت المهن الأكثر قابلية لهذا التطور في أيدي الحرفيين غير اليهود، فمثلا نجد ان ٩٩٪ من صانعي الأقفال كانوا من غير اليهود، بينما كان ٩٤٪ من الخياطين من اليهود. ويلاحظ أن أول الكادرات العمالية التي وجدت في صناعات التعدين والنسيج قد تشكلت بصورة مطلقة من غير اليهود.

وثمة عناصر أخرى زادت من المسألة اليهودية في أوروبا الشرقية من أهمها أن الغالبية العظمى ليهود أوروبا «ويهود العالم» كانت موجودة في بولندا «واوكرانيا التي كانت تتبعها». وقد تم تقسيم بولندا عدة مرات، وتم تقسيم اعضاء الجماعة اليهودية فيها بين عدة دول، لكل دولة لغتها وسياستها وتوجهها الحضاري. فضمت روسيا الجزء الأكبر من الجماعة اليهودية وحاولت ترويس اليهود «أي صبغهم بالصبغة الروسية»، وضمت ألمانيا جزءا آخر واعتبرت اليهود مواطنين ألمانا لتحدثهم اليديشية «وهي رطانة ألمانية» حتى تضرب بهم السكان السلاف. وضمت الامبراطورية المجرية/ النمساوية جاليشيا وحاولت ان تفرض عليها الولاء والانتماء لها. أما بولندا فكانت تطالب من تبقى من اليهود فيها ان يصبغوا انفسهم بصبغة بولندية. وكانت هذه التقسيمات تتم بسرعة وتتضمن تحولات حضارية جوهرية وعميقة دون أن تكون هناك الفسحة الزمنية اللازمة لانجاز التحول المطلوب، وقد تسبب ذلك في إخفاق كثير من اليهودفي تحديث أنفسهم، كما هو مطلوب منهم، وكما حدث بين بني ملتهم في الغرب.

وكان يهود بولندا يلعبون دورا تجاريا محددا ونشطا في بولندا بسبب إحجام الارستقراطية البولندية عن العمل في التجارة، وكان النبيل الإقطاعي يفقد منزلته الطبقية إن عمل في التجارة، مما ترك المجال مفتوحا أمام اليهود. وحينما ضمت

أعداد كبيرة منهم إلى روسيا وجدوا انفسهم داخل تشكيل حضاري جديد توجد داخله طبقات تجارية كبيرة ونشطة خصوصا وان النبلاء الروس لم يكن محرما عليهم الاشتغال في التجارة. وقد شهدت الصناعة والتجارة الروسية حركة انتعاش عام ١٨٠٧ بعد ان فرض نابليون على روسيا أن تقاطع انجلترا تجاريا. وكانت روسيا في واقع الأمر مستعمرة لانجلترا من الناحية التجارية. وقد أدى نهوض الحركة التجارية في روسيا إلى تآكل نشاط التجار اليهود.

وقد وجدت هذه الكتلة البشرية اليهودية الهائلة نفسها، بعد تقسيم بولندا، تحت سيطرة البيروقراطية الروسية التي لم يكن لديها أي معرفة أو خبرة بهم أو بمشاكلهم نظرا لأنه كان محظورا على اليهود السكنى في روسيا حتى بداية القرن التاسع عشر، وكانت هذه البيروقراطية تتصور عملية التحديث تصورا ساذجا على أنه محاولة لنشر الأفكار المتحررة من فوق ومنح الرعايا الحقوق. ولم تكن عملية التحديث تتم من خلال اقناع الجماهير وإنما من خلال سياسة العصا الغليظة، كما أن عملية الدمج والتحديث لم تكن تصدر عن احترام لثقافة الأقليات، وإنما كانت تفترض أن عليهم اللحاق بركب الحضارة الأم.

وقد بدأت عملية التحديث في روسيا وشرق أوروبا مرحلة متأخرة للغاية. فاقتصادها حتى بعد منتصف القرن التاسع عشر كان أساسا اقتصاد «العالم الثالث». ولم يكن لبولندا أو رومانيا مشروعات استعمارية مستقلة، بل كانت هي ذاتها بلاد مستعمرة «من قبل روسيا وتركيا». أما روسيا فقد كان لها مشروعها الاستعماري الجديد في آسيا «على حدودها مع تركيا في منطقة البحر الأسود، وعلى حدودها مع بولندا واوكرانيا وغيرها، وعلى حدودها مع الصين واليابان». ولكن هذا المشروع بدأ متأخرا ولم يكن قد بدأ يأتي أكله بعد نظرا لحداثته، ونظرا لعدم كفاءة البيروقراطية الروسية وعدم وجود الرأسمال الروسي الكافي لاستغلالها. ولهذا لم يساهم المشروع الاستعماري الروسي في حل المشاكل الداخلية بل لعله زادها تفاقما. كما أن المثل الليبرالية لم تسد في المجال الاقتصادي أو السياسي، فحجم الدولة الروسية كان ضخما للغاية «وهذه هي إحدى سمات

التشكيل الحضاري متعدد القوميات مترامي الأطراف»، إذ تلعب الدولة فيه دائما دورا مركزيا في عمليات النهضة كما أنها تشكل عنصر التوحيد الأساسي. كما أن البورجوازية الروسية كانت ضعيفة هزيلة إلى اقصى حد، ولذا قادت الحكومة والارستقراطية الروسية الملتصقة بالكنيسة عملية التحديث. وقد سادت مثل قومية عضوية منغلقة تجعل الانتماء مسالة انتماء ثقافي عضوي، ثم مسالة انتماء عرقي أو ديني مسيحي ارثوذكسي «الجامعة السلافية». وبالتالي نشات صعوبات كثيرة أمام أعضاء الأقليات غير السلافية- بما في ذلك اليهود - أثناء عمليات التحديث والدمج القومي بما يتضمنه ذلك من منح الحقوق وفرض الواجبات وتحديد الولاء.

وكان يمكن أن تخف حدة المشكلة عن طريق الهجرة من روسيا وبولندا إلى الولايات المتحدة، وبالفعل راحت جماهير اليهود غير القادرة على التأقلم تهاجر بالمئات، ثم بالآلاف، ثم بمئات الالاف حتى بلغ عدد من هاجر خارج روسيا أكثر من اربعة ملايين. ولكن لم ينتج عن هذه الهجرة أي تخفيف من حدة الموقف إذ إن نسبة تزايد اليهود كانت مرتفعة للغاية شأنها في هذا شأن كل سكان أوروبا بعد الثورة الصناعية، بل إن نسبة التزايد بين اليهود كانت تفوق النسبة العامة في بعض الأحيان، ولذا ـ على الرغم من ضخامة عدد من هاجر- فإن عدد اليهود في روسيا وبولندا لم ينقص بل زاد. وبلغت الزيادة سبع عشرة مرة في الفترة من عام ١٨٠٠ حتى عام ١٩٣٥ (من المفروض أن عدد سكان كيشينيف كان قد زاد من عشرة آلاف إلى ثمانية عشر الفا في خلال عشرين عاما قبل وقوع الحادثة الشهيرة في الكتابات الصهيونية).

وقد ادت هجرة يهود شرق أوروبا إلى وسط أوروبا ثم إلى غربها إلى نقل المسألة اليهودية إلى هناك، وذلك على الرغم من أن الاقليات اليهودية في مجتمعات هذه البلاد كانت مندمجة، ولايمكن فهم سلوك هرتزل الزعيم الصهيوني النمساوي ودعوته الى الصهيونية برغم عدم معرفته بالتراث اليهودي، وبرغم اندماجه إلا حينما نعرف أنه كيهودي نمساوي كان مهددا بفقدان موقعه الطبقي / الحضاري

بسبب وفود آلاف اليهود المتخلفين حضاريا، وغير القادرين على التعـامل مـع المجتمع الراسمالي الصناعي الجديد في شرق أوروبا «وكان عدد اليهود في فينا لايزيد عن بضع مئات في أواخر القرن الثامن عشر، ثم قفز عددهم إلى حوالي ١٧٦ الفا مع بداية القرن العشرين» والوضع نفسه ينطبق على يهود انجلترا مما يفسر اهتمام بعض القطاعات اليهودية والتي تم ادماجها بالمسألة اليهودية التي كانت تعني بالنسبة لهم مسألة الهجرة الشرق/ اوروبية الى بلادهم، والتي كانت تهدد مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية. ومما اضعف من فرص الاندماج الاقتصادي أمام اليهود في شرق اوروبا تخلفهم الحضاري وانعزالهم داخل الجيتو، مما جعلهم فريسة التيارات الحضارية المتخلفة التي كانت تمثلها اليهودية الارثوذكسية والحسيدية «وقد كانت الغالبية من يهود شرق أوروبا إما ارثوذكس أو من الحسيديين».



الفصل الثاني

الفكرة الصهيونية والاستعمار الغربي

كانت التحولات الاجتماعية التي يخوضها المجتمع الأوروبي منذ عصر النهضة هي المسؤولة ـ إذاً ـ عن ظهور المسألة اليهودية. وفي مجابهة هذه التحولات طرحت عدة بدائل لحل المسألة اليهودية، كان أولها هو الاندماج وإعادة صياغة اليهودية بشكل جوهري يجعلها تتلاءم مع العصر الحديث، وهو الحل الذي يستند إلى فكر حركة التنوير اليهودية، والذي عرضنا لبعض ملامحه الأساسية في الفصل الأول من هذه الدراسة.

قومية الدياسبورا (الشتات):

ولكن الحل الاندماجي لم يكن هو الحل الوحيد غير الصهيوني، بل كانت هناك حلول أخرى، لعل أهمها ما يسمى قومية الدياسبورا أو الشتات، وصاحب هذا الحل هو المؤرخ الروسي سيمون دوفنوف (١٨٦٠ ـ ١٩٤١) الذي قسم النماذج القومية إلى ثلاثة أقسام (١): النموذج القبلي واللصيق بالطبيعة والأرض، والنموذج الاقليمي السياسي، وهو أقل ارتباطا بالأرض وأكثر ارتباطا بالدولة، والنموذج الروحي، وهو النموذج المستقل عن الطبيعة، لأن وجوده يستند ـ أساسا ـ إلى الوعي بالذات التاريخية. ويرى دوفنوف أن اليهود ينتمون لهذا النموذج الثالث الروحي؛ فهم قد فقدوا الدولة في بداية الأمر ثم فقدوا الأرض، ومع هذا استمر وجودهم في المنفى. وهو يرى أن على اليهود تطوير هذه الخاصية، فليس هناك ما يدعو إلى انشاء دولة يهودية مستقلة، أو العودة إلى أرض الميعاد أو إلى إحياء اللغة العبرية.

وقد حاول دوفنوف طرح رؤية تاريخية للوجود اليهودي في أوروبا، دون الانزلاق في تجريدية حركة التنوير وتبسيطاتها، فبالرغم من تقبله الوجود اليهودي في (المنفى) فإنه أكد أيضا على أهمية التراث اليهودي وطالب بتطويره. وحل

دفنوف المسألة اليهودية مبني على افتراض وجود «وحدة» بين الأقليات اليهودية المتناثرة في العالم، لكنها وحدة لا توجب التنوع ؛ لأن الحضارات اليهودية تختلف باختلاف الظروف التاريخية (والجغرافية) التي تنشأ فيها. وهو لهذا يرى أن مركز هذه الحضارة أوالحضارات كان، وسيظل، متغيراً ينتقل من بلد لآخر، فهو آونة في بابل وأخرى في الاندلس وثالثة في روسيا. والبلد الذي تزدهر فيه الحضارة اليهودية أكثر من البلدان الأخرى تنتقل إليه القيادة الفكرية. ويمكننا القول إن دوفنوف حين يشير إلى «قومية الشتات» إنما يتحدث في واقع الأمر عن الأقليات اليهودية في المنفى أقليات لها بعض السمات المشتركة التي تميزها، ولكنها أقليات على الرغم من ذلك.

ويمكننا ، في مجال المقارنة بين دوفنوف والصهاينة، أن نشير إلى بعض نقاط التماثل بينهما فكل من الصهاينة ودوفنـوف يفترض «تميـز» اليهود، إن لم يكن تفوقهم أيضا، وأن لهم وضعاً شاذاً وفريداً بين الأمم والأقليات المختلفة، وأن لهم «تاريخاً يهوديا» مستقلا، وأن الجيتو، أو منطقة الاستيطان، هي الحقبة الأساسية في حياتهم، كما يتفقون على ضرورة «إعادة توطين» اليهود خارج روسيا.

ومع هذا يختلف دوفنوف في كثير من الوجوه عن التصورات الصهيونية، فبينما ينبع تصوره من تحليل وتقبل للمعطيات التاريخية ينطلق الصهاينة من مجموعة من أساطير وتصورات لا وجود لها إلا في مخيلتهم. وبينما يفكر الصهاينة في بداية الأيام (حين كان اليهود رعاة غزاة محاربين)، أو نهايتها (حين يعود اليهود إلى أرض الميعاد لبناء المدينة الفاضلة) لا يفكر دوفنوف إلا في حاضره التاريخي المحسوس، النقطة التي يلتقي فيها الماضي بالمستقبل، ولا يرى في تاريخ يهود الشتات انحرافاً عن مسار التاريخ اليهودي. وبينما يؤمن دوفنوف بوحدة حضارية لا تلغي التنوع، يؤمن الصهاينة، إيماناً أعمى ضيقاً، بأنه لا حضارة يهودية حقيقية في المنفى، لأن ثمة رابطة صوفية بـين الشعب والأرض تجعل الشعب قـادراً على الانجـازات الحضارية في أرض الميعاد وحدها، وتجعل الأرض بدورها خصبة مثمرة حينما تطؤها الأقدام اليهودية. ودوفنوف برغم استخدامـه مصطلحـا لا يختلف، في

بعض الوجوه، عن المصطلح الصهيوني العلماني/ الصوفي، وبرغم إيمانه ببعض المفاهيم اليهودية التي ورثها الصهاينة فهو يفكر تفكيراً إنسانياً لم تنقطع صلته بالواقع أو بالحدود التاريخية.

وقد طرحت الصهيونية نفسها بوصفها حلاً شاملاً وثورياً للمسألة اليهودية أينما وجدت، ولكن الحل الصهيوني جوبه بمعارضة قوية وضاربة من قبل الجماعات اليهودية في أوروبا (وهي الجماعات التي طرح عليها الحل الصهيوني حلاً لمشاكلها، وسنتحدث في فصل لاحق عن المقاومة اليهودية للصهيونية). ولو نظرنا إلى تاريخ الأقليات اليهودية، وإلى سلوكها الفعلي، لا إلى أوهامها عن نفسها، لوجدنا أنه على الرغم من عدم وجود حركات يهودية منظمة في العالم تطالب بتطبيق نظريات دوفنوف، فإن الصيغة الدوفنوفية قد فرضت نفسها فرضا على الوجود والسلوك اليهودي. ففي الدول الاشتراكية أنشئت مقاطعة متسعة لليهود داخل اطار اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، تدعى مقاطعة بيرو بيدجان. وكان هذا تطبيقاً عملياً لفكرة قومية الشتات (وإن كان لا بد من أن نتذكر أن يهود الاتحاد السوفييتي لا يشكلون أغلبية سكان هذه الجمهورية التي تقع في منطقة زراعية، فاليهود سكان مدن أساسا). وواقع حياة اليهودي في الغرب قد حقق -عملياً- الصيغة الدوفنوفية. فمن الناحية الحضارية لا يزال اليهود في الولايات المتحدة أو فرنسا أو انجلترا مستمرين في خلق تراثهم الحضاري الموسوم بميسمهم الخاص، وان كان ينتمي إلى البلاد التي يعيشون فيها، ومكتوباً بلغتها. وهذه الحضارات اليهودية المختلفة لها ديناميتها المستقلة عن إسرائيل. كما أن الهجرة اليهودية لاتزال متجهة بالدرجة الأولى إلى الولايات المتحدة.

لكل هذا يمكن القول إن «الواقع اليهودي» في أيامنا يثبت، بما لا يقبل الشك، أن التصورات الصهيونية عن هذا الواقع، في الماضي وفي الحاضر، تصورات طوباوية خيالية. وبينما كان دوفنوف يدرس الواقع التاريخي المحسوس، ويطرح حلولا جذرية خلص إليها من ملاحظاته، كان الصهاينة منشغلين أي انشغال برؤى الأنبياء في العهد القديم، وبالأساطير اليهودية القديمة.

ولكن على الرغم من كل هذا نجحت الصهيونية في أن تستولي على قيادة اليهود في العالم بأسره، وأن تسيطر عليهم، وأن تتحول من مجرد ايديولوجية مثالية (بل فاشية) لبعض الجماعات والفئات اليهودية في شرق أوروبا إلى منظمة عالمية يدين لها معظم يهود العالم بالولاء، بل نجحت في انشاء دولة في الشرق الأوسط.

الاستعمار الغربي :

ولا يمكن فهم هذه الظاهرة بالعودة للايقاعات الوهمية لتاريخ اليهود الوهمي، ولكن بالعودة إلى الديناميات الحقيقية لتاريخ أوروبا، وخصوصا في القرن التاسع عشر. وإذا كانت المسألة اليهودية جزءاً لا يتجزأ من التحولات الاجتماعية التي كانت تخوضها أوروبا مع بداية عصر النهضة، فالحل الصهيوني المقترح للمسألة اليهودية جزء لا يتجزأ من العملية الاستعمارية الغربية التي غطت العالم بأسره، وهي العملية التي أدت إلى تفريغ قارتين من سكانها (الأمريكتين)، واستعباد سكان قارة أخرى (افريقيا)، وتحويل قارة رابعة إلى مصادر للمواد الخام وأسواق لبضائع أوروبا الكاسدة (آسيا)، والتي نقلت الملايين من أوروبا إلى كل أنحاء العالم.

ويميز المؤرخون (٢) ـ عادة ـ بين نوعين من أنواع الاستعمار: استعمار المرحلة الأولى المرتبطة بالرأسمالية المركانتيلية (التجارية). ويتميز الاستعمار في هذه المرحلة بأن مسرحه كان نصف الكرة الغربي والجزر الاستوائية، وكان الهدف منه زيادة قوة الدولة كلها، وزيادة ثروتها، والحصول على مواد خام ترفية مثل الذهب والفضة والمنتجات الاستوائية، وتحويل أكبر قدر ممكن من التجارة الدولية إلى أيدي التجار الأوروبيين. ولذا كانت الدولة تقيم في المستعمرات مراكز تجارية وتحصينات عسكرية. وفي هذه المرحلة لم يكن الاستيطان أحد الأهداف الأساسية، ولكن كان المجرمون ينفون إلى المستعمرات، كما كانت الأقليات الدينية تهاجر إليها، لأنها كانت تجد فيها متنفسا، أي أن المستعمرات كانت بمثابة إحدى ميكانزمات الضبط الاجتماعي.

أما بعد عام ١٨٧٠ فإن مسرح الاستعمار كان آسيا وافريقيا. والهدف من

الاستعمار في هذه المرحلة الثانية، المرتبطة بالرأسمالية الصناعية المصرفية، لم يكن زيادة قوة الدولة، بل خدمة بعض طبقات المجتمع وفئاته عن طريق تزويدهم بالأسواق لبضائعهم، وبفرض الاستثمار لرأسمالهم الفائض. وكان البحث يتم عن المواد الخام الهامة للصناعة، كالحديد والنحاس والبترول والمنجنيز والقمح. كما كان أحد الأهداف الأساسية لامبريالية المرحلة الثانية هو الحصول على مستعمرات لتستوعب الفائض السكاني للوطن الأم، ولتكون بعدا استراتيجيا له في الوقت ذاته. كما أن الدول الاستعمارية في هذه المرحلة لجأت إلى سياسة الحماية الجمركية، وأنهت حرية التجارة، وضربت ستاراً حديدياً على كل الأسواق التي كانت تضمها.

ويرى الدكتور جمال حمدان أن استعمار المرحلة الأولى، الذي اتجه ـ اساسا ـ إلى العروض المعتدلة، هو في الواقع الاستعمار السكاني، أما استعمار المرحلة الثانية فهو الاستعمار الاستغلالي(٣). وليس هنا مجال تأييد جانب على الآخر، إذ يمكننا القول إن الاستطيان ظاهرة وجدت في المرحلتين معا بدرجات متفاوتة، وأنه في المرحلة الثانية ـ حتى لو لم يكن الاستيطان هو أحد الأهداف الأساسية ـ تمت عمليات استيطانية فعلا، خصوصا أن الانفجار السكاني في أوروبا جعل من الاستيطان في آسيا وأفريقيا ضرورة ملحة.

ويميز استعمار المرحلة الأولى من مرحلة ما بعد ١٨٧٠ أن استعمار المرحلة الأولى ـ على الرغم من أن جيوش أوروبا وتجارها كانوا يذرعون العالم جيئة وذهاباً ـ لم يتسبب في تغيير النظم الاجتماعية في البلاد المستعمرة بشكل حاد. بل تركها تحتفظ ببنيتها التقليدية. ولعل هذا هو الذي عجل بالمرحلة الثانية للامبريالية، لأن هذه المجتمعات التقليدية (الساكنة)، ذات الاحتياجات المحددة، لم تكن تشكل سوقاً جيدة للسلع التي بدأت الدول الصناعية المتقدمة في إنتاجها على نطاق واسع، كما أنها لم تكن مجتمعات مرنة بما فيه الكفاية «لتواكب التطور» الذي يجعلها قادرة على استيعاب بضائع الغرب واستهلاكها، أو على إنتاج الغلات الزراعية أو المعادن التي تحتاجها الدول المتقدمة. أما المرحلة الثانية

من الاستعمار فقد غيرت البنية الاجتماعية لكل مجتمعات العالم كي تصبح جزءاً «تابعاً» للحلقة الصناعية الرأسمالية الامبريالية . فيلاحظ - مثلاً - تغيير نظام الملكية الزراعية إلى نظام الملكية الخاصة في مجتمعات لم تكن تعرف مثل هذه الملكية، وإن عرفتها فبشكل مغاير. لقد اغتصبت الأراضي كي يستخدمها الملاك البيض، ونشأت طبقة من العمال المأجورين ليعملوا في الزراعة التجارية والتعدين. وعادة يحل استخدام النقود محل المقايضة، بفرض ايجارات على الأراضي الزراعية، وتحصيل الضرائب نقداً، والقضاء على الصناعات المنزلية. وإذا كان المجتمع المستعمر يمتلك صناعة متقدمة نوعاً ما فانه يتم القضاء عليها.

ويجب التنبيه إلى أن هذين النوعين من الاستعمار مرتبطان بانقلابين انتاجيين مختلفين، فالانقلاب التجاري أدى إلى كشف عالم جديد ارتادته سفن أوروبا، وحاولت السيطرة عليه وعلى بحاره وموانيه قدر استطاعتها، بينما أدى الانقلاب الصناعي إلى خلق عالم جديد هو عالم الآلة التي يسيطر الإنسان عن طريقها على الطبيعة، وإلى خلق اقتصاد مفتوح الشهية - على حد تعبير الدكتور جمال حمدان - . كما أن الانقلاب الصناعي بما أتى به من علوم وفنون وطب ووسائل صحية ومخترعات تدفئة وصناعة وتكييف، خلق الظروف البيئية المعقولة والملائمة للسكنى والتوطين في جبهات الريادة المختلفة(٤).

ويرى بعض الكتاب (مثل جالا جارو ربنسون)(٥) أنه لم يكن هناك انقطاع بين المرحلتين، مرحلة الكولونيالية المركانتيلية (أو استعمار الرأسمالية التجارية)، ومرحلة امبريالية الرأسمالية الصناعية المصرفية، لكنهم يرون أن ثمة مرحلة ثالثة تقع بين المرحلتين زاد فيها النشاط التجاري الأوروبي والهيمنة الأوروبية من خلال استخدام النفوذ والوسائل الدبلوماسية. ويطلقون على هذه المرحلة الوسطى اصطلاح «استعمار حرية التجارة». وقد كان تبني هذا الاسلوب الأخير ممكناً في الامريكتين، وفي الامبراطورية العثمانية، وفي شمال افريقيا والصين، إلا أنه لم يحقق الغرض المطلوب منه في آسيا وافريقيا بعد عام ١٨٧٠ بسبب الآثار السياسية والتجارية الهدامة التي تركتها السياسات الأوروبية على الحكومات الآسيوية

والأفريقية التي أدت إلى سقوطها أو إفلاسها (كما هو الحال في مصر)، الأمر الذي أدى ـبدورهـ إلى تدخل الحكومات الأوروبية لتضمن استمرار تدفق البضائع إلى هذه الدول واستمرار تدفق المواد الخام منها، وعجل بالتوسع الامبريالي (بعد ١٨٧٠).

هذه الانطلاقة الامبريالية ، وحاجة دول أوروبا للأسواق، أفادتنا الصهيونية أيما فائدة، خصوصاً أن الدول الأوروبية كانت قد بدأت تتنافس بحدة فيما بينها لاحتكار الأسواق. وقد كانت مصر وفلسطين ـوهما يكونان وحدة جغرافية وتاريخية واحدةـ هما المدخل لهذا المسرح الجديد. وساعد على تركيز الانتباه عليها، وعلى العلم العربي كله، الانهيار التدريجي للامبراطورية العثمانية، وهي عملية طويلة انتهت مع بداية القرن العشرين. وقد تحولت هذه الامبراطورية إلى رجل أوروبا المريض الذي كان الجميع يترقبون موته ليستولوا على أملاكه أو ليسيطروا عليها، وكانت فلسطين ذات الأهمية الدينية والاستراتيجية تقع في قلب هذه الامبراطورية المتداعية.

الفكــر الاسترجاعي :

هذه هي الخلفية التاريخية التي جعلت الفرصة مواتية أمام الصهاينة، ولكن يمكن النظر أيضا إلى الخلفية الحضارية التي خلقت لهم مناخاً مناسباً ليتحركوا فيه. ويمكن القول بداية إنه إذا كانت الصهيونية مدينة للامبريالية بتحولها من مجرد فكرة إلى منظمة مهيمنة على اليهود في العالم، ثم إلى دولة ذات قوة عسكرية ضخمة، فإنها مدينة بوجودها ـحتى بوصفها مجرد فكرةـ للمناخ الحضاري وللأفكار الاسترجاعية التي سادت أوروبا منذ القرن السادس عشر. فقبل ظهور فكرة الشعب اليهودي بالمعنى السياسي وفكرة الدولة اليهودية ككيان سياسي يهدف إلى المسألة اليهودية ظهر ضرب من الصهيونية غير اليهودية (صهيونية الأغيار) أو «الصهيونية المسيحية». وهي حركة الاسترجاع المسيحية التي كانت تطلب بإعادة اليهود إلى «أرضهم الأم» حتى يتسنى الاسراع في هدايتهم وتحويلهم إلى المسيحية، فعودة اليهود وهدايتهم وتنصيرهم كانت تعد شرطاً أساسياً لحلول

العصر الألفي السعيد (ألف العام التي سيحكم فيها المسيح المخلص العالم، ويسود فيها السلام والطمأنينة). ولأن الأفكار الدينية لا توجد بمعزل عن التحولات الاجتماعية، فليس من الغريب أن الحركات الاسترجاعية في أوروبا، في الدول البروتستانتية خاصة، قد انتعشت في القرنين السادس عشر والسابع عشر، عصر التجارة والاكتشافات الجغرافية، وعصر الاستعمار المركانتلي، ثم وصلت إلى ذروتها في القرن التاسع عشر، هصر الامبريالية. وقد شاهد عصر الامبريالية تزايد الحمى الاسترجاعية (خصوصاً في انجلترا) بسبب ظهور المسألة الشرقية والمطامع الأوروبية في وراثة الامبراطورية العثمانية. وقد بدا ضعف هذه الامبراطورية، التي كانت تعالج سكرات الموت، كما لو كانت إحدى مقدمات أو علامات الأيوكاليبس - رؤى آخرة الأيام - وبدأ «رجال السياسة الأوروبيون ينظرون إلى فكرة عودة اليهود إلى صهيون على أنها وسيلة لطرد الأتراك من الشرق الأوسط». (٦) وعلى الرغم من أن دعاة الفكر الاسترجاعي كانوا لا يشكلون قوة سياسية إلاأنهم ساهموا في تحديد معالم التفكير والمصطلح السياسي لهذه الفترة، بين غير اليهود في بداية الأمر، ثم بين اليهود أنفسهم فيما بعد.

وبما أن الأسطورة الدينية تتكيف مع الواقعين الاقتصادي والتاريخي، فإننا نجد أنها تتحول من مجرد فكرة دينية تؤكد على عودة اليهود إلى فلسطين لتحقيق النبوءة الإنجيلية لتصبح برنامجاً استعمارياً يؤكد على عودة اليهود الاستيطانية لفتح الأسواق (دون تأكيد مسألة الهداية والتنصير). كان الاسترجاعيون ينظرون إلى اليهود على أنهم جماعة دينية يمكن تنصيرها، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا ينظرون إليهم على أنهم -أيضاً- مجرد جماعة يمكن توطينها في فلسطين، أو في غيرها من الأماكن لخدمة المصالح الاستعمارية. وكانت فلسطين هي الأرض المقدسة أو إرتس يسرائيل، ولكنها في الوقت ذاته أرض تقع في قلب الامبراطورية العثمانية شاءت الإرادة الالهية أن تقع على الطريق المؤدي إلى الهند، فالأسطورة إذاً كانت ترتدي زياً دينياً مثالياً، كما كان لها بعدها السياسي في الوقت ذاته. وقد فسر الصحفي والكاتب الصهيوني البولندي ناحوم سوكولوف (١٨٥٩ - ١٩٣١) في

كتاب تاريخ الصهيونية تعاطف بريطانيا وتفهمها للحركة الصهيونية على أساس بعض الأسباب النبيلة، مثل «الطابع الإنجيلي للشعب الإنجليزي»، وما سماه «الانجيل في الأدب الانجليزي»، علاوة على «الحب الذي يكنه الشعب الانجليزي لفلسطين» (بالمعنى الانجيلي أيضا). ثم أضاف سوكولوف سبباً رابعاً وأخيراً سماه «السياسة الانجليزية في الشرق الأدنى» (دون أي ذكر للانجيل هذه المرة)(٧). وعلى الرغم من أن سوكولوف اعترف بالأبعاد الاستعمارية لتعاطف بريطانيا مع الصهيونية إلا أنه لم يبرز الجانب السياسي، وشدد على الجانب الرومانسي في العودة فحسب. ولعل تداخل الأبعادالسياسية في الأبعاد الرومانسية الدينية يظهر في هذه الواقعة: عندما ذهب هرتزل إلى فلسطين عام ١٨٩٨ لاكتشاف إمكانات الاستيطان الصهيوني هناك، ولمقابلة الامبراطور ويلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا اعتقد البعض هناك أنه لم يكن سوى مبشر مسيحي بين اليهود يحاول تنصيرهم(٨)، لأنه يحاول توطينهم في فلسطين. ومثل هذا الخلط والتشابك بين الجوانب السياسية والدينية لايزال باقياً حتى يومنا هذا، إذ لا يزال الكثيرون (بما في ذلك بعض رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة) يتحدثون عن الاستيطان الصهيوني في فلسطين بعبارات دينية/ سياسية. وبعد حرب ١٩٦٧ اعتقدت بعض البعثات التبشيرية المسيحية في اسرائيل أن الانتصار الاسرائيلي دليل أكيد على اقتراب العصر الألفي السعيد الذي سيحكم فيه المسيح الأرض، ومن ثم زادوا من نشاطهم في الدولة الصهيونية.

وكانت استجابة اليهود للفكر الاسترجاعي (البروتستانتي) فاتراً لوقت طويل، فلم يرتفع صوت يهودي مرحباً بالفكرة أو مؤيداً لها، فظلت الدعوة إلى إنهاء وضع «النفي» مسعى غير يهودي بالدرجة الأولى (٩). ولكن مع انتصاف القرن التاسع عشر، ومع تفاقم المسألة اليهودية في شرق أوروبا، ومع انتشار الفكر الامبريالي، بدأ بعض المفكرين اليهود في الاستجابة بطريقة أكثر ايجابية للصيغ الصهيونية غير اليهودية.

ويرى الزعيم الصهيوني، البولندي الأصل، حاييم وايزمان (١٨٦٤ -

١٩٥٢) أول رئيس للدولة الصهيونيـة أن بعض كبار القـواد العسكريـين مثل يوليوس قيصر والاسكندر ونابليون قد أدركوا أهمية فلسطين بالنسبة لخططهم الشرقية، وأنهم لهذا السبب «كانوا موالين لليهود في سياستهم الخارجية بشكل ملحوظ»(١٠) (وليس من السهل أن نجد مؤرخاً يتجـاهل تعقيـدات التاريـخ وجدليته إلى هذه الدرجة). ثم وصف وايزمن نابليون بونابرت ـ أول أوروبي يغزو الشرق العربي في الأزمنة الحديثة ـ بأنه «أول الصهاينة العصريين من الأغيار»(١١) (وكان الأوفق أن يقول إنه من أول الصهاينة على الاطلاق، لأنه لم يكن هناك من أثر لأي فكر صهيوني بين اليهود في ذلك التاريخ). وفي النداء الذي وجهه نابليون إلى كل يهود آسيا وافريقيا في ٢٠ أبريل ١٧٩٩ حثهم على السـير وراء القيادة الفرنسية حتى تتسنى استعادة العظمة الأصلية «لبيت المقدس»، ووعد بأنه سيعيد اليهود إلى «الأرض المقدسة» إذا «ساعدوا قواته»(١٢). وعلى الرغم من لهجة نداء نابليون الرومانسية إلا أنه كشف عن مطامعـه الاستعماريـة ورغبته في أن يغلق الطريق المؤدي إلى الهند أمام بريطانيا، ويمكننا في الواقع اعتبار نـداء نابليـون الاسترجاعي أول «وعد بلفوري».

وفي عام ١٨٦٠ ـ في وقت كان فيه التدخل الفرنسي في سوريا آخذاً في الازدياد ـ بيّن ارنست لاهاران، سكرتير نابليون الثالث الخاص، في كتيب بعنوان المسألة الشرقية الجديدة، المكاسب الاقتصادية التي ستعود على أوروبا إذا استقر اليهود في فلسطين. وقد أشار لاهاران إلى أن الصناعة الأوروبية كانت تبحث دائما عن «أسواق جديدة لتكون منفذاً لمنتجاتها»، ولذا كان من الضروري عـودة الدولـة اليهودية القديمة للحياة. ولم تكن المسألة بالنسبة للاهاران أساسا مسألة «هداية» اليهود، وإنما «فتح طرق عامة وأخرى فرعية أمام الحضارة الأوروبية»، لذا فهو كان يرى أن أوروبا ستؤيد استيلاء اليهود على فلسطين من الأتراك(١٣). (ومما له دلالته ومغزاه أن آراء لاهاران هذه قـد سبقت نشر كتـاب موسى هس «روما والقدس» الذي تضمن مقتطفات طويلة من بحث لاهاران). (١٤).

وكانت انجلترا (البروتستانتية) أكبر قوة استعمارية، خصوصا في القرنين

الثامن عشر والتاسع عشر، مرتعاً خصباً للأفكار الاسترجاعية. ولعل من أهم الصهاينة غير اليهود في بريطانيا الكولونيل جورج جاولر (١٩٧٦ - ١٨٦٩) الذي كان يعمل في وقت ما حاكما لجنوب استراليا، والذي ظل فترة طويلة ينادي باعادة استيطان اليهود في فلسطين لحماية خطوط الاتصال بين أنحاء الامبراطورية المختلفة. وكان الاسترجاعيون (شأنهم في هذا شأن الصهاينة فيما بعد) يقدمون وجهة نظرهم دائماً على أنها تستند إلى رؤية مقدسة للتاريخ. فجاولر كان يرى أن العناية الالهية ذاتها هي التي وضعت كلا من سوريا ومصر في الطريق بين انجلترا وبين «أهم المناطق الاستعمارية والتجارية الخارجية البريطانية». وفي رأيه أن نفوذ بريطانيا، التي كانت تقوم بادخال المدنية في العالم بأسره، قد امتد حتى مصر، وأنه قد حان الوقت ليمتد نفوذها إلى سوريا أيضا (يعني فلسطين أساسا) لتستعيد الأخيرة شبابها عن طريق استيطان «أطفال الأرض الحقيقيين» أبناء اسرائيل»(١٥). ويستطيع المرء أن يكتشف من خلال تلك الحجج السياسية/ الدينية ملامح المصير المتشابك للامبريالية الغربية والاستعمار الصهيوني.

وقبل ظهور الصهيونية بين اليهود بفترة طويلة قرر أحد الصهاينة غير اليهود، اللورد بالمرستون، (١٧٨٤ - ١٨٦٥) حينما كان يشغل منصب وزير خارجية بريطانيا،أن يستخدم اليهود مخلب قط لقمع العرب. فقد أعلن، في رسالة بعث بها إلى السفير البريطاني في استنبول - عاصمة الامبراطورية العثمانية - بتاريخ ١١ أغسطس ١٨٤٠، أنه «إذا عاد أفراد الشعب اليهودي إلى فلسطين» تحت حماية السلطان العثماني وبناء على دعوة منه (والسلطنة العثمانية كانت حينذاك هي القوة الخارجية المهيمنة على العالم العربي) فانهم سيقومون بكبح جماح أي مخططات شريرة قد يدبرها محمد علي أو من سيخلفه في المستقبل(١٦). إن وصول محمد علي إلى السلطة جعل مصر محط اهتمام أوروبا، ومن ثمة صعّد من حدة الأطماع الاسترجاعية. ويجب أن نلاحظ هنا أن محمد علي - على الرغم من أنه لم يكن هو نفسه عربياً - إلا أنه كان أول زعيم يقود عملية التحديث في العالم العربي، ولذا فقد كان يشكل تهديدا بالنسبة لانجلترا وغيرها من القوى الاستعمارية

الأخرى لأنه كان تعبيرا مبكراً عن القوة القومية الناشئة في المنطقة العربية.

ومن أهم الصهاينة غير اليهود ويليام هـ. هكلر (١٨٤٥ ـ ١٩٣١) الذي ولد في جنوب افريقيا وكان يعمل رجل دين في السفارة البريطانية في فيينا، وهناك التقى بهرتزل ونشأت بينهما صداقة حميمة. وقد قام هكلر بتقديم الزعيم الصهيوني لعدة شخصيات سياسية هامة في اوروبا، مثل الدوق بادن الذي قدمه بدوره لقيصر ألمانيا. وكان هكلر غارقاً حتى أذنيه في الحسابات (القبالية) الخاصة بنهاية العالم وبتحقيق الأمل المنشود في تنصير اليهود، ولكن ـ كما هو متوقع ـ لم تكن انشغالاته الصوفية خالية من المضمون السياسي الاستعماري. ويظهر امتزاج الاعتبارات الدينية والسياسية في مؤتمر عقد عام ١٨٨٢، وحضره هكلر، ناقش موضوع استيطان المهاجرين اليهود من رومانيا وروسيا. ولكن بعد عامين، عندما كتب هكلر كتيباً عن المشكلة الاقتصادية/ الاجتماعية نفسها، استخدم عبارات من الانجيل، وتحدث عن ضرورة «عودة اليهود إلى فلسطين وفقا لتنبؤات أنبياء العهد القديم»(١٧). وقد كان تاريخ عقد المؤتمر وظهور الكتيب سابقين على تاريخ انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول ودعوة هرتزل إلى إنشاء دولة يهودية، تماماً مثلما سبقت كتابات لاهاران كتابات موسى هس الشبيهة، أي أن كل الأفكار والمصطلحات والحلول الصهيونية ظهرت في أدبيات المفكرين الاسترجاعيين قبيل ظهور الصهيونية بين اليهود.

وقد كانت حياة لورانس اوليفانت (١٨٢٩ ـ ١٨٨٨) وأفكاره، الذي ولد في جنوب افريقيا أيضا، مثلاً جيداً على هذا النمط من الصهاينة غير اليهود. فهو، مثل القس هكلر، ولد في جنوب افريقيا، كما أنه كان يتسم بقدر كبير من معاداة السامية. وباعتباره أحد المؤيدين لفكرة استيطان اليهود في فلسطين فقد تبادل الرسائل مع دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا. وقد تم إرسال أوليفانت في مهمة إلى فلسطين رافقه فيها أحد الموظفين الرسميين البريطانيين، وذلك لاجراء دراسة عملية تتعلق بفكرة الاستيطان المقترح. وقد انتهى أوليفانت إلى أن خطة إنشاء الدولة اليهودية في هذه المنطقة سيضمن تغلغل بريطانيا الاقتصادي والسياسي في

فلسطين(١٨). وفي عام ١٨٨٠ نشر أوليفانت ـ وبمبادرة من جانبه ـ كتاباً نادى فيه بالاستيطان اليهودي، وإن كان قد استخدم مصطلحاً دينيا أكثر منه سياسياً. وفي عام ١٨٨٢ استقر أوليفانت فعلا في فلسطين ومعه سكرتيره اليهودي، نافتالي هيرزامبير، مؤلف نشيد الهاتكفا (الأمل)، الذي أصبح النشيد الوطني الصهيوني (ثم الاسرائيلي فيما بعد). ومن الطريف أن هذا الصهيوني، غير اليهودي، قضى بقية حياته في فلسطين مستوطناً، يروج لفكرة الاستيطان اليهودي، في حين هاجر مؤلف النشيد القومي الصهيوني إلى الولايات المتحدة الأمريكية لأنه لم يطق الحياة في أرض الميعاد.

ويبدو أن صفوف الصهاينة غير اليهود كانت مكتظة بالشخصيات الغريبة، ولعل من أغرب الشخصيات الكولونيل ج. ب. ويدجود (١٨٧٢ ـ ١٩٤٣) الذي طالب بتوطين أبناء «موسى والأنبياء» في فلسطين، «لتستفيد منهم الامبراطورية سياسيا واقتصاديا». وكان من رأيه أن الصهيونية حركة ستعيد لليهود «تلك الثقة القومية الجماعية التي يبدو أنهم يفتقرون إليها»(١٩). وأدرك ويدجود أن ثمة صلة أساسية بين البريطانيين واليهود، فأفراد كل من الشعبين ـ في رأيه ـ يعملون بالربا، «ويتجولون» بين الشعوب الأخرى تجاراً ويكنون الاحتقار لهؤلاء الذين يتعاملون معهم. وأكد ويدجود أن كلا من اليهود والبريطانيين لا يتمتعون بمحبة الأخرين، وأنهم على استعداد دائم لاستخدام كتبهم المقدسة لتبرير «كل ما يحتاجون الى تبريره في علاقتهم بالجنس البشري»(٢٠)

ومن أهم الصهاينة غير اليهود أيضا اللورد وينجيت (١٩٠٣ ـ ١٩٤٤)، الذي ولد في الهند من أب وأم يعملان بالتبشير. وقد التحق وينجيت بخدمة الجيش البريطاني، وعمل في السودان، حيث تعلم اللغة العربية. ولكنه لم يستطع قط التغلب على كراهيته العميقة للاسلام والقرآن. وقد رحل الى فلسطين عام ١٩٣٦، حيث عمل ضابط مخابرات مدة ثلاث سنوات، وحيث أتيحت له فرصة التعاون مع المستوطنين الصهاينة. وكان وينجيت، مثله مثل معظم الصهاينة غير اليهود، من الحَرْفيين الدينيين الذين يفسرون العهد القديم تفسيراً

حرفياً، ولذا فقد كان قادراً على «تفسير الأحداث التاريخية التي وردت في الانجيل تفسيراً عسكرياً كأنها حدثت بالأمس» (على حد قول بن جوريون). وكان وينجيت مقتنعاً تمام الاقتناع بأنه مرسل «في مهمة دينية مقدسة ومحددة لانقاذ اسرائيل»(٢١). وقد ساهم وينجيت في تطوير التكتيكات التي استخدمها الصهاينة في حملاتهم الارهابية ضد الفلاحين العرب في فلسطين، وفي «وضع أسس جيش صهيون» على حد قوله. (٢٢).

ويمكن للمرء أن يجد الملامح والموضوعات الأساسية للفكر الصهيوني، بوصفه فكراً استعماريا استيطانياً، في كتابات الصهاينة غير اليهود، وقد استفاد الصهاينة اليهود منها في كتاباتهم، فأشاروا إليها، واقتبسوا منها، وخلعوا عليها لوناً يهودياً حتى تبدو كأنها أفكار تعود للتراث اليهودي ولما يسمونه بالتاريخ اليهودي. ولم يستفد زعماء الحركة الصهيونية ومفكروها من فكر الصهاينة غير اليهود فحسب، بل استفادوا منهم أيضا في مناوراتهم السياسية وفي الحصول على تصريحات ووعود رسمية وغير رسمية.

الاستراتيجية الصهيونية ، الهجوم على اليهود:

ولكن الفكرة الصهيونية ، حتى بعد أن اكتمل النسق الأيديولوجي الصهيوني في كتابات هرتزل وكتابات المفكرين الصهاينة الروس: الحاخام والفيلسوف الصهيوني آحاد هعام (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧)، ومنظر اليسار الصهيوني دوف بير بوروخوف (١٨٨١ ـ ١٩١٧)، وزعيم ومنظر اليمين الصهيوني فلاديمير جابوتنسكي (١٨٨٠ ـ ١٩٤٠)، ظلت مجرد فكرة، أو مخطط (سيناريو) نظري لحل المسألة اليهودية، لا تسانده أي جماهير يهودية أو غير يهودية، ولا يستند إلى أي أساس من القوة. وقد كان الصهاينة يدركون هذه الحقيقة منذ البداية. ففي عام ١٩٢٧ اعترف وايزمان أن وعد بلفور «كان مبنياً على الهواء»، وروى أنه في عام ١٩٢٧ كان يرتعد خشية أن تسأله الحكومة البريطانية عن مدى تأييد اليهود للحركة الصهيونية، فهي كانت تعلم أن «اليهود ضدنا.. كنا وحدنا نقف على

جزيرة صغيرة، مجموعة صغيرة من اليهود لهم ماض أجنبي». (٢٣) وقد أشار السير أدوين مونتاجو ـ الوزير اليهودي الوحيد في الوزارة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور، وهو أيضا الوزير الوحيد الذي عارضه ـ أشار في مذكرة سرية رفعها إلى حكومته إلى أن اليهود، ذوى الأصل الأجنبي، قد لعبوا دوراً ملحوظاً في الحركة الصهيونية في انجلترا، ثم أخذ يعدد ـ على سبيل المثال ـ الدكتور جاستر، من رومانيا، والدكتور هيرتز من النمسا، والدكتور وايزمان من روسيا. (٢٤).

ونظراً لافتقار الصهاينة إلى أي قاعدة قوية بين الجماهير اليهودية كان عليهم أن يعتمدوا على قوة كبيرة غير يهودية يمكنها الاستفادة منهم ومن خدماتهم، فقدموا أنفسهم منذ البداية على أنهم يمكنهم أن يلعبوا دور الوسيط بين القوى الاستعمارية من جهة، واليهود من جهة أخرى، لتجنيدهم وتوطينهم في أحد المواقع التي تهم تلك القوى، وقد تم عرض الوساطة دون موافقة الجماعات اليهودية ذاتها، ولكن بمجرد أن نال الصهاينة الموافقة على خطتهم توجهوا الى الجماعات اليهودية العاجزة معلنين شرعيتهم الجديدة ومكانتهم المكتسبة، ومن ثم تسلموا قيادتها. وقد أفضى وايزمان الى أحد أصدقائه، عام ١٩١٤، بأن فرصة الشعب اليهودي للتقدم بمطلبه في أن يكون له وطن قد أصبحت أخيراً في متناول اليد، ولكنه أضاف: إن الصهاينة لا يستطيعون التقدم بأي مطالب، لأن اليهود مشتتون بدرجة كبيرة. وقد اقترح وايزمان وغيره من الصهاينة حل المشكلة «من أعلى»، من ناحية المصالح الامبريالية، وليس من «أسفل»، من ناحية الجماهير اليهودية، وحددوا الاستراتيجية على النحو التالي: «إذا دخلت فلسطين في نطاق النفوذ البريطاني، وإذا شجعت بريطانيا عملية استيطان اليهود هناك، وأصبحت دولة خاضعة لبريطانيا، فسيصبح هناك ـ من عشرين الى ثلاثين عاما ـ مليون يهودي»(٢٥) يقومون بخدمة المصالح الامبريالية.

وعندما أعرب أحد المسؤولين في الحكومة الانجليزية عن دهشته للموقف المناهض للصهيونية الذي اتخذه قادة اليهود البريطانيين، أكد وايزمان له أن خطة شن الهجوم «من أعلى» مؤكدة النجاح، وتكهن أنه بمجرد الاعتراف بفلسطين

وطنا قوميا لليهود، فإن اليهود البريطانيين المناهضين للصهيونية «سيوافقون على الفور» على الحل الصهيوني، وأنهم هم أنفسهم سينخرطون في صفوف الحركة الصهيونية في الوقت المناسب(٢٦)، أي أنه عن طريق كسب ود القوة الامبريالية يمكن للحركة الصهيونية أن تفرض نفسها على الجماهير اليهودية (وهذه الخطة لا تختلف كثيرا عن الخطة التي تبناها الصهاينة تجاه العرب. فالتحالف مع انجلترا ومع حكومة الانتداب كان هو الوسيلة الوحيدة المتاحة أمام الصهاينة لاستعمار فلسطين). ولذا كان وايزمان يصر دائماً على أن ينظر إلى مشروع الاستيطان الصهيوني «في ضوء المصالح الامبريالية»(٢٧) (وليس في ضوء الرؤى الانجيلية أو التاريخ اليهودي). وقد كتب في تاريخ لاحق أنه لو لم توجد فلسطين لكان من الضروري خلقها من أجل مصلحة الامبريالية. (٢٨)

الدولة الصهيونية والاستعمار :

وحيث إن الصهاينة قد وضعوا فكرتهم داخل الاطار الامبريالي، واكتشفوا استحالة تحويلها الى حقيقة دون مساندة القوى الامبريالية، فمن الطبيعي أن يفكروا بلغة الامبريالية، وأن يستخدموا مصطلحها. ولعل إحدى السمات الأساسية للامبريالية الغربية هي أنها كانت تهدف إلى حل مشاكل المجتمع الأوروبي عن طريق «تصديرها» الى افريقيا وآسيا. فعلى سبيل المثال يمكن حل مشكلة تكديس السلع عن طريق السوق الهندية، ويمكن أيضا حل مشكلة المواد الخام اللازمة للمصانع البريطانية عن طريق تحويل مصر الى مزرعة قطن. أما مشكلة زيادة السكان أو «الفائض البشري» ـ كما كانوا يطلقون عليه ـ وجزء كبير منه كان من اليهود، فيمكن حلها بطريقة مماثلة أي عن طريق تصديرها. وإذا كان الاستعمار التقليدي هو الحل المطروح لمشكلة المواد الخام وتكديس السلع، فالاستعمار الاستيطاني هو الجواب على مشكلة تكديس السكان!

وكان ماكس نوردو، حتى قبل اعتناقه العقيدة الصهيونية، يفكر بهذه الطريقة، فقد اقترح أن تحل أوروبا مشكلة البطالة عن طريق تحويل العمال

الصناعيين إلى فلاحين، «وإذا كانت أوروبا تفتقر إلى المساحة اللازمة فينبغي عليهم أن يهاجروا عبر البحار». (٢٩). ومما له دلالته أن الحل الاستعماري اتخذ من افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية مسرحا لنشاطه، وأن هذا النشاط لم يمتد بتاتا إلى أي مناطق داخل أوروبا ذاتها، «فلم يحدث أن استعمرت دولة أوروبية دولة أوروبية أخرى. كانت البلاد تتصارع وتتقاتل ثم تتم تسوية الحدود داخل إطار القوميات»(٣٠). وعلى الرغم من أن نمط الاستعمارين التقليدي والاستيطاني مختلف، لأنهما يتوجهان لمشكلتين مختلفتين، فهما تعبير عن الظاهرة الاستعمارية نفسها، ويخدمان مصالحها بل يتداخلان في كثير من الأحيان. فجيوب الاستعمار الاستيطاني لن تستوعب الفائض الإنساني فحسب، بل يمكن استخدامها أيضا قواعد لعمليات الاستعمار التقليدي ضد الدول المجاورة.

والاقتراح الصهيوني لحل المسألة اليهودية يتفق تماما مع الصيغة الاستعمارية الأوروبية لحل مشاكل المجتمع الغربي: أن تقوم شعوب الشرق بدفع ثمن التقدم والازدهار الغربيين. وقد كتب أوسكار. ت رابينوفيش في كتاب هرتزل السنوي ملخصاً سياسة هرتزل وتكتيكاته، بل المشروع الصهيوني كله، على أنه محاولة لتحويل «تيار المهاجرين اليهود من انجلترا إلى افريقيا وآسيا». علاوة على ذلك فالصهيونية تخلق موقعا هاما للامبراطورية البريطانية وطرقها عن «طريق إنشاء مركز يهودي مستقل». (٣١) وكان هرتزل، والزعماء الصهاينة بعامة، يصدرون عن هذه الفلسفة الاستعمارية حين فكروا في الأراضي التالية لتحويلها إلى الوطن يهودي وتفاوضوا بشأنها: شبه جزيرة سيناء، ومنطقة العريش، وجزء من كينيا المعروف في التاريخ الصهيوني «بشرق افريقيا» أو «أوغندا»، وجزء من قبرص، والكونغو البلجيكي، وموزمبيق والعراق وليبيا وفلسطين.

وبسبب إدراك هرتزل التام للطبيعة الاستعمارية للمشروع الصهيوني، نجده يعدد في مذكراته (بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٠٢) أسماء بعض الشخصيات الاستعمارية التي اعتقد أنه كان يتلاعب بها كما لو كانت قطع الشطرنج: سيسل رودس، والرئيس تيودور روزفلت، وملك انجلترا، وقيصر روسيا(٣٢). وقد

كتب هرتزل للسير سيسل رودس، الذي كان يرى أن الاستعمار الاستيطاني هو ترياق الثورة الاجتماعية في أوروبا، يدعوه إلى أن يساعد في صنع التاريخ، باشتراكه «في شيء استعماري». بعد هذا التعميم يدخل هرتزل في التفصيلات، فيخبر المفكر الاستعماري بأن هذا الشيء لا يتضمن افريقيا، وإنما يقع في آسيا، وهو لا يخص الانجليز، وإنما يخص اليهود(٣٣). ولكن لماذا توجه الى رودس على وجه الخصوص؟ الأمر بسيط للغاية، لقد اتجه هرتزل الى أشهر شخصية استعمارية كي يعطى شرعيته الاستعمارية للمشروع الصهيوني، ويصدر تصريحا في صالحه(٣٤). وارتباط هرتزل بالاستعمار عميق وشخصي لأقصى درجه، حتى إنه اهتم بأن يدون في يومياته أنه يجب أن يرتدي «قبعة مصممة على طريقة ستانلي من أجل أساطير المستقبل»(٣٥).

وكان هرتزل ، في بعض الأحيان، يقع صريع رؤاه الصهيونية الاستعمارية المتضخمة. ففي خطاب لماكس نوردو عن مشروع شرق افريقيا، الذي كان يهدف الى توطين الصهاينة هناك، أشار هرتزل الى الدول الأوروبية المختلفة التي نجحت في بناء «الامبراطوريات الاستعمارية التي تجني منها الثروة»، وإلى انجلترا التي «تصب فائضها السكاني في الامبراطورية الواسعة التي ضمتها». ثم أضاف قائلا - في كلمات تثير السخرية والشفقة في وقت واحد - إن اليهود ينبغي عليهم ايضا «أن ينتهزوا الفرصة المواتية ليصبحوا انجلترا صغيرة. . لنبدأ بالحصول على مستعمراتنا أولا، وبقوة هذه المستعمرات سنقوم بغزو وطننا. ولتكن الأرض التي تقع مابين الكليمانجارو وكينيا أولى مستعمرات اسرائيل. وليكن هذا هو الأساس الذي يقف عليه صهيون»(٣٦). وقد استحسن نوردو الفكرة، فوصف هو الآخر مشروع شرق أفريقيا بأنه مجرد «مأوى ليلي»، حجر أساس استعماري يتكيء عليه الصهاينة لبناء صهيون الاستعمارية.

وكما بينا من قبل كان الصهاينة، الذين يقفون دون جماهير يهودية خلفهم ودون قاعدة إقليمية يعملون عليها، في أشد الحاجة الى الدعم والتأييد من قوة استعمارية أوروبية تمدهم بغطاء عسكري وسياسي واقتصادي لبناء

مستعمراتهم. ولكن يبدو أن هرتزل كان ينسى حدوده أحيانا (كما تفعل اسرائيل في الوقت الحالي)، إذ يذكر (في الخطاب الذي بعث به الى نوردو) العديد من القوى الامبريالية التي يعتقد أنها ستساعد الكثير من المستعمرات الصهيونية في افريقيا وآسيا: «ولسوف تحذو دول أخرى حذو انجلترا، ولسوف ننشىء مراكز جديدة القوة في موزمبيق والكونغو وطرابلس (في ليبيا) بمساعدة البرتغاليين والبلجيك والايطاليين»(٣٧). وكان هرتزل واسع الخيال حقاً، إذ كان يتخيل نفسه شخصية أسطورية عظيمة، يجلس في هدوء كامل بين زعماء القوى الاستعمارية، «الانجليز والروس والبروتستانت والكاثوليك»، الذين يتنافسون من أجل خدمته (دون أن يبين السبب). ثم يضيف: «بهذه الطريقة سيتم دعم قضيتنا»(٣٨). وقد تصور هرتزل ـ ثملاً بأحلامه الامبريالية ـ دولة استعمارية استيطانية يهودية تضم اليهود من كل الجنسيات، وتخدم أوروبا الامبريالية كلها دون تفرقة أو تمييز: «وينبغي علينا، بوصفنا دولة محايدة، أن نبقى على اتصال بكل أوروبا التي يجب أن تضمن بقاءنا»(٣٩). ـ ضرب من الأممية الامبريالية والاخوة الاستعمارية التي لا تعرف الحدود القومية ـ .

ولكن هذه اللحظات الأممية الانتشارية الشملة لم تكن هي اللحظات النمطية، إذ إن هرتزل، في اللحظات الأكثر إتزانا، كان يتقدم لإحدى القوى الاستعمارية لمساعدته على إقامة دولة يهودية مستقلة تابعة في فلسطين، أو في أي مكان آخر تحت «سيادة»(٤٠) هذه القوة أو تلك. فعرض هرتزل ـ على سبيل المثال ـ على فيكتور عمانوئيل الثالث ـ ملك ايطاليا ـ مشروعه الخاص «بتوجيه الفائض من الهجرة اليهودية» إلى ليبيا تحت رعاية ايطاليا. ولكن الملك لم يأخذ كلام هرتزل على محمل الجد، ورد عليه ببرود مبيناً له أن المشروع الصهيوني يعني البناء «في منزل شخص آخر»(٤١) (ولكن يجب التنويه هنا بأن الزعيم الفاشي موسوليني أظهر أثناء اجتماعاته المتكررة مع وايزمان وناحوم جولدمان تعاطفا وتفهما أكبر لفكرة الدولة الصهيونية، بل وصف موسوليني نفسه بأنه «صهيوني غير يهودي»(٤٢).

وفي بحثه الدائب الذي لا يكل عن قوة امبريالية يقوم بخدمتها نظير الحماية التي ستمده بها، توجه هرتزل إلى الامبراطورية العثمانية متعهدا بأنه إذا وافق السلطان على إعطاء الصهاينة «قطعة من الأرض» . . فإننا في مقابل ذلك سنقوم بترتيب منزله وسنصلح موارده المالية ونقومها، وسنؤثر على الرأي العام في جميع أنحاء العالم بما يتفق مع مصالحه(٤٣). وستكون لهذه العلاقة مزايا أخرى، مثل إنشاء جامعة في استانبول، حتى لا يحتاج الطلبة الأتراك إلى السفر إلى أوروبا، فيتعرضوا لتأثير الأفكار الديمقراطية والثورية الضارة.

ومع انبعاث حركة القومية العربية ومعارضة الحكم العثماني وجد العرب في انجلترا حليفا مؤقتاً لهم، فاتجه الصهاينة الى الأتراك وحلفائهم الألمان، ناصحين إياهم «بأن إنشاء مقاطعة يهودية في فلسطين هو أمر مرغوب فيه لخلق توازن مع الـ ٦٠٠,٠٠٠ عربي في فلسطين»، ومع الدول المحيطة بها(٤٤). وقد ظل هرتزل، بما عرف عنه من إعجاب شديد بالحضارة الألمانية والعسكرية البروسية، يفكر في إنشاء الدولة اليهودية كمحمية ألمانية، وكان القيصر ويلهلم الثاني (المعروف باتجاهاته المعادية للسامية) يدرك المزايا الكامنة لألمانيا إذا ما تبنت المشروع الصهيوني، لأنه سيستفيد من «قوة الرأسمال اليهودي «ومن» عرفان اليهود بالجميل لألمانيا»(٤٥). وكان بسمارك أيضا يفكر في توطين اليهود في المنطقة المحاذية لخط بغداد ـ برلين، حتى يصبحوا أقلية تجارية تصطدم بالسكان المحليين، وتعتمد على ألمانيا لحمايتها، فيكونوا خير ممثل للاستعمار الألماني هناك(٤٦). وفيما بعد أبدى النازيون اهتماما كبيرا بالمشروع الصهيوني، وتعاونوا في وضع هذا المخطط موضع التنفيذ، بل إنهم درسوا ثلاث خطط أخرى لتوطين اليهود في سوريا واكوادور ومدغشقر(٤٧). بيد أن السلطان العثماني رفض أن يبيع «فلسطين للصهاينة»، كما أن حلفاءه لم يبدوا أي تحمس للمشروع الصهيوني. وفقد الألمان أيضا اهتمامهم بالمشروع بسبب الوضع الدولي، وبسبب انحصار اهتمامهم بالمستوطنين الألمان في فلسطين، فكان على الزعيم الصهيوني أن يختط طريقا آخر.

وكان الطريق في الواقع واضحا، فكل المحاولات السابقة لم تكن سوى جهود بدائية يبذلها مفكر يتحسس طريقه وهو بعد في بدايته. ولكن هرتزل كان يتجه بناظريه ـ وحتى في هذه المرحلة ذاتها ـ «نحو انجلترا «منذ اللحظة الأولى»(٤٨) كما جاء في خطابه الى المؤتمر التأسيسي للاتحاد الصهيوني الانجليزي بتاريخ ٢٨ فبراير ١٨٩٨. ويرجع حبه هذا لانجلترا إلى إدراكه أن أسس الاستعمار البريطاني أكثر ثباتا واستقرارا من أسس الاستعمار الفرنسي أو البلجيكي أو الألماني. وقد جاء في خطاب ألقاه في لندن عام ١٨٩٩ أن «الانجليز هم أول من اعترفوا بضرورة التوسع الاستعماري في العالم الحديث، ولذلك فان علم بريطانيا العظمى يرفرف عبر البحار». ولهذا السبب حزم الزعيم الصهيوني حقائبه واتجه الى لندن، حيث توقع أن يجد كثيرا من الاعجاب لرؤيته الصهيونية، لأن «الفكرة الصهيونية» ـ التي «تعتبر فكرة استعمارية ـ لابد من أن تلقى الفهم في انجلترا بسهولة وبسرعة»(٤٩).



الفصل الثالث

الاستعمار الصهيوني

السمات العامة

الصهيونية إذاً ـ كما وصفها هرتزل ـ «فكرة استعمارية»، مدينة بفكرها وقوتها وتحولها الى حقيقة في الشرق الأوسط إلى الامبريالية الغربية. والدولة الصهيونية إن هي إلا امتداد لهذه الامبريالية وتتسم بكل صفاتها. وقد حاول أحد الكتاب (١) أن يحل مشكلة تعريف «الامبريالية» بحصر كافة المحاولات الرامية لتعريف هذه الظاهرة. فوجد أنه عادة مايتم تعريفها عن طريق حصر أهدافها أو الوسائل التي تستخدمها أو دوافعها. وقد بين الكاتب أنه من أهداف الامبريالية الربح الاقتصادي، وتحقيق النفوذ السياسي، وصرف الانتباه عن القلاقل الداخلية في الوطن المستعمر عن طريق شن الحروب. كما أن الهدف قد يكون أيديولوجيا، بمعنى ألا تكون الايديولوجية مجرد غطاء. وإنما تكون قوة ذاتية تدفع نحو الحروب التبشيرية «لنشر الحضارة» و«لإعلان كلمة الحق»، الحضارة كما يراها الامبرياليون، والحق الذي يخدم مصالحهم، بطبيعة الحال.

والصهيونية تشارك في كل هذه السمات، فالهدف منها قد يكون سياسيا بالدرجة الأولى، وهو إنشاء منطقة نفوذ توازن القوى القومية في الشرق الاوسط. والهدف السياسي يخدم المصالح الاقتصادية للامبريالية عن طريق «تهدئة» المنطقة، وإحلال السلام فيها حتى يستمر تدفق المواد الخام منها، ورؤوس الأموال والسلع اليها. كما أن استغلال الصهاينة للأرض الفلسطينية «وللشعب الفلسطيني، وخصوصا بعد عام ١٩٦٧» هو استغلال يخدم المصالح الاقتصادية الذاتية للصهيونية. وثمة دفعة أيديولوجية هائلة وراء الاستعمار الصهيوني، كما أن ثمة ركاما هائلا من الاعتذارات والتبريرات الفذة «التي سنعرض لها في نهاية هذا الفصل». والدولة الصهيونية لايمكنها أن تتواجد في حالة سلام؛ لأن المجتمع

الصهيوني في فلسطين مجتمع لم يكتمل بعد «ويمكن أن نتساءل: هل يمكن أن يقدّر له الاكتمال مع انفتاحه على يهود الشتات؟» وهو مجتمع يضم اقليات قومية كثيرة، تتحدث أكثر من لغة، و لها تقاليدها الحضارية المختلفة، لذا فهو يصر على البقاء في حالة حرب أو صراع ساخن لصرف الانتباه عن التناقضات التي تتفاعل داخله. ويرى الدكتور قدري حفني أن مانسميه الاستراتيجية السيكولوجية للتجمع الإسرائيلي يهدف الى خلق موقف «يحمل قدرا محدودا من التهديد، يسمح بتفجير أقصى طاقات العدوان» ولكنه «يحمل ـ في الوقت نفسه ـ ضمانا كافيا للقدرة على إلزام هذا التهديد حدا لايتجاوز»(٢). فهي حالة حرب وتهديد دائمة وكاملة يواكبها في الوقت ذاته إحساس بالطمأنينة العسكرية الكاملة والقدرة على الهجوم في الوقت المناسب. والصهيونية لاتختلف في هذا كثيرا عن النازية أو عن الامبريالية الأمريكية؛ فهناك دائما الخطر الأحمر أو الأصفر أو الأسود الذي يتهدد الألمان أو الأمريكان من كل جانب، ولكن هناك أيضا آلة الحرب الرهيبة، التي لاتقهر، على أهبة الاستعداد دائما، ذراعها طويل يمتد الى أي مكان، مثل جيش الدفاع الاسرائيلي، الذي لايكف قط عن الهجوم، للقضاء على الخطر العربي المتربص به دائما.

أما بخصوص الوسائل التي تستخدمها الامبريالية فقد ذكر المؤلف أن أنواع الضغط تختلف من وسائل سلمية تماما «مثل عمليات التبادل المالية والاقتصادية العادية» الى وسائل اكثر عنفا «الرشوة والتهديد والارهاب العسكري» ثم إلى العنف المباشر. وقد يلجأ المستعمر إلى الوسائل أو الحيل القانونية؛ فالقانون الدولي يشتمل على طرق كثيرة لفرض الهيمنة والتسلط. والصهيونية لجأت لكل هذه الوسائل، فقامت بشراء الاراضي من كبار الملاك الاقطاعيين في فلسطين ومن حكومة الانتداب، كما لجأت للتهديد والارهاب العسكري والعنف المباشر، كما حدث في مذبحة دير ياسين «التي سنناقشها بشيء من التفصيل فيما بعد». أما الوسائل القانونية، فالصهاينة هم خير من يسخرون القانون الدولي لصالحهم، ابتداء من وعد بلفور الى وضع فلسطين تحت الانتداب، ثم ـ أخيراً ـ استصدار قرار

هيئة الأمم بتقسيم فلسطين، وهو القرار الـذي لم توافق عليـه، حين عـرض للتصويت أول مرة، أي دولة آسيوية أو افريقية.

أما بخصوص الدوافع الكامنة وراء الامبريالية فيقـول المؤلف إنها قد تنبع من الطموحات الخاصة أو الضغوط النفسية التي يشعر بها بعض الأشخاص ذوي النزعة القيادية مثل السير سيسل روديس. وعلى الرغم من أننا نرى أن العامـل النفسي قد يكون ثانويا بالقياس الى عوامل أخرى فإنه من اليسير أن نجد كثيرا من الشخصيات القيادية الصهيونية التي تعاني من مشاكل نفسية حادة، ابتداء من هرتزل، الذي كان يحب أن يتشبه في مذكراته بالغزاة الاستعماريين، وليو بنسكر الذي أصيب بأزمة نفسية حـادة تبنى بعدها الحل الصهيوني للمسألة اليهودية. بل يمكن رؤية الحل الصهيوني، ومحاولة الصهاينة تغيير أو «تطبيـع» الشخصية اليهودية، على أنه نتاج جرح نفسي عميق، وعدم رضى عن الذات، بل وكره عميق لها.

ويرى مؤلف المقال أن هناك قوى اجتماعية تحمل لواء الفكر الامبريالي، وقوى أخـرى تقف موقف المعـارضة، أو مـوقف عدم الاكتـراث منه. وقـد اختلف المفكرون فيما إذا كانت هناك طبقة بالذات مرشحة أكثر من غيرها لتبني الرؤية الامبريالية، ربما لأنها ترى أن هذا الموقف يحل مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية والنفسية. والبورجوازية اليهودية المثقفة، ذات الأصول الأوربية الشرقية، كانت بلا شك هي هذه الفئة الاجتماعية التي كانت تبحث عن مخرج من الطريق الذي كانت تراه مسدودا أمامها؛ والاستعمار الصهيـوني كان بمثـابة الحـل السريـع لمشاكلها. ولكن البورجوازية اليهودية الكبيرة والصغيرة في الغرب تقبلت هي الأخرى الحل الصهيوني الاستعماري حلا لمشكلة يهود الشرق وحماية لمواقعهـا الطبقية والحضارية.

ويرى بعض المفكرين أن الامبريالية هي امتداد للفكر القومي «المتطرف»، الـذي يشوه صـورة الآخرين، وينسب للذات حقـوقا مقـدسـة أو مـطلقـة. والصهيونية إما أنها شوهت صورة العربي وإما أنها أخفته عن الأنظار تماما، حتى

تصبح فلسطين «أرض الميعاد» التي تنتظر اليهود. وقد نسب اليهود لأنفسهم حقوقا دينية وعرقية وحضارية شتى «انظر الفصل الخامس : اليهودي الخالص والعربي الغائب».

وأخيرا يمكن النظر إلى الامبريالية على أنها نتيجة طبيعية لعلاقات القوى الامبريالية بحيث تصبح هي الطريقة التي تصحح بها إحدى القوى موازين القوى لصالحها. والصهيونية لم يكن لها القوة الذاتية لتصحيح موازين القوى لصالحها، ولكنها استفادت من اعادة توزيع مناطق النفوذ بعد الحرب العالمية الأولى، ولاتزال تستفيد من التوتر بين القوتين العظميين. لذا نجد أن الحرب الباردة في صالحها، في حين تهدد سياسة الوفاق استقلالها ومقدرتها على الحركة.

كل هذه العناصر تدل على أن ظاهرة الامبريالية ظاهرة مركبة، وأن كلمة «امبريالية» كلمة فضفاضة. ولكن على الرغم من ذلك يمكن القول إن العناصر التي حصرها الكاتب على أنها من مكونات الامبريالية، أو مرتبطة بها، تدخل في تركيب الصهيونية، أو ترتبط بها بشكل أو بآخر. ولكن حيث إنه لايوجد تطابق كامل بين الكل والجزء، وبين الحركة التاريخية والعناصر التي تتجسد الحركة من خلالها، فيجب ألا نقنع بدراسة الاستعمار الصهيوني بوصفه شكلا من أشكال الامبريالية الغربية فحسب، وإنما يجب أن ندرس العناصر والسمات الخاصة بالظاهرة الاستعمارية الصهيونية حتى نحيط بها إحاطة كاملة في جوانبها العامة والخاصة.

السمات الخاصة :

ولعل السمة الأولى للاستعمار الصهيوني هي أنه استعمار استيطاني «أو سكاني»، فهو استعمار لايأخذ شكل جيش يقهر الأمة المتخلفة ويحتلها ليستغل إمكاناتها الاقتصادية والبشرية لصالح البلد الأوروبي الغازي، وانما يأخذ شكل نقل مستوطنين أوروبيين من بلادهم الى البلد الجديد ليعيشوا فيه وليتخذوه وطنا جديدا لهم، كما كان الحال مع المستوطنين الفرنسيين في الجزائر، والمستوطنين

البيض في روديسيا وجنوب افريقيا. ولكن الاستعمار الاستيطاني في العالم العربي لم يبدأ في القرن السادس عشر مع الموجة الاستعمارية الأولى، ربما لأن الامبراطورية العثمانية كانت لاتزال قوية نسبيا، وربما لأن العرب كانوا يكوّنون تشكيلا حضاريا وسياسيا متماسكا إلى حد كبير، ولكنه بدأ مع منتصف القرن التاسع عشر في الجزائر وأواخره في فلسطين، أي أن الأستعمار الصهيوني استعمار استيطاني ضرب جذوره في المرحلة الثانية من الغزو الامبريالي للشرق.

والسمة الثانية للاستعمار الصهيوني أنه استعمار احلالي. ومن المعروف أن موقف المستوطنين البيض من السكان الأصليين يختلف من بلد إلى آخر؛ ففي أمريكا اللاتينية كان هدف الاستعمار الاستيطاني هو استغلال الأرض وسكانها عن طريق انشاء المزارع الكبيرة التي يقوم السكان الأصليون بزراعتها لتحقيق فائض القيمة من خلالهم. أما في الولايات المتحدة فكان المستوطنون البيوريتان يبغون الحصول على الأرض فقط، لإنشاء مجتمع جديد، فكان لابد من طرد السكان واحلال عنصر جديد محل العنصر القديم. وكانت جنوب افريقيا حتى عهد قريب من هذا النوع الاحلالي، فنجد أن المستوطنين البيض استولوا على خير اراضيها وطردوا السكان الأصليين منها. ولكن بمرور الزمن طرأت تغيرات بنيوية على الدولة الاستيطانية في جنوب افريقيا،وأصبح تحقيق فائض القيمة واستغلال السكان الأصليين أحد الاهداف السياسية. ولذا نجد في جنوب افريقيا استعمارا استيطانيا يقوم الآن بتجميع السود في أماكن عمل ومدن مستقلة «بانتوستان» تقع خارج حدود المناطق والمدن البيضاء، ولكنها تقع بالقرب منها، حتى يتسنى للعمال السود «الهجرة» اليومية داخل المناطق البيضاء للعمل فيها.

والأمر بالنسبة لاسرائيل لايختلف كثيرا عنه في جنوب افريقيا؛ إذ استهدفت الأيديوولوجية الصهيونية منذ البداية تغيير الشخصية اليهودية «وتطبيعها»- أي أن تجعلها طبيعية- وتحويل الجماعات اليهودية المتفرقة في العالم الى أمة مثل باقي الأمم. لذا كان الصهاينة يطمعون في الحصول على أرض لايقطنها أحد «أرض بلا شعب، لشعب بلا ارض، على حد قول الشعار الصهيوني» حتى يتسنى لهم

تنفيذ المخطط الصهيوني. ولكن هذه الارض لاتوجد إلا في القمر «على حد قول حنا أرنت». وكان يتحتم على الاستعمار الصهيوني أن يستولي على قطعة أرض ثم يفرغها من سكانها عن طريق العنف، أي أن طرد الفلسطينيين جزء عضوي من الرؤية والممارسة الصهيونية. ولاتزال هذه هي السمة الأساسية للاستعمار الصهيوني في فلسطين، إنه استعمار استيطاني إحلالي، وإحلاليته هي أحد مصادر خصوصيته بل تفرده. إنها- في الواقع- مصدر «صهيونيته». وإحلالية الصهيونية تتضح في موقف الدولة الصهيونية من سكان الضفة الغربية، فهي على استعداد لاعطائهم نوعا من الاستقلال الذاتي، وعلى الرغم من أنه قسط ضعيف للغاية من الاستقلال فإنه لايمتد بأي صورة الى الارض الفلسطينية، مطمع الصهاينة وهدف المخطط الصهيوني. ولكن يبدو أن الاستعمار الصهيوني بدأ يفقد شيئا من طبيعته الإحلالية بعد عام ١٩٦٧، ويكتسب بدلا من ذلك شكلا مماثلا للاستعمار الاستيطاني في جنوب افريقيا الذي يقوم على استغلال الأرض والسكان معا. ولكن تجب الاشارة الى أن ثمة رفضا عميقا لهذا التحول بين الصهاينة؛ لأنه يعني أن الدولةاليهودية ستفقد هويتها الخالصة.

وقد اقترح بن جوريون على ديجول أن يتبنى الشكل الإحلالي من الاستعمار الاستيطاني حلا للمشكلة الجزائرية، فتقوم فرنسا بإخلاء المنطقة الساحلية من الجزائر من سكانها العرب، ويوطِّن فيها الأوروبيون وحدهم ويقيمون فيها المستوطنات، ثم تعلن دولة مستقلة، لسكانها «حق تقرير المصير». وكان رد ديجول يتسم بالذكاء التاريخي، إذ قال «أتريدني أن أخلق إسرائيل أخرى؟». وقد أشار كارل كاوتسكي إشارة عابرة لتلك السمة المميزة والأساسية للاستعمار الاستيطاني الصهيوني في كلاسيكيته هل يشكل اليهود جنسا؟ وتكهن بأن المستوطنين اليهود سيعانون الكثير خلال النضال العربي من أجل الاستقلال؛ «لأن استعمار اليهود لفلسطين يدل على نيتهم البقاء فيها، وعلى أنهم لاينوون استغلال السكان الأصليين فحسب، بل سيقومون بطردهم نهائيا». (٣)

والتعرف على الجذور الحضارية لنوعي الاستعمار الاستيطاني، التقليدي

والاحلالي، قد يكون أمرا له أهميته، إذ يبدو أن النوع التقليدي «في الجزائر وأنجولا» قد نشأ في الدول الكاثوليكية، بينما تعود جذور النوع الاحلالي «في جنوب افريقيا والولايات المتحدة» الى الدول البروتستانتية. وسيقودنا هذا إلى التساؤل عما إذا كان التفسير الحرفي للعهد القديم، وهو التفسير الذي يسود بين كثير من البروتستانت، يخلق حالة عقلية تسهّل عملية نقل السكان وتجعلها أمرا طبيعيا، لأنها تتم باسم الأوامر المقدسة التي ترد من عل؟ قد يمكن القول إن «الكنيسة القومية» «أي الكنيسة القاصرة على مجموعة بشرية لها نفس الانتماء العرقي أو الاثني، كما هو الحال مع الكنيسة الهولندية الاصلاحية في جنوب افريقيا التي لاتسمح للسود بالانضمام إليها». مثل هذه الكنيسة تضفي قدرا من القداسة على الأفعال التي يأتيها اعضاؤها، وتقدم هي التبريرات الدينية «التي تكون عادة ذات طابع انجيلي»، فتسوغ عمليات الطرد بأن «الآخرين» يقعون خارج نطاق الخلاص والتوبة. أما الكنيسة العالمية «أي الكنيسة التي تفتح أبوابها لأي إنسان» فهي تمنح المؤمن «سواء كان من المستوطنين أو من السكان الأصليين» حقوقا معينة، بغض النظر عن انتمائه القومي أو العنصري، وهو مايجعل من الصعب على المستوطنين الذين يتبعون الكنيسة العالمية تبني النمط الاحلالي من الاستعمار.

وكان هرتزل ـ على سبيل المثال ـ يدرك تماما الاعتراض الكاثوليكي على مشروعه، ولكنه كان يعتقد أن هذا الموقف قد نجم عن المنافسة المستعرة بين كنيستين أو ديانتين عالميين «اليهودية والكاثوليكية» تتنازعان على القدس «باعتبارها قاعدة أرشميدس»(٤). ومهما يكن الأمر، فيبدو أن هناك نوعاً من العلاقة الأساسية التي تستحق المزيد من الدراسة بين الشكل المحدد الذي تتخذه مختلف الجيوب الاستيطانية، وبين جذورها الحضارية. «ويمكن الاستعانة بمقولة ماكس فيبر عن علاقة الرأسمالية بالبروتستانتية في دراسة هذه القضية».

ويمكن في هذا المضمار أن تتصور الأنماط الاستعمارية المختلفة على شكل هرم، قاعدته مايسمى «الاستعمار الجديد»، وهو أقل أنواع الاستعمار وضوحا،

لأنه يلجأ الى السيطرة الاقتصادية والسياسية عن طريق بعض أبناء البلد ذاته، كما يمنحهم شيئا من الاستقلال السياسي. ويعلو هذا النمط في الدرجة الاستعمار التقليدي، حيث يمارس المستعمر الهيمنة السياسية والاقتصادية المباشرة، ويتحكم في مقادير الشعوب عن طريق الغزو العسكري والاحتفاظ بقوات عسكرية لتحمي مصالحه ضد القوى القومية المحلية. يعلو هذا النمط الأخير الاستعمار الاستيطاني، بأشكاله المختلفة، ابتداء من الاستعمار الاستيطاني الاندماجي الذي يبدأ فيه العنصر الدخيل بالهيمنة، ثم يندمج مع السكان الأصليين بعد حين، الى أن يختفي فيهم كليا مرورا بالاستعمار الاستيطاني الانفصالي «كما هو الحال في جنوب أفريقيا»، حيث يحتفظ العنصر السكاني الدخيل باستقلاله، ويلجأ إلى عزل السكان الأصليين داخل مناطق محدودة حتى يسهل استغلالهم «كما بيّنا من قبل». وفي أعلى الهرم نجد الاستعمار الاستيطاني الإحلالي «كما هو الحال في اسرائيل»؛ حيث ينفصل العنصر الدخيل عن السكان الأصليين، ثم يحاول التخلص منهم عن طريق نقلهم خارج الحدود، إن مجرد الأبارتهايد «الانفصال الكامل» لايحل مشكلة الاستعمار الصهيوني بمنطلقاته الايديولوجية. والاستعمار الاحلالي يضمن الاستقرار العنصري والاجماعي الداخلي للمجتمع الاستيطاني، وفي الوقت ذاته يشوه بشكل كامل البناءين الاقتصادي والحضاري للسكان الأصليين الذين تم طردهم. وبذا يكون الاستعمار الصهيوني/ الإحلالي أعلى مراحل الاستعمار وأكثر أشكاله شراسة وعنفاً.

«والسمة الثالثة للاستعمار الصهيوني «وهي في تصورنا اصبحت أهم السمات» هي عمالته وتحوله إلى أداة قتالية ممولة من الغرب.

وقد ثارت قضية هامة عن مدى استقلالية الحركة الصهيونية التي وصفها ابراهام ليون بأنها «حركة قومية حديثة»، وأنها أحدث القوميات في اوروبا (٥). «وبالتالي فالاستعمار الصهيوني استعمار له ديناميته المستقلة». وقد تبعه في هذا الرأي الدكتور صادق جلال العظم في كتابه الصهيونية والصراع الطبقي؛ إذ

يقول: «على هذا الأساس يتبين أن استجابة هذه الشرائح من البورجوازية اليهودية للمشروع الصهيوني واهتمامها به ترجع الى أملها في أن يؤمن لها سوقا وطنية موحدة خارج القارة الأوروبية كلها، حيث تستقل بها عن بقية الأطراف، فتضمن الهيمنة لنفسها دون أن يزاحمها على سوقها الداخلية أحد» . (٦) والطريف أن الدكتور العظم لم يدعم مقولته المحورية هذه «بالنسبة لدراسته» بتحليل الحقائق الاقتصادية الخاصة بالبورجوازية اليهودية، وإنما دعمها بالاقتباس من كتابات الصهاينة، وهي الكتابات المليئة بالأوهام عن الذات.

وقد ردت الدكتورة بديعة أمين على هذه المقولة، وحاولت تفنيدها، بالاسباب التالية:

أولا: إن أي حركة تحرر قومية هي تعبير عن تطلعات طبقات الشعب المختلفة، ولو نظرنا إلى تركيب اليهود الطبقي لاكتشفنا أنه لم تك توجد طبقات يهودية متكاملة، فالبورجوازية اليهودية الكبيرة لم تك في حالة صراع مع البورجوازية الأوروبية المسيحية، بل كانت مستوعبة فيها استيعابا كاملا. والبورجوازية اليهودية وجدت أسواقا واسعة لها في كل أنحاء العالم بوصفها جزءا من البورجوازية الأوروبية. فالرأسمال اليهودي قد تحول حقا من رأسمال بضاعي ربوي مرتبط بالنظام الاقتصادي الى راسمال مستثمر في النظام الرأسمالي الجديد. غير أن «نشاط (اليهود) الوظيفي وبنيتهم الاجتماعية لم يتعرضا لأي تغيير نوعي، حيث إنهم حافظوا على مواقعهم الوظيفية ضمن الجهاز الاقتصادي البورجوازي الجديد، مع احتلالهم مرتبة أعلى. وحتى بعد انتقال قطاعات معينة منهم إلى خط الانتاج الرأسمالي، أو إضافة الخط الانتاجي الصناعي إلى نشاطاتهم الأخرى، فإن تحولا ما في وظيفتهم الاقتصادية لم يحدث؛ نظرا إلى أن نشاطهم في هذا المجال لم يكن يختلف عن ممارستهم السابقة، حيث إنه بقي- بصورة أساسية- نشاطا تمويليا» (٧)، أي أن الرأسمال اليهودي قد احتفظ بهامشيته، على الرغم من اختلاف النظم الاجتماعية والاقتصادية، ولم يكن له أي استقلالية.

أما بالنسبة للبرجوازية الصغيرة فهي طبقة غير منتجة لا تحتاج لسوق وطنية. واذا كان ثمة فئة من المثقفين اليهود من البورجوازية الصغيرة، تتطلع إلى إيجاد وطن قومي لها، فإن ذلك كان بدافع البحث عن مجال يهيىء لها فرصة الصعود إلى مرتبة أعلى في السلم الطبقي، كما يعبر عن ذلك هرتزل في الدولةاليهودية (٨). غير أن التطلعات لم تختمر قط لتصبح مصالح اقتصادية حقيقية.

ولم تك هناك طبقة عاملة يهودية لها مصالح مستقلة، فانخرط العمال اليهود في صفوف الحركات الثورية المختلفة، وتم استيعابهم فيها استيعابا كاملا، مثلما استوعبت المسيحية البورجوازية «القومية» البورجوازية اليهودية.

ثانيا: تشير الدكتورة بديعة بعد ذلك الى أن الحركة القومية في أوروبا كانت نتيجة طبيعية لتطور النظام الرأسمالي، وأنها تعبر عن مصالح البورجوازية العليا ورغبتها في خلق سوق وطنية. والدولة القومية هي امتداد لوجود قومي مشترك على أرض موجودة بالفعل. وقد نشأت هذه الحركة القومية قبل دخول الرأسمالية المرحلة الامبريالية. أما الحركة الصهيونية فلا تمتلك أيا من هذه المقومات. وإذا كانت الحركة القومية الأوروبية تعتمد ـ بصورة أساسية، ومنذ البداية ـ على القوى الوطنية المؤلفة من البورجوازية المحلية والقوى العاملة سواء في تحقيق الوحدة الوطنية أو في النضال ضد الحكم الأجنبي «فإن» الحركة الصهيونية قد ولدت في صالونات حكام بلدان أوروبا الغربية الاستعمارية.. ومن هنا، فإن الدولة القومية الأوروبية قامت بدوافع محلية ملحة، أما «الدولة اليهودية» فقد كانت مبررات إيجادها حاجات دولية ملحة أيضا. وكما يقول هرتزل في كراسة الدولة اليهودية: «إن العالم يحتاج الى الدولة اليهودية ولذلك فإنها ستقوم» (٩).

إن الحركة الصهيونية ليست حركة قومية تضرب بجذورها في الأرض وتنتشر فروعها في السماء، وإنما هي حركة ليس لها سند في الواقع، ولذا فهي تضرب بجذورها في الهواء، ولايمكن أن تصل إلى الارض إلا عن طريق العنف

الامبريالي؛ أي أن فكرة الاستعمار الصهيوني، مثل فكرة القومية اليهودية تماما، هي مجرد فكرة لاتملك مقومات الحياة، ولكنها، بالاعتماد على الإمبريالية، عن طريق العمالة لها، تحققت بشكل جزئي على أرضنا الفلسطينية. ومما له دلالته أن الصهيونية قوبلت بمعارضة شديدة من أغلبية اليهود وخصوصا البورجوازيين، ويمكن أن نضيف أن هذه المعارضة استمرت إلى أن حققت الصهيونية نجاحها مع الإمبريالية، ثم قامت «بغزو» الجماعات اليهودية، واصطلاح «غزو» هذا استخدمه أكثر من زعيم صهيوني. والحركة القومية الحقيقية هي حركة تجند الجماهير لتحقيق الأهداف القومية، أما الصهيونية فقد هزت الجماهير اليهودية لخدمة المصالح الامبريالية.

وقد ادرك الآباء الصهاينة من البداية افتقادهم لأساس جماهيري وبالتالي تيقنوا من حتمية عمالة الدولة الصهيونية.

وقد حاول هرتزل، طيلة حياته، أن يظهر الفوائد التي ستعود على الامبراطورية البريطانية من إقامة الدولة الصهيونية، إذ كتب- قبل وفاته بعامين- إلى لورد روتشيلد في انجلترا يخبره أن المشروع الصهيوني سيدعم النفوذ البريطاني في شرق البحر المتوسط عن طريق انشاء «مستعمرة كبيرة تضم أفراد شعبنا (اليهودي)، وتقع عند نقطة التقاء المصالح المصرية بالمصالح الهندية/ الفارسية (١٠). وفي نص آخر أشار أيضا إلى أن الدولة الصهيونية ستضيف إلى «الامبراطورية مستعمرة أخرى غنية». (١١) «يحاول خلفاء هرتزل في الوقت الحاضر أن يثبتوا أن الدولة الصهيونية ستضيف للإمبراطورية الأمريكية مستعمرة أو ولاية أخرى قوية وغنية».

وهذا الادراك بأن الدولة اليهودية دولة تابعة، مجرد مستعمرة، هو الصفة المميزة لجميع المدارس الصهيونية، سواء أكانت عمالية أم عامة أم سياسية. فنوردو أيضا، على سبيل المثال، صرح في خطاب له في لندن في ١٦ يونيو ١٩٢٠ بأنه يرى الدولة اليهودية ستكون «بلداً تحت وصاية» بريطانيا العظمى، وأن

اليهود سيكونون «حراساً يقفون على طول الطريق الذي تحفه والذي يمتد عبر الشرقين الأدنى والمتوسط حتى حدود الهند» (١٢). وقد وصف ريتشارد كروسمان، عضو البرلمان البريطاني العمالي، صديقه الحميم وايزمان بأنه كان من المؤمنين إيمانا راسخاً «بمزايا الإمبراطورية» (١٣)، وأنه كان يرى أن الاستيطان اليهودي في فلسطين ضمان أكيد لسلامة انجلترا، ولا سيما «فيما يتعلق بقناة السويس» (١٤). وقد ذكر وايزمان، في خطاب كتبه لتشرشل عام ١٩٢٠ وإن لم يرسله ، ماسماه «المصالح المشتركة» و «التحالف الطبيعي» بين الامبراطورية والجيب الصهيوني. (١٥) والمصالح المشتركة نفسها كانت واضحة لبن جوريون الذي أعلن في المؤتمر الصهيوني التاسع عشر «١٩٣٥» أن خيانة بريطانيا العظمى هي خيانة للصهيونية، وتحدث في أماكن أخرى عن الجيب الصهيوني بوصفه قاعدة دفاعية للإمبراطورية في البر والبحر (١٦). وقد قالت حنا أرنت، في مقالها عن الصهيونية الذي كتبته عام ١٩٤٥ والذي يضم عدداً من التنبؤات الصادقة، إن موقف الصهيونية الممالىء للاستعمار هو أمر حتمي، لأن الصهيونية، حين عدّت نفسها «حركة قومية»، باعت نفسها منذ اللحظة الأولى إلى أصحاب السلطة والنفوذ. فشعار الدولة اليهودية كان يعني ـ في الواقع ـ أن اليهود ينوون أن يتستروا بستار القومية، وأن يقدموا أنفسهم على أنهم « مجال نفوذي » لأي قوة كبرى (١٧).

ويبدو أن التعاون بين الصهيونية والاستعمار الغربي من أول وأكثر الموضوعات إلحاحا في الأدبيات الصهيونية «اليهودية وغير اليهودية». فقد استشهد سوكولوف، في الجزء الثاني من كتابه تاريخ الصهيونية، بخطاب مؤرخ عام ١٧٩٨ بعث به يهودي إلى بني ملته يدعوهم فيه الى العودة الى بلاد تمتد من صعيد مصر إلى البحر الميت، الأمر الذي سيجعلهم متحكمين في «تجارة الهند والعرب وجنوب وشرق افريقيا» (١٨) ثم أضاف كاتب الخطاب قائلا : إن مجلس اليهود سيعرض على الحكومة الفرنسية حماية الشعب اليهودي نظير أن يشارك تجار فرنسا وحدهم في تجارة الهند وخلافها(١٩).

والموضوع نفسه يتكرر في كتاب المفكر الصهيوني موسى هس الذي دعا إلى إنشاء مستعمرات يهودية «من السويس حتى القدس، ومن ضفتي نهر الأردن حتى شاطىء البحر المتوسط» تحت رعاية فرنسا، ثم يتحول المصطلح السياسي الاستعماري إلى مصطلح غنائي، شبه ديني؛ فيقول: «ستكون فرنسا صديقتنا الحبيبة، المخلص الذي سيعيد لشعبنا مكانته في تاريخ العالم» (٢٠).

ويبدو أن المخطط الصهيوني لم يكن يهدف إلى تسخير المستوطنين الصهاينة في فلسطين كخدمة للإمبريالية فحسب، بل كان يأمل -على ما يبدو- في تسخير كل التجمعات اليهودية في جميع أنحاء العالم. ففي اجتماع بين هرتزل وفيكتور عمانوئيل الثالث استخدام الزعيم الصهيوني مصطلحا رومانسيا خطابيا، يشبه مصطلح الاسترجاعيين، ليصف المشروع الصهيوني؛ فأشار إلى أن نابليون قد دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين؛ فرد عليه ملك إيطاليا بأدب وحزم قائلا: «إن ما كان يريده هو أن يجعل اليهود المشتتين في جميع أنحاء العالم عملاء له». عندئذ اضطر هرتزل إلى أن يعترف بأن تشمبرلين، وزير الخارجية البريطاني، كان لديه أيضا أفكار مماثله فرد الملك -ربما بعد أن تملكه الضجر من الحديث- قائلا «إنها فكرة واضحة»(٢١). ولم يكن رد الملك على هرتزل مفاجأة له، لأنه هو شخصيا كان قد وعد بأنه إذا وافقت انجلترا على مشروعه الصهيوني، فإنها ستحصل، «وفي ضربة واحدة»، على عشرة ملايين تابع (عميل) سري. . . في جميع أنحاء العالم، يتسمون بالإخلاص والنشاط. . . وبإشارة واحدة سيضع كل واحد منهم نفسه في خدمة الدولة التي تقدم لهم العون. إن انجلترا ستحصل على عشرة ملايين عميل يضعون أنفسهم في خدمة جلالتها ونفوذها. ثم أضاف هرتزل، مستخدما الاستعارة التجارية الشائعة في الأدبيات الصهيونية: «ثمة أشياء ذات قيمة عالية تكون من نصيب الشخص الذي يحصل عليها في الوقت الذي لم تك بعد قد عرفت قيمتها الحقيقية العالية». واعرب الزعيم الصهيوني عن أمله في أن تدرك انجلترا مدى القيمة والفائدة التي ستعود عليها من وراء كسبها الشعب اليهودي. (٢٢).

إن الخطة الصهيونية الخاصة بتسخير الشعب اليهودي هي جزء أساسي من الأيديولوجية الصهيونية. ففي عام ١٩٢٠ عبر ماكس نوردو عن تفهمه العميق للدوافع التي حركت رجال السياسة البريطانيين الذين كانت تواجههم مشكلة التوازنات الدولية. وبعد القيام بحساباتهم توصل هؤلاء الساسة إلى أن اليهود يعتبرون في الحقيقة (مصدر قوة» و«ربما مصدر نفع» أيضا لبريطانيا وحلفائها، ومن ثم عرضت عليهم فلسطين»(٢٣).

وثمة موضوع آخر يتكرر بصفة منتظمة في كتابات المفكرين والزعماء الصهاينة، وهو أن «يهودية» الدولة التي ستنشأ على أرض فلسطين هي الضمان الأكيد لولائها وعمالتها للقوى الاستعمارية. فقد كان نورردو ـ على سبيل المثال ـ يرى أن بريطانيا مهددة من الاتحاد السوفيتي، وبسبب ظهور القومية العربية وتطلعات العرب نحو الوحدة، وبيّن أن العامل الأخير خاصة سيعرض سيطرة بريطانيا على قناة السويس للخطر. ولذا أكد نوردو أن وجود حليف موثوق به أمر يجب أن يلقى الترحيب. فالصهيونية تعرض أن تكون هذا الحليف بشرط أن تمنحها بريطانيا الفرصة لأن تكوّن دولة يهودية قوية في أرض الآباء(٢٤).

وأكد فلاديمير جابوتنسكي أهمية فلسطين من وجهة نظر المصالح الإمبريالية البريطانية التي عدها «حقيقة يهودية معروفة»، بيد أن هذه الحقيقة تستند إلى «شرط هام، وهو أن فلسطين يجب ألا تظل بلداً عربياً»، فمن رأيه «أن ثمة عيباً أساسياً في كل معاقل انجلترا في البحر المتوسط» وهو أنها جميعاً «آهلة بالسكان الذين لهم مراكز جذب قومية مختلفة» يتوجهون إليها «بشكل عضوي لا يمكن علاجه». فكل هؤلاء السكان ـ إن عاجلا أو آجلا ـ سيسعون للحصول على استقلالهم مبتعدين بذلك عن انجلترا. وسينطبق هذا القانون عل عرب فلسطين الذين سيدخلون «فلك المصير العربي؛ اتحاد الدول العربية، وإزالة كل أثر من آثار النفوذ الأوروبي». وقد قارن جابوتنسكي بين هذه الصورة السلبية لفلسطين العربية ـ التي تنتمي إلى عالم عربي موحد ـ وصورة فلسطين اليهودية التي لا تنتمي إلى المنطقة والموالية بشكل دائم لبريطانيا. (٢٥) وقد استخدم وايزمان الحجة

نفسها حين حذر القوى الاستعمارية الغربية من الاعتماد على «هذا الولاء العربي المشكوك في أمره، والذي يقع قريبا للغاية من طرق المواصلات الحيوية عبر شريط السويس الضيق». ثم قال: «إن الحركة العربية تقود المرء للاعتقاد بأنها مناهضة لأوروبا. . . ولذا يجب الاعتماد على اليهود لضمان وجود عنصر موال (للغرب). (٢٦).

ويمكن القول إن هذه المصطلحات والمفاهيم لاتزال مستخدمة من قبل الإسرائيليين أنفسهم، سواء من المناهضين للصهيونية أو المدافعين عنها، للإشارة للدولة الصهيونية. فالمنظمة الاشتراكية الإسرائيلية ـ الماتزبن ـ أي البوصلة قالت في تحليل لها صدر في الستينات إن الدور الذي تضطلع به الدولة الصهيونية لم يطرأ عليه أي تغيير، فهي لاتزال تشكل «قاعدة لقوة عسكرية» يمكن الاعتماد عليها، موجهة ضد العرب لخدمة المصالح الامبريالية الاستراتيجية(٢٧).

أما ب. سبير، الصحفي الإسرائيلي فقد بين في على همشمار بتاريخ ١٩٨٦/٤/٢٩ أن إسرائيل قد جعلت من جيشها «الذراع المستقبلية المحتملة للولايات المتحدة» فهو «خدمة حربية كامنة (أي جاهزة). على أهبة الاستعداد لتأدية الخدمات(٢٨) في أي وقت. (واستعارة الذراع تشبه استعارة مخلب القط الشائعة في الادبيات العربية المناهضة للصهيونية). أما سمحا دينتس سفير إسرائيل في الولايات المتحدة خلال الفترة (٧٣ ـ ٧٨) فقد صرح في مقال له بتاريخ ٤ يناير ١٩٨٤، أن إسرائيل «ثروة استراتيجية للولايات المتحدة» بسبب موقعها الجغرافي، ومستواها التكنولوجي أو قوتها العسكرية، ونظامها الديمقراطي، واستقرارها السياسي وتوجهها الغربي(٢٩). أي أنها شيء ثمين نافع يوضع في موقع جغرافي حدودي هام.

ولا ندري هل من اللياقة أم لا أن نتناول كل الاستعارات التي استخدمها المستوطنون الصهاينة أنفسهم في وصف الدور الموكل إليهم، أو في إدراكهم إياه، إذ إن بعضها متطرف ينبو عن الذوق، ولكنه مع هذا دال للغاية بسبب تطرفه وتبلوره. ولعل هذا هو الذي يبرر تناولنا إياه في مثل هذه الدراسة التي تطمح إلى

أن تلتزم بالمقاييس العلمية قدر استطاعتها. وقد استخدمت جريدة هارتس استعارة درامية لوصف الدور الذي تم إسناده إلى الدولة اليهودية، إذ نشرت مقالا في ٣٠ سبتمبر ١٩٥١ بعنوان «نحن وعاهرة الموانى» بقلم جرشوم شوكن جاء فيه «أن أسرائيل قد تم تعيينها لتقوم بدور الحارس الذي يمكن الاعتماد عليه في معاقبة واحد أو أكثر، من جيرانها العرب الذين قد يتجاوز سلوكهم تجاه الغرب الحدود المسموح بها». وقد استخدم نوردو استعارة الحارس من قبل - وهي استعارة مألوفة في الأدبيات الصهيونية والمعادية لها. ولكن اضافة استعارة العاهرة لها شيء جديد فيه قدر من الابداع وتحديد لهوية الحارس.

وقد طور كاتب إسرائيلي آخر هو يشعيا هو ليبوفتس استعارة الحارس هذه ولكن في اتجاه مغاير حين وصف إسرائيل (في حديث له في صحيفة لوموند. بتاريخ ١٩٧٤/٣/٨م) بأنها «عميل للولايات المتحدة»، ووصف الإسرائيليين بأنهم «كلاب حراسة للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، ويتعلق بقاؤنا بقدرتنا على القيام بهذه المهمة»(٣٠). وقد طور الصحفي الإسرائيلي عاموس كينان هذه الاستعارة المثيرة وجعلها أكثر حدة وإثارة إذ وصف إسرائيل بأنها «كلب حراسة رأسه في واشنطن وذيله في القدس، وهي كلب قوى لكنه يحتاج إلى حماية(٣١). وهذا تطوير آخر لاستعارة مخلب القط في اتجاه عالم الحيوان بدلا من عالم الإنسان، وإن كان القاسم المشترك الأعظم بين الحارس وكلب الحراسة ومخلب القط والعاهرة والكنز الاستراتيجي والذراع الحربي أنها تحول اليهود إلى أداة في يد الغرب يقوم على رعايتها، وتقوم هي على خدمته. وقد مزج هرتزل مؤسس الصهيونية، كل العناصر في استعارته الشهيرة حينما قال: «سنقيم هناك [في آسيا] جزءاً من حائط لحماية أوروبا يكون عبارة عن حصن منيع للحضارة (الغربية) في وجه الهمجية(٣٢)، فقد مزج الإنسان والمكان بحيث أصبحا حائطا غربيا يقف في مواجهة الشرق. (يلاحظ أن كلمة «إسرائيل» في العبرية كلمة متعددة المعاني متنوعة الدلالات وتشير للأرض والشعب تماما كما يفعل هرتزل؛ وتوحيد التسمية هو تعبير عن الحلولية الصهيونية التي سنتناولها في الفصل الرابع.

ولكن استعارة الحائط (رغم دقتهـا وحدتهـا) استعارة تقليـدية شـأنها شأن الاستعارات السابقة مستمدة مادتها من القرن التاسع عشر قبـل تفجر الثـورة التكنولوجية، وتزايد معدلات نمو الصناعات الحربية وتنوعها. ولذا كان لا بد من تطوير الاستعارة بشكل يتفق مع روح العصر في أواخـر القرن العشـرين حتى تسهل عملية الإدراك، وهذا ما أنجزه يعقوب ميريدور وزير التخطيط والتنسيق الاقتصادي (١٩٨٢ ـ ١٩٨٤م) الذي قال في حديث له للإذاعة التابعة للجيش الأمريكي إنه لولا وجود إسرائيل كقاعدة وكمنطقة نفـوذ وكحليف للولايات المتحدة لاضطرت الأخيرة لبناء «عشر حاملات طائرات»(٣٣). وهو بذلك يكون قد أحل استعارة إسرائيل كحاملة طائرات (أمريكية)» محل استعارة هرتزل وكل الاستعارات الغامضة أو الفاضحة الأخرى. وترد الاستعارة نفسها، وبشكل أكثر تبلورا، في مقال الصحفي الإسرائيلي سبير والمعنون بـ «مجتمع يتغذى على الهبات الخارجية» إذ قال الكاتب: «إن الأمريكيين يدفعون لنا لأنهم يريدون أن تكون لهم دولة تابعة مجهزة بأفضل الأسلحة والجنود.» «وصفها بأنها» حاملة طائرات عليها أربعة ملايين نسمة في موقع استراتيجي فريـد من نوعـه، وقريب من الاتحـاد السوفيتي، وقريب من أوروبا الشرقية، وقريب من حقول النفط»(٣٤). إسرائيل إذاً «حاملة طائرات» ـ أي أنها وظيفة تؤدى أو دور يلعب أو ثروة استراتيجية تضم أربعة ملايين مقاتل، واستعارة «الحاملة» ولا شك أكثر دقة ودلالة من سابقاتها لأنها لاتتحدث عن دور الدولة الصهيونية أو وظيفتها بشكل عام، وإنما تعرف ـ وبدقة بالغة ـ طبيعته الاستراتيجية كدولة عميلة عسكرية تتواجـد في الشقوق والثغرات قريبة من الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشـرقية وحقـول النفط. وتؤكد الاستعارة حركية هذه الاداة النافعة الثمينة وإمكانية نقلها من مكـان حدودي لآخر (ولكن الاستعارة تظهر أيضا أنه يمكن الاستغناء عنها، فالأجزاء الميكانيكية ليست عضوية!). وتنفي الاستعارة عن إسرائيل أي دور اقتصادي مباشر وتؤكد دورها الاقتصادي غير المباشر. ولعل «الاتفاق الاستراتيجي» والذي تم توقيعه بين الولايات المتحدة وإسرائيل عام ١٩٨٤ هو تتويج لهذا الإدراك لطبيعة دور

الدولة الصهيونية وعلاقتها مع العالم الغربي.

والثروة الاستراتيجية ، والأداة القتالية عادة ما تتبعان ما يقوم على رعايتهما وتمويلهما حتى تقوما بأداء دورهما بكفاءة. وإحدى علامات الكفاءة الأكيدة في الآلة ألا تكون باهظة التكاليف، وأن يكون عائدها الاقتصادي عاليا يبرر الاستمرار في تمويلها. وكلما كانت الآلة رخيصة حسنت في وجه صاحبها. فمن يريد امتلاك آلة عائدها أعلى من تكلفتها؟فالآلة ليست هامة في حد ذاتها، وإنما هي هامة بمقدار ما تقدمه من خدمات لصاحبها وما تحققه له من أرباح. ولذا فأي إنسان عاقل لا بد من أن يقدم دراسة جدوى بالنسبة للآلة. والآباء الصهاينة الذين كانوا يتسمون بالعقل قدموا دراسة الجدوى هذه.

وكما جاء في الأدبيات الصهيونية فإن الاحتفاظ باسرائيل قاعدة للمصالح الغربية عملية غير مكلفة بالقياس لأي عملية بديلة. وقد أدرك هرتزل ـ بمكره ودهائه ـ أن ثورة الفلاحين المصريين ستجعل مصر مكلفة للغاية بالنسبة لانجلترا، الأمر الذي يجعل المشروع الصهيوني، بتكاليفه الزهيدة، شيئا مغريا. واستخدم وايزمان الاستعارة التجارية، التي سبقت الاشارة إليها، لبيع المشروع الصهيوني، فكتب إلى تشرشل يقول: «إن السياسة الصهيونية في فلسطين ليست على الإطلاق تبديداً للموارد، وإنما هي التأمين الضروري الذي تعطيه لك بسعر أرخص من أن يحلم به أي فرد آخر. (٣٥) وأفاض وايزمان في شرح وجهة نظره، مبيناً أن الاستعمار البريطاني، بتأييده المنظمة الصهيونية ، قد وضع ثقته في مجموعة مستعدة أن تتحمل قدرا كبيرا من المسؤولية المادية عن الاستعمار، «وإذا تبين أن تكاليف الحامية البريطانية ستكون مرتفعة ، فعندئذ يمكن تنظيم وتسليح المستعمرين اليهود». ثم يتساءل وايزمان بشكل خطابي: «هل تمت أي عملية استعمارية أخرى تحت ظروف مواتية أكثر من هذه، أن تجد الحكومة البريطانية أمامها منظمة لها رجل كبير، على استعداد أن تضطلع بجزء من مسؤولياتها التي تكلفها الكثير؟»(٣٦).

ولا يزال ابناؤها في فلسطين المحتلة يتمتعون بنفس الرشد الاقتصادي.

فقد ركز ميريدور على مدى رخص الدولة الصهيونية وانخفاض ثمنها. ففي حديثه الإذاعي الذي سبقت الإشارة إليه، والذي ذكر فيه أن إسرائيل تحل محل عشر حاملات طائرات قدم الوزير الإسرائيلي كشف حساب بسيط جاء فيه أن تكلفة بناء عشر حاملات طائرات تبلغ ٥٠ بليون دولار. ثم أضاف الوزير, وهو الخبير بالأمور الاقتصادية. أنه لو دفعت الولايات المتحدة فائدة قدرها ١٠٪ على تكاليف تشييد هذه الحاملات،كماأنه- والحق يقال- ان سعر الفائدة معتدل للغاية، إذ إن مصر على سبيل المثال تدفع أكثر من ذلك فائدة على قروضها من الولايات المتحدة (وترفض هذه الدول العظمى تخفيض الفوائد). (وقد كان الوزير متسامحا مع الولايات المتحدة إذ إنه لم يذكر تكلفة الجنود الذين ستحملهم حاملات الطائرات أو الحرج السياسي الذي سيسببه وجود مثل هذه القوات) لو دفعت الولايات المتحدة مثل هذه الفائدة لبلغت خمسة بلايين دولارا. وحيث إن المعونة الأمريكية لاتصل بأي حال إلى هذا القدر، فقد اختتم ميريدور حديثه بملحوظة فكاهية ولكنها في الوقت ذاته بالغة الدلالة، اذ قال: «أين إذاً بقية المبلغ؟(٣٧) ويبدو أن هذا هو الخط الإعلامي الاسرائيلي أمام الامريكيين. ففي العام نفسه بيّن آريل شارون Ariel Sharon أن المعونات التي قدمتها الولايات المتحدة للكيان الصهيوني لاتزيد عن ثلاثين مليارا من الدولارات، أما الخدمات التي قدمتها إسرائيل إلى امريكا فتفوق مئة مليار دولار». ثم قال بشكل جدي ماقاله ميريدور بشكل فكاهي: «إن الولايات المتحدة لاتزال مدينة لنا بسبعين مليارا»(٣٨).

وترد الفكرة نفسها، كما يرد كشف حساب مماثل، في مقال لشلومو ماعوز المحرر الاقتصادي للجيروساليم بوست بعنوان: «صفقة استراتيجية(٣٩) حيث أشار إلى أن الإسرائيليين يعرفون جيدا أن مساعدة الولايات المتحدة للدولة الصهيونية هي في جوهرها مساعدة لخدمة مصالح الولايات المتحدة الاستراتيجية. «فالولايات المتحدة تدفع سنويا ١٣٠ بليون دولار لقواتها في حلف شمال الاطلنطي، و ٤٠ بليونا للوفاء بالتزاماتها في المحيط الهادي»، وبالتالي

«فمساعداتها العسكرية والمدنية لإسرائيل صغيرة بشكل مضحك اذا ماقورنت بالمبالغ آنفة الذكر، خصوصا إذا ماتم النظر إلى هذه المساعدات باعتبارها استثمارا لحماية مصالح أمريكا في المنطقة».

وهذا هو الإدراك الغربي لإسرائيل. فالمدافعون عنها في الولايات المتحدة لايلجأون أبدا للحديث عن المغانم الاقتصادية الثانوية التافهة وإنما يشيرون دائما إلى الحليف الذي يمكن التعويل عليه، وإلى المغانم الاستراتيجية الأساسية الهائلة. وقد عبرت مجلة الايكونومست Economist (في ٢٠ يوليه ١٩٨٥) عن موقف هؤلاء بقولها: إذا كان من الممكن لأمريكا أن تدفع ٣٠ بليون دولار كل عام تكاليف حلف الاطلنطي (لتحقيق أهداف استراتيجية) فمن المؤكد أن اسرائيل «وهي المخفر الأمامي والقاعدة المحتلة، تستحق مبلغا تافها مثل ٤ بلايين دولار». (ومن الواضح ان الايكونومست حسبت التكاليف بطريقة مغايرة للطريقة التي حسبها بها شلومو ماعوز).

وقد لخص سبير كل الموضوعات والاستعارات السابقة في قوله: إن الزعماء الإسرائيليين مضطرون دائما لأن يذكّروا «القيادة الأمريكية» في واشنطن بمقدار تكلفة تواجد الجيش الأمريكي في غرب أوروبا مقابل تكلفة الهبات الممنوحة لهم». وقد بين أن الجيش الاسرائيلي ليس خدمة حربية كامنة وحسب وإنما هو أيضا خدمة «رخيصة»، بل «انه أرخص من أي خيار عسكري آخر محتمل لأمريكا في منطقتنا»، وحسب ماجاء في مقاله يوافق البنتاغون على هذا الرأي، ولذا لايبدي خبراؤه «أي تأفف إزاء الحساب الذي يقدمه الإسرائيليون، حتى أن هناك من يرى فيه أنه رخيص نسبيا»(٤٠)، الأمر الذي يدل على أن نبوءات الزعماء الصهاينة وحساباتهم كانت تتسم بالدقة، وأن السلعة الصهيونية لاشك مربحة، وأنهم لم يخدعوا أحدا.

والسمة الراهنة للاستعمار الصهيوني هي استقلال الجيب الصهيوني النسبي عن الغرب (إذا ماقيس بجيوب استيطانية أخرى) واعتماده الكامل عليه وقد يبدو

ولأول وهلة كأن هناك تناقضاً بين ماذكرناه عن استقلاله النسبي . ولكن سيختفي التناقض تماما إن تذكرنا أن الاستعمار الصهيوني ليس «جزءا (عضويا) لايتجزأ من الاستعمار الغربي» (وهذه استعارة عضوية تفترض توحد الجزء في الكل)، وإنما هو آلة في يد الغرب (وهذه استعارة آلية تفترض وجود علاقة نفعية بين الغرب واسرائيل) .

ومن الملاحظ أن الدولة الاستيطانية تعتمد على إحدى الدول الغربية، في مرحلة أو في مرحلة أخرى من تطويرها، وتحدد مدى هذا الاعتماد ومدته والشكل الذي يأخذه مجموعة من الظروف التاريخية والسياسية . فالجيوب الاستيطانية التي لاتقوم على أساس نقل السكان من مكان لآخر (مثل أنجولا والجزائر) تظل منفتحة تماما على الوطن الأم، وتحتفظ بروابط قوية معه، وتستمد إحساسها بهويتها منه، ولذا فإن كل مايقرره الوطن الأم يكون بمثابة القانون الذي يجب أن ينفذ، لأن الجيب الاستيطاني، في هذه الحالة، مهما بلغ من قوة واستقلالية، لايعدو أن يكون جزءا عضويا من الوطن المستعمر . وإذا تعارضت المصالح بين الوطن والجيب الاستيطاني، لسبب أو لآخر، وثبت أن الأخير مكلف ومعوق، فإنه يتم تصفيته بشكل منتظم أو غير منتظم، ويتم إعادة المستوطنين إلى أرضهم الأصلية التي نزحوا عنها، ويتم حسم الصراع لصالح الدولة الأم . ومن ناحية أخرى تحصل المقاطعات، التي تقوم على أساس نقل السكان، على درجة من الحكم الذاتي والاستقلال النسبي عن الدولة الغربية التي ترعاها، ويستولي المستوطنون، إن عاجلا أو آجلا، على السلطة، ويقيمون دولة خاصة بهم، قاصرة عليهم، كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة ودولة جنوب أفريقيا العنصرية .

وكان المخطط الصهيوني يهدف إلى أن تكون الدولة الصهيونية من النمط المستقل . وحين سأل سيسل روديس وايزمان عن اعتراضه على «وجود سيطرة فرنسية محضة» على الدولة الصهيونية، رد الزعيم الصهيوني قائلا : إن الفرنسيين ليسوا كالإنجليز، إذ إنهم «يتدخلون دائما في شؤون السكان (أي المستوطنين)،

ويحاولون أن يفرضوا عليهم الروح الفرنسية»(٤١)، بينما كان الهدف أن تجسد الدولة الصهيونية الروح اليهودية. وقد قام الصهاينة فعلا بطرد الفلسطينيين وأنشأوا دولتهم الصهيونية المستقلة.

ولكن التطورات التاريخية أظهرت أن الجيب الصهيوني لايندرج تحت أي نوع من نوعي الاستيطان، فهو يعتمد على قوة غربية عظمى، ولكنه، في الوقت نفسه، يتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلال. ومثل هذا الوضع الشاذ يمكن إرجاعه إلى عدة عوامل خاصة بالصهيونية وحدها. فالمستوطنون الصهاينة لم ينشأوا في دولة أوروبية واحدة يدينون لها وحدها بالولاء، وتقدم هي لهم بدورها الحماية أو المأوى في حالة تصفية الجيب الاستيطاني. فالصهاينة، على عكس سكان المستوطنات الآخرين، ليس لهم وطن أم، وإنما لهم زوجة أب فحسب (إن أردنا استخدام الاستعارة نفسها) مستعدة للتعاون معهم ولكن في حدود. فالعلاقة بين المستوطنين الصهاينة والدولة الغربية التي ترعاهم تستند إلى المصلحة المشتركة فحسب، وليست نتاج روابط حضارية عميقة أو عضوية، ولذا فالجيب الصهيوني لايتمتع بالحماية الدائمة من جانب دولة واحدة، وإنما يتمتع بالحماية المؤقتة من جانب عدد من الدول، الواحدة تلو الأخرى. ولعل هذا يفسر سبب نقل القيادة الصهيونية مسرح نشاطها من مركز جذب إلى آخر؛ فقد انتقلت من تركيا إلى فرنسا مرورا بألمانيا، ثم في النهاية استقر بها المقام في إنجلترا. ومنذ عدة سنوات، حين أصبحت الولايات المتحدة أكبر القوى الامبريالية، كان من الواجب نقل «مركز الجاذبية الصهيوني بالنسبة للعمل السياسي على الصعيد الدولي» إلى هناك (على حد قول بن جوريون). ولكن بسبب هذا الوضع ذاته حقق الجيب الاستيطاني قدرا كبيرا من الاستقلال يفوق كثيرا درجة الاستقلال التي تتمتع بها الجيوب الأخرى.

ولكن بعد أن حقق الجيب الاستيطاني ضربا من الاستقلال النسبي بسبب عدم اعتماده على دولة غربية واحدة، وبسبب تخلصه من السكان الأصليين

اتضح العداء والمقاومة من جانب السكان المطرودين، ولذا اضطرت الدولة الصهيونية الى الارتماء في أحضان الدولة الغربية الحامية بشكل متطرف. وقد بين جابوتنسكي نفسه أن الدولة الصهيونية، «المحاطة بالدولة العربية من كل جانب» ستسعى دائما إلى الاعتماد على أيٍ «امبراطورية قوية، غير عربية وغير إسلامية»، وعد هذه الانعزالية «أساسا إلهيا لإقامة تحالف دائم بين إنجلترا وفلسطين اليهودية (واليهودية فقط)»(٤٢) أي أن الدولة اليهودية المستقلة تعتمد اعتماداً كاملا على الدولة الغربية التي تحميها.

هذا الإيقاع المركب من الجذب والتنافر، من الحكم الذاتي والاعتماد على المذل، ومن التحالف مع الدولة الحامية والصراع معها، هو الذي ميز العلاقات الصهيونية- الغربية منذ البداية، فقد حاول كل جانب أن «يستغل» الآخر، وأن يحدد منطقة «المصالح المشتركة» بطريقة تخدم مصالحه هو أساسا. ولعل العلاقة بين انجلترا والجيب الصهيوني خير دليل على مانقول. فكما بيّنا من قبل كان الاسترجاعيون البريطانيون أول من طرح فكرة توطين اليهود في فلسطين، وكان لهم الفضل في إعداد المناخ المناسب لتلقي الفكرة الصهيونية. ولم يتمكن الصهاينة من اكتساب موطىء قدم في الأرض الفلسطينية إلا من خلال وعد بلفور والانتداب البريطاني الذي فتح بوابات فلسطين على مصراعيها أمام الهجرة اليهودية. ولم يشدد المستوطنون الصهاينة قبضتهم علىالأرض،ولم يتزايد عددهم إلا بعد تعاونهم الكامل مع حكومة الانتداب(٤٣). وعندما زادت المقاومة العربية في فلسطين، عام ١٩٣٠ وبعده، قامت بريطانيا بحماية الصهاينة بشكل علني وسري. وقد وصف بن جوريون موقف حكومة الانتداب والحكومة البريطانية أثناء هذه الفترة العصيبة بأنه «أكبر نجاح سياسي منذ صدور وعد بلفور»(٤٤). وقد بيّن أحد مراسلي هآرتس، في مقال له عن التوازن العسكري في فلسطين، أن قوة الصهاينة بعد ثورة عام ١٩٣٦ كانت تستند إلى «التأييد القوي الذي تلقوه من جانب الحكومة والجيش البريطاني في فلسطين»(٤٥)، وهو الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى الانتصار الصهيوني عام ١٩٤٨.

ولكن العلاقة بين الاستعماريين البريطانيين والصهاينة ساءت تحت ضغط عوامل جديدة في الموقف، من بينها الضغوط التي مارستها الحكومات العربية «الصديقة» على الحكومة البريطانية، وتصاعد المقاومة الفلسطينية، إلى جانب زيادة المخاوف البريطانية من احتمال تغلغل عملاء الجستابو بين صفوف المهاجرين اليهود. وقد ساد الاعتقاد في ذلك الحين (وتأكد فيما بعد) أن النازيين قد مدوا يد العون للهجرة الصهيونية(الهجرة غيرالشرعية) ، وأنهم قرروا استغلالها وسيلة لخلق مشاكل للبريطانيين في الشرق الأوسط. هذه العوامل الجديدة أدت إلى خلق التناقض بين الاستعمار الصهيوني وحكومة الانتداب، ومن ثم أصدرت الحكومة البريطانية عددا من القوانين والكتب البيضاء التي تظهر «تفهما» لمطالب العرب، وتم إحياء بعض المفاهيم الأساسية- التي طالما تجاهلها البريطانيون- مثل الطاقة الاستيعابية لفلسطين. وقد كان التناقض بين الحكومة البريطانية والجيب الصهيوني يأخذأشكالا حادة ومتطرفة أحيانا، كما ظهر في حالة نسف فندق الملك داود.

بيد أن الصراع بين الطرفين تم احتواؤه، وقد حاول جابوتنسكي أن يبرر مناهضته المزعومة لبريطانيا (في خطاب أرسله الى ليوبولد إمري عام ١٩٣٥).فأكد أنه، على الرغم من النقد الذي يوجهه إلى بريطانيا ، لا يزال يكّن لها الولاء والامتنان ، «وطالما ظل وعد بلفور قائما، فهو يؤيد انجلترا سواء أكانت على صواب أم على خطأ»(٤٦). وكان بن جوريون مستعدا أن «يقسم»، حتى أثناء الفترة التي توترت فيها العلاقات بين إنجلترا والجيب الصهيوني، أن «دولة اليهود في فلسطين ستقوم بحماية المصالح البريطانية»(٤٧). وبعد إنشاء الدولة الصهيونية، عادت العلاقات مع بريطانيا إلى سابق عهدها، وأصدرت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية الإعلان الثلاثي لضمان بقاء اسرائيل. وقد وصل التعاون مع الامبريالية الغربية، وخصوصا بريطانيا، إلى ذروة جديدة مع العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦. ولكن هذه العلاقات الطيبة لم تدم طويلا؛ ففرنسا، في عهد ديجول خاصة، اتخذت موقفا أقل ممالأة لإسرائيل عن ذي قبل، وتبعتها إنجلترا، وإن كان بدرجة أقل.

ويعقد الموقف تمتع يهود العالم بدرجة من الاستقلال النسبي، وإن كانوا يشكلون في الوقت ذاته جزءا من كيان أكبر يخضعون لقوانينه وتوجيهاته (وهم في هذا يشبهون الدولة الصهيونية من بعض الوجوه). فاليهود الامريكيون يمدون إسرائيل بالمساعدات المالية والسياسية بحماس شديد، ولكن مثل هذه المساندة ستستمر طالما توجد مصالح مشتركة أساسية بين الولايات المتحدة وإسرائيل. وتلعب صهيونية الشتات دورا مزدوجا، فهي تقوم بالضغط على الولايات المتحدة لتحصل إسرائيل على درجة من الحرية والاستقلال أكثر من أي دولة أخرى تابعة، ولكن (وهنا تكمن سخرية الموقف) سيجد يهود الشتات أنفسهم، في مرحلة ما، مضطرين إلى أن يمارسوا الضغط على اسرائيل عندما تقرر الولايات المتحدة أنه ينبغي على اسرائيل أن تغير سياستها بطريقة تتمشى مع المصالح الدولية الامريكية. إن تاريخ الصهيونية تاريخ مليء بالتوترات، ليس بين الصهيونية ويهود الشتات فحسب، ولكن بين الصهيونية الاستيطانية وصهيونية الشتات (الدبلوماسية والمالية) كذلك. وقد ظهرت تلك التوترات بوضوح في المجادلات التي دارت بين الزعيم الصهيوني الامريكي لويس برانديز (١٨٥٦-١٩٤١) ووايزمان، وبين جولدمان وبن جوريون، كما تتضح أيضا، في الوقت الحالي، حين يعترض صهاينة الشتات على سياسة الضم والتوسع التي تنتهجها الدولة الصهيونية، التي تسبب لهم شيئا من الحرج في أوطانهم، كما لو كانت تلك السياسة مجرد انحراف، وليست جزءا جوهريا ونتيجة منطقية للرؤية الصهيونية.

والسمة الخامسة المميزة للاستعمار الاستيطاني الصهيوني هي طبيعته التوسعية، لقد أقيمت الدولة الصهيونية دولة للشعب اليهودي بأسره. وهذه الرؤية لاتشجع على القيام بعملية محدودة لنقل السكان أو طردهم فحسب، وإنما تترجم نفسها إلى توسع لانهائي. وقد طلب صحفي صهيوني من هرتزل، بعد انتهاء المؤتمر الصهيوني الأول، أن يدرس «برنامج فلسطين الكبرى قبل أن يفوت الأوان... إنك لن تستطيع أن تضع عشرة ملايين يهودي في أرض مساحتها ٢٥,٠٠٠ كيلو متر مربع»(٤٨). كما طلب الصهيوني غير اليهودي، وليام هكلر،

من هرتزل (في ٢٦ ابريل ١٨٩٦) أن يتبنى الشعار التالي ويروجه شعارا للدولة اليهودية: «فلسطين داود وسليمان»(٤٩).ويبدو أن الاقتراح قد ترك انطباعا ايجابيا لدى الزعيم الصهيوني، لانه، بعد عامين، حدد منطقة الدولة اليهودية على أنها تمتد من «نهر مصر الى الفرات»(٥٠). وقد ردد الحاخام فيشمان- عضو الوكالة اليهودية- هذا الشعار في ٩ يوليه ١٩٤٧، أثناء شهادته أمام لجنة التحقيق الخاصة التابعة للأمم المتحدة، فقال: «الأرض الموعودة تمتد من نهر النيل حتى الفرات، وتشمل أجزاء من سوريا ولبنان»؛ فشعار «من النيل الى الفرات» ليس مجرد فرية عربية وليس نتاج العقلية التآمرية، إنما هو جزء من التصور الصهيوني.

ومع هذا لاينبغي على المرء أن يأخذ صيغة «من الفرات الى النيل» هذه بجدية تامة، فهي لاتعدو أن تكون أحد الأوهام الصهيونية تماما مثل انجلترا الصغيرة، أو سلسلة المستعمرات الصهيونية التي كان يحلم هرتزل أو نوردو بها. ولكن مع ذلك يجب على المرء ألا يهمل أوهام العدو عن نفسه كليا، فهي تعطينا مؤشرات على اتجاهه وحركته. وعلى كل فما يهمنا في السياق الحالي ليس الحدود الجغرافية أو التاريخية الوهمية للدولة الصهيونية، وإنما تهمنا الديناميتية الصهيونية التوسعية ذاتها. وقد يكون من الأفضل أن نأخذ بعين الاعتبار الكلمات التي سجلها هرتزل في يومياته حين قال: «كلما زاد عدد المهاجرين اتسعت رقعة الأرض»(٥١). والطريف أن هذا التصور الصهيوني لايختلف كثيرا عن التصور التقليدي لبعض الحاخامات اليهود. فقد ورد في الأسفار تصوران مختلفان لحدود الأرض المقدسة، فهي في سفر التكوين (١٨/١٥) «من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»، ولكن في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر العدد تحدد على أنها «أرض كنعان بتخومها». وقد حل الحاخامات هذه المشكلة بأن شبهوا الأرض بجلد الإبل الذي ينكمش في حالة العطش والجوع ويتمدد بالشبع والري؛ فالأرض المقدسة تنكمش إذا هجرها ساكنوها من اليهود، وتتمدد وتنفرج إن جاءها اليهود من بقاع الأرض. ويبدو أن القيادة الصهيونية، منطلقة من تصورات سياسية شبيهة، آثرت عدم إعلان دستور للدولة الصهيونية حتى يترك

المجال مفتوحا أمام التوسع اللانهائي ؛ لأن الدستور الرسمي يتطلب رسما دقيقا للحدود(٥٢).

وفي ١٢ فبراير سنة ١٩٥٢ تحدث موشي ديان صراحة عن إنشاء امبراطورية إسرائيلية(٥٣). ويرى وزير الخارجية الإسرائيلي السابق عملية التوسع على أنها عملية مستمرة لم تنته بعد؛ فعملية بناء الوطن- على حد قوله- بدأت منذ مائة عام، أي عملية البناء والتوسع وجلب المزيد من اليهود وتشييد المستعمرات «لن ندع أي يهودي يقول إن هذه هي نهاية العملية، ولن ندع أي يهودي يقول إننا نقترب من نهاية الطريق»(٥٤).

وقد أعلن الكاتب الاسرائيلي أليعازر ليفينه- عضو حركة إسرائيل الكبرى- (هآرتس ١٢ نوفمبر ١٩٧٣) معارضته لقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ على أساس أنه قد يسفر عن خنق الصهيونية، «وهي في ذروة قوة دفعها». . «فالانتصارات» الصهيونية هي التي أعطت دفعة قوية لحركة الهجرة من الاتحاد السوفيتي، على عكس الانسحاب من الأراضي، الذي يتسبب في ضعف الصهيونية ووهنها. وأضاف أن التوسع الصهيوني هو الذي يعطي المجتمع الإسرائيلي معنى وهدفاً(٥٥).

ولأن الجيب الصهيوني مرتبط بيهود الشتات، فلن يتمكن قط من تحقيق أي نوع من أنواع الاستقرار أو التحديد. بيد أنه ينبغي ألا نتصور أن إسرائيل تتوسع بسبب يهود الشتات فحسب، أو بسبب رؤيتها القومية/الدينية، لأن التوسع الصهيوني له جوانبه الاقتصادية الواضحة، لأنه يحقق الكثير من المكاسب المادية للدولة الصهيونية، مثل الاستيلاء على حقول البترول في سيناء والأراضي الفلسطينية التي تساعد العدو على التنمية الاقتصادية. وتشير الدراسات الأخيرة إلى أن اعتماد الاقتصاد الاسرائيلي على الضفة الغربية أصبح كبيرا لدرجة يصعب معها تخيله منفصلا عن سوق الضفة الغربية وعمالتها، بل إن اسرائيل لتحصل الآن على ثلث ماتحتاج إليه من ماء من الضفة الغربية. ولكن تلك الجوانب

الاقتصادية والاستراتيجية من الاستعمار الصهيوني ليست قاصرة عليه، وإنما هي سمات يشترك فيها مع أنماط الاستعمار الأخرى، واهتمامنا في السياق الحالي ينصب على الجوانب السياسية والاقتصادية الفريدة للتوسع الصهيوني؛ ويهود الشتات، مفهوما وحقيقة، وهو شيء فريد وخاص بالاستيطان الصهيوني يميزه عما سواه.

والسمة السادسة للاستعمار الصهيوني أنه جيب استيطاني منفصل عن المحيطين الإنساني والحضاري اللذين يحيطان به. ولكنه- على الرغم من هذا- يجد نفسه تدريجيا يندمج فيه من خلال ديناميات لايمكنه التحكم فيها. ويمكننا التمييز بين نوعين أساسيين من أنواع الاستيطان، النوع الانفصالي، والنوع الاندماجي. أما النوع الانفصالي فيتسم بأن المستوطنين الأوروبيين يحتفظون باستقلالهم الحضاري والاقتصادي والعرقي عن السكان الأصليين الذين يكون مصيرهم عادة الإبادة أو العزلة الكاملة كما هو الحال في أمريكا الشمالية، حيث تمت إبادة العنصر الأصلي- الهنود الحمر- إبادة شبه كاملة، وفي جنوب إفريقيا، حيث سنت القوانين الصارمة لمنع التزاوج أو مجرد الاختلاط بين الأجناس.

ولذا نجد أن العنصرين البشريين، الأصلي والدخيل، يشكلان جماعتين مستقلتين استقلالا شبه كامل، ويتطوران منفصلين دون أي تفاعل بين أحدهما والآخر. أما في النوع الاندماجي فنجد أن المستوطنين يختلطون بالسكان الأصليين ويندمجون فيهم، بل ويذوب الواحد منهما في الآخر، كما هو الحال في أمريكا اللاتينية. ففي المكسيك، مثلا، تجري الآن دماء هندية وإسبانية وافريقية في عروق الأغلبية العظمى من السكان، ويبدو أن أنجولا كانت، هي الأخرى، في بداية هذا الطريق، حيث بدأ العنصر البرتغالي في الاختلاط بالعنصر الافريقي.

ولو حاولنا أن نضع إسرائيل في أي من هذين النمطين، لوجدنا أنها لاتنضوي تحت أي منهما، فهي أبعد ماتكون عن النمط الاندماجي، لأن أعضاء العنصر الديموجرافي الدخيل، (الصهاينة)، يحتفظون باستقلالهم التام عن الفلسطينيين،

فلا يتزاوجون معهم ولا يحاولون التفاعل الحضاري معهم، لأن الأيديولوجية الصهيونية هي أيديولوجية الانفصال بالدرجة الأولى.

ولكن على الرغم من كل جهودهم لم يستطع الصهاينة الاحتفاظ بهذا الانفصال، نظرا لعدم تجانس الصهاينة أنفسهم من الناحيتين الحضارية والعرقية. ففائض اليهود الأشكناز يضم البولنديين والروس والفرنسيين والألمان، بل حتى الأمريكيين. وكل مجموعة من هؤلاء لها أصل حضاري متميز يثير الخلافات التي تظهر أحيانا على السطح، كما حدث فيما يسمى حرب اللغة التي دار فيها الجدال بين مؤيدي الألمانية ومؤيدي العبرية كلغة للمستوطن الصهيوني.

ولكن مما زاد الأمور تعقيدا أنه على الرغم من أن الحركة الصهيونية لم تتوجه بشكل نشط إلى اليهود السفارد ويهود العالم الإسلامي الا أن ديناميات الموقف في الشرق الأوسط فرضت نفسها على الدولة الصهيونية، «وتسرب» السفارد إلى فلسطين، حتى أنهم بحلول عام ١٩٤٨، كانوا يشكلون ٢٢٪ من كل المستوطنين الصهاينة فيها(٥٦). لكن بعد عام ١٩٤٨ تحول التسرب إلى طوفان من اليهود، «البدائيين الشرقيين»- على حد قول موريس صمويل في مقالة عنوانها «لم يكن هذا هو مخططنا» -. ويقال إنهم يشكلون الآن أغلبية السكان اليهود في إسرائيل. ويرى صمويل أن هذا الطوفان هو بمثابة «هجوم على إطار الدولة ومؤسساتها يثير الاشمئزاز»(٥٧). وقد وصف كاتب في هآرتس (٢٨ أبريل ١٩٤٩) هذا التدفق السكاني على أنه هجرة جنس لم يعرف له مثيل من قبل في هذه البلاد، «أعضاؤه يتصفون بالقذارة ويلعبون الورق للحصول على المال، ويشربون الخمر حتى الثمالة، ويزنون، ويعاني كثير منهم من أمراض العيون والأمراض الجلدية والتناسلية الخطيرة، هذا فضلا عن الفسوق والسرقة»(٥٨).

ولايمكن انكار أن الحركة الصهيونية في مرحلة لاحقة اضطرت الى تشجيعهم على الهجرة لحل مشكلتها السكانية، الا أنها لم ترغب البتة في أن يأتي المهاجرون بأنماطهم الحضارية ويغيرون من هوية المستوطن الصهيوني التي كانت تهدف

الحركة الصهيونية إلى جعله اشكنازيا ـ أي غربي التركيب والاتجاه ـ، ولكن الذي حدث أن المهاجرين من البلاد الإسلامية والعربية جعلوا المستوطن الصهيوني كيانا غير متجانس منقسما على نفسه حين فقد لونه الغربي واكتسب صبغة «عربية» رغم أنفه. ويقال إن نسبة مئوية ضخمة من يهود المستوطن الصهيوني تنحدر من أصل عربي، وتتحدث العربية، وليس لها تراث تاريخي أو حضاري مستقل عن العرب. والوضع الاقتصادي المتدني لهؤلاء المستوطنين يجعلهم مواطنين من الدرجة الثانية داخل اسرائيل (وهذا ما يجعل الفلسطينيين مواطنين من الدرجة الثالثة). لكل هذا نشب نوع من الصراع الحضاري بين الشرقيين والغربيين من اليهود، وهو صراع كامن صامت ولكنه يظهر أحيانا على السطح.

بعد انهمار الشرقيين للجيب الاشكنازي صرح بن جوريون أنه يود أن يرى مزيدا من اليهود الغربيين يستوطنون إسرائيل لمنع تحويلها الى دولة شرقية(٥٩). وبالمثل فإن موشى دايان صرح أثناء وجوده في جنوب افريقيا عام ١٩٧٤ أن عدد المهاجرين الشرقيين يفوق عدد المهاجرين من أصل أوروبي، وأن هذه هي «أكبر مشكلة تواجهها إسرائيل». وقد ناشد جمهور الحاضرين حل «المشكلة الديمجرافية التي تواجهها إسرائيل، وذلك عن طريق الهجرة إليها»(٦٠). وينطلق كل هؤلاء الساسة الصهاينة من الايمان بالتفوق الأشكنازي الذي يظهر بشكل أكثر وضوحا في ادعاء ليفي أشكول أن مشكلة اليهود الشرقيين ليست، ببساطة، مسألة عدم معرفتهم «اليديشية»، ولكنها بالأحرى «مسألة عدم معرفتهم أي شيء»(٦١). ولقد بلغت هذه الجيتوية الأشكنازية حد التطرف، الذي يدعو إلى السخرية، حينما صرحت جولدا مائير أنها لاتفهم كيف يمكن أن يكون المرء يهوديا ولايعرف اليديشية، «لغة» يهود شرق أوروبا «المقدسة».

وفي سبيل حل جزئي للمشكلة، صرح بن جوريون (في خطاب ألقاه في الكنيست عام ١٩٦٠) أنه ينبغي تهيئة اليهود الشرقيين «لاكتساب المميزات المعنوية والثقافية العليا من أولئك الذين أنشأوا الدولة»(٦٢). أي اليهود الأشكناز،

الذين يتصورون أن تراث الجيتو اليهودي في شرق أوروبا هو تراث كل اليهود في كل زمان ومكان.

وبالفعل يتم، بصورة متعمدة، توجيه النظام التعليمي ليتلاءم مع المعايير والمثل الأشكنازية. وقد نفذت الجامعة العبرية، منذ بضع سنوات، مشروعا بحثيا ضخما الهدف منه ابتكار أساليب وطرائق تجعل الاطفال الشرقيين يتكيفون «مع الاتجاه الغربي للبرنامج المدرسي باسرائيل»(٦٣). وكان المنهج المدرسي، بوجه عام، يقلل من أهمية الانجازات التاريخية للجاليات السفاردية، بما في ذلك العصر الذهبي لليهود في إسبانيا في ظل الحكم العربي.

ولقد وصف سلزر الشعور العميق بالعزلة بين أعضاء المجتمع السفاردي في اسرائيل، وكيف أن بعض التلاميذ يزعمون، في بعض الأحيان بسبب الضغوط الاجتماعية القائمة، «أنهم فرنسيون، وينكرون أصلهم التونسي»(٦٤)، بل لقد ذهب بعضهم الى حد تغيير أسمائهم «لا إلى أسماء عبرية (محايدة) بل إلى أسماء أوروبية- يهودية مميزة»(٦٥).

هذا الصراع الحضاري حول المستوطن الصهيوني جعله من الناحية الموضوعية اندماجيا، أو على الاقل جعل النموذج الاندماجي كامنا فيه، على الرغم من الاتجاهات الانفصالية التي تفرضها النخبة الاشكنازية الحاكمة. ولهذا فقد يكون من المفيد، من الناحية التحليلية، ومن ناحية الممارسة، أن ننظر الى اسرائيل على أنها جيب استعماري استيطاني مثل جنوب افريقيا تماما، كما يمكن النظر اليها- من جهة أخرى- على أنها دولة انفصالية مثل كاتنجا وبيافرا.

الاعتذاريات الصهيونية:

والسمات الخاصة بالجيب الصهيوني ليست أمرا متصلا بجذوره أو بخصائصه الموضوعية فحسب، بل إن خصوصيته لتعبر عن نفسها، وربما بطريقة أكثر وضوحا، في الاعتذاريات الصهيونية، وفي الطريقة التي يسوغ بها الصهاينة الحقوق المزعومة التي خلعوها على أنفسهم. وقد قال الكاتب عاموس كينان: «إن

تفرد الصهيونية لايقع في استصلاح الصحاري، وإنما في الكذبة الحلوة التي تصحب تلك العملية»(٦٦). ولكن لنبدأ بعرض الاعتذاريات الصهيونية الاستعمارية العامة، أي الاعتذاريات التي لاتصدر عن منطلق أو تسويغ صهيوني خاص، وإنما تصدر عن منطلق استعماري عام، ثم نتناول بعد ذلك الاعتذاريات الخاصة والقاصرة على الاستعمار الصهيوني.

١ـ عبء اليهودي الأبيض:

قامت الجيوب الاستيطانية بتقديم اعتذاريات مفصلة لتسويغ وجودها الشاذ في كل من آسيا وافريقيا. وفي بعض الاحيان نجد أن الاعتذاريات الصهيونية من النوع التقليدي المألوف الذي يدافع عن نقاء الرجل الأبيض وتفوقه. ومما هو معروف أن الاستعمار الاستيطاني الأوروبي يستند إلى افتراضات وادعاءات عنصرية، تتعلق بالتفوق الحضاري والتاريخي المزعوم للحضارة الغربية وللرجل الأبيض، وهذه الادعاءات هي التي سوغت لأصحابها إدخال عنصر سكاني غربي أجنبي في قارتي افريقيا وآسيا، وقد وصف اللورد بلفور عملية الاستعمار الاستيطاني بأنها تعبير عن «حقوق وامتيازات الأجناس الأوروبية»، واعتبر عدم المساواة بين الأجناس حقيقة تاريخية واضحة(٦٧). أما ريتشارد كروسمان فكان يرى أن الاستعمار الاستيطاني الأوروبي يصدر عن منطلق الرجل الأبيض في جلب الحضارة إلى «السكان الأقل تحضرا في آسيا وافريقيا، وذلك عن طريق الاحتلال الفعلي للقارتين، حتى لو أدى ذلك الى ابادة السكان الأصليين»(٦٨). ولاشك في أنها طريقة غريبة ومدهشة أن تدخل الحضارة إلى شعب عن طريق ابادته. أما ماكس نوردو فقد اقترح حتى قبل تبنيه للرؤية الصهيونية، وتمشيا مع نظرته العنصرية الاستعمارية، توطين العمال الأوروبيين العاطلين، ليحلوا محل «الأجناس الدنيا» التي لا تستطيع البقاء خلال معركة التطور(٦٩).

هذا وقد قدم الزعيم والمفكر النازي ألفريد روزنبرج حجة مماثلة لإثبات براءته، خلال محاكمته في نورمبرج، مؤكدا للقضاة العلاقة العضوية بين

العنصرية والاستعمار. إذ أشار الى أنه عثر على لفظ «سوبرمان» لأول مرة في كتاب عن حياة اللورد كتشنر، الرجل «الذي قهر العالم». وبين روزنبرج أيضا أنه صادف عبارة «العنصر السيد» أو «العنصرالمتفوق» في مؤلفات عالم الأجناس الأمريكي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج، ثم أشار أخيرا الى أن هذا الضرب من التفكير الانثروبولوجي ليس سوى اكتشاف بيولوجي جاء في ختام أبحاث دامت ٤٠٠ عام(٧٠)، أي أن النظرية العنصرية، ونظريات التفوق العرقي، هي جزء من فكر الحضارة الغربية الحديثة. وفي قوله هذا الكثير من الصدق.

ومع ازدياد الحاجة إلى الأسواق والأراضي، وازدياد حدة الأزمات الاقتصادية والديموجرافيه في أوروبا ازدادت النظريات العنصرية حدة وعمقا. وقد بيّن مؤلف مدخل «العنصرية» في دائرة المعارف البريطانية أنه ليس من قبيل المصادفة «أن العنصرية ازدهرت في وقت حدوث الموجة الثانية الكبيرة من التوسع الأوروبي والتكالب على افريقيا»(٧١). وكما بينا من قبل حاول الصهاينة التعلق بذيل الاستعمار دائما، فليس غريبا أن نجدهم ينتسبون الى الجنس الأبيض حتى يتمكنوا من المشاركة في المزايا والحقوق التي منحها الرجل الأبيض لنفسه، وحتى يساهموا في حمل عبئه الحضاري الثقيل. فنجد أن عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين (١٨٧٦- ١٩٤٣) يؤيد في دراسته يهود اليوم النظرية التي تؤكد مواطن الشبه الجسماني بين الجنس اليهودي وأجناس آسيا الصغرى، ولاسيما الأرمن؛ إذ إنه يفضل- على حد قوله- أن يرى اليهود أعضاء في «الجنس الأبيض»، ويرحب بأي محاولات نظرية ترمي الى «توجيه الضربات للنظرية السامية» (أي انتساب اليهود للعرق السامي أو الحضارة السامية)(٧٢). ويرى روبين أن الاختلاف العنصري بين اليهود الأوروبيين ليس كبيرا إلى درجة تؤدي إلى التشاؤم من ثمار الزواج المختلط بين أعضاء الجنسين(٧٣).

وثمة اتجاه في التفكير الصهيوني يقصر لفظ «يهودي» على اليهود البيض وحدهم، أي الاشكناز. وقد أفصح روبين عن هذه الفكرة بصراحة بالغة في

كتابه آنف الذكر، حيث يناقش أثر الحركة الصهيونية على وعي كثير من «اليهود الغربيين»، وكيف أن محاولات الاستيطان الصهيونية كانت تستهدف ـ أساسا ـ تجنيد اليهود الأوروبيين، لااليهود الشرقيين على الرغم من أن «تجنيد وتوطين اليهود الشرقيين (من اليمن والمغرب وحلب (سوريا) والقوقاز) في المستعمرات الزراعية كان أكثر سهولة ويسرا»(٧٤).

ولكن على الرغم من أن المخطط الصهيوني الواعي استبعد اليهود الشرقيين، إلا انهم، مع هذا، قد «تسربوا إلى فلسطين فعلا»، وهو الأمر الذي لم يجد عنده القبول أو الرضا؛ لأن «الوضع الروحي والثقافي لهؤلاء اليهود كان منخفضا إلى حد أن الهجرة الجماعية لابد من أن تؤدي الى خفض المستوى الحضاري العام لليهود (الأشكناز) في فلسطين، وستؤدي الى نتائج سلبية»(٧٥). (وبعد مضي نصف قرن ردد أبا إيبان الكلمات نفسها تقريبا في كتاب صوت اسرائيل).

وقد ذكر روبين قارئه بأن الاشكناز، بسبب طبيعة حياتهم في أوروبا، وبسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له، اجتازوا «عملية طويلة من الاختيار» وصراعا مريرا من أجل الحياة، وهو صراع «لايستطيع البقاء فيه سوى الأكثر ذكاء والأكثر قوة». ولذلك تمت المحافظة على «المواهب العنصرية الطبيعية العظيمة» التي يتمتع بها اليهود بل تقويتها. وقد ساهمت عوامل أخرى أيضا في تصفية غير الموهوبين، وفي الابقاء على «الأكثر موهبة»، الأمر الذي شكل ضمانا أكيدا على «التقدم الفكري للجنس» اليهودي. وبعد ذلك نبه روبين قارئه الى الحقيقة القائلة إن عملية الاختيار العنيفة هذه، التي تتم ـ أساسا ـ عن طريق الاضطهاد والعزل «أي الجيتو»، لاتنطبق إلا على الأشكناز وحدهم؛ ولذلك، على الرغم من اشتراكهم في الجذور العرقية مع السفارد، فإن الصراع من أجل البقاء أدى الى تفوق الأشكناز «في النشاط والذكاء والمقدرة العلمية على السفارد وعلى اليهود العرب». (٧٧)

لكل ماتقدم، يرى روبين أن الحقوق التي يدعيها الرجل الأبيض لنفسه

لاتنطبق على السفارد، وإنما تنطبق على الأشكناز وحدهم، فهم وحدهم القادرون على حماية عبء الرجل الأبيض، وعلى اغتصاب آسيا وافريقيا «ولايمكن للسفارد أن يحظوا بهذا الشرف الحضاري إلا بسبب الضرورة الاقتصادية الملحة، كأن يسمح لهم بالاستيطان في الجيب الصهيوني لأداء بعض الاعمال الشاقة التي يقوم بها العرب، وبالأجر نفسه الذي يتقاضاه العرب، وعلى شرط أن يأتوا في أعداد صغيرة». (٧٧)

إن هذه الرؤية للمستعمر الصهيوني، بوصفه رجلا أبيض، موضوعة أساسية في الاعتذاريات الصهيونية. فتيودور هرتزل كان يؤمن، تمام الايمان، بتفوق الرجل الأبيض، وكان مدركا، تمام الأدراك، ضرورة التنسيق بين الخطة الصهيونية الاستعمارية والمشروعات الاستعمارية المماثلة حتى لاتتعارض الحقوق المختلفة «للبيض». ولذلك قرر الزعيم الصهيوني، قبل أن يجتمع بتشمبرلين، أن من الضروري قبل مناقشة الخطة الصهيونية، أن يبين لوزير المستعمرات البريطاني أن هناك «بقعة ما في الممتلكات الانجليزية ليس فيها حتى الآن أناس بيض». (٧٨). وقد بين الروائي الإنجليزي والمفكر الصهيوني اسرائيل زانجويل «١٨٦٤ـ ١٩٢٦» في خطاب له أمام المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) أن الأستيطان الصهيوني في شرق افريقيا سيكون وسيلة لمضاعفة «عدد السكان البيض» التابعين لبريطانيا هناك. (٧٩)«ولكن يبدو أن المستوطنين البيض هناك لم يقبلوا تعريف اليهودي على أنه رجل أبيض، لأنهم عارضوا الاستيطان».

وقد حاول الصهاينة تسويغ الاستعمار الصهيوني بالرجوع الى فكرة التفوق الحضاري الغربي وانطلاقا من هذا التصور تحدث هرتزل عن الامبريالية على أنها نشاط نبيل، الهدف منه جلب الحضارة الى الأجناس الأخرى التي تعيش في ظلام البدائية والجهل (٨٠). وقد كان هرتزل ينظر الى مشروعه الصهيوني من خلال ذلك المنظار الغربي حين كتب رسالة الى دوق بادن يؤكد له فيها أن اليهود عندما يعودون الى «وطنهم التاريخي»، فإنهم سيفعلون ذلك بصفتهم «ممثلين للحضارة الغربية»، وأنهم سيجلبون معهم «النظافة والنظام والعادات الغربية الراسخة الى

هذا الركن الموبوء والبالي من الشرق» وسيقوم الصهاينـة بصفتهم من المؤيدين المتحمسين للتقدم الغربي، بمد خطوط السكك الحديدية في آسيا التي تعد الطريق البري للشعوب المتحضرة. (٨١).

ويؤكد كثير من تصريحات الصهاينة أنهم لايعتبرون أنفسهم كيانا عنصريـا منفصلا فحسب، بل يعتبرون أنفسهم أيضا أعضاء في الجنس الابيض. وفي عام ١٩١٧ كتب الزعيم الصهيوني مقالا تحت عنوان في «يهودا والخليل» وصف فيه المستوطنين الصهاينة في فلسطين لابوصفهم عاملين في هذه الأرض فحسب، بل على أنهم غزاة لها « لقد كنا جماعة من الفاتحين». (٨٢). وفي مقال آخر بعنوان «الحصول على وطن قومي» كتبه عام ١٩١٥، قارن بن جوريون بين الاستيطان الصهيوني والاستيطان الأمريكي في العالم الجديد، مستحضـرا صورة المعـارك العنيفة «التي خاضها المستوطنون الامريكيون ضد الطبيعة الوحشية، وضد الهنود الحمر الأكثر وحشية». (٨٣) ومما له مغزاه أنه ساوى بين الطبيعة والهنود، بـل وضعهم في مرتبة أدنى إذ هم أكثر وحشية منها. هذه المساواة تؤدي الى تجريـد الانسان وتحويله الى مجرد جزء من دورات الطبيعة، الأمر الذي يجعل إبادته أو نقله أمرامقبولا، بل مرغوبا فيه. أماوايزمان فقد فضل، في كتاب المحاولة والخطأ، أن يقارن بين المستوطنين الصهاينة من جهة والمستوطنـين الفرنسيـين في تونس والمستوطنين البريطانيين في كندا واستراليا من جهة اخرى. (٨٤) كما أظهر أيضاً تعاطفا ملحوظا ازاء المستوطنين البيض في جنوب افريقيا. (٨٥)

والاتجاه العنصري نفسه، الذي يسـوغ الاستعمار والعنف والإبـادة باسـم التقدم، يتضح في مذكرة بعث بها وايزمان الى الرئيس ترومان في ٢٧ نـوفمبر ١٩٤٧، يشرح له فيها أن المجتمع الصهيوني في فلسطين يضم ـأساساـ فلاحين متعلمين وطبقة صناعية ماهرة تعيش على مستوى عال، ثم قارن بين هذه الصورة «المشرقة» والصـورة الكئيبة للمجتمعـات الأمية الفقيـرة «في فلسطين» (٨٦). وبطبيعة الحال لم يحاول وايزمان أن يشرح للرئيس الأمريكي السبب الكامن وراء

هذا الوضع، ولا السبب الخفي وراء عدم بزوغ فجر الحضارة بعد خمسين عاماً من الاستعمار البريطاني والصهيوني.

٢ـ عبء اليهودي الخالص:

ولكن على الرغم من شيوع أسطورة اليهودي الأبيض وحقه في استعمار فلسطين فإنها لاتحتل مركز الصدارة في المصطلح الصهيوني؛ إذ إن الاعتذاريات الصهيونية تستند بصفة جوهرية إلى فكرة اليهودي الخالص «التي سنعرض لها بالتفصيل في الفصل الخامس». واليهودي الخالص غير مرتبط بأي جنس أو حضارة، شرقية كانت أو غربية، إذ إن اليهود حسب هذا التصور يشكلون جنسا مستقلا أو أمة مستقلة، وليسوا مجرد سلالة من سلالات الجنس الابيض أو الحضارة الغربية. وفكرة اليهودي الخالص، مثل فكرة الرجل الأبيض المتفوق، تمنح اليهود حقوقا معينة مقدسة وخالدة لاتتأثر بأي اعتبارات أو مطالب تاريخية. ولايمكن حتى للفلسطينيين أنفسهم أن يكون لهم حقوق أقوى أوحتى مماثلة لحقوق اليهود في فلسطين. ويتضح هذا التصور في كلمات الحاخام ج. ل. هاكوهين فيشمان ميمون، أول وزير للشؤون الدينية في إسرائيل، الذي أكد أن الصلة بين الشعب اليهودي وأرضه مقدسة أو هي سر من الأسرار الدينية. وقد يكون للآخرين، على أحسن الفروض، صلة ما، «سياسية وعلمانية وخارجية وعرضية ومؤقتة» في حين أن لليهود، حتى وهم في حالة الشتات، «صلة مباشرة بها، صلة سماوية وأبدية». (٨٧).

وفي مجال الدفاع عن هذه الأسطورة نصح مناحم بيجن بعض المستوطنين الصهاينة عام ١٩٦٩ أن يعيشوا جغرافيا في فلسطين، مع مواصلة التظاهر والاعتقاد بالزعم بأنها أرض أسرائيل. «إذا كانت هذه هي فلسطين أرض اسرائيل، إذاً فأنتم فاتحون، ولستم مزارعين يفلحون الأرض، أنتم إذا غزاة. إذا كانت هذه فلسطين فهي تنتمي إذاً إلى الشعب الذي عاش هنا قبل أن تأتوا إليها. لن يكون لكم حق العيش فيها إلا إذاكانت «أرض اسرائيل». (٨٨)

وإذا أصبحت فلسطين الأرض المقدسة أو أرض يسرائيل تصبح حقوق اليهود الخالدة سارية المفعول فيها ، فيصبح من الممكن الادعاء بأن فلسطين «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض». لقد كان الصهاينة يدركون أن الفلسطينيين يعيشون في فلسطين، وأن اليهود المشردين يعيشون في الأراضي التي ولدوا فيها. ولكن الرابطة الأبدية بين الأرض والشعب اليهودي هي التي تجعل من اليهود مجرد مشردين ورحّل بلا جذور، على الرغم من وجودهم في أوطانهم في كل أنحاء العالم، وهي التي تنكر وجود الفلسطينيين وتجعل مطالبهم القومية مسألة هامشية. ولذا يمكن إعادة صياغة الشعار على النحو التالي: «أرض مقدسة بلا شعب مقدس، لشعب مقدس بلا أرض مقدسة»، وفي هذه القداسة يذوب الفلسطينيون، وتصبح مطالبهم أمرا هامشيا وتافها، ولقد تحقق كل ذلك دون اللجوء لأي نظريات عرقية فاضحة.

إن أسطورة الحقوق الأبدية لليهودي الخالص في أرض فلسطين، التي تفترض هامشية السكان الأصليين، هي شكل من أشكال الاعتذاريات، يتسم بدرجة كبيرة من الغموض واللا أخلاقية، تفوق غموض ولاأخلاقية الاعتذاريات العنصرية التقليدية، التي تنسب التفوق الحضاري للمستغل والتدني الحضاري للمستغَل؛ فالأساطير التقليدية- في نهاية الأمر- تعترف بوجود الأخرين، أما الاسطورة الصهيونية الخاصة بالحقوق اليهودية فهي ترفض الاعتراف بوجوده. إن فلسطين الأرض المقدسة، «بلد بلا سكان»(٨٩)، لأن امتلاك فلسطين ليس من حق السكان الاصليين، ولايمكن للبشر، «يهوداً أكانوا أم عرباً» أن يتساءلوا عن معنى هذا القرار؛ لأن «محور مشكلة فلسطين»، وفقا لما قاله بن جوريون، «يتلخص في حق اليهود المشتتين في العودة» (٩٠)، وهو حق مطلق قائم منذ بداية التاريخ حتى نهايته.

وتتميز أسطورة حقوق اليهود المقدسة، التي تستند إلى فكرة اليهودي الخالص، بأنها لاتسبب الكثير من الحرج للصهاينة أو مؤيديهم في الغرب الليبرالي، نظرا لأن عنصريتها غير تقليدية، وغير واضحة. ولكن الأهم من هذا

هو أن مدى الأسطورة محدود ؛ لأن فعالية الحقوق اليهودية المقدسة لاتنصب على العالم بأسره ، وإنما تنصب على فلسطين وحدها . ومن المعروف أن الاعتذاريات العنصرية التقليدية ، مثل الأيديولوجيا النازية ، تقوم على تقسيم جميع الاجناس في العالم الى «متفوق» و«ذي مكانة دنيا» ، ومن هذا المنظور احتل الساميون والزنوج ، أينما وجدوا ، المكانة الدنيا ، في حين احتل الآريون «وعلى الأخص التيوتون» المكانة العليا . ومما يذكر ، أن مجال الامبريالية الغربية كان عالميا ، ولذلك فقد تطلب الأمر اعتذاريات تقوم بتبويب عالمي للأجناس ، يشمل الجنس البشري بأسره . هذا على العكس من الاستعمار الصهيوني ، الذي يهدف إلى احتلال فلسطين والمناطق المجاورة لها ، ولايشمل العالم بأسره . لذا لم يكن ثمة ضرورة أن تشمل الاعتذاريات الصهيونية كل الأجناس في كل العالم ، وإنما انصبت على إقليم واحد هو فلسطين ، وعلى شعب واحد ، هو الشعب الفلسطيني خاصة ، والعرب عامة .

وقد ساهم المدى المحدود لأسطورة الحقوق الأزلية لليهودي الخالص في الأرض المقدسة في أزالة أي توترات بين الاستعمار الصهيوني والقوى الاستعمارية الكبرى المختلفة في أوروبا . فالصهاينة احتفظوا بالانسجام التام مع هذه القوى لأنهم ربطوا حقوقهم الأزلية بقطعة أرض واحدة فحسب وهو مايعني عدم وجود مجال للتناقض ؛ فلن ينكمش مسرح الامبريالية العالمية إلا بمقدار قطعة أرض واحدة . بل إن الصهاينة ، كما بينّا من قبل ، أظهروا أن الدولة الصهيونية لن تستقل بهذه الأرض ، وإنما ستجد لنفسها مكانا ضمن إحدى الامبراطوريات الاستعمارية . كما أنها ستؤدي خدمة جليلة للغرب بإبعاد اليهود عن أرض أوروبا الطاهرة . ولقد حرص هرتزل على أن يبين «توازي» المصلحة بين كل من بريطانيا والصهاينة (٩١) .

ولعل من أصدق الأمثلة على تحقق الانسجام بين الصهاينة وإحدى القوى الامبريالية ، هو التعاون الذي تم بين النازيين والصهاينة ؛ فلقد شرع الصهاينة في نقل اليهود خارج الأرض النازية الى أرض أخرى ، وتساهل النازيون في هذا

الصدد، بل تعاونوا معهم. فقد جاء في أحد الأوامر النازية، التي أصدرها البوليس السري البفاري بميونيخ في ١٣ أبريل عام ١٩٣٥، أن «النشاط الصادق الذي يبذله الصهاينة في مسألة الهجرة تتقابل في منتصف الطريق مع نوايا الحكومة النازية فيما يتعلق بإبعاد اليهود عن المانيا». وقد آمن الصهاينة بدورهم بأن جهود النازيين الرامية إلى إيقاف عملية دمج اليهود في المجتمع الألماني وتهجيرهم إلى فلسطين «يمكن ان يكون حلا عادلا لكل من الجانبين»،الصهيوني والنازي .(٩٢)

والجدير بالذكر أن النطاق الاقليمي المحدود للأسطورة الصهيونية قد جعل كثيرا من الناس، ولاسيما في الغرب، يعتقدون أن الصهيونية ليست عنصرية. وهم على حق في هذا من بعض النواحي؛ فالنازية، على سبيل المثال، لم تكن عنصرية إزاء اليابانيين. والصهيونية أيضا، في العالم الغربي، ليست سوى أيديولوجية سياسية وضعها اليهود من أجل اليهود، تخصهم هم وحدهم ولاتتضمن أي تمييز ضد أي شخص في الولايات المتحدة أو انجلترا. بل لقد دافع بعض الغربيين عن الدور الايجابي البناء الذي تلعبه الصهيونية بين الامريكيين اليهود، حيث تزودهم بالشعور بالترابط والانتماء. وقد تكون وجهة النظر هذه سليمة!! (وإن كنا نرى غير ذلك). فلو أننا نقلنا الصهيونية من أوروبا وأمريكا الى آسيا، مسرحها الحقيقي، لأصبح الأمر جد مختلف؛ إذ تفصح الصهيونية عن وجهها العنصري القبيح وتمارس أثرها الهدام على المجتمع الفلسطيني. والتناقض هنا ليس تناقضا بين نظرية وممارسة، ولكنه تناقض بين نظرية ونوعين من أنواع الممارسة، أحدهما عرضي ومؤقت (في الغرب) والآخر ضروري وجوهري (في آسيا). وفي تصوري أن الحكم على الصهيونية لايمكن أن يتم في لندن أوباريس، وإنما ينبغي أن يحكم عليها في مجال ممارستها الأساسي؛ في حيفا ويافا والضفة الغربية ومئات القرى التي هدمت، وإلا فلو حكمنا على النازية في طوكيو لوجدناها أيضا مجرد ايديولوجية قومية تدافع عن حقوق وأمجاد الشعب الألماني.

ومما يدعو للسخرية أن بعض المتحدثين بلسان حكومة التمييز العنصري

بجنوب افريقيا، والذين لايهتمون بالتجربة الصهيونية العرضية في الغرب، قد وضعوا تقويما واقعيا للتجربة الصهيونية في آسيا. فقد عنف فيرورد، رئيس الوزراء السابق لجنوب افريقيا، بعض الصهاينة الذين أرادوا التفريق بين «سياسة النمو المنفصل»، التي تنتهجها اسرائيل على أساس من الدين (أو اليهودية الخالصة)،والسياسة المماثلة التي تنتهجها حكومة جنوب افريقيا على أساس عنصري، فقال: «اذا كان التفريق خاطئا في الحالة الأولى فهو لاشك خاطىء أيضا في الحالة الثانية»(٩٣)ـ أي أن الاعتذاريات، مهما بلغت من تركيب ودهاء، لاتغير بتاتا من حقيقة التفرقة العنصرية، والحقوق المقدسة التي تجبّ حقوق الآخرين، سواء استندت الى أساس عنصري أو إلهي أو إثني، هي في نهاية الأمر تعد على حقوق الغير ـ.

٣ـ عبء اليهودي الاشتراكي:

وإذا كانت الاعتذاريات التي تستند إلى فكرة اليهودي الخالص فريدة وقاصرة على الصهاينة، فالاعتذاريات التي تستند الى فكرة اليهودي الاشتراكي قد تكون أكثر فردية وطرافة. فكما أشرنا من قبل،فقد انضم كثيرمن الشباب اليهودي إلى صفوف الحركات الثورية، الأمر الذي سبب الحرج الكثير لليهود المندمجين، وقد باعت الصهيونية نفسها على أنها الحركة التي ستحول الشباب اليهودي عن طريق الثورة. وظهرت أسطورة الاستيطان العمالية لتحقيق هذا الهدف، وتقوم هذه الأسطورة بتسويغ الاستيطان الصهيوني، لا باسم التفوق العنصري أو التقدم الحضاري الأزلي أو الحقوق المقدسة الأزلية، بل على أسس «اشتراكية علمية»: إذ تستند الحقوق اليهودية ـ حسب هذه الأسطورة ـ إلى المثل الاشتراكية العليا (بما في ذلك نبل العمل اليهودي)، وكذلك إلى تفوق الصهاينة العلمي والتكنولوجي، والى أنهم حملة التقدم للشعوب المتخلفة. ولم يكن هذا المنطق قاصرا تماما على الصهاينة، فثمة اتجاه داخل الحركة الاشتراكية الغربية، يطلق عليه اصطلاح «الاشتراكية الامبريالية»، التي تضم اولئك الاشتراكيين الذين وجدوا أن من المحتم عليهم، باسم التقدم والأممية، تأييد الامبريالية الغربية لأنها تعبير عن

الرأسمالية الغربية، أعلى مراحل التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي بلغه الانسان، وكانوا يرون أن الامبريالية، بغزوها آسيا وافريقيا، ستقضي على كل المجتمعات التقليدية فيها، كما ستقضي أيضا على التخلف، وستجلب الصناعة والتقدم لها. ومن هذا المنطلق شجع بعض أتباع سان سيمون الاستعمار الاستيطاني في الجزائر، كما دافع كثير من الاشتراكيين الهولنديين عن «هجمة» بلادهم الحضارية على الأندونيسيين.

وقد خرجت اسطورة الصهيونية العمالية من هذه المجموعة من الأفكار، فلم يكن المستوطنون الصهاينة مجرد يهود فحسب، بل كانوا أيضا روادا: زراعيين اشتراكيين، حراث أرض اجدادهم. وقد كتب الفيلسوف الصهيوني، الألماني الأصل، مارتن بوبر (١٨٧٨ـ ١٩٦٥) لغاندي يقول: «إن مستوطنينا لم يجيئوا الى فلسطين كما يفعل المستعمرون الغربيون الذين يطلبون من أهالي البلاد أن يقوموا بكل الأعمال لهم، بل إنهم يشدون بأكتافهم المحراث ويبذلون قوتهم ودمهم من أجل أن تصبح الأرض مثمرة». وقد عاد المستوطنون العبريون الجدد الى الأرض مثقلين بماضي يهود الشتات بكل مافيه من شذوذ وطفيلية. وتقول النظرية العمالية الصهيونية إنه، من خلال العمل العبري، يمكن للمستوطن الجديد أن يطهر نفسه مما علق بها من شوائب وأدران؛ فالمستوطنون إنما يحررون أنفسهم حين يحررون الأرض، بحرثها والعمل على ازدهارها؛ «إن هذه الأرض تعترف بنا، لأنها تثمر من خلالنا»(٩٤). ولقد صيغت الرسالة بأكملها بأسلوب يتسم بالبراءة المتناهية، وبالأبعاد الكونية، حتى لتجعل المرء الذي يقرؤها يشعر بارتفاع هائل لمعنوياته. إن هذا لايريح ضمير المرء فحسب، وإنما ينسيه أيضا التفاصيل المزعجة.

ولقد نقل أموس آلون، الكاتب الإسرائيلي، سطرا من أغنية جذابة كان الرواد الزراعيون يرددونها في المستوطنات الإسرائيلية، يصفون أنفسهم فيها بأنهم أول من وصل «مثل العصافير في الربيع» إلى الحقول الملتهبة والأرض المقفرة الجرداء(٩٥). وهذه البراءة الكونية، وهذا الإيمان بقدرة العمل على الشفاء

والتطهير، وهذا الالتزام بمبدأ المساواة، تظهر كلها في كلمات بن جوريون الذي تحدث عن مدى أحقية الإنسان في أرض ما. فهذاالحق لاينبثق من سلطة سياسة أو سلطة قضائية (فكل هذه الأمور ليست ذات موضوع من وجهة نظر صهيونية عمالية)،وإنما ينبثق من العمل. ثم أطلق بن جوريون شعارا ثوريا أحمر لابد من أنه لاقى هوى في القلوب الثورية البريئة: «إن الملكية الحقيقية والدائمة هي للعمال»(٩٦).بيد أن نقل المفاهيم من مستواها وسياقها إلى مستوى وسياق آخرين يسفران عن نتائج مختلفة. فمثل هذا الشعار يتسم بالثورية الحقة إذا استخدمه العمال الفرنسيون في الأرض الفرنسية، ولكن حينما يقوم العمال الفرنسيون بتطبيق هذا الشعار ذاته في الاراضي الجزائرية، فإنه يصبح في التو اغتصابا للأرض، وخصوصا إذا لم تكن المنافسة بين العمال الفرنسيين والجزائريين منافسة متكافئة، وأيضا إذا كانت تساند الفريق الأول مؤسسة عسكرية «متقدمة» تكنولوجيا.

وقد علق الكاتب الإسرائيلي آموس كنان على هذا النوع من الاعتذرايات الاشتراكية قائلا: إن الصهيونية لم تك تستطيع تحقيق انتصاراتها وإنجازاتها دون الاستفادة من النفاق الذي تنطوي عليه هذه الاشتراكية، فكما أن المسيحية، بمثلها ومثالياتها، كانت بمثابة عذر معنوي للصليبيين، فإن الاشتراكية، بمثلها ومثالياتها، أدت هذه المهمة إلى الصهاينة(٩٧).

وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر لأسطورة عبء الاشتراكي، وهو تفوق الصهاينة التكنولوجي (وليس العرقي)، الذي سيجعل منهم رسلا للتقدم، يقومون بتطوير المجتمع ودفعه من المرحلة الدنيا التقليدية إلى المرحلة العليا الحديثة، فإننا نجد أن كتابات الصهاينة تزخر بها.

وقد اقتبسنا بعضا من كتابات بن جوريون (الصهيوني الاشتراكي) وآخرين، في دفاعهم عن الاستعمار الصهيوني على أنه ممثل للحضارة الغربية.

ولاشك أن المستوطنين الصهاينة كانوا عارفين بالتكنولوجيا وبوسائل التنظيم

والقيم السياسية المعاصرة، وأنهم كانوا جماعة بمعاصرة فعلا، وأنهم نقلوا قيمهم ومؤسساتهم المعاصرة إلى الوطن الجديد، فنظموا النقابات العمالية والأحزاب السياسية، وأجروا الانتخابات على أساس صوت واحد لكل ناخب، بل إنهم مارسوا أحيانا أشكالا من الاشتراكية، من حيث عدالة توزيع الدخل أو الإيمان بأهمية العمل اليدوي ومساواته بالعمل الفكري، ولكن كل هذه الأشكال المعاصرة من التنظيم، وهذه القيم الديمقراطية والاشتراكية ظلت قاصرة على الصهاينة وحدهم، تطبق على مجتمعهم الصغير (الميكرو) وليس على المجتمع كله. ولم يحاول الصهاينة تحديث المجتمع بأكمله وإنما حاولوا على العكس أن يوقفوا تطوره (هذا الدور يقف على طرف النقيض من الدور الذي تلعبه النخبة المعاصرة ذات الأصول القومية).

وقد بذل المستوطنون جهدهم في أن يبقوا السكان الأصليين في مستوى حضاري متخلف، وأن يمنعوهم من تنظيم أنفسهم داخل أطر معاصرة (نقابات عمال ـ أحزاب سياسية)، وفضلوا التعامل معهم داخل أطر المجتمع التقليدي وتنظيماته. ولذا فقد فضلوا التعامل مع كبار الملاك وزعماء العشائر. وقد رفض الهستدروت (اتحاد عمال المستوطنين الصهاينة) السماح للعمال العرب بالانتظام في صفوفه إلا في مرحلة متأخرة، كما أن الدولة الصهيونية العصرية الديمقراطية ترفض الاعتراف بحق تقرير المصير للسكان الأصليين، أو حق اشتراكهم في النظام السياسي الصهيوني الجديد عن طريق تكوين الأحزاب والاشتراك في الانتخابات. . وهي ترفض أيضا الايديولوجية العلمانية أساسا لتشكيل دولة تضم كلا من العنصر السكاني الدخيل والعنصر الأصلي على قدم المساواة.

وإلى جانب هذا فهناك الحقيقة الأساسية، وهي أن جماعة المستوطنين الغزاة تسرق من السكان الأصليين أرضهم، أي تسرق منهم الأساس المادي لأي تقدم، وتهدم نمط حياتهم أي الإطار الاجتماعي الذي تتحقق من خلاله ذواتهم التاريخية. ولذا تتغير الأولويات، ويصبح واجب المواطن الأصلي، الجزائري أو الفلسطيني، هو البقاء وليس التقدم، ولعل هذا هو الذي يفسر سر رفض موسى

العلمي لكلمات بن جوريون «الحلوة العذبة» حين تقابلا عام ١٩٣٦ في منزل موشى شاريت. فطبقا لما جاء على لسان بن جوريون بدأ الحديث بترديد النغمة (القديمة) التي أعدها «عن المستنقعات التي يجري تجفيفها، والصحاري التي تزدهر بالخضرة، والرخاء الذي سيعم الجميع» ولكن العربي قاطعه قائلا: «اسمع! اسمع ياخواجه بن جوريون، إنني أفضل أن تظل الأرض هنا جرداء مقفرة مائة عام أخرى، أو ألف عام آخر، إلى أن نستطيع نحن استصلاحها ونأتي لها بالخلاص». ولم يسع بن جوريون إلا أن يعلق بأن العربي كان يقول الحقيقة، وأن كلماته هو بدت مضحكة وجوفاء أكثر من أي وقت مضى(٩٨).

إن الاعتذاريات الصهيونية، مهما بلغت من ذكاء ودهاء، ومهما غُلِّفت بدعاوى عنصرية أو دينية أو إثنية أو أيديولوجية، فهي - في نهاية الامر - تسويغ لسرقة واغتصاب، ومن اليسير للغاية على المسروق والمغتصب، مهما بلغ من تخلف وتقليدية، أن يحس بالجريمة وأن يسميها باسمها؛ استعمار استيطاني إحلالي يلجأ للعنف لاغتصاب الأرض ولتحطيم وإبادة مالكيها الحقيقيين.



الفصل الرابع

تعريف الصهيونية (البنية والمصطلح)

بنية الأيديولوجية الصهيونية

بعد أن عرضنا الجذور الاقتصادية والاجتماعية والحضارية للأيديولوجية الصهيونية، ولأساس القوة التي تحولت الصهيونية عن طريقها من مجرد فكرة إلى حقيقة سياسية، يمكننا الآن أن نعرض بعض سماتها الخاصة أو بنيتها بوصفها نسقاً فكرياً. والصهيونية حركة سياسية تطالب بإعادة توطين اليهود في فلسطين (أرض الميعاد) وسيلة لحل المسألة اليهودية. وكلمة «صهيونية» اشتقها الكاتب اليهودي النمساوي ناثان برنباوم (١٨٦٤/ ١٩٣٧) من كلمة «صهيون» ليصف بها هذا الاتجاه السياسي «الجديد» بين صفوف اليهود وغيرهم، وهو جديد في أنه حول النزعات الماشيحانية اليهودية، التي بدأت في الظهور منذ منتصف القرن السادس عشر، تعبيراً عن بؤس اليهود وشقائهم نتيجة لما يسمى المسألة اليهودية، حولها إلى حركة سياسية، كما حول التطلع الديني الماشيحاني التقليدي إلى برنامج سياسي.

وقد بدأ الحل الصهيوني يظهر متفرقاً. فنشر هس، والحاخام الصهيوني (المولود في سيراجيفو) يهودا القلعي (١٧٩٨ ـ١٨٧٨)،وكاليشر كتيباتهم وكتبهم، كما بدأت تظهر جماعات، مثل احباء صهيون والبيلو، متبنية فكرة الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين. ولكن بظهور هرتزل على الساحة ـ عام ١٨٩٦ـ تحولت الصهيونية إلى حركة سياسية منظمة واعية بالضغوط والضوابط الدولية. فقد اكتشف هرتزل حقيقة بديهية، وهي أنه لتهجير يهود العالم لابد من الحصول على ترخيص دولي بذلك، مع ضمان دعم إحدى الدول الكبرى.

بدأ هرتزل في تنظيم الجمعيات المختلفة في شرق أوروبا، وتوجه إلى أثرياء الغرب (روتشيلد وآخرين)،ثم دعا إلى عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام

١٨٩٧ . وبعد عدة محاولات ومناورات دبلوماسية فاشلة عرضت إنجلترا مشروع شرق إفريقيا لتوطين الفائض السكاني اليهودي في إحدى مناطق الإمبراطورية، ولكن لم يكتب للمشروع أي نجاح، وفي عام ١٩١٧ اصدرت الحكومة الإنجليزية وعد بلفور الذي استمرت الحركة الصهيونية على أثره في المناورة السياسية والنشاط الدبلوماسي خارج فلسطين، وفي النشاط الاستيطاني داخلها، إلى أن أنشأت الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ .

« المدارس » الصهيونية :

وقد ظهرت اتجاهات ومدارس صهيونية كثيرة، لا توجد اختلافات أساسية بينها، وتتبنى كلها نسقاً أيديولوجيا واحداً. وبرغم تعدد هذه المدارس، فإنه يمكن تقسيمها إلى مدرستين أساسيتين تلعبان أدواراً متكاملة، ومدرسة ثالثة فرعية لا يتوجه فكرها إلى الجانب السياسي، وإنما يتوجه إلى الجانب الثقافي ولذا فهي مستوعبة في كل من المدرستين الأساسيتين في مجال الممارسة السياسية، أو المجال الروحي فحسب. أما بقية الاتجاهات فهي تنويعات وتفريعات تظهر وتختفي وليس لها وجود حقيقي خارج المدرستين الأساسيتين.

وأولى هذه المدارس هي الصهيونية السياسية. واصطلاح «الصهيونية السياسية» يستخدم للتفرقة بين الإرهاصات «الصهيونية» الأولى التي تتمثل في جمعيات أحباء صهيون وبيلو، من جهة، والحركة الصهيونية التي نظمها هرتزل، من جهة أخرى، فالتنظيمات الأولى كانت جماعات ذات طابع محلي، تهدف إلى الاستيطان في فلسطين، معتمدة أساسا على الصدقات التي يقدمها أثرياء اليهود، أما صهيونية هرتزل فهي تدّعي أنها حولت المسألة اليهودية إلى مشكلة سياسية، وأنها توجهت إلى الجماهير اليهودية متخطية الحاخامات «والمليونيرات».

ويؤمن الصهاينة السياسيون بأن المسألة اليهودية هي مشكلة الفائض السكاني اليهودي غير القادر على الاندماج؛ أما اليهودية ذاتها، التي كانوا لا يعرفون عنها الكثير، فهي لم تكن مشكلة مطروحة بالنسبة لهم (على عكس موقف الصهيونية

الدينية والصهيونية الثقافية). ولايمكن حل المسألة اليهودية إلا بأن يصبح اليهود شعباً مثل كل الشعوب وقومية مثل كل القوميات. ولن يتأتى هذا إلا عن طريق تهجير اليهود إلى فلسطين، (أو أي بقعة في العالم)، ليعيشوا في وطن يهودي تحكمه دولة صهيونية تندمج في المجتمع الدولي، وتنجح في أن تحقق لليهود الشعب ما فشل الأفراد في تحقيقه لأنفسهم.

ولكن هذا البرنامج لا يمكن تنفيذه إلا تحت إشراف المجتمع الدولي وبضمان منه؛ فالمسألة اليهودية مشكلة سياسية ذات طابع دولي. وستقوم الدولة اليهودية باستيعاب «فائض» يهود العالم؛ أما الباقون الذين لا يرتضون الهجرة فإنهم سيندمجون في مجتمعاتهم. ومن أهم دعاة الصهيونية السياسية الكاتب الصهيوني الروسي جاكوب كلاتزكين (١٨٨٢ ـ ١٩٤٨) ونوردو.

وتوجد عدة اتجاهات صهيونية سياسية تنتمي جماهيرها إلى نفس القطاعات الاجتماعية؛ فهي ـاساساًـ جماهير بورجوازية ليبرالية تؤمن بالاستثمار الخاص، وتنقسم إلى فريقين أساسيين: فريق في اسرائيل، تضمه الأحزاب اللادينية الرأسمالية، المتمثلة الآن في تحالف ليكود؛ وفريق في الدياسبورا، يدافع عن دولة إسرائيل، ولكنه لا يرى أي ضرورة للهجرة إليها، ويكتفي بالنظر إليها عن بعد على أنها مركز روحي (وهذا ما سميناه صهيونية الشتات).

وأهم الصهيونيات السياسية **الصهيونية التنقيحية أو المراجعة**، ويعد هذا التيار الصهيوني استمراراً لفكر هرتزل ونوردو والصهيونية السياسية، ويعتبر جابوتنسكي المفكر والمنظر الأساسي له. ويؤمن المراجعون بأن معاداة السامية وفشل الاندماج هما اللذان أديا إلى ظهور حركة «القومية» اليهودية والصهيونية. وهم كالصهاينة السياسيين يرون أن المشكلة مشكلة يهود وليست مشكلة يهودية، بل إنهم يرون اليهودية على أنها تراث تاريخي وبناء فوقي ديني يمكن الاستغناء عنه تماما. والصهيونية المراجعة تتفق مع هرتزل في محاولة تغليب الجانب «القومي» من «القومية اليهودية» على الجانب الديني، حتى تصبح «قومية» مثل كل القوميات.

ويرى المراجعون أيضا أن القومية فكرة سامية يجب أن يكرس الإنسان المؤمن كل قواه لخدمتها، وأن يركز كل جهوده لتحقيقها مستبعدا كل العناصر الأخرى «الدخيلة»، مثل الدين والاشتراكية كما ينادون بأن الصراع الطبقي بين اليهود أمر ثانوي، بحجة أن اليهود في المنفى لا يكونون طبقات، وأن اليهود الذين يحاولون الاستيطان الجماعي ليسوا بورجوازيين ولا بروليتاريين، وإنما هم مجرد رواد لا انتماء طبقيا لهم، يسعون للسيطرة على الأرض وتفريغها من سكانها. وقد نادى جابو تنسكي بتثبيت دعائم الاستعمار الاستيطاني عن طريق كل من الهجرة الجماعية والجهد الفردي. ومع هذا كان جابوتنسكي والمراجعون يعارضون ما يسمى الصهيونية العملية لتركيزها على النشاط الاستيطاني وحده، وإهمالها النشاطين السياسي والدبلوماسي. لقد كان يرى أن الجهود الذاتية للصهاينة لاجدوى من ورائها، وأنه لا سبيل إلى النجاح إلا عن طريق النشاط السياسي، والبحث عن مساندة أي قوة إمبريالية لتنفيذ المخطط الصهيوني.

وكان الخلاف ينشب أحيانا بين المنظمة الصهيونية العالمية والمراجعين (الذين أسس جابوتنسكي حزباً لهم عام ١٩٢٥). وقد بلغ النزاع ذروته حين طالب المراجعون بأن تكون الدولة الصهيونية هي الهدف المعلن للحركة الصهيونية، ورفض طلبهم. وظلت شقة الخلاف تتسع حتى انفصلوا تماماً عن المنظمة الصهيونية العالمية مكونين المنظمة الصهيونية الجديدة (١٩٣٥ ـ ١٩٤٦) التي كانت تضم كثيراً من يهود الطبقات الوسطى في أوروبا. ويصف الصهاينة التقليديون جابوتنسكي والمراجعين عامة بأنهم «متطرفون»، ولكن الدارس لفكرهم وتاريخهم يجده أكثر التيارات الصهيونية واقعية واتساقاً مع الواقع الصهيوني. فقد أكدوا، من البداية، الطابع القومي «البورجوازي» للحركة الصهيونية، كما اكتشفوا القانون الأساسي الذي يتحكم في ديناميتها، وهو مدى استعدادها للارتماء في أحضان الاستعمار، والقيام على خدمته، حتى يسهل لها عملية تهجير اليهود وتوطينهم في فلسطين وإقامة الدولة. وهم، أخيراً. الذين كانوا متيقنين من أن العنف وحده هو وسيلة التعامل مع الفلسطينيين، وأن أوهام

بعض الصهاينة، الخاصة بإقناع الفلسطينيين ترك أرضهم لليهود، هي أحلام ليبرالية رخيصة. واستخدام العنف والارتماء في أحضان الإمبريالية والإيمان بالمثل الرأسمالية الحرة هي كلها موضوعات تواترت في كتابات هرتزل والصهاينة السياسيين، ولكنها كانت مغلقة بغلاف ليبرالي رقيق؛ لأن الصهيونية كانت لاتزال حركة ضعيفة غير قادرة على الكشف عن أهدافها، وكانت كلما ازدادت قوة تعلن عن هويتها. فالفرق إذاً بين هرتزل وجابوتنسكي هو فرق في النبرة والمصطلح، وليس في الرؤية والفلسفة. وقد قال جابوتنسكي مرة إنه خليفة هرتزل ووريثه الحقيقي، ووافقه نوردو على هذا، ولذا يمكننا أن نرى خطاً ممتداً من هرتزل إلى شارون عبر جابوتنسكي وبيجين. ولعل وجود مناحم بيجين في ذلك الوقت على رأس الوزارة الإسرائيلية أكبر دليل على أن المراجعين ليسوا متطرفين من منظور صهيوني.

ومن الصهيونيات السياسية الأخرى **الصهيونية العامة والصهيونية الراديكالية**، وهما في جوهرهما لا يختلفان عن الصهيونيات السياسية الأخرى، ويرتبط وجودهما بمعارك سياسية مؤقتة داخل المنظمة الصهيونية.

والمدرسة الصهيونية الأساسية الثانية هي **الصهيونية العمالية** وينطلق الصهاينة العماليون، أو «الاشتراكيون»، من الإيمان بأن المسألة اليهودية هي مشكلة فائض سكاني يهودي غير قادر على الاندماج، وليست مشكلة الديانة اليهودية؛ أي أنها مشكلة الوضع الاقتصادي والاجتماعي لبعض قطاعات اليهود، وليست مشكلة الوضع الديني أو الحضاري لبعض قطاعات اليهود، وليست مشكلة انتمائهم الديني أو الحضاري، وهذا يعني أنها مشكلة تنتمي إلى البناء التحتي أكثر من انتمائها إلى البناء الفوقي (وإن كانوا لا ينكرون أهمية البناء الفوقي، أو التراث اليهودي المتميز). وتتلخص المشكلة، حسب التصور الصهيوني العمالي، في أن التركيب الاجتماعي والحضاري لليهود يختلف عن التركيب الاجتماعي والحضاري للشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها، فاليهود كشعب (أو نصف شعب أو شبه شعب)، لا أرض له، وهذا الوضع الشاذ نتج

منه ما سماه بورخوف وآخرون «الهرم المقلوب»، فكل شعب يتكون من فئات اجتماعية تأخذ شكل الهرم الذي يتكون من قاعدة عريضة تساهم في العمليات الانتاجية الأساسية وكلما بعدت العمليات الاقتصادية عن هذه العمليات الأساسية قل عدد العاملين فيها حتى نصل إلى قمة الهرم. هذا الهرم الاجتماعي مشوه تماما عند اليهود، لأننا نجد في صفوفهم عدداً كبيراً من المحامين والأطباء والمفكرين وغيرهم ممن ينتمون إلى الطبقة الوسطى والعمليات الانتاجية الهامشية، مع قلة قليلة ـ إن وجدت ـ من الفلاحين بالإضافة إلى بروليتاريا صغيرة الحجم نسبياً. وقد أدى هذا إلى ذبول وطفيلية الشخصية اليهودية. وتشترك الحلول الصهيونية العمالية في الإيمان بأنه لاحل لمشكلة اليهود إلا عن طريق استيطان فلسطين بطريقة جماعية، وإقامة دولة صهيونية عمالية.

ولكن داخل هذه الوحدة البنيوية الأساسية توجد بنيات فرعية مختلفة. ولعل أهم هذه البنيات هو تيار بوروخوف، الذي حاول توظيف المنهج الماركسي في خدمة رؤيته الصهيونية، فأكد الأساس الطبقي والاقتصادي للصهيونية، وخلص من تحليله إلى حتمية الحل الصهيوني وسيلة لتزويد كل الطبقات اليهودية الهامشية بقاعدة الانتاج (أو الأرض المقدسة، في المصطلح التقليدي). أما تيار سيركين فقد ركز على العنصر الاخلاقي ووحدة الرؤية بين اليهود، ويؤكد على التعاون والأخوة ويقلل من أهمية الصراع الطبقي. وقد انصرف جل اهتمام الفيلسوف الصوفي العمالي، الروسي الجنسية اهارون دافيد جوردون (١٨٥٦ ـ ١٨٢٢) إلى الجانب النفسي، فركز على فكرة اقتحام الأرض والعمل (أي أن يستولي اليهود على الأرض ويقوموا بزراعتها بأنفسهم، فيما يسمى العمل العبري) وكوسيلة للتخلص من آفات المنفى وللولادة الجديدة وتحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج. وقد كتب لأفكار جوردون وسيركين الشيوع في الأوساط العمالية الصهيونية، على حين ظلت أفكار بورخوف مقصورة على أقليات «متطرفة»، (وان كانت كتاباته تبعث الآن من جديد في اسرائيل، لأن اليسار الصهيوني يجابه أزمة حادة)، وقد انعكس الاختلاف بين هذه التيارات الصهيونية العمالية على

المستوطنين الصهاينة، ولاتزال آثاره واضحة على البناء السياسي في اسرائيل، فاليمين العمالي (الماباي) متأثر بأفكار جوردون وسيركين أكثر من تأثره بأفكار بورخوف (على عكس المابام مثلا). وقد أخذ التيار العمالي مؤخرا شكلاً موحداً، في تحالف المعراخ الحاكم، الأمر الذي يؤكد الوحدة المبدئية بين جميع الاتجاهات، على الرغم من الاختلافات الفكرية.

والبناء الاقتصادي/ السياسي في اسرائيل هو نتاج نشاطات الصهيونية العمالية بالدرجة الأولى، فالهستدروت (اتحاد نقابات عمال إسرائيل)، والكيبوتس (المزارع الجماعية)، والهاجاناه والبالماخ (منظمات عسكرية صهيونية)، هي الأدوات التي استخدمها الصهاينة في تحويل جزء من فلسطين إلى دولة صهيونية، وهذه المؤسسات أوجدتها الصهيونية العمالية وسيطرت عليها ولاتزال لها اليد الطولى في فلسطين. وقد كانت الصهيونية العمالية مرشحة، منذ البداية، لهذا الدور، لأنها هي التي استقطبت يهود شرق أوروبا من البورجوازيين الصغار والعمال، الذين فشلوا في التأقلم مع الواقع الاقتصادي الجديد في بلادهم، كانت عندهم تطلعات طبقية ومطامح اقتصادية (زادها حدة جو الانعتاق والمساواة والاندماج في أوروبا). وقد قامت المنظمات الصهيونية العمالية بتهجير بضعة آلاف من هذه الجماهير، وزرعها في فلسطين في ظروف معيشية صعبة للغاية (الأمر الذي عجز عنه تماما الصهاينة السياسيون والدينيون والثقافيون). فهذه الجماهير كان من السهل خداعها بسبب يأسها وتدني مستواها الاقتصادي والحضاري. وكان من اليسير حملها على الهجرة، على أمل أن تحسن من ظروفها، وساعد على ذلك أن الاحساس العام بين المستوطنين الصهاينة كان احساسهم أنهم «ملاك» أرض، وليسوا مجرد اجراء مزارعين أو عمال صناعيين، فالاستطيان، بالنسبة لهم، كان صعودا في السلم الطبقي وليس هبوطاً فيه.

أما المدرسة الصهيونية الثالثة فتضم اتجاهين: **الصهيونية الدينية، والصهيونية الثقافية أو الروحية.** ويؤمن أتباع الصهيونية الدينية بأن الحركة الصهيونية ـ لو تركت وشأنها ـ فإنها قد تنشر التعاليم القومية العلمانية (بعد تصفية

الجانب الديني تماما) وتؤدي إلى نهاية اليهودية. وينقسم أتباع الصهيونية الدينية إلى قسمين: قسم رفض الصهيونية في بادىء الأمر ثم انضم إلى صفوفها بعد حين، والقسم الثاني رأى أن الصهيونية السياسية، على الرغم من علمانيتها الظاهرة، ستساهم بالضرورة في إحكام قبضة القيم الدينية على الوجدان اليهودي. وكان من بين الرواد الأوائل لهذا التيار الأخير الحاخام كاليشر والحاخام الروسي الصهيوني صمويل موهيلفر (١٨٢٤ ـ ١٨٩٨). ولم يأخذ هذا التيار الفكري شكلا تنظيميا واعياً بنفسه إلا عام ١٩٠٢ حين تأسست حركة مزراحي (اختصار لكلمتي «مركز روحاني»، وهما كلمتان عبريتان تطابقان في المنطق والمعنى مثيلتيها العربيتين) تحت شعار «أرض، يسرائيل لشعب يسرائيل حسب شريعة (وتوراة) يسرائيل»، كما لخص الشعار في عبارة «توراة وعفودا»، أي «التوراة والعمل»، ومعناها أن على الصهيوني المتدين الحق أن يتعلم الشريعة اليهودية، وأن يعمل بنشاط من أجل إعادة بناء يسرائيل.

ومن أعلام الصهيونية الدينية إسحق كوك (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) أول حاخام أكبر لليهود الأشكناز في فلسطين، والحاخام البولندي والزعيم الصهيوني صمويل لانداو (١٨٩٢ ـ ١٩٢٨).

أما التيار الديني الأول، الذي بدأ برفض الصهيونية وانتهى بالانضمام إليها فيتمثل في جماعة أجودات إسرائيل، التي بدأت حركة من اليهود الأرثوذكس (أتباع هيرش على وجه الخصوص)، الذين يرون أن اليهود أمة دينية، وليست أمة «قومية» وأنها لا يمكنها أن تتحول إلى أمة بالمعنى الكامل إلا بمقدم الماشيح الذي يعود بالمنفين. لذلك عارضت أجودات اسرائيل الحركة الصهيونية وحاربتها في كل مكان، وتحالفت مع أعضاء اليشوف القديم (أي جماعة اليهود الذين استوطنوا لأغراض دينية) ضد المستوطنين الصهاينة، ولم تعترف بدار الحاخامية القائمة في فلسطين. ولكن على الرغم من هذا الاختلاف، فإنه لم يكد يمضي على تأسيس الحركة عدة سنوات حتى بدأت تتحول بالتدريج عن موقفها «المعادي» للصهيونية؛ إذ أسست جماعات استيطانية، وصرح قادتها بأن وعد بلفور

والانتداب يتسقان إلى حد كبير مع الوعد الإلهي بالخلاص. ثم بدأت الحركة تتعاون مع المستوطنين الصهاينة، حتى إذا كان عام ١٩٤٨ وجدناها تشترك في أول حكومة إسرائيلية، وتَصبح جزءا لا يتجزأ من الحياة السياسية في إسرائيل.

أما الصهيونية الثقافية فهي فلسفة صهيونية تبوأت مكانة بارزة في الفكر الصهيوني المعاصر. وقد دعا إليها آحادهعام (ومارتن بوبر فيما بعد)، وكانت محوراً ارتكزت عليه جميع كتاباته، والصهيونية الثقافية لا تأخذ بمسلمة هرتزل القائلة إن السبب الأساسي لمشكلة اليهود هي معاداة السامية وعجز اليهود السياسي والاقتصادي الناجم عن هذه الظاهرة، وإنما ترى أن العنصر الذي يشكل الخطر الحقيقي المهدد للاستمرارية اليهودية هو فقدان اليهود الإحساس بالوحدة والترابط، وضعف تمسكهم بقيمهم وتقاليدهم. ويخلص أحادهعام من هذا إلى أن المطلوب ليس مجرد ملجأ يهاجر إليه جميع اليهود، ليحتموا به من الاضطهاد؛ وإنما المطلوب هو دولة صهيونية تكون فقط المركز الروحي لليهودية.

وهذه الدولة لا تكون إقامتها بين يوم وليلة، ولا باستعمال الوسائل الدبلوماسية، ولا بانفاق الأموال كما يتصور دعاة الصهيونية السياسية، ولكن يمكن إقامتها عن طريق توفير المناخ النفسي بين اليهود أولا، وتقوية وعيهم القومي حيث يتحررون روحيا ويستطيعون مسايرة تطور العصر في الحدود التي تمليها روح اليهودية وشخصيتها، ثم تأتي بعد ذلك الدولة، بوصفها غاية نهائية، عندما تكون الظروف الخارجية مناسبة، وستلعب الدولة الحديثة، بما لها من تأثير في الوجدان اليهودي، دور المركز الروحي والثقافي لليهودية، الأمر الذي سيساعد على تقوية الوعي القومي والارتباط العاطفي بين اليهود، وعلى إزالة الشوائب التي علقت بالشخصية اليهودية نتيجة سنوات طويلة من «الشتات والنفي»، وأيضا على خلق شخصية جديدة، تفخر بيهوديتها، وتؤكد استمرار الإبداع الثقافي لليهودية.

ودعاة الصهيونية الثقافية، مثل دعاة الصهيونية الدينية، كانوا من أرستقراطية

الجيتو الدينة في شرق أوروبا، ولذلك لم تكن تعنيهم مشاكل الجماهير اليهودية التي كانت تعاني من آلام الانتقال من نمط انتاجي إلى نمط آخر، وكل ماكان يهمهم هو مشكلة اليهودية (الجيتوية) بعد سقوط حوائط الجيتو. ويخلصون من هذا إلى أن الواجب الأساسي للحركة الصهيونية يتركز في الإتيان بالعلاج الناجح لمشاكل اليهود الروحية وليس لمشاكلهم الاقتصادية، وهذا لن يتأتي إلا بتحويل فلسطين إلى مركز روحي لليهودية (أو جيتو تحفظ اليهودية نفسها فيه من خطر الاندماج).
ونقطة الاختلاف بين الصهاينة الدينيين والثقافيين تتركز في كيفية الايمان بالدين اليهودي، فكلاهما يؤمن بالقيم الدينية اليهودية، التي يخلع عليها الفريق الأول القداسة المطلقة، على أنها مرسلة من الله (كما يفعل اليهود الأرثوذكس)، بينما يرى الفريق الثاني هذه القيم جزءاً من التراث «الشعب اليهودي»، فيصبح الشعب ذاته هو مصدر القداسة (كما يفعل اليهود المحافظون).

وبالرغم من وجود أحزاب دينية في إسرائيل، فليس لهذه الأحزاب وجود سياسي مستقل، ولذا فهي تدخل في تحالفات مع الأحزاب التي تمثل التيارين الصهيونيين الأساسين، أما الصهيونية الثقافية فليس لها أحزاب، لأنها تعبر عن موقف يتبناه أي صهيوني، بغض النظر عن انتمائه السياسي، وقد ورث الصيغة الثقافية فريقان: واحد في إسرائيل، والثاني خارجها. أما الفريق في اسرائيل فهو يؤكد مركزية (أو أرستقراطية) الدولة الصهيونية في حياة يهود الشتات، ويمثله بن جوريون الذي يتخطى، أحيانا، حدود صيغة آحاد هعام وينادي بإلغاء أو «نفي» الشتات كليا، أو عدّه مجرد جسر أو قنطرة.

أما الفريق الثاني فهم صهيونيو الشتات الذين يؤمنون ببعض الجوانب الثقافية والدينية من الأيديولوجية الصهيونية، مع إهمال الجوانب السياسية والاقتصادية التي تتعارض مع وضع اليهود الجدد في العالم الجديد. وتحاول صهيونية الشتات المزاوجة بين العقيدة والصهيونية وبين الأيديولوجية السياسية السائدة في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة في الغرب، أي الفلسفة الليبرالية العلمانية المبنية على الإيمان بالعقل وبضرورة فصل الدين عن الدولة. ويرى صهيونيو الشتات أن

العقيدة الصهيونية لاتتنافى مع العقلانية ولا مع حركة التنوير اليهودية، فالدين اليهودي، مثل كل الأديان، كان عليه أن يجابه مشكلة العلمانية المتزايدة في المجتمع، وكانت حركة التنوير اليهودية والصهيونية هي الاستجابة اليهودية الطبيعية لهذا التحدي. والصهيونية، بحسب تصور صهاينة الشتات، لاتتعارض إلا مع الاندماج الذي يؤدي إلى الانصهار الكامل وفقدان الذات اليهودية، أما الادماج الخلاق فهي لا تعارضه البتة. فالصهيونية، بهذا المعنى، هي حركة قومية ليبرالية تؤيد التنوع والتعدد والانسجام بين الأقليات والأنماط القومية المختللة (على عكس الصهيونية التقليدية التي تصر على تفرد «القومية اليهودية»وتمييزهاواستحالة الاندماج اليهودي في أي مجتمع على أي صورة).

ويصدر صهاينة الشتات عن الإيمان بأن وجود اليهود في المنفى حقيقة نهائية وأساسية، وليس أمرا مؤقتا، ولذا فإن العودة تصبح امرا غير مطلوب ولامطروح. ويعيدصهاينةالشتات طرح طبيعة العلاقة بين اليهودي ووطنه الذي يعيش فيه، فيرون أن ثمة أساسا اقتصاديا سياسيا مشتركا بين اليهود وكافة المواطنين، وبذا يكون انتماء اليهود السياسي ـ الاقتصادي محددا لاشك فيه، ولكن اليهودي ـ في الوقت ذاته ـ له تراثه الحضاري الديني المتميز. ولكن ماذا عن علاقة يهود الشتات باسرائيل؟ هنا يعود الشتات إلى الصيغة الصهيونية الثقافية، التي تنظر إلى إسرائيل بوصفها المركز الثقافي الروحي لليهودية، الذي تعيش فيه الروح اليهودية خالصة. ولذلك تستخدم صهيونية الشتات مقياسين: واحدا للحياة العلمانية العادية في المنفى، وآخر للحياة المقدسة في أرض الميعاد. فنجد أن كثيرا من الأمريكيين اليهود ـ مثلا ـ الذين يعيشون في بلد علماني ويدافعون عن فصل الدين عن الدولة يستنكرون ـ في الوقت ذاته ـ الحياة العلمانية في إسرائيل والطابع «غير اليهودي» للدولة الصهيونية! إن صهيونية الشتات لها مركزان متعارضان، ولذلك يمكن أن نصفها بأنها «الصهيونية الحولاء»؛ لأنها تنظر في اتجاهين متضاربين (باعتبار أن الصهيونية التقليدية قصيرة النظر لأنها تنظر في اتجاه واحد)، ويمكن أن نطلق على صهيونية الشتات اصطلاح «الصهيونية الخيرية

(الدبلوماسية والمالية)» لأن نشاطها الذي يتركز في المنفى يأخذ شكلين أساسيين؛ هما الضغط السياسي من أجل التجمع الصهيوني، وجمع التبرعات لها، ولايمتد بأي حال ليشمل الاستيطان أيضا.

وثمة اتجاهات صهيونية أخرى، أطلق عليها اصطلاح «أسلوب»، لأنها لاتعبر عن أي اختلاف أيديولوجي مهما كان طفيفا؛ مثل مايسمى الصهيونية العملية أو «الأسلوب الصهيوني العملي»، والصهيونية التوفيقية أو «الأسلوب الصهيوني التوفيقي». وهذا المصطلح الأخير استخدمه وايزمان الذي طالب في المؤتمر الصهيوني الثامن (١٩٠٧) بأن يمزج الصهاينة العمليون والصهاينة السياسيون بين أساليبهم في العمل. ويمكننا القول إن الصهيونية الحقة، شأنها في هذا شأن إسرائيل، هي الصهيونية التي تمزج بين جميع التيارات الصهيونية، عمالية اشتراكية كانت أو عامة رأسمالية، راديكالية او مراجعة، عملية أو سياسية، دينية أو لادينية. فالصهيونية تتحرك دبلوماسيا لتنال الوعود والتأييد (الصهيونية السياسية)، وفي الوقت ذاته يخلق المستوطنون «حقائق جديدة» تجعل التراجع عن الوعود والتأييد أمرا مستحيلا (الصهيونية العملية). كما ان الحركة الصهيونية تجمع الضرائب من كبار الممولين اليهود وتشجع الرأسمال اليهودي على الهجرة لتثبت أركان المشروع الصهيوني (السردايكالية والمراجعة)، ولكنها ـ في الوقت ذاته ـ تزود التنظيمات العمالية الصهيونية بالمساعدات التي تضمن لها الاستمرار (صهيونية عمالية أو اشتراكية). كذلك فإن الصهيونية فلسفة لا علاقة لها بالدين (التيار اللاديني القومي)، ولكنها، مع هذا، تقدم نفسها على أنها التعبير الوحيد عن اليهودية والمدافع عن التراث اليهودي (صهيونية دينية). ومع ذلك، وبغض النظر عن كل هذه التصنيفات، نجد أن جميع التيارات الصهيونية تشترك في الغيبية وفي الاعتماد شبه المطلق على الرأسمال اليهودي وعلى التأييد الإمبريالي، ولذا يمكننا القول إن جميع الصهاينة ـ في نهاية الأمر ـ «توفيقيون».

ولكن ـ كما قلنا في بداية الفصل ـ فإن هذه المدارس المختلفة والمتنوعة إنما تعبر عن فلسفة واحدة متكاملة، ولذا يجب أن نحاول تخطي الخلافات السطحية لتصل

إلى البنية الفكرية الكامنة وإلى النسق الأيديولوجي المتكـرر، بغض النظر عن التنوع والاختلافات. وهذا النسق هو بنية فكرية متسقة مع نفسها، لاتختلف في تركيبها كثيرا عن الأساطير الدينية اليهودية، فهي تستغل الدين اليهودي لتكتسب بعدا تاريخيا وصوفيا ولتستقي مصطلحا ييسر لها التعامل مع اليهود والأغيار، كما أنها تستغل كثيرا من الأفكار السياسية العلمانية والثورية لإضفاء صبغة علمانية أو ثورية على نفسها.

الصهيونية والأفكار السياسية:

ولنبدأ أولا بتحديد علاقة الأيديولوجية الصهيونية بالأفكار السياسية الثورية أو الرجعية المختلفة، ثم ننتقل بعد ذلك لتحديد علاقتها بالدين اليهودي، وهي العلاقة الأكثر تركيبا. ويمكننا القول إن هذه الافكار السياسية هي محتويات أو مضامين فكرية مضافة إلى بنية الأيديولوجيـة الصهيونيـة. والعلاقـة بين هـذه المحتويات والبنية الأيديولوجية ليست علاقة عضوية، وإنما هي علاقة ميكانيكية خارجية، ولو حذفت هذه الأفكار من البنية الاساسيـة فإنها لاتتغـير ولاتتعدل كثيرا. هذه المحتويات لايأخذها المفكرون الصهاينة أنفسهم مأخذ الجد، أوعلى الأقل لايعطونها الأولوية،فمثلا يؤمن جميع الصهاينة بفكرة العودة إلى أرض الميعاد لتأسيس دولة يهودية تعبر عن الروح الخالدة للشعب اليهـودي، والتي ستحل مشكلة اليهود، وهذه هي نقطة البداية والنهاية بالنسبة لهم جميعا، كما أنها الركيزة التي تستند إليها تحالفاتهم. أما المحتوى الاجتماعي لهذه الدولة فمسألة مؤجلة وليست ملحة حتى وقتنا هذا، فلا الاشتراكيون يصرون على اشتراكيتهم (فحزب المـابام «اليسـاري»، مثلا، يؤيـد التدخـل الأمريكي في فيتنـام، ولايعـارض الاستثمارات الأجنبية والخاصة في إسرائيل)، ولا الليبـراليون ـ الـرأسماليـون يصرون على ليبـراليتهم ورأسماليتهم (فحـزب المابـاي يدخـل في تحالف مـع الأحزاب الدينية، مطلقا يدها في كثير من جوانب الحياة في إسرائيل العلمانية. كما أن الأحزاب اليمينية لاترفض التحالف مع الأحزاب اليسارية وتتقبل بعض السمات الاشتراكية أو «الجماعية» التي تتسم بها الحياة في إسرائيل)، والدينيون

لايصرون على تطبيق مثلهم «الروحية الدينية»، بل نجدهم كلهم يتحدثون عن أساطير مجردة، مثل العودة إلى أرض الميعاد، وعن أمة الشهداء والأبطال المختارة. والجميع في حالة الحرب، سواء كان غزو مصر عام ١٩٥٦ لإسقاط الحكومة الوطنية، او غزو جنوب لبنان عام ١٩٨٢ للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية وإبادة الفلسطينيين، يقفون صفا واحدا.

ويبدو أن أعضاء البورجوازية اليهودية المندمجة، أو شبه المندمجة، في الغرب كانوا واعين حقائق الموقف في فلسطين، وصعوبات الاستيطان، كما لم يكن يعنيهم من قريب أو بعيد شكل الدولة الصهيونية طالما أنها تؤدي الأغراض المطلوبة منها، مثل إبعاد يهود شرق أوروبا عنهم، والقيام بدور المدافع عن المصالح الإمبريالية. ولذلك لم يمانعوا قط في تأييد بعض الأفكار والممارسات الصهيونية التي ترتدي زيا اشتراكيا. ولعل الصبغة الغامضة التي توصلت إليها المنظمة الصهيونية العالمية بخصوص الاستيطان، كانت محاولة للتوفيق بين كل الصهاينة، والجمع بينهم وراء الحد الأدنى الصهيوني، فقد حُدّد هدف الحركة الصهيونية على أنه الحصول على أراض في فلسطين كي تكون ملكا «للشعب اليهودي» لايمكن التفريط فيها، وأن يكون الصندوق القومي اليهودي قائما كليا على تبرعات تلقائية من اليهود في جميع أنحاء العالم. فالهدف هنا لم يحدد «شكل» الدولة الصهيونية، ولا شكل ملكية الارض، ولاالمثل الاجتماعية أو الايديولوجية الظاهرة أو الكامنة، وإنما تحدث فقط عن الحصول على أرض فلسطين كي تكون ملكا «للشعب اليهودي» بشكل مبهم ومجرد. ولهذا يصعب الحديث عن يمين أو يسار داخل الحركة الصهيونية، فمن الناحية البنيوية يتفق الجميع على الحد الأدنى. ولكن المضمون السياسي والاجتماعي يختلف من اتجاه صهيوني لآخر، ولكنه مضمون لايحدد سلوك الصهاينة تجاه الواقع ولايفرض اتجاها معينا عليهم، إذ إن الاتجاه العام للحركة الصهيونية تحدده الإمبريالية العالمية، أو العرب في نضالهم المستمر ضد الجيب الاستيطاني. .

الصهيونية واليهودية :

في محاولتنا تجاوز كل التفاصيل والمدارس والأساليب الصهيونية سنحاول أن نصل إلى المقولة الصهيونية الأساسية التي تشكل مفتاحاً (أو جوهرا ان شئت) للأيديولوجيةالصهيونية .وقد تنبه كثير من الصهاينة الى مثل هذه المقولةالأساسية. والحاخام لانداو يشير على سبيل المثال إلى ان البرنامج (القول) الصهيوني يدور حول فكرة ثابتة واحدة «وكل القيم الاخرى إن هذه إلا اداة في يد هذا المطلق»(١)، ثم حدد هذا المطلق على أنه الأمة. وقد وافقه موشيه ليلينبلوم وكان ملحدا، على قوله هذا: «إن الأمة كلها أعز علينا من كل التقسيمات المتصلبة المتعلقة بالأمور الارثوذكسية او الليبرالية في الدين. فلا مؤمنون ولاكفار، بل الجميع ابناء ابراهيم واسحق ويعقوب. . لأننا كلنا مقدسون سواء كنا غير مؤمنين أو أرثوذكسيين»(٢). اما كلا تزكين فيوضح القضية بشكل ينم عن الذكاء في مقاله «الحدود». فهو يبين أن اليهودية «تعتمد على الشكل لا على المضمون» وهذا الشكل الأساسي- كما يقول- هو تخليص «الشعب اليهودي» للارض، اما المضامين الروحية أو الفكرية (ولعلها الديباجات في مصطلحنا) فهي تختلف بشكل راديكالي، ولكن هذا لا يهم «لأن مضمون الحياة نفسه (اي واقعها) سيصبح قوميا، عندما تصبح أشكالها قومية»(٣). وقد تنبه هؤلاء المفكرون الصهاينة- وأولهم متدين متطرف في تدينه والآخران لادينيان- إلى ان ثمة فكرة ثابتة جوهراً ما «مطلقاً» على حد قول المتدين، «وشكلا أساسيا» أو قداسة معينة، على حد قول المفكرين اللادينيين، وان هذا الجوهر هو الثابت وانه يغير ماعداه ويحوره ويسمه بميسمه. وقد حددوه بأنه مفهوم الأمة اليهودية. وأعتقد أن الطريقة التي وصف بها هؤلاء الصهاينة القضية تتسم بقدر من الدقة فهم قد وضعوا ايديهم بلاشك على واحد من أهم سمات الايديولوجية الصهيونية. ولكننا مع هذا نرى أنهم رغم دقتهم في طريقة التعريف إلا أنهم لم يوفقوا في التوصل إلى التعريف ذاته نظرا لأن المستوى التعميمي لتعريفاتهم لم يكن عاليا بما فيه الكفاية فانتهى بهم الأمر إلى وصف أحد الجوانب الأساسية لبنية الايديولوجية الصهيونية وحسب، لا جوهرها

أو منطقها أو شكلها الأساسي . وللتوصل الى هذه المقولة الأساسية أو الجوهر يجب أن نحدد علاقة الايديولوجية الصهيونية باليهودية .

حدث ترادف في ذهن كثير من الناس (بما في ذلك اعضاء الجماعات اليهودية انفسهم) بين اليهودية والصهيونية، بحيث أصبح من المستحيل التمييز بين الواحدة والأخرى، وهذا الترادف لااساس له في الواقع إذ إن اليهودية دين سماوي بينما الصهيونية ايديولوجية سياسية دنيوية، بل إن ثمة تضاداً عميقاً بين الواحد والآخر كان واضحا في السنين الأولى من تاريخ الايديولوجية الصهيونية . وهذا امر متوقع. فمعظم المفكرين الصهاينة الأول مثل هس وهرتزل وبنسكر ونوردو وجوردون وسيركين وبوروخوف كانوا نتاج عصرهم الاوروبي. وهو عصر كان علمانيا ملحدا لايكن اي احترام إلا لما هو مادي وكمي. ولذا نجد أن هؤلاء المفكرين لم يعيروا اليهودية أي التفات إلا باعتبارها مشكلة تبحث عن حل، بل أظهر بعضهم عداء واضحا لها. فيتودور هرتزل تعمد انتهاك العديد من الشعائر الدينية اليهودية حين قام بزيارة المدينة المقدسة، كي يؤكد أن رؤيته الصهيونية هي رؤية لادينية(٤). وكان ماكس نوردو ملحدا يجهر بالحاده، كما كان يؤمن بأن التوارة «طفولية بوصفها فلسفة، ومقززة بوصفها نظاما اخلاقيا»(٥). بل إنه وصل إلى حد القول إنه سيأتي اليوم الذي سيحتل فيه كتاب هرتزل الدولة اليهودية مكانة تساوي مكانة الكتاب المقدس ذاته، حتى بالنسبة لخصوم المؤلف المتدينين(٦). وكان حاييم وايزمان يتلذذ، في بعض الأحيان، «بمضايقة الحاخامات بشأن الطعام المباح شرعا»(٧).

وعني المستوطنون الصهاينة عناية غير عادية بالتأكيد على الطبيعة اللادينية وغير التقليدية لمشروعهم، ولعل هذا هو مادفعهم إلى أن يتخلوا عن لقب «اليهود»، ويتبنوا لقب «العبرانيين» بدلا منه، أي أنهم حاولوا إعادة تعريف أنفسهم على أساس قومي محض يحل محل الأساس الديني التقليدي. وقد استخدم بعضهم هذا المصطلح في حملاته، التي قام بها في الثلاثينات وأوائل الأربعينات، مطالبا

بإقامة «دولة عبرانية»، لا «دولة يهودية»، وحتى حينما كـان يستخدم مصـطلح «يهودي»، فقد كان يفرغ من محتواه الديني ويكتب محتوى اثنيا.

وفي أوائل العشرينات قامت مجموعة من الرواد الصهاينة بمسيرة تحدوا فيها الشرائع اليهودية الخاصة بالطعام، حيث ساروا إلى «حائط المبكى في يوم الغفران وهم يقضمون شطائر من لحم الخنزير»(٨). وقد أعد ملفورد سبيرو دراسة ذات دلالة كبيرة عن مجموعة من الصهاينة من يهود شرق أوروبا كونوا كيبوتسا خاصا بهم في فلسطين، وقد قال فيها: إن الصهيونية، بالنسبة لهذه المجموعة، كانت تمثل هروباً من اليهودية «ولم تكن تعبيراً عنها»(٩)، فهؤلاء الصهاينة لم يظهروا أي اعتزاز بتقاليدهم الدينيـة والثقافيـة، وأظهروا ـ بـدلا من ذلك ـ تفهـما عميقا واستجابة قوية للمثل الأوروبية القومية اللادينية.

ونحن لو استعرضنا موقف الصهاينة من بعض المفاهيم الدينيـة الأساسيـة لاكتشفنا إما أنم قد فشلوا في فهمها ثم رفضوها وإما أنهم أدركوا مغزاها الديني فرفضوه وفرضوا عليهم مغزى «دينيا قوميا». ولنأخذ مفهوم صهيون مثلا على هذا؛ فحسب التفسير الـديني التقليدي (الأرثـوذكسي) نجد أن صهيـون (أو فلسطين) هي المكان الـذي اختاره الله واصـطفاه (بـالمعنى الديني)، فـارتباط اليهودي بها هو ارتباط ديني فحسب، يشبه في كثير من الوجوه (حسب بعض التفسيرات) ارتباط المسلم بأرضه المقـدسة، ولـذا عُدّ الاستيـطان في الأرض المقدسة متسفا»، أي واجبا دينيا أو عملا خيريا بالمعنى الديني للكلمة. وقد ذهب كثير من اليهود، عبـر التاريـخ، للعيش في أرضهم المقدسـة، وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن أي مؤمن يدين بدين ما ويقررالاستيطان في أرضه المقدسة. وقد وضح المفكر اليهودي ناثان برنباوم في مقال بعنوان «في عبودية لإخوتنا اليهود» أن أرض إسرائيل ليست «وطنا جديدا» لليهود، وإنما هي كيان ديني لم يتوقفوا قط عن حبه والحنين إليه وتذكره(١٠). ومن الطريف في هذا المضمار أن نـذكر أن المهاتما غاندي (وكان يعرف اليهود واليهودية عن قرب، نتيجة نشاطه السياسي في جنوب إفريقيا وتحالفه مع اليهود هناك) قد تصور علاقة اليهودي المتدين بفلسطين

في نفس الإطار؛ إذ يقول «إن فلسطين ـ بالمعنى الديني ـ ليست موقعاً جغرافياً، وإنما هي في قلوب اليهود». إن «صهيون» هنا مفهوم ديني يتجاوز حدود الطبيعة والتاريخ وكل ما فيها من نظام أو فوضى.

هذا التمييز الدقيق بين الواقع المادي والمفهوم الديني لا يتفق مع الرؤية الصهيونية. فنوردو ـ على سبيل المثال ـ أصابته الحيرة عندما اكتشف معارضة الحاخامات للدعوة الصهيونية الخاصة بالعودة «المادية» والجسدية إلى صهيون، فاحتج على هذه المعارضة بقوله: «يجب أن تكون أول مهمة لهم [أي الحاخامات] هي المحافظة على حبّ اليهود لشعبهم ولأرض إسرائيل»(١٢). وما لم يدركه نوردو هو أن الحاخامات كانوا يحثون اليهود بالفعل على حب صهيون، ولكن بالمعنى الديني للكلمة.

وقد لاحظ الحاخام شنيرسون ـ المعادي للصهيونية ـ سنة ١٩٠٣ عدم وجود «حب حقيقي لصهيون» لدى الصهاينة (١٣). وحتى نوردو نفسه كان صريحا بالقدر الذي جعله يعترف أمام المؤتمر الصهيوني الرابع (١٩٠٠) بأن الصهاينة ليس عندهم «أي حنين صوفي إلى صهيون» وأكد للجميع «أن معظمنا ليس لديه هذا الحنين»(١٤).

أما بالنسبة لهرتزل فلم تكن صهيون مرتبطة في ذهنه برؤية الخلاص، وإنما هي مجرد فرصة للاستيطان والاستثمار. وكان هذا هو السبب في إيمانه العميق بأنه يجب تحديد موقع صهيون الجديدة بأسلوب وضعي باعتباره قضية «عملية خالصة». وكتب يقول: «ينبغي علينا أن نضع في حسباننا العوامل الجيولوجية والمناخية، أي باختصار، العوامل الطبيعية بجميع أنواعها، مع مراعاة الحذر الكامل، واضعين في حسباننا أحدث الأبحاث العلمية»(١٥). وقد ترك الصهاينة، في بداية الأمر، قضية مكان الدولة متوقفاً على عوامل مناخية واقتصادية؛ فكتب هرتزل، في يومياته أن اهتمامه كان مركزاً على إقامة الدولة في منطقة «ذات مناخ متنوع يوافق اليهود الذين اعتادوا العيش في مناطق أكثر برودة أو أكثر دفئا». واقترح أن يكون «موقعنا على البحر [لتسهيل عمليات الاستيراد والتصدير]، كما يجب أن يكون لدينا مساحات واسعة من الأراضي تحت تصرفنا

حتى نتمكن من استخدام الميكنة الزراعية على نطاق واسع». ولأن هرتزل كان رافضا للدين، فإن موقفه تجاه مشروعه الصهيوني كان موقفاً مادياً، إذ نصح الصهاينة بالاتجاه إلى «العلماء ليزودونا بالمعلومات»(١٦).

ولم يعن ليوبنسكر كثيرا بالموقع الفعلي للمنطقة التي تختار للاستيطان اليهودي. فقد كان مؤمنا بأن هذا الاستيطان يمكن أن يتم «في أي من نصفي الكرة الأرضية. وهذه القطعة من الأرض يمكن أن تكون رقعة في الولايات المتحدة أو ولاية كتلك التي تقوم عليها مقاطعات باشاوات آسيا التركية»(١٧). بل وصل بنسكر إلى حد القول إن اليهود يجب ألا يتعلقوا بفلسطين و«ألا يحلموا باستعادة يهودا القديمة». وطبقا لتعريفه، فإن الهدف «لاينبغي أن يكون [الحصول على] الأرض المقدسة، وإنما أي أرض نملكها»(١٨). وقد أورد بنسكر - مثله في هذا مثل هرتزل - ملاحظات عملية كثيرة وذات موقع جيد». وأن تكون مساحتها كافية بحيث تسمح بأن يستوطنها عدة ملايين. وأصر بنسكر على أن الاختيار لا يجب أن يتم على أساس «قرارات مرتجلة»، بل لا بد من وجود «لجنة من الخبراء تقوم وتوازن بين بدائل الاختيار المتاحة»(١٩).

وحتى عندما وقع الاختيار على فلسطين، فإن هرتزل لم يأل جهدا في تأكيد الطبيعة اللادينية لهذا الاختيار. أذ أخبر البابا بيوس العاشر أن الصهاينة « لا يطالبون بالقدس»أو مثل هذه الأماكن المقدسة، وإنما ينصب جل اهتمامهم على «الأرض العلمانية فقط»(٢٠). وكانت كلماته قاطعة بشكل أكبر عندما أكد لأحد الكاردينالات أنه لا يتطلع إلى أرض إسرائيل التاريخية، بل «يطالب فقط بالأرض الدنيوية»(٢١).

ويعد مشروع شرق افريقيا (اوغندا) الذي قبله هرتزل ونوردو، والذي لم يرفضه المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣)، مثالا جيدا في هذا الصدد. فقد وافق المؤتمر بأغلبية ٢٩٥ صوتاً مقابل ١٧ صوتاً على تشكيل لجنة لتقصي الحقائق «لدراسة إمكانات الاستيطان اليهودي هناك». وعندما انسحب بعض أعضاء الوفود احتجاجا على القرار، أعيد التصويت مرة أخرى ليحصل القرار المقترح

على موافقة الأغلبية مرة ثانية(٢٢). وكان من بين مؤيدي مشروع أوغندا في المؤتمر الأعضاء الذين مثلوا المستوطنين الصهاينة في فلسطين. والصهاينة الدينيون باعتبار ان الاستيطان في صهيون يجب أن يتم بعد عودة الماشياح لا قبلها. وفي المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) رفض المجتمعون مشروع أوغندا «بعد أن قدمت لجنة تقصي الحقائق، التي بعث بها المؤتمر السادس إلى المنطقة، تقريراً سلبياً»(٢٣) ويمكن تسمية الاتجاه اللاديني الذي كان يمثله هؤلاء الزعماء الصهاينة الأوائل «صهيون من دون صهيون» وذلك لأن «صهيون» مكان يمكن أن يستبدل به أي مكان آخر. وقد كانت قابلية الإحلال هذه هي المبدأ الرئيس في «الصهيونية الاقليمية» التي دعا إليها الروائي الصهيوني البريطاني إسرائيل زانجويل.

لو نظرنا لعقيدة الماشياح وموقف الصهاينة منها لوجدنا الرفض نفسه للمفهوم الديني. ومن المعروف أن التصور الأرثوذكسي التقليدي ركز على الجانب الإلهي لعودة الماشياح وعلى الماشياح بوصفه أداة الله في الخلاص، الأمر الذي أدى إلى تهدئة حدة التطلعات الماشيحانية عند اليهود. وبناء عليه، أصبح من الواجب على اليهود ـ حسب هذا التصور أو التفسير ـ انتظار عودة الماشياح في صبر وأناة، فمشيئة الله وحدها هي التي سترسل به، ويصبح من الكفر بمكان أن يحاول فرد أو جماعة ما تحقيق الارادة الإلهية بأنفسهم، آخذين زمام المبادرة ويقرروا أن التاريخ قد انتهى الآن وهنا، وأن العصر الماشيحاني قد ابتدأ. ويسمى هذا الموقف في المصطلح الديني الروحاكي هاكتس ـ أي التعجيل بالنهاية، ويقول الحاخام ألمر برجر إن الماشياح سيأتي حسب الرؤية الدينية التقليدية في الوقت الذي يحدده الرب وبالطريقة التي يراها، ولا يملك الإنسان القاصر بطبيعته سوى الانتظار(٢٤)؛ ولذا نجد أن بعض نصوص التلمود تعتبر العودة إلى فلسطين مخالفة أكيدة للوصايا الإلهية(٢٥). وقد جاء مثل هذا المعنى في رسالة بعث بها صحفي يهودي إلى هرتزل يذكره فيها بأن تعاليم التلمود «تحظر على اليهود أن يأخذوا فلسطين بالقوة أو يقيموا لهم دولة هناك»،(٢٦). بل أكد أحد الحاخامات أنه «لاتوجد أي إشارة لمبدأ أو عقيدة العودة إلى فلسطين في كل المحاولات التي

تمت في العصور الوسطى لصياغة عقيدة يهودية»(٢٧).

ومن الواضح أن الصهاينة يرفضون هذه الفكرة أيضا؛ فعندما سأل الملك فيكتور عمانوئيل الثالث، ملك إيطاليا، هرتزل عما إذا كان لا يزال يتوقع عودة الماشياح، أجاب الزعيم الصهيوني، في حرج واضح، مؤكداً للملك أنهم يؤمنون بهذه الفكرة في الأوساط الدينية وحدها، «أما في دوائرنا الأكاديمية المستنيرة فليس لمثل هذه الفكرة من وجود بطبيعة الحال»(٢٨). وقد وصف بن جوريون فكرة عودة الماشياح من وجهة نظر الصهيونية بأنها شديدة «السلبية»(٢٩). ويرى سمولنسكين أن الصهاينة لا علاقة لهم بعودة الماشياح المخلص، فهم يودون العودة «لإيجاد الرزق في أرض نأمل منها أن توفر الراحة للذين يعملون عليها»(٣٠). ويفرق نوردو بين الصهيونية الحديثة والصهيونية الدينية القديمة (أو حب صهيون التقليدي وفكرة الماشياح والعودة) قائلا: إن الصهيونية الحديثة «سياسية، وليست كالأخرى دينية صوفية؛ فهي غير مرتبطة بالرؤى الماشيحانية، ولا تتوقع العودة إلى فلسطين بمعجزة، بل ترغب في إعداد طريق العودة بجهودها الخاصة»(٣١)، وبذا يمكن أن تتم العودة عن طريق المناورات السياسية أو العنف أو القهر أو أي طريقة علمانية أخرى.

وفكرة «الشعب اليهودي»، وهي فكرة محورية في العقيدة اليهودية خضعت هي ذاتها لعملية التفسير هذه. إذ يبين المفسرون أن الشعب المختار هو ـ في نهاية الأمر ـ من نسل آدم أبي البشرية جمعاء، وأن الله ـ حسب التصور اليهودي ـ هو رب الجميع، يبارك كل الشعوب ويعتبر اليهود مثل أبناء «الزنوج». ولذا. طبقاً لهذا التفسير ـ تضم رؤية الخلاص كافة الشعوب، حتى لو كان الشعب اليهودي هو محورها. ويرسم النبي أشعيا في نبوءته صورة لسلام عالمي يشمل «الأمم جميعا»، حين «لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد» (أشعيا ٥ : ٤). وسوف يشمل السلام الجميع لأن الشعوب كافة أبناء الرب. «مباركة هي مصر شعبي، وآشور صنع يدي، وإسرائيل ميراثي» (أشعيا ١٩ : ٥). فأشعيا هنا يطلب البركة لكل الشعوب، فرؤيته رؤية إنسانية شاملة، تماما مثل قصة الخلق التوراتية.

ولكن، بغض النظر عن تفسير فكرة الشعب المختار، تفسيرات قومية متطرفة، فثمة اجماع بين الحاخامات الأرثوذكس على أن تعبير «الشعب اليهودي» في اليهودية تعبير ديني، يشير إلى جماعة المؤمنين المخلصين الذين يتوجهون بإيمانهم إل الله الواحد، بل إن انتماءهم مشروط بمدى طاعتهم لله (كما بين المؤرخ توينبي)(٣٢)، أن المفهوم الأرثوذكسي يرى الشعب على أنه طائفة من المؤمنين، الذين يقوم إيمانهم على العهد الديني بين الله والشعب، ولذا فبقاء اليهود مشروط بمدى إخلاصهم لله سبحانه وتعالى (وهذا التصور لا يختلف كثيرا عن التصور الاسلامي والمسيحي). وكثيرا ما تشير الكتابات الدينية إلى اليهود على أنهم شعب التوراة، بمعنى أنهم شعب حسب مجموعة من القيم الدينية لا ينتمي لأرض معينة، ولذا فالحديث عن الولاء السياسي والقومي ـ من وجهة نظر هذا التفسير ـ هو تزييف للواقع الديني اليهودي. وتأسيسا على هذا يصبح واجب اليهودي أن ينتمي للبلد الذي يعيش فيه، وأن يحيا في سلام مع «مدينة الأرض»، شأنه في هذا شأن جميع البشر (أي أن الاندماج يصبح واجبا دينياً من هذا المنظور). وقد قال النبي أرميا «لتسع إلى ما فيه خير المدينة [أي الوطن الذي تعيش فيه] ولتصل للرب من أجلها، لأنه في خيرها ستحيا أنت حياة طيبة»(٣٣).

وغني عن القول إن الصهاينة رفضوا مثل هذا الموقف من فكرة «الشعب اليهودي» وأعادوا تعريفاً بطريقة لا تختلف كثيراً عن تعريفهم لصهيون والماشياح.

ولكن على الرغم من هذا الهروب من اليهودية والرفض لها، فإن الصهيونية، كأي أيديولوجية تود أن يكتسب شرعية وأن تجند الجماهير وراءها ويمكن أن تستخدم ديباجة مفهرسة لديها ومن هنا تستقل الصهيونية اليهودية لتضفي على نفسها صبغة دينية تحبب الجماهير فيها، وتظهر الصهيونية كما لو كانت امتداداً لليهودية وليست نقيضها. وهذا ما عبر عنه كلاتزكين حين قال إن الدين اليهودي يمكن أن يساهم في بلورة الروح القومية للشعب اليهودي(٣٤).

وقد كان الحاخام شنيرسون واعياً لهذا التصور الصهيوني للدين اليهودي

بوصفه أداة ووسيلة، حين أشار إلى أن الصهاينة كانوا يرون في التوراة والوصايا العشر مجرد وسائل ملائمة «لتقوية الشعور الجماعي»(٣٥). وكان ماكس نوردو من الواقعية بحيث إنه أدرك أهمية كل من «العناصر العقلانية واللاعقلانية في الحضارة الإنسانية»، حيث يكون الدين «مصدرا لطاقة بناء كامنة»(٣٦). وحينما بحثت خطة الاستيطان في العراق كان الصهاينة مدركين «للعناصر الصوفية» المرتبطة بالتجربة اليهودية في تلك الأرض القديمة «وإمكان الاستفادة منها»(٣٧). وكان من دوافع اختيار فلسطين موقعا للاستيطان «قوة الأسطورة، أي الاسم في حد ذاته»(٣٨)؛ ففلسطين هي «صرخة عظيمة تجمع اليهود». (٣٩).

ومن هنا استخدم الصهاينة (حتى الملاحدة منهم) ديباجات دينية. فكان هرتزل يتحدث عن الاستيطان في فلسطين باعتباره الخروج. وتسمى الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين المحتلة «عاليا» وهو اصطلاح يفيد العلو والصعود لأسباب دينية، وفلسطين بعد احتلالها وطرد سكانها تصبح إسرائيل، فاستخدام الصهاينة الديباجات والرموز الدينية لا يعبر عن الإيمان بها، وإنما هو في واقع الأمر استخدام ذكي وكفء لها بسبب مقدرتها التعبوية. وقد ظهر اتجاه صهيوني ديني ديباجته كلها دينية بحيث قام بصهينة فكرة العودة ذاتها، بحيث أصبح من الواجب على اليهودي ألا ينتظر الماشياح، بل أصبح عليه أن يعود إلى فلسطين للاعداد لمقدمه. وبذلك أصبحت العودة سبباً لا نتيجة لمجيء الماشياح. ومن الطريف انه تم كشف النقاب مؤخرا عن أن هرتزل قام بالاتصال بأحد الحاخامات الارثوذكس، الحاخام فيشمان (ميمون فيما بعد) عام ١٩٠٢ ليحثه على إنشاء حزب ديني صهيوني (ليوازن العصبة الديموقراطية التي اعترضت على أسلوبه في ادارة المنظمة، وليشجع الشباب اليهودي المتدين على الانضمام للمنظمة الصهيونية). وقد اتصل فيشمان بالحاخام راينس(١٨٢٩ ـ ١٩١٥)، وتم تأسيس حركة مزراحي بناء على هذه الاتصالات، ودفع هرتزل تكاليف المؤتمر من جيبه الخاص(٤٠).وعلاوة على هذا، لم يمانع هرتزل قط في استخدام الديباجة الدينية عن اقتناع أحيانا، وتهكم أحيانا أخرى. وقد تعاظم نفوذ

الديباجة الدينية مؤخرا، إذ إن الاستيطان الصهيوني لم يعد يتم باسم الديباجات الاشتراكية التي فقدت مقدرتها التعبوية وإنما أصبح يركز على الديباجات الدينية التي تعاظمت أهميتها كما هو الحال مع جماعة جوش ايمونيم.

علمنة التيار الحلولي في اليهودية :

رفضت الصهيونية إذاً اليهودية أو حولتها إلى أحدى الاعتذاريات أو الديباجات العديدة التي توظف في خدمتها. ولكن مع هذا ثمة علاقة بنيوية صميمة بين الايديولوجية والدين اليهودي، ولا يمكن أن نفهم مقولات الفكر الصهيوني وجوهره دون فهم هذه العلاقة.فالصهيونية ـ في تصوري ـ هي في نهاية الأمر امتداد للتيار الحلولي القومي في اليهودية (في مقابل التيار العالمي الانساني) بعد أن تمت علمنته وتحديثه. وقد أشرنا من قبل إلى أن الجماعات اليهودية داخل الحضارة الغربية في بداية القرن التاسع عشر عصفت بها تيارات التحديث فاقتلعتها من جذورها ونقلت أغلبيتها إلى الولايات المتحدة في وطن جديد، بعيدا عن سلطة الحاخامات التقليدية. أما من بقى في أوروبا فقد تم تحديثه تماما سواء في إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو روسيا بعد الثورة.

والصهيونية هي الأخرى نتاج عملية التحديث هذه، وقد استوعب الصهاينة حركات التحديث الغربي وقاموا بتطبيقها على اليهودية، وقد أخذ التحديث الصهيوني لليهودية شكلا كان مألوفا من بعض الوجوه في أوروبا في ذلك الوقت، وهو مزج المفاهيم القومية بالمفاهيم الدينية. وقد تأثرت الصهيونية بالحركة الجرمانية والسلافية، وكلتا القوميتين قد أضفت على الرموز القومية نوعاً من الاطلاق الديني. ولكن علاقة الصهيونية بالدين اليهودي أكثر عمقا من ذلك فهي لم تخلع الاطلاق الديني على الرموز القومية وحسب، وإنما استقت رموزها القومية وافكارها ذاتها من التراث الديني، ثم أفرغت هذه الرموز والأفكار من محتواها الروحي والأخلاقي، ونقلتها من مجالها الديني ـ حيث تجد شرعيتها الوحيدة ـ إلى المجال السياسي (وهي في هذا تشبه الحركة الاسترجاعية في كثير من الوجوه، بحيث أصبحت الرموز الدينية هي ذاتها الرموز القومية.

وقد أنجزت الصهيونية ذلك (ونحن الآن نتحدث عن عملية تحويل الرموز الدينية إلى رموز قومية لا عن ثمرة هذه العملية) لا بتبنيها فكرة الشعب المختار أو أرض الميعاد أو التاريخ اليهودي، وتحويلها لأفكار قومية، وإنما بتبني سمة بنيوية أساسية في التيار الحلولي اليهودي وهو الاتجاه نحو المزج العضوي بين المقدس والقومي والمطلق والنسبي مما يجعلها تخلع القداسة على كل الظواهر «اليهودية» الزمنية النسبية مهما كان مصدرها وطبيعتها. هذا في تصورنا هو المقولة المركزية الكامنة في كل الأقوال الصهيونية (هذا هو الجوهر إن أردت استخدام هذا المصطلح الذي لم يعد مقبولا في كثير من الأوساط الفلسفية).

والاتجاه نحو المزج بين المقدس والقومي هو كما اسلفنا سمة بنيوية في التيار الحلولي القومي في العقيدة اليهودية. فنحن لو طالعنا العهد القديم لوجدنا أن ثمة تصورا لله لا على أنه إله العالمية الحقيقة المطلقة التي تعلو على المادة وعلى كل ماهو نسبي ومتغير، وإنما باعتباره إله إسرائيل الذي يقود شعبه ويناصره في المعارك ويتحيز له، ويتصف بكثير من صفات البشر مثل الخداع والحزن والغضب والفرح بحيث يكتسب الخالق عز وجل بعدا قوميا نسبيا.

ويبدو أن كل الديانات السماوية التي تؤمن باله مطلق يعلو على المادة والتاريخ تعين نقطة يلتقي فيها الله (المطلق) بالإنسان (النسبي). ويمكننا أن نرى أن نقطة التلاقي هذه في الاسلام هي القرآن، حيث يرسل الله كلمته الى الانسان بشكل نهائي على يد خاتم المرسلين، أما في المسيحية فهي المسيح ذاته، فهو كما جاء في اللاهوت المسيحي اللوجوس أو الكلمة المطلقة، الذي يجيء مرة واحدة، يتجسد فيها داخل التاريخ فيصلب ويقوم، فيولد البشر من خلاله تماما كما ماتوا من خلال آدم، وهذه عملية لا تتكرر. أما في اليهودية فهذه النقطة هي الشعب ذاته (وأرضه وتاريخه)-فالشعب العبري سمي بني اسرائيل بعد أن صارع يعقوب الملاك (في حادثة غامضة لا يمكن فهم مدلولها مثل معظم الأساطير اليهودية الأخرى). وقد سمى بعدها «يسرائيل» أي «بطل الله». وأصبح العبرانيون اسرائيليين، أي «المدافعين عن الله»، وبذا أصبح الشعب امتدادا لله في الأرض،

يخاطبه اليهود بكثير من عدم الكلفة: «لماذا تكون كإنسان، كجبار لا يستطيع أن يخلص، وأنت في وسطنا يارب وقد دعونا باسمك لا تتركنا» (إرميا ١٤ : ٩). وأصبحت أرض كنعان ارتس يسرائيل أو يسرائيل وحسب، فالكلمة تشير إلى الشعب والمكان) وأصبح التاريخ اليهودي تعبيرا عن إرادة الله يتدخل فيه دائما.

وما يهمنا في مجال المقارنة (لا المفاضلة) بين الأديان الثلاثة أنه بينما عين الاسلام، وبينما عينت المسيحية نقطة لقاء واحدة فريدة متعلقة بين الخالق والمخلوق عينت اليهودية نقطة لقاء منفتحة لا تنتهي، مما فتح المجال على مصراعيه للحلولية. فظهرت تقاليد النبوة المنفتحة والمستمرة، (في مقابل خاتم المرسلين وحادثة التجسد) بل أصبحت النبوة هدف أي تجربة دينية، وأصبح كل يهودي مخلص في مصاف الأنبياء. وقد عرّف أحدهم النبوة بأنها «صوت الاله» واستجابة الانسان بحيث لا يمكن تمييز الصوت من الاستجابة أي لا يمكن تمييز المطلق من النسبي. وظهرت فكرة التوراة الشفوية وهي التفاسير التي وضعها الحاخامات (أساسا في التلمود والتراث القبالي) التي تعرض استمرار الحلول الالهي في البشر حتى انهم يتحدثون بصوته «يتحدثون توراة» في المصطلح الديني» بل إن التوراة الشفوية (التي وضعها الحاخامات) تفوق في أهيمتها التوراة المكتوبة التي وضعها الخالق (وهذه سمة اخرى لهذه الحلولية. إنها تبدأ بموازاة الخالق بالمخلوق ثم بمساواتها ثم أخيرا بوضع المخلوق في مرتبة أعلى من الخالق. وقد أشار بعض الحاخامات للمشناه باعتبارها اللوجوس اليهودي والمشناه هي مجموعة من مواعظ وأقوال الحاخامات!

ولامراء في أن هذه الرؤية الحلولية المتطرفة قد وجدت من يتصدى لها من مفكري اليهود الدينيين، ولكنها مع هذا ظلت تمثل تيارا قويا داخل اليهودية ينظر الى الله باعتباره امتدادا لوعي الأمة اليهودية بنفسها ويظهر الرفض للحلولية في بعض كتب الانبياء. وقد رفض العهد الجديد تماما هذه الحلولية القومية وكل البقايا الوثنية داخل العهد القديم، وظهرت المسيحية ككنيسة عالمية تفتح أبواب الخلاص لكل البشر. ولكن اليهودية بعد ظهور المسيحية ازدادت انغلاقا على

نفسها،وتزايد فيها التيار الحلولي القومي (متمثلا في الشريعة الشفوية ووصل الى قمته في القبالة خاصة القبالة اللوديانية). وقد حاول الفكر اليهودي الاصلاحي (متأثرا بالفكر المسيحي) أن يقلص من نفوذ التيار الحلولي وأن يفصل المقدس عن القومي والمطلق عن النسبي ،وأن يقدم مفهوما انسانيا وعالميا وتاريخيا للعقائد اليهودية، ولكنه تراجع مرة أخرى أمام الصهيونية التي ارجعت التيار الحلولي القومي وقامت بعلمنته.

إن ما نود قوله هو أنه لا الأمة (كما قال ليلينبلوم وغيره) ولا الأرض ولا التاريخ اليهودي هي المقولات المركزية في الايديولوجيةالصهيونية ،وإنما هو هذا التداخل الحلولي الكامل بين القداسة.والقومية.وما المقولات الصهيونية الأخرى بخصوص الأمة والأرض والتاريخ وغيرها سوى تعبير عنها أو تجل لها.

والرؤية الحلولية ، خاصة في شكلها المتطرف ،رؤية معادية لله ومن ثم للإنسان. وفي نهاية الأمر للتاريخ والثورة. فحينما يحل الله (المطلق) في الأرض أو تاريخ الأمة ؛أو الامة ذاتها (النسبي)، وعندما تبلغ الفكرة منتهاها ويصبح الله هو الأمة، فإن المطلق سيحل في النسبي ويمتزجان، فيفقد المطلق سموه وجلاله ووجوده بوصفه مثلا أعلى، ويفقد النسبي خصوصيته وحدوده وهويته، وبذا يفقد الانسان مقدرته على التجاوز فيمكن رده إلى عنصر ما أو آخر داخل التاريخ (والمادة)، أي أنه حينما يفقد الله اطلاقه يفقد الانسان ايضا اطلاقه، ويتحول إلى مادة أو مقولة مادية بسيطة، يمكن توظيفها في هذا الغرض أو ذاك.

واحب أن أضيف هنا أن علمنة الحلولية ليست أمرا مستحيلا أو حتى عسيرا كما قد يتبادر للذهن لأول وهلة (فالحلولية في بعض الأذهان هي شكل من أشكال رفض الدنيا بينما العلمانية هي الاقبال عليها). والعلمانية تستبعد من نموذجها المعرفي أو التفسيري أي غيبيات، ولذا فرؤيتها أحادية تركز على الآن وهنا، على هذا العالم الأرضي وهذا الزمان الطبيعي، فهي لا تعرف عالما آخر ولا زمانا مقدسا وان عرفتها فهي تستبعدها باعتبار أن الأمور الدينية أمور خاصة بالضمير

لا يمكن استخدامها لتنظيم الواقع، ولندع ما لقيصر لقيصر (وهو يشكل أكثر من ٩٩٪ من منظور علماني) وما لله لله. والحلولية هي الأخرى ـ وهنا تكمن المفارقة ـ رؤية أحادية توجد من كل مستويات الوجود، فهي خاصة في الصياغات المتطرفة منها، وتستبعد تماما فكرة الاله المفارق ولا ترى الله على أنه منفصل عن المادة مستقل عنها، بل إنها تراه حالا في المادة، ولذا تصبح المادة مقدسة والله ماديا. وثمة مسافة قصيرة تفصل هذه الرؤية عن فكرة القانون الطبيعي التي تفسر كل شيء بالعودة لحركة المادة أو حركة التاريخ.

وقد احتفظ المفكرون الصهاينة اللادينيون بالمقولة المركزية في التيار الحلولي الديني ـ أي التلاحم بين المطلق والنسبي، والمقدس والقومي- ثم طبقوها على العالم السياسي الزمني، ولذا يمكننا أن نسمي مقولات الصهيونية «الغيبيات العلمانية» فهي غيبية لأنها مقدسة مطلقة لا تخضع للنقاش، والايمان بها يشبه الايمان بالله من بعض الوجوه كما أنها ـ في تصور الصهاينة ـ غير خاضعة للتغير باختلاف الزمان والمكان. غير أنها «علمانية» أيضا، لأنها تدعى أنها مفاهيم صالحة للتعامل مع عالم السياسة والتاريخ. والصهاينة لا يؤمنون بالضرورة أن مصدر الاطلاق والقداسة هي قوة خارقة للطبيعية وإنما هو روح الشعب أو طبيعة الوجود اليهودي. فالقداسة تسري داخل الكيان اليهودي ويمكن لكل يهودي أن يعين مصدرها بالطريقة التي تروقه.

وقد كان الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر (خاصة في المانيا) يزخر بالمقولات الغيبية العلمانية مثل «روح الشعب» و«الفولك» التي تحاول ان تسمى هذه القداسة التي تسرى داخل المادة. ويمكن القول إن هذه الحلولية العلمانية ليست مقصورة بأي حال على الصهيونية، وإنما هي سمة أساسية في الفكر الفاشي والشمولي الذي يوحد بين المطلق والنسبي بحيث يحل الله (أو المطلق) في الذات أو أي ظاهرة مادية حتى تتحول الذات أو الظاهرة إلى المطلق (أو اللوجوس الذي يفسر كل شيء، ويسبغ معنى على الأشياء)، فهي روح الشعب عند النازيين، ويتحول الفورهر الى التجسيد العلماني الأعظم، بل يمكن القول إن الفكر الغربي

في القرن التاسع عشر كان دائب البحث عن اللوجوس داخل المادة في التاريخ ولذا كان دائما يصل إلى مطلق ما يفسر الظواهر. ويتضح هذا أكثر ما يتضح في فكر هيجل والفكرة المطلقة التي تعبر عن نفسها من خلال حركة التاريخ (وإن كان على طريقة الحلولية العلمانية يتوقف الجدل فجأة لنكتشف أن الدولة البروسية هي لحظة التجسيد وتوقف الجدل). ولعل فكرة الدافع الاقتصادي عند النفعين والتنمية التاريخية عند ورثة هيجل من اليساريين والجنس عند فرويد هي ترجمات أو تجسيدات متعثرة أو حيية للوجوس في المادة.

ويبدو أن بعض اليهود الذين يرفضون الصهيونية قد لاحظوا هذه الحلولية العلمانية دون أن يسموها. فحاخامات ناطوري كارتا يرون أن الصهيونية هي أكثر المحن الشيطانية التي واجهت الجماعات اليهودية في العالم بسبب التشابه السطحي والزائف بين الصهيونية واليهودية(٤٢).وتتضح فكرة الحلولية العلمانية بشكل أكبر في وصف الحاخام يهودا ماجنيس الصهيونية بأنها الصوت «اليهودي الجديد (الحديث)» الذي جاء «بتوراة جديدة» تقيد الديانة اليهودية والشعب اليهودي بقيود «جنون القوة المادية»(٤٣)، ثم وصفها بأنها «اليهودية الوثنية». وهو وصف ذكي للغاية. فالديانات الوثنية في كثير من الأحيان ديانات حلولية لها إله قومي مقصور على شعبه وعلى أرضه متحيز لهما، وهو إله ولكنه غير مفارق يوجد داخل المادة على هيئة صنم، فهو يشبه الدولة الحديثة ذات السيادة المطلقة من بعض الوجوه!

والفكرة نفسها تتضح في كلمات اسرائيل شاهاك إذ قال: «يبدو أن أغلبية شعبي قد تركوا الرب (المطلق المفارق) واستبدلوا به وثنا وضعوه في مكانه، وهو «دولة اسرائيل» (التي شبهها بالعجل الذهبي الذي عبده العبرانيون في الصحراء)(٤٤) حينما انصرفوا عن الله الواحد المفارق للمادة وعبدوا أكثر من إله حال فيها يمكنهم التحكم فيه ويخضع لارادتهم، فهو آلة.

إن كل هذه الأقوال لا تستخدم المصطلح الذي نحتناه ولكنها تحوم حوله وتقترب منه دون استخدامه. ولعل الفارق الأساسي بين مصطلح مثل «الحلولية

العلمانية» و«اليهودية الوثنية» أو «الدولة الاسرائيلية كعجل ذهبي» أن المصطلح الأول مصطلح عام يحاول أن يصنف الظاهرة الصهيونية وظواهر مماثلة في الحضارة الغربية الحديثة، ومن هنا جاءت عموميته (وفائدته) بينما تصف المصطلحات الثانية الظاهرة نفسها بالطريقة نفسها، ولكنها تستخدم مصطلحات من التراث اليهودي ذاته، ولذا تظل مقصورة عليه، ومن هنا جاءت خصوصيته (وفي نهاية الامر قصوره).

ويمكننا القول إن المقولة المركزية في الايديولوجية الصهيونية أي التداخل بين المطلق والنسبي والمقدس والقومي، تعبر عن نفسها بالشكل نفسه في أمور ثلاثة أساسية هي في واقع الامر الشيء نفسه وهي التصور الصهيوني للإنسان والمكان والزمان، أو الانسان في المكان والزمان. ولعل أهم هذه العناصر إن أردنا ان نفصلها الواحد عن الآخر هو الإنسان، الإنسان المقدس (الشعب اليهودي):

خلع الصهاينة القداسة التي اضفناها التيار الحلولي الديني على الشعب اليهودي بالمعنى الديني لا الاثني. وفكرة الشعب المختار - في شكلها المتطرف - هي تعبير عن هذه الحلولية. وقد قال بوبر إن الله يكن «حبا خاصا» لاسرائيل وهذه عبارة يقتبسها بوبر من أقوال الانبياء (١١١ : ١٨) وانه يعتبر اليهود «كنزه الخاص من بين جميع الشعوب» وهي عبارة اخرى اقتبسها بوبر من سفر الخروج (١٩/٥). (٤٥) وهذا الاله القومي هو الذي تجسد، في نهاية الأمر، في الوثن القومي الأعظم دولة اسرائيل. ويقول الحاخام الصهيوني كوك: «إن الله قد حل في الأمة، وبذا أصبحت اسرائيل مشبعة بروح الله، بروح الاسم القدس»(٤٦)، وحلول هذه «المادة الالهية» في الشعب هو ما يميزه عن غيره من الشعوب الأخرى. (٤٧) ويضيف الحاخام قائلا في المقال نفسه: «ان كل ممتلكات اسرائيل القومية العزيزة على قلوب اليهود - الأرض واللغة والتاريخ والعادات - إن هي إلا أوعية لروح الرب». (٤٨) ويؤكد بوبر أن اسرائيل «شعب ليس كمثله شعب، فهي امة وطائفة دينية في الوقت ذاته». (٤٩) ويرى أنه لا سبيل لاعادة بناء اسرائيل

وتحقيق أمنها إلا عن طريق أن يتحمل الشعب «عبء وضعه الخاص وعبء نير مملكة الرب» . (٥٠) . (وهو مفهوم سيصبح محوريا في تفكير جماعة جوش ايمونيم) .

ولكن التفكير الحلولي يبدأ عادة بتأكيد العلاقة الخاصة بين الخالق والمخلوق، ثم ينزلق الى المعادلة بينهما (ثم في نهاية الأمر الى تفضيل المخلوق على الخالق). ويظهر التوازي الكامل بين المقدس والقومي والمطلق والنسبي بشكل واضح في تأكيد بوبر ان تعاليم الدين اليهودي أتت من سيناء، فهي تعاليم موسى (التي تلقاها من ربه) . أما روح هذا الدين فهي أقدم من سيناء . هي الروح التي جاءت الى سيناء فتسلمت هناك ما تسلمته من شرائع . هي أقدم من موسى . هي بطريركية (أي من عصر البطاركة أو الأجداد الأقدمين) . هي روح يعقوب، و«يعقوب» هنا يرمز الى «اسرائيل» أي إلى الشعب اليهودي نفسه . (٥١) أي أن تعاليم اليهودية هي تعبير عن روح الشعب اليهودي . فاسرائيل ـ الشعب ـ تلقى وَحْيا دينيا في سيناء، ولكن روح هذا الدين هي روح قوميته . ان الوحي الذي تلقاه موسى من الرب لا يختلف عن روح الشعب القومية، فمثلما اختار الرب الشعب اختار الشعب الرب، وحينما استمع الشعب لصوت الوحي فإنه لم يسمع سوى صوته المقدس القومي وحده .

وفكرة التشابه والتجانس بين الرب والشعب هي أساس فلسفة بوبر الوجودية الصهيونية، فهو يعتبر الايمان الديني حوارا دائما بين الانسان والله، يدخل الانسان في علاقة أو حوار مع «الأنت (ذات أخرى حية وفعالة)، وليس مع «الهو» (موضوع ميت مغلق على نفسه)، بمعنى أن الله يصبح حقيقة شبه ذاتية يمكن للذات البشرية الاحاطة بها، وليس حقيقة مثالية تحاول الذات الانسانية الوصول إليها(٥٢) . بل إنه ليلغي وجود الذات اليهودية الفردية، لأن اليهودي لا وجود له إلا عضوا في مجموعة، والحوار لا يتم الا بين الخالق والشعب الكل، وليس بين الخالق واليهودي الفرد . وهكذا يذوب الله في الشعب ويذوب الشعب في الله مكونين كلا واحدا غير متمايز . لقد حل المطلق في النسبي حلولا كاملا، كما ابتلع النسبي المطلق ابتلاعا كاملا، ولذلك يمكن لليهودي أن يعي الله بأن يعي نفسه .

أو ـ كما يقول الحاخام كوك ـ «إن روح اسرائيل وروح الله هما شيء واحد»(٥٣)، وكما يقول الحاخام المحافظ شختر: «عندما وجدت اسرائيل نفسها وجدت إلهها، وعندما أضاعت اسرائيل نفسها أو عندما بدأت تعمل لمحو نفسها كان من المؤكد أنها سوف تنكر إلهها»(٥٤).

وقد يقال إن كل المفكرين السابقين، كوك وبوبر وشختر هم مفكرون «دينيون» (وإن كان من الصعب الحديث عن بوبر باعتباره متدينا فهو متصوف دون إله» إن صح التعبير). ولكن يمكن وببساطة شديدة ان نجد الحلولية نفسها، وربما بشكل أكثر حدة، في كتابات الصهاينة اللادينين.

فالشاعر الروسي الصهيوني حاييم بياليك (الاديب) (١٨٧٣ ـ ١٩٣٤) يصف يوم الاحتفال بالجامعة العبرية بأنه «يوم عظيم ومقدس بالنسبة لإلهنا وشعبنا»(٥٥). وطريقة بياليك في الاشارة للخالق تذكر الإنسان بموقف بعض اليهود القدامى الذين طالبوا أن تتسمى كل أمه باسم إلهها(٥٦) (وهي كلمات اقتبسها باستحسان كبير آرون جوردون). اما جابوتنسكي الملحد فقد تحدث عن نفسه باعتباره بنّاءً(٥٧) يسهم في بناء معبد جديد لربه الذي اسمه «الشعب اليهودي». ورغم سوقية المصطلح إلا أنه يتسم بالشفافية والوضوح، وبلورة الحلولية الكامنة، على عكس أسلوب بوبر الصوفي الذي يقول الشيء نفسه بطريقة مراوغة، إذ إنه يستخدم مصطلحات تقليدية مثل «الرب» يعني في واقع الأمر الشعب أو «الفولك»، أو ما شابه ذلك من اصطلاحات رومانسية ألمانية. بل إننا نجد فيلسوفا برجماتياً مثل هوراس كالن (تلميذ وليام جيمس) يقبل الرؤية الصوفية لليهود وفكرة أنهم أمة روحية (أي مقدسة مطلقة) ويترجمها ترجمة علمانية، ويؤكد أن ذكريات اليهود وآمالهم ومخاوفهم وعقائدهم ومواثيقهم تضفي على نضالهم القومي وأعمالهم ووسائلهم قداسة خاصة. أي أن اليهود هم مصدر القداسة التي تحيط بهم. هذا البعد الصوفي المقدس يحول «المادة الفظة» التي تتكون منها حياة اليهود اليومية، تحولا كاملا، تماما مثلما تفعل العقيدة المسيحية الخاصة بالوجود الحق، إذ تحول العشاء الرباني في فم المؤمن الحقيقي

«إلى جسد المسيح»(٥٨). وهكذا يتحول «لا وعي اليهود الجمعي» إلى اللوجوس الذي يتجسد. وتظهر فكرة اللوجوس العلماني بشكل أكثر مراوغة في كتابات نحمن سيركين المفكر الصهيوني الاشتراكي الذي أشار إلى اليهودي المقدس باعتباره نبيا وشهيدا بل مسيحا مصلوبا، رفعه استشهاده إلى «مستوى خادم [الإنسانية] البائس، ومن تاج الامة أرسل مجده شعاعا للعالم الذي يلعنه.. رقة مشاعره التي ولدها الألم تصل به إلى ربه من أجل الجنس البشري الذي نبذه»(٥٩)...

وغني عن القول إن سيراكين هنا متأثر بالايقونات المسيحية الأرثوذكسية التي عرفت في روسيا (وكانت الارثوذكسية الروسية تؤكد حادثة الصلب أكثر من حادثة القيام)، ثم قام بتطبيقها على اليهودي ورؤية اليهود كشعب مقدس موضوعة أساسية تتكرر في كتابات هرتزل الليبرالي وبن جوريون العمالي ويوروخوف المادي الجدلي الصهيوني وإن كانت دائما تتخفى تحت ديباجات مراوغة مختلفة تترجم المقولة الحلولية الكامنة إلى ديباجة مقبولة.

ويبدو أن هذه الحلولية العلمانية قد اكتسحت اليهودية تماما حتى أصبحت مقولة أساسية في الفكر الديني اليهودي الحديث وحلت محل الحلولية التقليدية. فالحاخام ايوجين بورويتس يرى أن ثمة تمازجا عضويا كاملا بين الله والشعب، ولذا فحرب ١٩٦٧ لم تكن مسألة عسكرية بل مسألة لا هوتية، وإن ما كان مهددا في هذه الحرب لم تكن دولة اسرائيل أو حتى الشعب اليهودي «وإنما الله نفسه». وهكذا وصلت الحلولية العلمانية إلى ذروتها داخل النسق الديني اليهودي.. ويسيطر الآن على التفكير الديني اليهودي ما يسمى لاهوت البقاء، أولاهوت ما بعد أوشويتس وهو لاهوت ينطلق من القول إن الله قد هجر اليهود أو حتى خانهم (فهو إله شرير) (وهكذا يصبح الخالق في مستوى أدنى من المخلوق)، أو أنه غير موجود أساسا (ولذا فهذا النوع من التفكير الديني يسمى لاهوت موت الله، ومع هذا فالشعب اليهودي شعب مقدس بنفسه (يتربع اللوجوس داخله حتى لو مات الله أو خان)، وأن قداسته لاتنبع من أي مصدر خارج نفسه، وبالتالي يصبح

واجب هذا الشعب الديني الاخلاقي الأساسي لا إعلاء كلمة الحق، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو نشر المحبة وإنما البقاء، وهي القيمة الأساسية في النسق الفكري الدارويني، حيث يصبح البقاء للاصلح وهو اللوجوس المتجسد في الطبيعة. أي أن الحلولية العلمانية جعلت من الشعب اليهودي السبب والنتيجة والبداية والنهاية، التي جعلت منه إلها لايمكن الحكم عليه أو تقييم أفعاله!

المكان المقدس (أرض الميعاد أو الوطن القومي):

وموقف الايديولوجية الصهيونية من الأرض يعد هو الآخر من الحلولية العلمانية. وارتباط اليهودية هذا الارتباط الكامل بالأرض هو تعبير عن هذا النمط البنيوي الذي نلاحظه في اليهودية، وهو ارتباط المطلق (الدين) بالنسبي «المكان». وكما بينا من قبل، في حديثنا عن صهيون فإن الأفكار الدينية لها فعالية في المجال الديني فحسب، ولكن الصهاينة ينقلونها من مجالها الديني إلى المجال السياسي، مع الاحتفاظ بالقداسة والحلولية. وسنورد فيما يلي بعض الاقتباسات من كتابات بعض الصهاينة لنبين أن بنية الحلولية اليهودية التقليدية هي البنية الكامنة الواضحة في موقف الصهاينة من الأرض، وسنكتفي بالحد الأدنى من التعليق. ويلاحظ أن ثمة تلاحما عضويا بين قداسة الشعب وقداسة الأرض إذ إن الله أو المطلق يحل في كليهما ويربطهما برباط وثيق قوي. وتظهر الحلولية القديمة، بشكل حاد وكامل، في كلمات الحاخام حاييم لانداو: إن روح شعبنا لا تستطيع التعبير عن نفسها إلا إذا عادت الحياة القومية إلى أرضنا من جديد، لأن **«القبس الإلهي لا يؤثر في شعبنا إلا وهو في أرضه»**. (٦١)

(الشعب . . . الله . . . الأرض)

أما الحاخام الصهيوني كوك فيقول:

«ليست أرض إسرائيل شيئاً منفصلا عن روح الشعب اليهودي إنها جزء من جوهر وجودنا القومي، ومرتبطة بحياتنا ذاتها، وبكياننا الداخلي ارتباطاً عضوياً [حلوليا] . . . إن ما تعنيه أرض اسرائيل يمكن فهمه فقط من خلال روح الرب

المنتشرة في شعبنا كله، والتي تشع بتأثيرها على كل العواطف السلمية»(٦٢).

(الشعب . . . الله . . . الأرض)

هذه الحلولية الثلاثية قد لا تظهر واضحة في كتابات الصهاينة العلمانيين، ولكنها تظهر بشكل واضح في كتابات بوبر الذي كتب لغاندي يقول:

«إننا لم نستطع ، ولا نستطيع ، أن نتخلى عن المطلب اليهودي ، فهناك شيء ، أسمى حتى من حياة شعبنا، مرتبط بهذه الأرض، إنه عمل الشعب ورسالته المقدسة»، إنني أؤمن بتزاوج الإنسان والأرض. . . إن هذه الأرض تعترف بنا لأنها، بواسطتنا، تصبح مثمرة»(٦٣).

(الشعب. . . رسالة الشعب المقدسة. . . الأرض)

(الله)

إن المطلق، الذي يعلو على الإنسان ، قد ربط الشعب بالأرض ربطاً لا فكاك للشعب منه.

واستعارة الزواج، التي استخدمها بوبر، تحيط بها هالة من القداسة في التراث اليهودي ، فعلاقة الله بالشعب قد وصفت في العهد القديم بأنها علاقة زواج ، ولا يختلف موقف بوبر، برغم إنسانية مصطلحه الزائفة، عن موقف الحاخام القلعي : «نحن شعب لا يليق بنا أن نلقب باسرائيل (المدافعين عن الله) إلا إذا كنا في أرض اسرائيل»(٦٤).

(الشعب . . . الله . . . الأرض)

ويقول جوردون اللاديني «المتمرد» :

«إن البعث القومي لن يتم إلا عن طريق العودة إلى حقول وطننا القومي وتحت سمائه. . إننا نأتي إلى وطننا لنُزرع في تربتنا الطبيعية التي نزعنا منها، ولنضرب بجذورنا عميقة في مصادرها الحياتية. ولنمد فروعنا بعيداً خلال هواء وطننا القومي وتحت شمسه»(٦٥).

(الشعب . . . روح الحياة . . . الأرض)
(الله)

وليلاحظ القارىء استخدام الاستعارة العضوية التي تساوي الإنسان بالطبيعة والأشياء، وهي استعارة تتواتر في الكتابات الحلولية الدينية واللادينية.

وحينما سئل وزير الدفاع الاسرائيلي السابق ديان، وهو عالم آثار يهودي أيضا، ومفسر غير متفرغ للتوراة [لايؤمن بالله] عما إذا كانت مطالب إسرائيل «الدينية» و«التاريخية» بخصوص بعض أجزاء الأرض المحتلة يجب أن يكون لها دور في السياسة الإسرائيلية، أجاب قائلا: «هذا هو أساس الوجود الإسرائيلي، إنه واحد من العناصر الثلاثة التي تشكل إسرائيل، وهي: **الشعب اليهودي، والكتاب المقدس وأرض اليهود**». (ولذلك) إذا اجتمعت **التوراة وأمة التوراة** فلا بد من أن تكون معها أيضا **أرض التوراة**. (٦٦).

(الشعب . . . التوراة . . . الأرض)
(الله)

وهذه الكلمات هي التي نال عليها الحاخام موشي ديان تهنئة الجنرال إسحق نسيم، حاخام السفارد. وهي كلمات لا تختلف كثيراً عن كلمات مارتن بوبر الصوفي الذي لا يقود جيشاً لحسن الحظ.

الزمان المقدس (التاريخ اليهودي):

يرى بعض فلاسفة التاريخ أن اليهود هم أول من اكتشف فكرة التطور، التي هي عماد الوعي التاريخي (على عكس الاغريق القدامى الذين كانوا يرون التاريخ بشكل فلسفي هندسي)، كما أنهم يقولون إن حلول الله في «التاريخ اليهودي» قد حوله إلى خط مستقيم يتجه نحو هدف أعلى وغاية وليس مجرد شكل دائري هندسي يتحرك حول نفسه دون غاية. لا جدال في أن اليهود قد أعطوا أهمية خاصة للتاريخ، فهو عملية كشف الغطاء عن الغرض الإلهي تجعل التاريخ

ذا مسار واضح وهدف محدد. ولكن هذه الرؤية للتاريخ، في تصوري، تفرغه من كل جدل، والجدل هو السمة الأساسية التي تجعل من التاريخ تاريخا، بـالمعنى الإنساني المتعارف عليه. بل يمكننا القول إن الاهتمام اليهودي القديم بالتاريخ هو اهتمام معاد في صميمه للتاريخ. فبحسب التصـور اليهودي القـديم يرى اليهود أن تاريخهم تاريخ مقدس يعبر عن الارادة الربانية، لا عن المحاولة والخطأ الإنسانيين، فإله إسرائيل يتدخل في التاريخ اليهودي من آونة لأخرى، والأمة اليهودية لم تأت للوجود من خلال تطور «تاريخي»، وإنما ظهرت من خلال تدخل إلهي مباشر، أي أن الخالق قد حل في الشعب وفي تاريخ الشعب. وبذا يفقد التاريخ كل نتوءاته وتعرجاته وانسانيته؛ بدايته واضحة ونهايته، هي الأخرى، واضحة. ويظهر هذا الوضوح في عقيدة الماشياح وفي العقائد المختلفة الخاصة بآخر الأيام. والرؤية الصهيونية للتاريخ هي عِلمنة للتيار الديني الحلولي اليهودي القديم: فبوبر يرى أن «تاريخ اليهود هو تاريخ يتدخل فيه الرب». ويفرق بوبر بين «التاريخ» (التجربة التي تعيشها الأمم، عـلى حد قـوله) «والـوحي» (وهو التجارب الهامة الخالصة التي يعيشها الأفراد)، ويرى أنه حينما يتحول الوحي إلى أفكار تفهمها الجماهير وتؤمن بها)، فإنها تصبح عقائد. هذا هو الوضع بالنسبة لسائر الأمم، أما بالنسبة لإسرائيل فالأمر جد مختلف، إذ إن ثمة تطابقا كاملا بين الوحي والعقيدة والتاريخ. إن إسرائيل تتلقى تجربتها الدينية الحاسمة كشعب؛ فليس النبي وحده هو الذي تشمله عملية الوحي، بل المجتمع كله. إن مجتمع إسـرائيل يعيش التـاريخ والـوحي ظاهـرة واحدة، «التـاريـخ وحي والـوحي تاريخ»(٦٧).

وهكذا يتحول اليهود - كما هو الحال تماما مع الرؤى الدينية القديمة - إلى شعب من الانبياء، (وقد وصفت الصهيونية بأنها بعث علماني لتقاليد النبوة) ويتحول تاريخهم إلى وحي مستمر، ولذا فاليهود بحسب تصور بوبر الصوفي «أمة تحمل وحياً [إلهياً] عبر تاريخها المقدس»(٦٨) الذي لم يكن سوى صراع لا ينتهي من أجل وضع مُثُل الأنبياء موضـع التطبيق»(٦٩). كـما يقول نحمـان سيركـين الزعيم

الصهيوني العمالي: إن الفيلسوف المتصوف والمفكر «الاشتراكي» يتفقان على خصوصية «التاريخ اليهودي» وقدسيته، كما يتفقان على تداخل التاريخ المقدس والتاريخ الإنساني.

وإذا كان التاريخ هو الوحي، والوحي هو التاريخ، فمن الممكن ليجال يادين - السياسي الاسرائيلي، والجنرال المتقاعد، وعالم الآثار - أن يبين أن «الايمان بالتاريخ» قد أصبح بديلا عن الايمان بالدين لدى الشباب الاسرائيلي (والمطلق هنا ليس هو الأمة، وإنما تاريخها). وعلى هذا، فان الشباب يستقون قيمهم الدينية من خلال دراسة علم الآثار؛ وما التوراة سوى «سجل تاريخي يشهد على أن اليهود كانوا شعبا من قديم الزمان»(٧٠).

وكما كان اليهود القدامى يرون ان تاريخ الشعب اليهودي محط اهتمام الرب، وأنه مركز الحركة التاريخية. خلع الصهاينة المركزية والاطلاق نفسيهما على تاريخ الشعب اليهودي بالمعنى العرقي. فالتاريخ الإنساني كله يدور حول الأمة اليهودية التي تقف في وسطه لتجسّد فكرة وجود الله، التي تمثل «حجر الزاوية في حركة التاريخ . . . نحو الخلاص»(٧١) كما يقول بوبر. وكما أن الماشياح المنتظر أساسي لإضفاء معنى على التاريخ اليهودي، فوجود اليهود في التاريخ الإنساني الأساسي لإضفاء معنى على هذا التاريخ، «إن تأمين نظام العالم الذي يترنح بين عواصف الحروب الدموية يتطلب بناء الدولة اليهودية، وبناء كيان الشعب وإظهار روحه هما عملية واحدة لايمكن الاستغناء عنها لإعادة بناء العالم المهتز الذي ينتظر القوة العليا والموحِّدة الموجودة في تجمع اسرائيل المقدس»(٧٢). والأرض تميد، والدنيا تهتز، والفوضى تعم، لأن الأمة المقدسة ليست في مركز التاريخ. وهس، العلماني، له رأي مماثل شرحه في كتابه روما والقدس: «إن تاريخ الإنسانية أصبح مقدسا من خلال اليهودية، وأعني هنا أن التاريخ أصبح تطورا عضويا وموحداً يعود في أصله إلى حب الأسرة»(٧٣). بل إن سيركين يرى «أن الانتحار القومي اليهودي مأساة رهيبة لليهود أنفسهم، كما ستكون الحقبة التي تقع فيها هذه الواقعة أفجع ما سيعرفه تاريخ البشرية، لأن القضاء على

اليهود لايعني سوى القضاء على البشرية»(٧٤). تقف الأمة المقدسة برسالتها الأزلية الثابتة في مركز التاريخ، متخطية كل حدوده، ومجسدة المثل العليا الربانية، فيستمد التاريخ معناه مرة أخرى من وجود المطلق في مركزه أو في نهايته (سبت التاريخ على حد قول هس)، ومرة أخرى نعود للدائرة المغلقة التي لا علاقة لها بأي تاريخ محسوس أو زمان إنساني أو واقع حيّ.

ووجود المطلق، متجسداً في اليهود داخل التاريخ، يجمد الزمان حتى يتحول الزمان إلى ما يشبه المكان تتجاوز فيه الأحداث ولا تتعاقب، وتتشابه فيه التفاصيل وقلما تختلف، وتضمر أهمية التغير والتطور حتى يختفيا تماما تقريبا، ويظهر ثبات الاستمرار في الشعب والأرض والزمان، متجاوزا كل التحولات والتغيرات والتنوعات، وتسيطر على العقل الصهيوني فعلا أسطورة استمرار اسرائيل، فيهود العالم الحديث هم ورثة مباشرون لقبائل اسرائيل القديمة، وما حكومة إسرائيل الحالية في فلسطين المحتلة إلا كومنولث اليهود الثالث (فالكومنولث الأول هو الذي حطمه الأشوريون عام ٧٢١ق.م، والثاني هو الذي حطمه الرومان عام ٧٠م)، وما الاستيطان الصهيوني سوى «العودة الثالثة» إلى صهيون.

ويرى بن جوريون، صاحب عبارة «العودة الثالثة»، أن تاريخ اليهود يتسم بالثبات الكامل، والاستمرار الدائم عبر العصور، ويدلل على مقولته هذه بالاشارة للتاريخ، فمنذ ثلاثة آلاف عام، مثلا، رفضت الأمة المختارة الصغيرة أن تنحني لحضارة اليونان، لتحتفظ بطبيعتها نقية لا تشوبها شائبة. وهي لا تزال تصر على رفضها الاندماج في الحصارة البشرية حتى الآن(٧٥).

إن إسرائيل قد تكون أحدث دول العالم، ولكن «الشعب اليهودي» له وجود عمره أربعة آلاف عام متتالية(٧٦). وثبات اليهود هو إحدى علامات اختيارهم. فكثير من الأمم اندثرت لغاتها وحضارتها وتقاليدها بل أسماؤها، أما شعب إسرائيل فإنه، برغم نفيه عن أرض إسرائيل مدة ألفي عام، قد احتفظ بتقاليده ولغته وحضارته، كما لو كان حبل تاريخه لم ينقطع أو يلتو على الإطلاق(٧٧). وفي

حديث صحفي أجراه بن جوريون في ٨ يناير ١٩٦١، صرح هذا العالم التوراتي اللاديني بأن إسرائيل هي الدولة «الحقيقية» الوحيدة في الشرق الأوسط (أي أنها الدولة الوحيدة المستمرة منذ بداية التاريخ)، فاليهود فقط هم الذين يتكلمون اللغة نفسها ويمارسون العقيدة نفسها، كما كانوا أيام ظهور الكتاب المقدس، ثم يشير الزعيم، بثقة شديدة، إلى سوريا ولبنان والعراق ومصر، قائلا: إن هذه الدول فقدت لغتها القومية وثقافتها. وحتى يخضع هذه التعميمات لمحك الاختبار، سأل بن جوريون الصحفي أن يطلب من الزعيم المصري عبدالناصر حينما يقابله مرة تالية «أن يقول شيئا باللغة المصرية». (ولا أعتقد أن عبدالناصر كان سيتمكن من الإجابة، لأنه ليس عالم آثار مصرية قديمة. ولكن لو تحدث الصحفي مع عبدالناصر بلغته العربية لتحدث بها عبدالناصر بطلاقة). إن عالم بن جوريون، عالم الأحلام والأساطير، وهو أيضا عالم مطلقاته ثابتة، لا يطرأ عليها أي تغيير أو تحول. ولذلك كان في كتاباته يصرح (للنيويورك تايمز في ٢٣ ديسمبر ١٩٦١) أن «كتاب أشعياء في العهد القديم لا يحتوي على رؤى قديمة فحسب، بل هو دليل للسياسة في العصر الحديث».

ويترجم هذا الايمان الصهيوني بالاستمرارية نفسه إلى المصطلح الصهيوني، وتعبير «إسرائيل» هو تعبير عن هذه الاستمرارية، فإسرائيل بالمعنى الديني هي نفسها اسرائيل الشعب، بالمعنى العرقي، وهي نفسها إسرائيل الدولة، بالمعنى السياسي، وكلها تجليات لنفس الجوهر المطلق المقدس الذي لا يتغير. وهناك كثير من المؤرخين وعلماء السياسة الصهاينة ممن يطلقون على مجتمع المستوطنين الصهاينة قبل سنة ١٩٤٨ اصطلاح «اليشوف أو المستوطن الجديد» لأن الاستيطان الاستعماري الجديد إن هو إلا استمرار للاستيطان لأهداف دينية الذي كان يطلق عليه «اليشوف القديم». فكأن الإقامة في الحرم الشريف للتبرك، هي ذاتها إرسال جيش مسلح للاستيلاء عليه.

وتترجم أسطورة الاستمرار عن نفسها أيضا بما يمكن تسميته القياس التاريخي الزائف الذي يفترض أن الظواهر المحيطة بيهود اليوم تشبه، في كثير من

الوجوه، الظواهر التي واجهها اليهود في ماضيهم السحيق، إذ نجد حاييم وايزمان مثلا يطالب العرب، في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني العشرين (١٩٣٧) بالتفاوض مع اليهود، مذكراً أياهم أنه خلال الفترات العظيمة من التاريخ العربي تعاون الشعبان معاً في بغداد وقرطبة على حفظ كنوز الثقافة العربية(٧٨). فالعرب لايزالون كما كانوا، واليهود أيضا لم يتغيروا، أما الظروف التاريخية المتغيرة فهي أمر ثانوي يمكن التغاضي عنه كليا. ويدعو الحاخام كاليشر كل يهود العالم إلى العودة إلى الأرض وللعمل بجد، «وهكذا سوف لا نحتاج لاستيراد القمح من مصر أو من البلاد المجاورة، لأن محصولنا سيكون وفيراً»(٧٩). وقد تكون الإشارة هنا إلى قصة سيدنا يوسف واضطرار اليهود للهجرة إلى مصر «لاستيراد القمح»؛ بسبب فقر فلسطين، وقد تكون الاشارة للتوقعات الماشيحانية اليهودية بخصوص المعجزات التي ستحدث في أرض الميعاد بعد العودة. ولكن هذه ليست القضية، فالذي يهمنا هو أن ظاهرة حديثة تاريخية ونسبية، مثل الاستعمار الاستيطاني، ينظر إليها الحاخام على أنها تعبير عن حقيقة أزلية صوفية. وينظر إليها في ضوء تجارب اليهود الأسطورية. ويحاول دافيد بن جوريون أن يربط بين الواقع المعاصر للشرق الأوسط، وبين ما تصور أنه أحداث مماثلة وقعت في الماضي، ويشير إلى عرب اليوم على أنهم الأشوريون، وإلى العراقيين على أنهم البابليون وإلى اللبنانيين على أنهم الفينيقيون، وإلى المصريين على أنهم الفراعنة، بل إنه كان يعتقد (وكان هذا آخر عام ١٩٧٠ بعد الميلاد، وبعد الصعود إلى القمر) أن إسرائيل، الشعب، كانت تواجه كل هذه الأمم، كلا على حدة في أربعة آلاف الأعوام الماضية، ولكنها الآن، لأول مرة، تواجهها كلها مجتمعة، ويشير الحاخام إلى ثورة بركوخيا في القرن الثامن الميلادي على أنها آخر معارك الجيش الإسرائيلي قبل عام ١٩٤٨! ويذكر بن جوريون أن العلاقة بين العرب وإسرائيل كانت طيبة للغاية في بادىء الأمر، حين هاجر يوسف إلى مصر، ولكنها (مع الأسف) تدهورت حين هاجر الصهاينة إلى فلسطين، وهكذا.

ويلاحظ بن جوريون أنه بينما تمتلك اسرائيل الحديثة أسطولا لا بأس به، لم

يكن لدى حكومات إسرائيل القديمة قوة بحرية كبيرة، ويفسر هذه الظاهرة على أساس الاختلاف بين طريق العودة القديمة وطريقها الحديث: «فبينما دخل اليهود أرض الميعاد في المرة الأولى عن طريق مصر وبابل، قادمين من الشرق براً، دخل اليهود الأرض هذه المرة قادمين من الغرب بحراً»(٨٠). ولكن بماذا نفسر أن إسرائيل الحديثة لها قوة جوية في حين لم تمتلك الدولة الاسرائيلية في عهد داود طائرة واحدة؟.

ولعل من أطرف الأمثلة على هذا الإيمان باستمرار إسرائيل والقياس التاريخي الزائف ما صرح به أستاذ التاريخ بالجامعة العبرية من أن جنود إسرائيل عام ١٩٦٧ قد رأوا البحر الأحمر لأول مرة بعد أن عبره موسى منذ آلاف السنين! وقد كان من الشائع في الولايات المتحدة بعد حرب يونيو مباشرة أن يحاول بعض الحاخامات تفسير أسفار العهد القديم، مبينين أن معارك يونيو لم تكن إلا تكرارا لمعارك حدثت من قبل (فكرة الدوائر المغلقة مرة أخرى، والتاريخ الذي لا معنى له). ويقوم بعض المعلقين العسكريين الاسرائيليين بعقد المقارنات بين فرسان داود وسليمان ودبابات حاييم لاسكوف وإسرائيل طال، ويقيمون الندوات لبحث أوجه الشبه والخلاف بين أساليب جدعون (شخصية في العهد القديم) وتكتيكات ديان.

وقد اشترك مؤلف هذا الكتاب في مناظرة مع أستاذ تاريخ إسرائيلي في الأكاديمية الدولية للسلام في نيويورك. وقد شبه هذا الأستاذ عودة اليهود بعد غيبة ألفي عام إلى فلسطين بعودة الأمريكي إلى بلاده بعد رحلة قصيرة للخارج. وعندما هنأته على روح الدعابة وعلى إحساسه بالنكتة، أكد لي، وسط دهشة الحاضرين، أنه كان يعني ما يقول. وقد تغافل هذا العالم السياسي والمؤرخ عن الحقائق التاريخية بالأسلوب نفسه الذي اتبعه ماكس نوردو عندما قال إن فلسطين وسوريا يجب أن تعودا إلى مالكيها الأصليين(٨١)، أي إلى الشعب المقدس. إن أسطورة استمرار إسرائيل، والقياس التاريخي الزائف، والمصطلح الصهيوني

الحلولي العلماني، كلها تعبير عن امتزاج المطلق بالنسبي والقومي بالمقدس ـ انه ثمرة علمنة الحلولية اليهودية التقليدية.

وتداخل المطلق بالنسبي يتضح في موقف اليهود، لا من فكرة التاريخ فحسب، بل في موقفهم من التاريخ ذاته بمعنى الأحداث التاريخية المتعاقبة. وفي تصورنا ان الصهاينة منطلقين من حلوليتهم العلمانية لا يميزون بين ثلاثة استخدامات مختلفة لكلمة «تاريخ».

١ ـ **التاريخ المقدس** : اصطلاح يمكن أن نطلقه على القصص الدينية التي جاء ذكرها في العهد القديم.

٢ ـ **تاريخ العبرانيين أو الإسرائيليين** : وهو التاريخ الواقعي أو الإنساني (وليس المقدس)، الذي يعود إلى عام ١٢٠٠ق.م حين أتى أول ذكر لقبائل «الخابيرو». وهذا التاريخ يختلف عن التاريخ المقدس في كثير من النواحي إذ يأتي ذكر سليمان، مثلا، في التاريخ المقدس على أنه كان ملكا عظيما، في حين يخبرنا التاريخ أن المملكة اليهودية تحت حكمه قد ازدهرت حقاً، ولكنها ظلت مملكة تابعة.

٣ ـ **تواريخ الجماعات اليهودية** : بعد أن نشأت تجمعات يهودية في أماكن متفرقة من العالم داخل بنيات تاريخية متعددة أصبح لكل أقلية أو تجمع يهودي ظروفه التاريخية وديناميته المستقلة عن ظروف التجمعات الأخرى وديناميتها.

ويلاحظ الدارس أنه لا يوجد أي تفريق بين هذه المستويات الثلاثة في معظم الكتابات الصهيونية التي تعالج القضايا الخاصة بالجماعات اليهودية في العالم، إ يتداخل التاريخ المقدس مع تاريخ العبرانيين، ويتداخل الاثنان مع تواريخ الجماعات اليهودية، ليشكل الجميع ما يسمى «التاريخ اليهودي». وتداخل المستويات المختلفة، واختفاء الإحساس بالبنيات التاريخية المنفصلة، وانفصال التاريخ المقدس عن التاريخ الإنساني، كل هذا، بلا شك، ترجمة للحلولية

الدينية اليهودية على المستوى التاريخي ، فالأشياء تتداخل إذا ما حل فيها، وتصبح الفوارق غير ذات بال.

وتداخل البنيات التاريخية، وعدم الإلمام بجدل التاريخ يعبران عن نفسيهما بجلاء في الطريقة التي يقرأ بها الصهاينة الواقع التاريخي. فهم حين نظروا إلى فلسطين في أواخر القرن الماضي لم يروا أرضا فيها شعب، أي لم يروا واقعا إنسانيا تاريخيا، وإنما رأوا مفهوما تلموديا يدعى «إرتس يسرائيل»، ولذلك - نجدهم- بدلا من التعامل مع الواقع الحي بذكاء يلفقون شعارات مثل «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض»، وهي شعارات جامدة، تقترب في اتساقها الهندسي، مع نفسها، من الحسابات القبالية الرائعة.

ويظهر الرفض الصهيوني للتاريخ الناجم عن رؤيته الحلولية العلمانية واضحا في تصريحات الزعماء الصهاينة والقادة الإسرائيليين؛ فهم حين يستخدمون كلمة «تاريخ» لايشيرون عامة إلى التاريخ الحي المتعين، وإنما إلى العهد القديم، أو إلى تراثهم الديني، المكتوب منه والشفوي، فتصبح الحدود «التاريخية» هي الحدود المقدسة المنصوص عليها في العهد القديم «من نهر مصر إلى الفرات»،وهي حدود لم يشغلها اليهود في أي لحظة من تاريخهم، ولا حتى أيام داود أو سليمان ولم يرها أي زعيم صهيوني حتى الآن. و«الحقوق التاريخية» هي، أيضا، الحقوق المقدسة التي وردت في العهد القديم، والتي تؤكد أنهم شعب مقدس مختار، له حقوق تستمد شرعيتها من العهد الإلهي الذي قطعه الله على نفسه لإبراهيم.

وتجاهل الصهاينة لجدلية التاريخ ليس مقصورا على تعاملهم مع التاريخ العربي أو تاريخ الأغيار، بل يمتد لرؤيتهم تواريخ الجماعات اليهودية بطريقة ميلودرامية أو مأساوية فجة، مقسمين تجربة هذه الأقليات التاريخية إلى قسمين؛ أولهما: فترات مظلمة كثيرة «غير حقيقية»، فقدت فيها الذات اليهودية وعيها لنفسها، أو أخذت موقفا سلبيا فوقعت ضحية سهلة لصيادي الأغيار. وثانيهما: فترات مضيئة قليلة، ولكنها «حقيقية» تمركزت فيها الذات ايهودية على نفسها، ودافع فيها اليهود عن أنفسهم بضراوة وشراسة، وفي تلك الفترات لم يكن

اليهودي ضحية سهلة، ولم يكن مواطنا عاديا، بل كان بطلا أو شهيداً. وطبقاً لهذا الفهم تكون أكثر الفترات خصوبة في حياة اليهود هي الأعوام القليلة التي قامت فيها دولة يهودية في فلسطين، وتكون ثورة المكابيين ضد الحضارة الاغريقية «١٦٧ـ ١٤٣ ق.م» هي إحدى القمم القليلة، بل النادرة في هذا التاريخ، وتكون الحركة الصهيونية هي التعبير الحقيقي عن هذا التمركز العدواني الذي يجسد روح «التاريخ اليهودي».

ولكن المشكلة، بالنسبة لهذا التقسيم البسيط، هي أن الصهيونية تكتسب شرعيتها من افتراض وجود هذا التاريخ اليهودي، ومن تعبيرها عنه. و«التاريخ اليهودي» هو، أساساً، نتاج وجود اليهود في «المنفى»؛ فمن يتقبل مقولة «التاريخ اليهودي»، فهل يتقبل أيضا وجود الجماعات اليهودية خارج فلسطين حقيقة أساسية؛ لأن حالة المنفى جزء لا يتجزأ من «البناء التاريخي» اليهودي الذي يفترض الصهاينة وجوده. وتعبر الكتابات الصهيونية عن هذا التناقض العميق؛ فهي، تارة، تمجد التاريخ اليهودي تمجيداً لاحد له، وتارة أخرى تدمغه وترفضه على أنه انحراف. والصهاينة، في مدحهم أو ذمهم على السواء، يفترضون وجود«تاريخ يهودي» مطلق أومقدس، منفصل عن تاريخ الشعوب والحضارات الأخرى.

وقد ترجمت الحلولية العلمانية نفسهاإلى ما أشرنا إليه «باليهودي الخالص»، وهو نموذج الصهاينة لليهودي المثالي، إلى اليهودي الذي يعيش داخل تاريخه اليهودي يطمح للعودة إلى الأرض اليهودية ـ أي يتداخل الإنسان بالمكان والزمان، فهو تجسيد لكل عناصر الحلولية الصهيونية العلمانية، فاليهودي الخالص هو اليهودي المقدس معلمنا «انظر الفصل الثالث».

العنـــف:

وقد أشرنا من قبل إلى أن علمنة الحلولية ليست امرا مقصورا على الصهاينة، وإنما هي سمة بنيوية عامة في معظم، إن لم يكن كل، القول الفاشي: فهي قول

يحوي المطلق داخله لاخارجه، غير قادرة على الحوار مع الواقع أو التفاعل معه، مكتفة نفسها ملتفة حولها تخلع القداسة على الذات ونَعزلها عن الآخرين الذين تهدر حقوقهم ولذا من اليسير على الفكر الفاشي أن يلجأ إلى العنف وإلى تصفية الآخر وابادته نظرا لوقوعه خارج دائرة القداسة، فهو لم يحل فيه الله حلوله في الذات القومية.

والصهيونية تنتمي لهذا النمط وتدور في إطاره. ولكن مما يقوي هذه النزعة أمران:

أ - الصهيونية هي وريثة فكرة الجماعة الوسيطة، وكما أسلفناتتسم الجماعة الوسيطة بأنها تتبنى معيارين للحكم. أحدهما على الجماعة «المقدسة» والآخر على المجتمع المضيف «المباح». ولم يكن من الصعب تحديث هنا الأطار وعلمنته بحيث يتحول إلى العنصرية الصهيونية التي تتيح دم الآخرين. «وقضية الجماعة الوسيطة هي من أهم المفاهيم التي نستخدمها في الوقت الحالي كأداة تحليلية لتفسير وضع اليهود في الحضارة الغربية؛ ولن تشكل الإطار التحليلي للموسوعة العربية للمفاهيم والمصطلحات اليهودية والصهيونية».

ب - ثمة تيار يدعو إلى العنف في العهد القديم الذي تفيض صفحاته بوصف لحروب كثيرة خاضها العبرانيون مع الكنعانيين وغيرهم من الشعوب. وقد جاءت في العهد القديم أوامر بإبادة سكان أرض كنعان وطردهم. «إن لم تسالمك مدينة بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل مافي المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب ألهك، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيكها الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما» «تثنية ٢٠-١٣-١٦» أي فلتبدها عن بكرة أبيها. ولكن، كما بينا، يوجد في اليهودية أيضا تيار آخر سلمي لأقصى حد، وبالتالي يمكن أن نتحدث عن نزعتين كامنتين في

اليهودية: إحداهما حلولية «قومية» تتجه نحو العنف، والأخرى توحيدية «عالمية» تميل نحوالسلم. والصهيونية بعثت التيار الحلولي القومي المتجه نحو العنف.

ولكن قد يكون من المفيد أن نتذكر أن الفكر الإمبريالي والفلسفات النيتشوية والدارونية والعرقية المختلفة، التي كانت سائدة في أوروبا عند ظهور الصهيونية، كلها فلسفات لا أخلاقية، تتخطى الخير والشر، وتمجد العنف بوصفه غاية في حد ذاته. والصهيونية تأثرت بهذه الفلسفات وتبنت كثيراً من مواقفها؛ حتى أصبحت تشكل إطارها الإدراكي. ولاشك أن الفكر النفعي العلماني بتحويله كل شيء إلى مادة استعمالية قد عمق هو الآخر من هذا الاتجاه، إذ يصبح الآخر مجرد أداة أو شيء يستخدم.

لكل هذا أصبح العنف إحدى المقولات الأساسية للصهيونية. وأعادالصهاينة كتابة مايسمونه «التاريخ اليهودي» مؤكدين جوانب العنف فيه. فصوروا الأمة اليهودية في نشأتها على أنها جماعة محاربة من الرعاة الوثنيين الغزاة. فيبردشفسكي، على سبيل المثال، ينظر إلى الوراء إلى الأيام التي كانت فيها «رايات اليهود مرتفعة»، وينظر إلى «الأبطال المحاربين «اليهود» الاوائل»(٨٢). كما أنه يكتشف أن ثمة تياراً عسكريا في التراث اليهودي؛ فالحاخام أليعازر قد بين أن «السيف والقوس هما زينة الإنسان» ومن المسموح به أن يظهر اليهودي بهما يوم السبت (٨٣). هذه الرؤية للتاريخ تتضح في خطاب جابوتنسكي لبعض الطلاب اليهود في فيينا، حيث أوصاهم بالاحتفاظ بالسيف؛ «لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً، بل إنه ملك لأجدادنا الأوائل.. إن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء» (٨٤). «وليلاحظ هنا التوازن بين المطلق والنسبي وبين التوراة والسيف». وقد تبع مناحم بيجين أستاذه جابوتنسكي في تأكيد أهمية العنف في التاريخ؛ إذ يقول: «إن قوة التقدم في تاريخ العالم ليست للسلام بل للسيف» (٨٥).

ويبدو أن السيف، رمز الذكورة والقوة والعنف، كان محبوبا وأثيراً لدى الصهاينة. وقد لاحظنا أن بيجين جعل السيف محركا للتاريخ «وهي مهمة الله

وحده، بحسب التصور اليهودي القديم». أي أن السيف يكاد يكون هو المطلق، أصل الكون وكل الظواهر. ولا يتردد بيردشفسكي في أن يصرح بما هو مستتر في كلمات بيجين. اذ قام برفض التاريخ اليهودي الذي يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود، ورفض أخلاقيات العبيد، ونادى بتفضيل العقل على الفكر وأخلاق السادة على أخلاق العبيد، والسيف على الكتاب: «الكتاب ليس أكثر من ظل للحياة، هو الحياة في شيخوختها. . السيف ليس شيئا مجردا يقف بعيداً عن الحياة، إنه تجسيد للحياة في أعرض خطوطها، وهو تجسيد جوهري ومحسوس يشبه الحياة إلى حد كبير» (٨٦)

وحتى الليبرالي الأميركي الهادىء برانديز يقتبس، باستحسان شديد، هذه الكلمات التي تصف العنف الصهيوني، الذي كان لايزال في نشأته؛ «غرست الصهيونية في الشباب اليهودي الشجاعة، فألفوا الجمعيات، وتدربوا على الأعمال الرياضية، وعلى اللعب بالسيف، وصارت الإهانة ترد بإهانة مثلها، وفي الوقت الحاضر يجد أفضل لاعبي السيف الالمان أن الطلبة الصهيونيين يستطيعون أن يدموا الخدود، كما يفعل التيوتون، وأن اليهود سوف يكونون أفضل لاعبي السيف في الجامعة» (٨٧) «وفي الشرق الأوسط فيما بعد». وبرانديز كان يفكر في الطالب الآري «وحش نيتشه الأشقر» حينما يتحدث عن بطله اليهودي. وجابوتنسكي نفسه كان يفكر في السيف الألماني- البروسي اللامع. ويبدو ان هذا السيف المقدس كان محط إعجاب كل الصهاينة، الذين كثيرا ماعبروا عن إعجابهم وإنبهارهم بالعسكرية البروسية الرائعة «هذا بالطبع قبل أن يهوى هذا السيف البروسي المقيت على الرقاب اليهودية البريئة فياشويتز». وكتابات هرتزل مليئة بعبارات الإعجاب بهذا السيف؛ إذ كتب في مذكراته يشيد ببسمارك الذي أجبر الألمان على شن عدة حروب «الواحدة تلو الأخرى». ومضى هرتزل يكتب في إعجاب عن الآثار المفيدة التي جنتها ألمانيا من هذه الحروب: «إن شعبنا كان نائما في زمن السلم، رحب بالوحدة في ابتهاج في زمن الحرب» (٨٨). وبينما كان هرتزل ينظر من نافذة احد المسؤولين الألمان شاهد مجموعات من الضباط الألمان

يسيرون فعبر عن انبهاره بهم في يومياته: «ضباط المستقبل لالمانيا التي لاتقهر، الدولة التي تريد وضعنا تحت حمايتها» (٨٩).

وتغنى ناحوم جولدمان أيضا بهذه الروح العسكرية البروسية في شبابه: «حيث إن المانيا تجسد مبدأ التقدم، نجدها واثقة من النصر. ألمانيا ستنتصر وستحكم الروح العسكرية العالم. ومن يرد أن يندم على هذه الحقيقة ويعبر عن حزنه فله أن يفعل، ولكن محاولة إعاقة هذه الحقيقة هي شيء من قبيل العناد وجريمة ضد عبقرية التاريخ» «الذي تحركه السيوف وقعقعة السلاح».

واهتمام الصهاينة بالعنف مرتبط بمحاولتهم تحديث الشخصية اليهودية وتطبيعها. وقد ذكرنا من قبل أن اليهودية الأرثوذكسية قد طالبت اليهود بالانتظار الدائم لعودة الماشيح، وألا يتدخلوا في مشيئة الإله، لأن في هذا كفراً وتجديفاً. ولكن الصهاينة تمردوا على هذا الموقف، ونادوا بأن يتمرد اليهودي على وضعه، وألا ينتظر وصول الماشيح، بل ينبغي أن يعمل هو- بكل مالديه من وسائل- على العودة إلى أرض الميعاد. فالمنفى بالنسبة لبن جوريون يعني الاتكال، الاتكال السياسي والمادي والروحي والثقافي والفكري «وذلك لأننا غرباء، وأقلية محرومة من الوطن ومقتلعه ومشردة عن الأرض، وعن العمل والصناعة الأساسية، واجبنا هو ان ننفصل كليا عن هذا الاتكال، وأن نصبح أسياد قدرنا، علينا أن نستقل» (٩٠). ويلخص بن جوريون برنامجه الثوري في أنه لايرفض الاستسلام للمنفى فحسب، بل يحاول أيضا إنهاءه على التو (٩١). وهويعتقد أن هذا هو حجر الزاوية: «القضية الحقيقية الآن، كما كانت في الماضي، تتركز فيما إذا كان علينا أن نعتمد على قوة الآخرين أم على قوتنا». (٩٢) على اليهودي، من الآن فصاعداً، الا ينتظر التدخل الإلهي لتحديد مصيره، بل عليه أن يلجأ إلى الوسائل الطبيعية العادية (٩٣) «مثل الفانتوم والنابالم مثلا؟».

ويقول ماكس نوردو إن اليهودي، خلال ثمانية عشر قرنا من النفي، أصبح مترهل العضلات «وهذه هي إحدى أوصاف اليهود السائدة بين اعداء اليهود»،

ولذلك أقترح أن يقلع عن قهر جسده، وأن يعمل على تنمية قواه الجسدية وعضلاته، أسوة «بذلك البطل باركوخبا، آخر تجسيد، على صعيد التاريخ العالمي، لتلك اليهودية في صلابة عودها المقاتل وحبها قعقعة السلاح» (٩٤). إن العنف هنا يصبح الأداة التي يتوسل بها الصهاينة لإعادة صياغة الشخصية اليهودية؛ فاليهودي- في هذا التصور- يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه ومن ذاته الطفيلية الهامشية. كان الكاتب اليهودي بن هخت يشعر بعيدٍ في قرارة نفسه في كل مرة يقتل فيها جنديا بريطانيا لأنه، بلا شك، كان يتحرر من مخاوفه ويولد من جديد، تماما مثل شارلوت كورداي في قصيدة جابوتنسكي بعنوان «شارلوت المسكينة»؛ فشارلوت تتخلص من رتابة حياتها وسخافتها، وتروي تعطشها للعمل البطولي بأن تقوم «بالفعل» بتسديد الضربة الى جان مارا فترديه قتيلا وهو في الحمام (٩٥). العنف هنا يصبح مثل الطقوس الدينية التي يستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أحد أفرادها إلى سن الرجولة. «فاليهودي حينما يقوم بهذا الفعل الذي كان يخاف منه اجداده، ذبح أحد الأغيار، يتخلص من مخاوفه، ويصبح جديرا بحمل رمز الذكورة». وهذا الجانب من الفكر الصهيوني يتضح بجلاء في كتاب الثورة، الذي كتبه مناحم بيجين. يقول فيلسوف العنف:

«أنا أحارب، إذاً أنا موجود»

«من الدم والنار والدموع والرماد سيخرج نموذج جديد من الرجال، نموذج غير معروف البتة للعالم في الألف والثماني السنين الماضية: اليهودي المحارب، أولا وقبل كل شيء، يجب أن يقوم بالهجوم: نهاجم القتلة.

بالدم والعرق سينشأ جيل متكبر كريم قوي» (٩٦).

والعنف عند بن جوريون يقوم بالوظيفة نفسها في إعادة صياغة الشخصية اليهودية؛ إذ يصف الرواد الصهاينة بهذه الكلمات (٩٧). «كنا ننتظر مجيء الاسلحة ليلا ونهارا، ولم يكن لنا حديث إلا الأسلحة، وعندما جاءتنا الأسلحة لم

تسعنا الدنيا لفرط فرحتنا، كنا نلعب بالأسلحة كالأطفال ولم نعد نتركها أبداً. كنا نقرأ ونتكلم والبنادق في أيدينا أو على أكتافنا». وموقف بن جوريون مبني على تصور جديد للشخصية اليهودية على أنها شخصية محاربة منذ قديم الأزل: «إن موسى، أعظم أبنائنا، هو أول قائد عسكري في تاريخ أمتنا» ومن هنا يكون الربط بين موسى النبي وموشي ديان مسألة منطقية، بل حتمية، كما لايكون من الهرطقة الدينية في شيء أن يؤكد بن جوريون أن خير مفسر ومعلق على التوراة هو الجيش؛ فهو الذي يساعد الشعب على الاستيطان على ضفاف نهر الأردن، فيفسر بذلك كلمات أنبياء العهد القديم ويحققها(٩٨). «ولنلاحظ كيف كان السيف موازيا للتوراة، فأصبح هنا تابعا له، إذ إن السيف هو الذي يفسر التوراة ويفرض ويفرض عليها المعنى، تماماً مثلما اختار الله الشعب وحل فيه وأصبح تابعا له، تماما مثلما تنسخ كلمات الحاخامات «التفسير» كلمات الله «الكتاب المقدس»

جيتوية الصهيونيـــة:

ثمة سمة فريدة للصهيونية لاترتبط بالنسق الديني اليهودي، بقدر ارتباطها بالوضع الاقتصادي والوظيفي المتميز لليهود في أوروبا الغربية، هي مـاأسميه «جيتوية الصهيونية». إذ يمكن رؤية أثر الجيتو على الصهاينة في جوانب مختلفة من سلوكهم وممارستهم ورؤيتهم، ابتداء بنظرية الأمن الإسرائيلية، المبنية على الشك العميق في الأغيار (فالطمأنينة لا توجد إلا داخل الأسوار)، ومروراً بالمؤسسات الصهيونية الانفصالية، وانتهاء بالدولة الصهيونية ذاتها.

ويمكن ايجاز أثر الجيتو على رؤية الصهاينة وسلوكهم فيما يلي:-

١) تشبه نظرة الصهاينة للعالم الخارجي نظرة يهود الجيتو للأغيار، فهي نظرة شك عميقة، وإحساس بأن هذا العالم متربص بالحمل اليهودي الوديع (وسنتناول هذا الجانب من الأيديلوجية الصهيونية في الفصل الخامس). وتستند نظرية الأمن الإسرائيلية إلى هذا الشك العميق في الأغيار، فاسرائيل لابد من أن تظل مسلحة إلى أقصى حد، ويمكن القول إن إسرائيل هي الجيتو المسلح فعلا. وفي

إحدى المحاضرات التي ألقاها المعلق السياسي والمفكر الاستراتيجي الإسرائيلي حاييم أورنسون، اقترح أن تحيط إسرائيل نفسها بسياج عال من الأسلحة النووية مدة مائة عام، الى أن تتم عملية التحديث في العالم العربي وما قد ينتج عنها من قلاقل وثورات، أي أنه يقترح تحويل الجيتو المسلح الى جيتو نووي. ويمكن النظر إلى كل المؤسسات الانفصالية الصهيونية في هذا الاطار، بل إن الدولة الصهيونية كلها هي أكبر جيتو عرفه التاريخ فعلا.

٢) يشبه الدور الذي تلعبه الدولة الصهيونية في الشرق الأوسط دور الجيتو واليهودي في مجتمعات أوروبا:

أ) توجد إسرائيل في الشرق الأوسط، ولكنها ليست منه، أي أنها تتواجد في مسام الشرق الأوسط، ولا تلتحم عضوياً به، فهي لاتنتمي للسياق الحضاري الذي تتواجد فيه، ولا تتفاعل معه حضارياً.

ب) حين تتعامل إسرائيل اقتصادياً مع الشرق الأوسط فهي تشبه، في كثير من النواحي، يهود الجيتو الذين كانوا يقفون على هامش العملية الانتاجية بين الطبقات المختلفة، يحملون البضائع ولا ينتجونها، وينظرون للعملية الإنتاجية كلها من الخارج. وهذا ما تفعله إسرائيل، فهي لاترى نفسها داخل إطار من التكامل الاقتصادي، وإنما تحاول دائماً أن تستفيد من وضع التخلف الموجود في المنطقة. إنها تشبه يهود الجيتو تماماً، فهي تعرف أنه اذا تقدم هذا المشرق العربي وظهرت فيه صناعة حديثة، فانها ستنبذ وتطرد.

جـ) لاتزال إسرائيل معتمدة على الغرب وعلى يهود الشتات اقتصاديا، فالاسرائيليون يتمتعون بمستوى معيشي مرتفع، لا بسبب إنتاجيتهم وإنما نتيجة المساعدات الإمبريالية ومنح يهود الشتات ، أي أن إسرائيل تشارك يهود الجيتو طفيليتهم.

د) والامبريالية العالمية تهتم باسرائيل، لأن الدولة الصهيونية قد باعتها شيئاً أساسيا وهو دور حارس في المنطقة، فإسرائيل لا تقدم مواد استراتيجية أو سلعا

وفيرة أو نادرة، وإنما تقدم دوراً ووساطة، فهي مخفر أمامي للامبريالية. ويهود الجيتو لم يكونوا طاقة انتاجية، وإنما كانوا يشكلون وظيفة أساسية ودوراً حيويا: التاجر والمرابي، أو حملة البضائع من مجتمع لآخر.

هـ) لاتزال اسرائيل معتمدة- من الناحية العسكرية- على الغرب تماما مثل الجيتو الذي كان عاجزاً عن الدفاع عن نفسه ضد هجمات الفلاحين والغاضبين (كما حدث أثناء ثورات الفلاحين في بولندا).

و) كان على سكان الجيتو دفع الضرائب الباهظة للملك أو الحكومة نظير الحماية، والضريبة الجماعية التي يدفعها الاسرائيليون هي الحروب المستمرة لمساندة المصالح الامبريالية في المنطقة.

ز) على الرغم من أن يهود الجيتو كانوا يمتلكون أموالا طائلة، فإن ثرواتهم كانت دائما مهددة بالمصادرة، بل كانت تصادر بالفعل، ولذلك لم يتمكن اليهود من تكوين طبقة رأسمالية يتراكم رأسمالها على مر الزمان، وإنما ظلوا يلعبون دور التابع الضعيف. وإسرائيل، هي الأخرى على الرغم من ارتفاع المستوى المعيشي فيها، لم تستطع حتى الآن أن تكون لها قاعدتها الانتاجية المستقلة.

ح) كان المرابي اليهودي لايستغل الفلاحين فحسب، بل كان يهدد الأساس المادي لوجودهم أيضا إذ كان ينزع ملكية الفلاحين بعد دورة الاقراض الطويلة. والاستعمار الصهيوني في علاقته بالفلسطينيين بدأ أولا بنزع ملكيتهم وتحطيم مجتمعهم والاشكال الانتاجية التي يستندون اليها، ثم بعد ١٩٦٧ بدأ في استغلالهم من الخارج أيضا، أي دون استيعابهم ودون الدخول معهم في علاقة اقتصادية متكاملة.

ط) على الرغم من وجود طبقات داخل الجيتو، إلا أنها كانت متداخلة، فالضرائب كانت تفرض على الجيتو كله، ولعل هذا ما يفسر الوحدة الوجدانية ووحدة المصلحة بين الصهيونية العمالية والصهيونية السياسية (البورجوازية)، وبين كافة الطبقات في المجتمع الاسرائيلي التي تستفيد من المعونات التي تبعث بها القوى

الامبريالية ويهود العالم. وهذه الطبقات تكون طبقة واحدة (على الأقل من الناحية الوجدانية) في مواجهة العدو العربي الفلسطيني.

٣) ويمكن أيضا أن نرى اسرائيل في دور البلاط الامبريالي الذي يقوم على خدمة الملك نظير الحماية. ومن الأمور التي لها دلالتها وطرافتها أن آخر يهودي بلاط كان هو سولومون روتشيلد، وكأن الصهيونية متمثلة في هذه العائلة قد ورثت الدور ومنحته الاستمرارية. ويبدو أن كثيرا من الصهاينة المسيحيين الذين ساعدوا على توطين اليهود في فلسطين كانوا يشاركون في هذه الرؤية الجيتوية (وإن كانوا ينظرون للجيتو «من خارجه»، مسيحيين عنصريين، وليس من داخله، يهوداً معذبين). فحينما احتاجت الامبراطورية البريطانية لمستوطنين بيض، ليشجعوا التجارة في أحد أملاكها، طلبت من الصهاينة أن يقوموا بتجنيد اليهود لتنفيذ المهمة. وقد قبل المستعمرون الأوروبيون مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين في إطار هذاالفهم. ففي مجال الحديث عن هذا المشروع قال الأيرل شافتسبري: «من هم أكثر الناس في العالم احتراما للتجارة وهل يجد اليهودي موقعا أو مجالا أفضل من سوريا (بما في ذلك فلسطين) لتنمية نشاطه؟ أليس لبريطانيا مصالحها الخاصة في تحقيق هذه التغييرات الضرورية؟. ولذا اقترح أن تدعم انجلترا «القومية اليهودية» وتساندها. (٩٩)

٤) ومن الآثار العميقة للجيتو على الوجدان الصهيوني تصور الصهاينة أن كل شيء يباع ويشترى، بما في ذلك الوطن، فيهودي الجيتو كان لا يدخل إلا في علاقة نفعية مع العالم، والأغيار ـ بدورهم ـ كانوا لا يرونه إلا مصدراً للنفع، ولذا تكتسب كل العلاقات شكلا موضوعيا وينظر لها من الخارج فحسب، فارتباط إنسان بوطنه، (هو ارتباط لايمكن رده الى الدوافع الاقتصادية فحسب، بل يفسر على أسس اكثر تركيبا) لايمكن للعقلية الجيتوية فهمه، ولذا فهي إما أن ترفضه، وإما أن تتقبله بعد تفسيره على أسس نفعية محضة.

ويظهر هذا التيار الجيتوي في التفكير الصهيوني بشكل يكاد يكون كوميديا في كتابات هرتزل. فقد اتهم اليهود بأنهم غير قادرين على تصور أن الانسان قادر على

التصرف دون أن يكون دافعه الأساسي هو المال. (١٠٠) وحينما نشر كتابه الدولة اليهودية اتهمه بعض اليهود بأنه تقاضى مبلغا ضخما من شركة أراضي بريطانية تود القيام بأعمال تجارية في فلسطين. وعلق هو على هذا الاتهام بقوله: «إن اليهود لا يصدقون أن أي شخص يمكن أن يتصرف مدفوعا باقتناع أخلاقي»(١٠١)، ورد هرتزل معاد للسامية دون شك، ولكن ما يهمنا هنا هو أن رؤيته الضيقة لليهود إنما تنطبق عليه هو، إذ كان هرتزل يتصور أن العالم حانوت أو سوق كبيرة. فحينما ذهب لمقابلة جوزيف تشمبرلين، وزير المستعمرات البريطاني، ليطلب منه قطعة أرض ليقيم عليها وطناً، كان يتخيل أن الامبراطورية الانجليزية مثل دكان كبير للعاديات التي لا يعرف مالكها عدد السلع فيها على وجه الدقة، وتخيل هرتزل نفسه زبونا يطلب سلعة اسمها «مكان تجمع الشعب اليهودي»، ويحاول مع صاحب الدكان أن يبحث له عن مثل هذا المكان، السلعة في بضاعته(١٠٢)

ولكن هرتزل كان ينوي المتاجرة في عدة بلاد حتى يكسب احداها في نهاية الأمر ومجانا، فعلى سبيل المثال حاول أن يحصل على امتياز شركة أراض في موزمبيق من الحكومة البرتغالية دون أن يدفع فلساً واحداً، وذلك بأن يعد بسداد الديون ويدفع ضريبة فيما بعد. ثم يوضح هرتزل للقارىء نواياه: «على أني اريد موزمبيق هذه للمتاجرة عليها فقط وآخذ بدلا منها جزيرة سيناء مع مياه النيل صيفا وشتاء، وربما قبرص أيضا دون ثمن». (١٠٣)

ويؤمن هرتزل بأن الدولة اليهودية ذاتها سلعة مربحة ناجحة، فهو يوضح أن الجمعية اليهودية ستعمل مع السلطات الموجودة في الأرض، وتحت إشراف القوى الأوروبية: «إذا وافقوا على الخطة ستستفيد هذه السلطات بالمقابل، سندفع قسطا من دينها العام ونتبنى إقامة مشاريع، نحن أيضا في حاجة إليها، كما سنقوم بأشياء اخرى كثيرة ستكون فكرة خلق دولة يهودية مفيدة للأراضي المجاورة، لأن استثمار قطعة أرض ضيقة يرفع من قيمة المناطق التي تجاورها»(١٠٤)

والرؤية الصهيونية المبتذلة التي تضع لكل شيء سعرا، مهما سمت مرتبة هذا الشيء، تفترض أن فلسطين، هي الأخرى، سلعة بل سلعة غير رائجة لا يود أحد شراءها سوى المعتوهين من اليهود. (١٠٥) ويقدر هرتزل أن ثمن فلسطين الحقيقي، دون مساومة، هو مليونان من الجنيهات فقط (حيث إن العائد السنوي منها عام ١٨٩٦ كان حوالي ٨٠ ألف جنيه)(١٠٦)، وقد وافق كثير من الصهاينة على هذا الثمن الواقعي أو التجاري(١٠٧) إلا أن السمسار السياسي يعرف أن الثمن التجاري يختلف عما يجب أن يدفع حين يحين وقت البيع والشراء، وهو لهذا السبب يرفع السعر الى عشرين مليون جنيه تركي، دفعة واحدة، يدفع منها مليونين لتركيا والباقي لدائنيها. (١٠٨)

بل يبدو أن هرتزل كان يحاول الحصول على فلسطين بالمجان، فقد ذهب الى السلطان عبد الحميد خاوي الوفاض، ودون في مذكراته أنه لو عرضت عليه فلسطين الغالية نظير سعر مخفض لشعر بالحرج، لأنه «لا يحمل معه كل المبلغ». (١٠٩) إن كل ما يريده من السلطان هو وعد ببيع فلسطين له، وهذا الوعد سيكون له بمثابة السلة التي يستخدمها المتسولون لجمع التبرعات (والتسول كان شخصية أساسية في الجيتو)، وإن لم ينجح التسول فإن هرتزل لن تعجزه الحيلة، فهو يقرر أن يقبل الصفقة على أن يطلب بعض الامتيازات من تركيا (مثل احتكار الكهرباء) حتى يتسنى له الدفع بيسر(١١٠)، وأن يحاول الحصول على فلسطين بالمجان أو على الأقل بالتقسيط المريح! بل يبدو أن الزعيم الصهيوني لم يكف قط عن محاولة شراء فلسطين، فبينما كان يرقد على فراشه يعالج سكرات الموت كان يتخيل نفسه في فلسطين يشتري أرضاً من أهل البلاد، وسمع وهو يهذي قائلا: «يجب أن نشتري تلك الهكتارات الثلاثة، انتبهوا، تلك الهكتارات الثلاثة بالذات». (١١١)

هذا التصور التجاري الجيتوي للوطن القومي اليهودي ليس قاصراً بأي حالة على هرتزل، فموسى هس يقول: «أي قوة أوروبية ستمنع اليوم فكرة أن يشتري اليهود.. أرض أجدادهم ثانية»، وهو يتصور أن تركيا سترد لهم وطنهم نظير

«حفنة من الذهب». (١١٢) وتصور ليلينبلوم فكرة شراء الوطن ليس مغايراً لفكرة هس: «على رجالنا الأغنياء أن يبدأوا بشراء العقارات في تلك الأرض، ولو ببعض ما يملكون من ثروة. وطالما أن هؤلاء لا يرغبون في ترك أراضيهم التي يسكنونها الآن، فليشتر كل منهم قطعة أرض في أرض اسرائيل ببعض من مالهم حيث تعطى هذه الأراضي لمن يستغلها على أساس اتفاقية بخصوص العائد (أو الربح) مع الشاري»(١١٣). ويرى بتسكر هو الآخر أن حل المسألة اليهودية يتلخص في «تأسيس شركة مساهمة لشراء قطعة أرض تتسع لعدة ملايين من اليهود يسكنون فيها مع مرور الزمن». (١١٤)

ولا يزال التصور التجاري الجيتوي قائما حتى الآن، فحينما يتحدث وايزمان عن فائدة الدولة الصهيونية للامبريالية، ويقدم حساب التكاليف، وحينما تقدم الحركة الصهيونية الحوافز المادية والرشاوى ليهود المنفى ليهاجروا إلى أرض الميعاد، وحينما يتحدث الاسرائيليون عن دفع تعويضات للفلسطينيين عن أملاكهم، وحينما تتحدث التواريخ الصهيونية عن أن الصهاينة اشتروا أرض فلسطين (وكأن الوطن ملكية عقارية)، وحينما يحاولون شراء حائط المبكى يدل كل هذا على أن التيار التجاري الجيتوي لا يزال قائما. ولكن يجب أن نقرر أنه قد اصبح تياراً فرعيا. ولعله يمكن تفسير هذا التحول على اساس أن التيار التجاري في الفكر الصهيوني إن هو إلا شكل من اشكال العنف الهادىء غير الواضح، ولكنه عنف دون شك، لأنه يطرح صورة بسيطة وميكانيكية للواقع الى درجة مخلة، ثم يحاول فرض هذه الصورة عن طريق المضاربات. ومع ظهور العنف الصهيوني الصريح خفت حدة هذا التيار ولكنه لم يختف تماما نظراً لأنه جزء أصيل من إدراك الصهاينة للواقع.

٥) ومن المظاهر الأخرى لجيتوية الصهيونية هو ما أسميه بجيتوية المصطلح الصهيوني، التي تتضح في أوجه كثيرة، أهمها رفض المراجع الصهيونية ترجمة الكلمات العبرية. وعدم ترجمة المصطلح نابع من الايمان «بتفرد» التراث اليهودي وتمييز «الذات اليهودية» وقدسيتها... الخ. ولذلك يظل حزب اتحاد العمل هو

«أحدوت هاعفوداه» ويظل «عمال صهيون» هو «بوعلى تسيون»، أما حرب اكتوبر فهي «حرب يوم كيبور»، هذا في الوقت الذي يترجم فيه العلماء الاسرائيليون والصهاينة أنفسهم اسم حزب المحافظين الانجليزي إلى العبرية ولا يترجمونه إلى «الكونسر فاتيف بارتي»، على سبيل المثال.

كما تظهر جيتوية المصطلح أيضا في ترجمة أسماء الأعلام (والأسماء لها دلالة خاصة في الدين اليهودي)، فالمصطلح الصهيوني نابع من الايمان بأن اليهودية هي انتماء قومي، ولذا يجب عبرنة كل الأسماء، فيصبح موسى هو موشيه، بغض النظر عن انتمائه القومي الحقيقي، ويصبح إسحق هو يتسحاق، كما لو كان الأمر المنطقي هو أن ينطق اسمه بالعبرية، مع أن بعض حملة هذه الأسماء لا يعرفون العبرية، ولم تناد أسماؤهم بها مرة واحدة طيلة حياتهم، ومع هذا نفاجأ بأن المراجع الصهيونية «تعبرن» كل الأسماء كما لو كان هذا أمراً طبيعيا.

ويظهر الانغلاق الجيتوي التام في اصطلاحات مثل «الهولوكوست» و «العالياه» وهي اصطلاحات وجدت طريقها أيضا الى اللغة العبرية. و «العالياه» هي اصطلاح ديني يعني «العلو والصعود» الى أرض الميعاد، ولا علاقة له بأي ظاهرة اجتماعية، ومع هذا يستخدم الصهاينة الكلمة للاشارة الى الهجرة الاستيطانية، أي أن الظاهرة التي لها سبب ونتيجة أصبحت شيئاً فريداً، وظاهرة ذاتية لا تخضع للتقنين والمناقشة، فعلاقتي مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر لا يمكن للبشر أن يتدخلوا فيه، لأن التجربة الدينية تجربة فردية في جوهرها، تكتسب أشكالا ومضامين اجتماعية فيما بعد. والهولوكوست هو تقديم قربان للرب في الهيكل، وليس له علاقة بألمانيا النازية. والغرض من استخدام كل هذه المصطلحات الدينية اليهودية هو إزالة الحدود والفوارق بين الظواهر المختلفة، بحيث تصبح «العالياه» هي الهجرة، وتصبح الهجرة الصهيونية هي العلو والصعود الى أرض الميعاد. والأمر الذي له دلالته على أنه توجد في العبرية كلمة محايدة تصف الهجرة فحسب، ولكن الصهاينة استبعدوها، وهو ما يؤكد المضمون الايديولوجي لهذا المصطلح.

محاولة لتعريف الصهيونية :

ويمكننا عند هذه النقطة أن نقدم تعريفا للصهيونية ، وسنحاول في تعريفنا أن نطرح جانبا (وبقدر المستطاع) أي مصطلحات أو أدوات تحليلية خلافية حتى نصل إلى الحد الأدنى المشترك الذي يقبل به جميع الصهاينة وغير الصهاينة ، ونصوغه في لغة محايدة بقدر الإمكان . فسنعرف الصهيونية بأنها الحركة التي تدعو إلى (والتي قامت بـ) «نقل كل اليهود أو بعضهم إلى كل فلسطين أو جزء منها لتأسيس دولة هناك» . وهذا التعريف يستند إلى تحليلنا السابق لبنية الأيديولوجية الصهيونية دون أن يتضمن مصطلحاته . فنقل اليهود يتضمن فكرة استبعاد العرب عن طريق طردهم أو إبادتهم . وعملية النقل هذه تفترض قدرا من العنف إذ كيف ستتم عملية النقل هذه بالطرائق السلمية ، ونحن نعرف أن البشر لا ينتقلون هكذا ، ولا يتركون أرضهم أو أوطانهم دون تهديد ودون استخدام القوة؟ وعملية النقل (والإبعاد) تصدر عن رؤية للانسان اليهودي (وللإنسان العربي) وللتاريخ اليهودي وللأرض ، فالنقل يتم باسم نظرية في الحقوق تجسد المفاهيم الصهيونية . والمدارس الصهيونية كلها تعبر عن هذه الحلولية بديباجات واعتذاريات مختلفة ، فنقل اليهود من المنظور الاشتراكي يتم لاسباب أممية اشتراكية ، أما من المنظور الليبرالي فيتم لأسباب ديموقراطية علمية ، أما من المنظور الديني فيتم لأسباب دينية . ولكن يظل الإجماع على الحد الأدنى المشترك وهو عملية «النقل» (والإبعاد) التي تجسد فكرة الارتباط الحلولي بين الإنسان والمكان . وإلا لم ينقل اليهودي إلى فلسطين دون سواها من الأمكنة؟ وباسم ماذا يتم إبعاد العرب؟

ويمكن تصوير جدول يبين علاقة مستويات المصطلح الصهيوني على النحو التالي)

٣ ـ المدارس ـ الاتجاهات ـ الأساليب ـ الاعتذاريات الصهيونية

٢ ـ البنية الحلولية العلمانية

١ ـ البنية الحلولية الدينية

يتم الحديث (أو الإشارة من خلال صور أو تضمينات) إلى القداسة القومية أو القومية المقدسة ويكون الحديث عن اليهودي المقدس. وعلى المستوى الثاني يكون الحديث عن القومية أو عن الأخلاق، ويتم الصمت بشأن القداسة تماما مع افتراضها عن وعي أو عن غير وعي ويكون الحديث عن حقوق اليهود القومية المطلقة». أما على المستوى الثالث فيتم الصمت بخصوص الإطلاق مع افتراضه عن وعي أو عن غير وعي. ويتم الحديث عن حق اليهود في أن يساهموا في الانتاج وأن يكون لهم سيادة سياسية مستقلة أو أن يكونوا أمة مثل كل الأمم.

وأرض الميعاد في البنية الحلولية الدينية تصبح الوطن القومي في البنية الحلولية العلمانية، وتصبح واحة الديمقراطية أو المكان الذي سيتحول فيه اليهودي الهامشي إلى شخصية اشتراكية منتجة على مستوى الاعتذاريات والديباجات، وعلى القارىء العربي حين يقرأ نصاً صهيونيا (ونحن نستخدم كلمة «نص» بالمعنى العام للكلمه)، ان يحاول حل شفرة كل خطاب صهيوني وديباجاته ليصل إلى المعنى الحقيقي الكامن، أي امتزاج المقدس بالقومي، فهذا المعنى الحقيقي الكامن الواعي أو غير الواعي.

وبنية المصطلح الصهيوني يمكن النظر إليه من الخارج. فلويد جورج رئيس الوزراء الانجليزي وتشمبرلين وزير المستعمرات كانا يعرفان انهما بحاجة إلى مستعمرة لتسريب الفائض البشري اليهودي. ولتصبح قاعدة في الامبراطورية التي لاتغرب عنها الشمس. وهنا تصبح أرض الميعاد والوطن القومي اليهودي ووطن الاشتراكية الصهيونية مجرد قاعدة استعمارية تقوم على خدمة أوروبا فتحل مشكلاتها السكانية، ثم تقاتل من أجل مصالحها. وكل ما فعلناه هنا، هو أننا أخذنا الخطاب الاستعماري وحللنا شفرته بالطريقة نفسها. مع الفارق أن صاحب الخطاب الاستعماري لايشارك بالضرورة في البنية الحلولية الدينية أو العلمانية وان كان يرحب بهما. فهما يساهمان في تجنيد الفائض البشري اليهودي الذي كان من الممكن أن يسبب له الضيق في أوروبا ويوظفه في خدمة الغرب. هذا لايعني أن كل شخص يستخدم ديباجة واحدة أو شفرة واحدة وحسب، بل

على العكس نجد أن الشفرات تتداخل .فهرتزل كان يرى الدولة الصهيونية أنها الوطن القومي اليهودي ومجال لتسريب الفائض البشـري اليهودي من أوروبـا وقاعدة للاستعمار الغربي. وكان بلفور يؤمن بالحلولية الدينية والعلمانية. فهو يتحدث عن حقوق اليهود المقدسة، ثم يتحدث عن الجنس اليهودي المنبوذ من أوروبا، ثم يتحدث عن ضرورة التخلص من اليهود ويتحدث كذلك عن الفوائد الاستراتيجية التي ستعود على الاستعمار الغربي نتيجة وجود الـدولة اليهـودية المقدسة في أرض الميعاد التي تطل على قناة العريش! أما جماعة جوش أيمونيم فهي قد استبعدت كل الاعتبارات العملية ووصلت إلى البنية الحلولية الدينيةالتحتية. فالاستيطان من وجهة نظرهـا ليس سوى تحقيق الوعـد الإلهي لشعبه المختـار المقدس، وهي تقيم في الضفة الغربية لهذا السبب وحده، كما تظن (عن صدق أو نفاق). ولكن مايهم المؤسسة الصهيونية هو وجود مستوطنين في الضفة الغربية يسـاهمون في تحقيق المشروع الصهيوني. ومايهم الدولة الاستعمارية الراعية هو وجود هذه الكتلة البشرية المقاتلة على حدود النار مع الشرق العـربي وإذا ظن. أعضاؤها أنهم شعب مختار يحمل عبء الميثاق الثقيل فهذا أمر جيد، إذ إنه سيزيد من مقدرتهم على الصبر والاحتمال والقتال من أجل الرب والغرب. وعلى كل يعرف الغرب وتعرف المؤسسة الصهيونية أن البنية كلها (بحلوليتها واصطلاحاتها وديباجاتها وشفراتها)ستخدم من يمول البنية فهو الذي يفرض عليها الاتجاه وهذا مايفعله الغرب. ولذا نجد أن كبار المفكرين الاستراتيجيين الغربيين يتحدثون عن أن مساندة الغرب لإسرائيل تنبع من إيمانهم العميق بالتراث المسيحي / اليهودي وقيمه الأخلاقية وهو قول طريف يبعث على الابتسام. ولفهمه حق الفهم يجب حل شفرته بالطريقة التي نقترحها.



الفصل الخامس

اليهودي الخالص والعربي الغائب

من الأفكار المحورية في الأيديـولوجيـة الصهيونيـة فكرة اليهـودي الخالص واليهودية الخالصة: جوهر يهودي يميز اليهودي عن غيره من البشر، ويميز الظواهر اليهودية عن غيرها من الظواهر. ومن اليسير أن نرى التماثل البنيوي بين هذه الفكرة الصهيونية والتصور الديني اليهودي القديم للأغيار أو «الجوييم». وهذه الكلمة الأخيرة هي صيغة الجمع للكلمة العبرية «جوي»، التي تعني «شعبا» أو «قوما». وقد كانت الكلمة تنطبق، في بادىء الأمر، على اليهود وغير اليهود، ولكنها بعد ذلك استخدمت في الاشارة للأمم غير اليهودية فترجمت إلى المصطلح العربي: «الأغيار». وقد اكتسبت، الكلمة فيما بعد، إيحاءات بالذم والقدح، وأصبح معناها «الغريب». والأغيار درجات، أدناها «الأكوم» أو عبدة الأوثان والأصنـام، وأعلاهـا أولئـك الـذين تـركـوا عبـادة الأوثـان (أي المسيحيـون والمسلمون). وتنص الشريعة اليهوديـة الدينيـة على أن الأتقيـاء من كل الأمم سيكون لهم نصيب في «العالم الآخر».

ولكن ثمة نصوصاً في العهد القديم لاتميز بين الوثنيين وغير الوثنيين (وقد جاء في سفر أشعيا: ٦١/٥ـ ٦): «ويقف الأجـانب ويرعـون غنمكم ويكون بنـو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب وتسمون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدها تتآمرون». وجاء في سفر ميخا (١٢/٤): «قومي ودوسي يابنت صهيون لأني أجعـل قرنـك حديـداً وأظلافـك أجعلها نحـاسا فتسحقين شعوبا كثيرة...». وقد استفاد التيار القومي في اليهودية في صراعه مع التيار العالمي من هذه النصوص، فعمق من هذا الاتجاه الانعزالي، ووسع من نطاق الحظر في التعامل مع الأغيار، إلى أن أصبح الحظر يتضمن حتى مجرد تناول الطعام معهم. وكان الجيتو، بطبيعة الحال، تربة خصبة ينمو فيها هذا الموقف

ويكتسب صلابة ومنعة. ومع ظهور حركة التنوير وحركة اليهودية الاصلاحية قامت محاولة للقضاء على هذا الموقف أو التخفيف من حدته، بطرح تفسيرات جديدة للنصوص القديمة، وطرح تصور اليهودي على أنه إنسان عادي ينتمي لأي مجتمع يحيا فيه، ويشارك في البنية الثقافية التي نشأ فيها، أيا كانت، وذلك دون أن يتجاهل بالضرورة تراثه الديني أو الثقافي الخاص.

نفي الدياسبورا (الشتات):

إلا أن الرؤية الثنائية المستقطبة عادت للظهور، بكل حدتها، على يد الصهيونية التي ترى أن اليهود شعب مختلف عن بقية الشعوب لايمكنه الاندماج فيها، إذ يوجد داخله هذا الجوهر اليهودي الخالص الذي يميزه ويفصله عن الأغيار، وتفترض الأيديولوجية الصهيونية أن اليهود الذين يعيشون خارج وطنهم القومي (المقدس) يعانون من تمزق مستمر، «لأنهم لاجذور لهم» في الحضارات المختلفة (١) التي لا تعبر عن جوهرهم المتميز. إن الشعب اليهودي لايمكن تشكيل حياته على أساس احتياجاته وقيمه، وعلى أساس من الاخلاص لشخصيته الخاصة وروحه وميراثه التاريخي ورؤاه الخاصة بالمستقبل: (٢) إلا في وطنه القومي.

انطلاقا من هذه الرؤية ينظر الصهاينة إلى تراث يهود الشتات (خارج الوطن القومي) على أنه تراث بلا قيمة، لأنه لايعبر عن الجوهر الخالص، ولذا يجب تصفية الشتات وتراثه، وهذا مايطلق عليه مصطلح «نفي الدياسبورا (الشتات)». فالصهيونية، بحسب تصور كلاتزكين، هي «رفض الدياسبورا» لأنها «لاتستحق البقاء». (٣) وهذه النغمة الصهيونية من أكثر النغمات تكرارا؛ فالحاخام موردخاي بيرون، كبير حاخامات الجيش الاسرائيلي، وصف الشتات بأنه «لعنة إلى الأبد. . لعنة دائمة»، ولم يستثن من ذلك حتى العصور الذهبية الكثيرة ليهودالشتات. (٤) كما أشار بن جوريون الى الشتات على أنه «غبار إنساني متناثر»(٥)، ووصفه كلاتزكين بأنه «دمار وانحلال وضعف أبدي». (٦).

الولاء اليهودي:

وقد عدّ ليفي أشكول المساهمات اليهودية التي تتم على «أرض أجنبية» محض خيانة للروح اليهودية الخالصة(٧). ومثل هذا الطرح يثير قضية ولاء اليهود، ولمن يكون؟ والإجابة الصهيونية عن هذا السؤال واضحة تمام الوضوح؛ فولاء اليهود الموجودين في كل مكان هو لشعبهم اليهودي ولوطنهم القومي فحسب، وليس لأوطانهم التي يعيشون فيها. ولذا حذر كلاتزكين الشعب الألماني من أن حدود ألمانيا لاتستطيع، بأي صورة من الصور، أن تحد من حركة الشعب اليهودي أو ولائه، لأن ولاء اليهودي ليهوديته شيء يسمو على الحدود الوطنية: «إن اليهودي المخلص لايمكنه إلا أن يكون مواطناً يهودياً، ولايمكن أن تجد في الوجدان اليهودي أدنى أثر للقومية الألمانية، ثم يضيف كلاتزكين «أن كل يهودي يدعو بلداً أجنبيا وطنه إنما هو خائن للشعب اليهودي». (٨) وبيّن وايزمان أن في أعماق كل يهودي صهيونياً كامناً، وأن اولئك اليهود الذين يتساوى ولاؤهم القومي اليهودي مع ولائهم لأوطانهم جديرون بالرثاء والاحتقار(٩) (ويمكن لأي معاد للسامية أن يستغل مثل هذا القول ليروج لمقولة أن اليهود خونة بطبيعتهم!). وقد رسم بن جوريون صورة للمحامي اليهودي الخالص الذي يلعب دوراً تخريبيا خارج وطنه القومي «ويعارض الدولة وقوانينها»، أما داخل الوطن القومي فإنه سيلزم نفسه «بغرس غريزة توقير الدولة والقانون واحترامها»(١٠).

وقد بدأ ناحوم جولدمان حياته صهيونيا خالصا ينادي بشخصية يهودية خالصة، فأدلى بتصريحات تشبه تصريحات كلاتزكين في ألمانيا عام ١٩٢٠، تحدث فيها عن الولاء اليهودي للوطن القومي اليهودي فحسب، (ومما له دلالته أنه أثناء محاكمات نورمبرج أكد الزعماء والمفكرون النازيون، الواحد تلو الآخر، أنهم تعرفوا على اليهود واليهودية والمسألة اليهودية من خلال الأدبيات الصهيونية التي تتحدث عن عدم انتماء اليهود لأوطانهم). وقد خفف جولدمان بعض الشيء من تطرفه هذا حينما نصح يهود الولايات المتحدة (والدول الاخرى) في نيويورك عام

١٩٢٩ أن يعلنوا في شجاعة أن لهم ولاء مزدوجا، وقال إن اليهـود ينبغي أن يقسموا ولاءهم بالتساوي بين الدولة التي يحيون فيها والوطن القومي اليهودي. ومضى جولدمان في حديثه ناصحا اليهود ألا يستسلموا للأقوال الوطنية الحماسية التي تؤكد لهم أن ولاءهم يجب أن يتوجه للدولة التي يعيشون فيها فحسب. (١١)

وحديث جولدمان يفترض وجود جوهرين داخل كل يهودي؛ جوهر يهودي، وجوهر آخر يختلف باختلاف وطنه. وهذه صيغة مناسبة لصهيونية الشتات الحولاء.

وتظهر فكرة الجوهر اليهودي الكامن الذي يتجلى في الدولة اليهودية وتأخذ طابعا كوميديا حينما يحدثنا بن جوريون عن «الكتاب اليهودي والعمل اليهودي والمنجم اليهودي». (١٢) أو حينما تمنع الدولة الصهيونية المحافظة على اليهـودية الخالصة اثنين من الرياضيين النرويجيين غير اليهود من الاشتراك في الماكبياه (دورة أولمبية يهودية!) على الرغم من توجيه الدعوة اليهما. وقد اعترض الفريق الامريكي على اشتراكهما بحجة أن الماكبياه حدث يهودي خالص(١٣) لايشارك فيه إلا اليهود الخلّص. وفي دورة أخرى من الماكبياه، وأثناء مناقشة الأمم المتحدة للقرار الذي ينص على أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية، اضطر لاعب كرة سلة أمريكي الى اعتناق اليهودية حتى يتمكن من الاشتراك في اللعب. وكان اللاعب متعاونا لدرجة كبيرة؛ إذ تذكر فجأة ان له جدة يهودية، الأمر الذي أدى الى الاسراع بعملية تحوله من المسيحية الى اليهودية على يد أحد كبار حاخامات إسرائيل»(١٤).

وكانت هذه النظرة ضيقة الأفق نفسها هي السبب وراء اعتراض الرقابة في إسرائيل على الشعار العام الدولي للمرأة الذي وضعته الأمم المتحدة، لأنه يتضمن صليبا. وقد تصادف وجود هذا الصليب في الشعار لأنه الرمز العلمي لأنثى! ولذا غيرت الدولة الصهيونية الشعار العالمي وصممت بدلا منه شعاراً جديداً لاستخدامه في الاحتفالات المحلية يحتوي على نجمة داود(١٥).

ولعل تقسيم العالم الى يهود وأغيار، الذي يتبناه الصهاينة، ثم يعطونه مضمونا زمنيا، يأخذ شكلا اجراميا في كلمات الحاخام موشيه بن صهيون اوسبـزاي، الـذي يفسر التلمـود بطريقـة تسوغ القضـاء على الفلسـطينيين واحتـلال كل فلسطين(١٥)، ويأخذ هذا التقسيم ذاته شكلا عرقيا قبيحا في كلمات الحاخام أبراهام أفيدان (زامل)، حاخام القيادة المركزية الإسرائيلية، حينما نصح بعدم الثقة بالعرب ، لأن على اليهود ـ في رأيه، وحسب الشريعة الدينية ـ ألا يثقوا بالأغيار. ولكن حينما يخبر الحاخام الجنود الاسرائيليين أنه «مصرح لكم، بل من واجبكم، طبقا للشريعة، أن تقتلوا المدنيـين (من الأغيار) حتى لـو كانـوا من الخيرين، أو بمعنى أصح، المدنيين الذين قد يبدو أنهم خيرون، وحينما يقتبس لهم من التلمود هذه الكلمات: «ينبغي عليك أن تقتل أفضل الأغيار»(١٧). فالمسألة تتوقف عن كونها عنصرية قبيحة، لتصبح تحريضا على الإبادة. ولكن مايهمنا، في السياق الحالي، ليس النتائج العملية لمثل هذه النصائح والأقوال، وإنما يهمنا هنا التقسيم الحاد بين اليهود والأغيـار الذي يشبه، من بعض الوجوه، التقسيم الحاد الذي تتبناه الرؤية اليهودية الدينية، وإن كانت الرؤية الدينية تظل، في نهايـة الأمر، مجازية، ولاتخرج عن نطاق التجربة الدينية الى نطاق التجربة العملية.

ويـظهر هـذا التقسيم الحاد بـين اليهود والأغيـار في المؤسسات الصهيـونية المختلفة، ابتداء من الصندوق القومي اليهودي وانتهاء بالجامعة العبرية. فكل هذه المؤسسات تترجم، بشكل عملي، التقسيم الحاد آنف الذكر وتعد امتداداً له في حياة اليهود في أنحاء العالم وفي المجتمع الاسرائيلي. (وسنعرض لهذا الجانب بالتفصيل في الفصول الأخيرة من الكتاب).

رفـض الاندمـاج :

يعبر هذا التقسيم الحاد عن نفسه في رفض الاندماج من جانب الصهاينة؛ فهم يصفون الاندماج بأنه انحراف عما يتصورون أنه الشخصية اليهودية القومية الخالصة المطلقة التي تقف خارج التاريـخ. فاليهـودي ـعلى حـد قول بـوبر ـ شخصية فريدة «لا يمكن فهمها، ولايمكن استيعابها، ولذا لايمكن أن تندمج مع

بقية الأمم»(١٨)، والإيمان باستحالة الاندماج من المبادىء الرئيسة للصهيونية(١٩) إذ يعتقد فيلسوف الردة موسى هس أن اليهودي لايمكن أن يفر من تميزه وانتمائه للشعب المختار المضطهد: «عبثاً يختبىء هؤلاء اليهود العصريون (المندمجون) من مسرح جريمتهم وراء مواقعهم الجغرافية أو وراء آرائهم الفلسفية. . . قد تُقَنِّع نفسك تحت ألف قناع، وقد تغير اسمك ودينك وطباعك، وقد تسافر حول العالم متخفيا، كيلا يكتشف الناس أنك يهودي. لكن أي إهانة موجهة للاسم اليهودي ستؤلمك بحدة تفوق إيلامها ذلك الرجل المخلص ليهوديته، والمدافع عن شرف الاسم اليهودي». (٢٠) وهجمات الصهاينة على الاندماج لا تتوقف؛ فهو، في رأي روبين، «خطر» يتهدد الحياة اليهودية(٢١)، وفي رأي كلاتزكين «جريمة» و«خطيئة» و«عار» يحط من كرامة اليهود(٢٢)، أما سيركين فيراه «سما» يتسرب إلى حياتهم(٢٣)، بينما يعده وايزمان وصمة في جبينهم(٢٤).

وفي إطار هذه النظرة المعادية للاندماج نفسه أصدر الاجتماع المشترك لمجلس الوزراء الاسرائيلي واللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية، الذي عقد سنة ١٩٦٤، بيانا رسميا وصف فيه «خطر الاندماج» بأنه مشكلة أساسية تواجه يهود الشتات. وكانت النغمة السائدة في المؤتمر الصهيوني السادس والعشرين (١٩٦٤ - ١٩٦٥) هي الخوف من الاندماج، باعتباره «تهديداً» لبقاء الشعب اليهودي، بل هو تهديد أكثر خطورة على اليهود من «الاضطهاد ومحاكم التفتيش والمذابح المنظمة والقتل الجماعي»(٢٥). وفي سنة ١٩٥٨ ذهب الدكتور ناحوم جولدمان إلى حد الادعاء بأن تحرير اليهود ربما يساوي تماما اختفاءهم(٢٦).

وكان من بين الذين هاجموا الموقف الصهيوني من القضية الحاخام موريتز جوديمان كبير حاخامات فيينا - مسقط رأس هرتزل - حين طرح في بحث له بعنوان «القومية اليهودية» السؤال التالي: «من هو أكثر ذوبانا في الواقع: اليهودي القومي، الذي يتجاهل الشعائر الخاصة بيوم السبت وبالطعام، أم اليهودي المؤمن الذي يؤدي الشعائر الدينية ويكون في الوقت نفسه، مواطنا كاملا مخلصا لبلاده؟»(٢٧)

وهذا سؤال ـ في تصوري ـ هام للغاية لأن طرح الحاخام إياه ينم عن ذكاء شديد، وعن احترام للدين اليهودي، المصدر الحقيقي للخصوصية اليهودية، وعن احترامه، في الوقت ذاته، للأوضاع المختلفة التي تحيط باليهود.

نقد الشخصية اليهودية (معاداة السامية الصهيونية):

وإذا كانت الصهيونية ترفض الاندماج، فهل يعني هذا أنها تقبل اليهودي وتقدسه؟ سيكتشف الدارس للظاهرة الصهيونية أنها لا ترفض اليهودي فحسب، بل إنها لتتقبل معطيات معاداة السامية ومعظم ادعاءاتها عن اليهود. وقد يكون من المفيد اكتشاف الطبيعة المركبة لعلاقة الصهيونية بمعاداة السامية.

يرى الكثير من الصهاينة أن معاداة السامية هي المسؤولة عن بقاء اليهود واستمرارهم. فيقول هرتزل في مذكراته إنه كان متفقاً مع نوردو على أن معاداة السامية هي وحدها التي جعلت منهم يهوداً(٢٨)، كما أنه وجد أن إدراكه وتعرفه على الديانة اليهودية يعود إلى الأيام التي قرأ فيها كتاب ايوجين دوهرنج المعادي للسامية عن المسألة اليهودية(٢٩). ويبدو أن هرتزل كان يرى أن ثمة علاقة عميقة وعضوية بين هويته اليهودية ومعاداة السامية، حتى إنه كان يرى أن الأولى تنمو بنمو الثانية(٣٠).

ولا يستطيع أي قارىء للكتابات الصهيونية إلا أن يخلص إلى أن الصهاينة يضفون على معاداة السامية حتمية معينة ودرجة عالية من الأهمية في التجربة اليهودية. وكتاب هرتزل **الدولة اليهودية** قائم على افتراض أنه أينما يعش اليهود فهم معرضون للاضطهاد بدرجات متفاوتة، «فهناك ضريبة في روسيا تفرض على القرى اليهودية، وفي رومانيا يحكم على بعض اليهود بالموت، وفي ألمانيا كثيرا ما يتعرضون للضرب المبرح. وفي النمسا يمارس معادو السامية ضروبا من الارهاب في مرافق الحياة المختلفة. أما في الجزائر فهناك فتن يقوم بها مثيرون متجولون. وأما في باريس فاليهود محرومون من. . . دخول النوادي»(٣١) ولكن، بغض النظر عن الزمان والمكان، «فحقيقة الأمر هي أن كل شيء يؤدي إلى النتيجة

نفسها»(٣٢) معاداة السامية، وهذا أمر طبيعي؛ فالأغيار يقفون بالمرصاد لليهود «رعاعهم المتوحشون يقفون كالذئاب التي تبحث عن فريستها،» كما يقول سمولنسكين. (٣٣) والشعب اليهودي ـ ضحية عنف الأغيار ـ يعيش «كقطيع أو كجماعة من العبيد. . . هدفاً لكل سوط. . . قطيع يرفض الناس أن يدخلوه حتى إلى الحظيرة»(٣٤) ـ على حد قول الكاتب الفرنسي الصهيوني برنارد لازار (١٨٦٥ ـ ١٩٠٣). وسبب هذه الظاهرة أن معاداة السامية لها وجود ميتافيزيقي ثابت أزلي، فيهودية اليهود «مثل ختم قايين على جباههم، إنها العلامة الأبدية التي كان ينفر منها غير اليهود والتي كانت سبب تعاسة اليهود أنفسهم(٣٥). إن موقف الأغيار من اليهود ـ حسب تصور بنسكر ـ يتسم بكراهية أفلاطونية «زادت ألف سنة من حدتها فأصبح معها مرضاً مستعصياً». ويخلص بنسكر من هذا إلى أن اليهودية لم تنفصل عبر التاريخ عن معاداة السامية(٣٦).

ووصف معاداة السامية بأنها مطلق «افلاطوني». ومرض مستعص هو وصف يلغي الوعي الإنساني الأخلاقي، وينفي مقدرة الإنسان على التحكم في مصيره وفي بيئته وذاته. إن المرض الاخلاقي يتحول إلى مرض بيولوجي (كما تتحول الظاهرة التاريخية إلى مطلق)، بمعنى أن قوانين الطبيعة تنطبق على الأمور الإنسانية الاخلاقية (وهذا افتراض دارويني مسطح، كما أنه، على المستوى الفلسفي، فيه لمسة من وحدة الوجود التي تعادل بين الانسان والأشياء والطبيعة). هذه القدرية والحتمية نفساهما توجدان في وصف وايزمان لمعاداة السامية بأنها مثل البكتيريا، التي قد تكون ساكنة أحيانا، ولكن حينما تسنح لها الفرصة فإنها تعود إلى الحياة. وهذه الرؤية المنحطة للنفس البشرية تفترض أن كل الاغيار مصابون بهذا النوع من البكتيريا الاخلاقية. ويخبرنا كروسمان بأن صداقته مع وايزمان بدأت حينما اعترف له بأنه «معاد للسامية بالطبع». ولو قال كروسمان غير هذا فإنه، من وجهة نظر وايزمان (الكيمائية)، يكون إما كاذباً على نفسه أو على الآخرين(٣٧).

ولأن معاداة السامية ظاهرة لها ثبات المُثُل الأفلاطونية وسرمديتها، فهي تنتشر كالأوبئة (التي لا تتغير طبيعتها بمرور الزمن، فالبكتيريا هي البكتيريا في كل زمان

ومكان). ولا يميز الصهاينة بين المعاداة الدينية للسامية التي وجدت في بعض أجزاء أوروبا في العصور الوسطى، والمعاداة العنصرية للسامية التي تستند إلى النظريات العنصرية الحديثة. بل إنها لتصف معاداة العرب للغزو الصهيوني بأنها، هي الأخرى، معاداة للسامية وكذا مكافحة الحكومة السوفيتية للاتجاهات الصهيونية بين صفوف اليهود السوفييت. فإذا كانت الذاتية اليهودية مطلقة، فعداوة الأغيار، بغض النظر عن ظروفها التاريخية وأصولها الحضارية وأسبابها السياسية، لا بد من أن تكون، هي الأخرى، مطلقة، والقصة التي يرويها الحاخام سولومن شختر، في مطلع مقالة له عن الصهيونية، هي خير مثال على التصور الصهيوني اللاتاريخي لمعاداة السامية؛ فبطل القصة يهودي ألماني من الجيل القديم، جاءه أصدقاؤه في بداية ثمانينات القرن الماضي وسألوه عن رأيه في الهجمات الجديدة على اليهود، فأخبرهم «أنها ليست بجديدة. إنها الهجمات القديمة نفسها»(٣٨). وقد يصبح المفكر الصهيوني أكثر حنكة في موقفه من عالم الأغيار، إلا أن رؤيته تظل، أولا وأخيراً، هي الرؤية القديمة المطلقة نفسها: الحمل اليهودي بين ذئاب الجوييم.(٣٩).

ولكن إذا كان لمعاداة السامية هذا الدوام والاستمرار، فإنه يمكن افتراض أنها ظاهرة «طبيعية»، وأنها رد فعل «طبيعي» للوجود الصهيوني ولطبقة اليهود، وهذا هو الموقف الصهيوني فعلا. وإذا كان وايزمان يتحدث عن جرثومة معاداة السامية التي تصيب الأغيار فإن نوردو يستخدم استعارة مشابهة ليصف «طبيعة اليهود» الخاصة، فيشبههم (بالكائنات العضوية الدقيقة التي تظل غير مؤذية على الاطلاق طالما أنها في الهواء الطلق، لكنها تسبب أفظع الأمراض إذا حرمت من الأكسجين». ثم يستطرد هذا العالم العنصري ليحذر الحكومات والشعوب من أن اليهود يمكن أن يصبحوا «مصدراً لمثل هذا الخطر»(٤٠). وإذا كانت هذه اللغة المجازية توحي ولا تقرر فإن أسلوب كلاتزكين لامواربة فيه ولا إبهام، فقد عبر هذا المفكر الصهيوني عن فهمه لمشروعية وعدالة معاداة السامية بوصفها استراتيجية يتبناها شعب دفاعا عن وحدته، ضد شعب آخر يقف في حلقه: «إذا

لم نسلم بعدالة معاداة السامية [على أنها دفاع مشروع عن الذات القومية] فإننا ننكر بهذا عدالة قوميتنا ذاتها». (٤١)

وكان هرتزل ـ الليبرالي المعتدل ـ يعتنق هذا الرأي نفسه إزاء حركة معاداة السامية الحديثة. فقد ميزها عن «التعصب الديني القديم»، ووصفها بأنها «حركة بين الشعوب المتحضرة، تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها». (٤٢) وسلم هرتزل أيضا بأن إقامة الدولة اليهودية يعني انتصارا للمعادين للسامية، إذ سيتضح أنهم، في واقع الأمر، محقون(٤٣). إن المعادين للسامية، بطردهم اليهود، كانوا، ببساطة، يحررون أنفسهم ويخلصون أنفسهم من السيطرة اليهودية، إذ «لم يكن بمقدورهم أن يخضعوا لنا في الجيش والحكومة وجميع مجالات التجارة»(٤٤).

ويستند القول «بطبيعة» معاداة السامية إلى الرؤية الخاصة بعدم طبيعية اليهود أو شذوذهم، وهو مبدأ أساسي من مبادىء الصهيونية. ولكي يسوغ الصهاينة قولهم بشذوذ يهود الشتات، فإنهم تحولوا إلى نقد الشخصية اليهودية، «على أساس من الاتهامات المأخوذة من كتابات المعادين للسامية في الغرب». (٤٥) وتزخر الكتابات الصهيونية فعلا بالاشارات إلى الشخصية اليهودية «المريضة» ـكمايقول برنرـ،بل إنه ليذهب أبعد من هذا، ليقول «إن مهمتنا الآن هي أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا، وبكل نقائض شخصيتنا»(٤٦)؛ فاليهود يودون الحياة «كالنمل أو الكلاب» أو حتى «كالكلاب والمرابين»(٤٧). شعب لا يعرف أفراده «سوى الأنين والاختفاء حتى تهدأ العاصفة، يدير ظهره لاخوانه الفقراء، ويكدس دراهمه، ويتجول بين الأغيار ليؤمن معيشته بينهم، ثم يقضي نهاره يشكو من سوء معاملتهم له.»(٤٨) إن نمو اليهودي شاذ غير طبيعي، بسبب ملاحقته أمور الدنيا، ولأنه يحيا حياته في السوق متبعا «قيم هذا المكان وحدها»(٤٩)، ويعقد الصفقات التجارية التي تتم بمهارة(٥٠)، إن اليهودي، كما يرى غوردون، «شخص غير طبيعي» ناقص،

منقسم على نفسه(٥١)، ويهود الشتات «شعب نصف ميت» مصاب بطاعون التجول ـ على حد قول برنر ـ(٥٢). أما كلاتزكين فيتحدث عن «شعب شوه جسده وروحه تشويهاً مرعباً. (٥٣).

وفي مقال بعنوان «دمار الروح»(٥٤)، جمع يحزقيل كوفمان الكاتب اليهودي الذي رفض الصهيونية بعد انخراطه في سلكها بعض الوقت، مجموعة من أوصاف اليهود التي وردت في الكتابات الصهيونية، على الوجه التالي:

فريشمان : حياة اليهود حياة كلاب تثير الاشمئزاز.
بيرشفسكي : ليسوا أمة، ليسوا شعباً، وليسوا آدميين.
برنر : غجر وكلاب قذرة ـ كلاب جريحة لا إنسانية.
جوردون : طفيليات ! أناس لا فائدة منهم أصلا.
شوادرون : عبيد وبغايا . . . أحط أنواع القذارة. . . ديدان وقذارة وطفيليات «لا جذور لها».

وأدى قبول الصهاينة لجوانب معينة من معاداة السامية إلى أن يعدوا المعادين للسامية حلفاء طبيعيين، وقوة ايجابية في نضالهم القومي من أجل تحرير يهود الشتات من عبوديتهم المزعومة. وبدلا من أن يحارب هرتزل معاداة السامية قال: إن «المعادين للسامية سيكونون أكثر الأصدقاء الذين يمكننا الاعتماد عليهم، وستكون الدول المعادية للسامية حليفة لنا»(٥٥). وهو قد تبين، من البداية، التوازي القائم بين الصهيونية ومعاداة السامية، ورأى الامكانات الكامنة للتعاون بينهما. وفي فقرة كتبها في مذكراته سنة ١٨٩٥ وضع هرتزل الخطوط العامة لتصوره للأنشطة الصهيونية المستقبلة. وأشار إلى أن الخطوة التالية ستكون «بيع الصهيونية»، ثم أضاف، بين قوسين، أن هذا «لن يتكلف شيئا، لأنه مصدر سعادة بالغة للمعادين للسامية». (٥٦) وفي فقرة أخرى من مذكراته عدد هرتزل عناصر الرأي العام العالمي التي يستطيع حشدها لمناصرته في قتاله ضد «سجن» اليهود، وذكر من بينها المعادين للسامية.

وقد أدرك كثير من الزعماء الصهاينة المصلحة المشتركة بين الصهاينة والمعادين للسامية. ففي سنة ١٩٢٥ قال كلاتزكين إنه «بدلا من إقامة جمعيات لمناهضة المعادين للسامية الذين يريدون الانتقاص من حقوقنا، يجدر بنا أن نقيم جمعيات لمناهضة أصدقائنا الراغبين في الدفاع عن حقوقنا»(٥٧).

وقد لاحظ كاوفمان هذا التطابق بين موقف معادي السامية والصهاينة من يهود الشتات الذي ظهر واضحاً في الكتب التي يدرسها التلاميذ اليهود في المدارس العبرية في فلسطين؛ فهي كتب «معادية للسامية»، تتضمن مثل هذه العبارات: «إن اليهود في المنفى يعيشون حياة غير صحية، متسولين، قبيحة من الخارج، وأحيانا من الداخل. . أخلاقهم ناقصة. . . إن غير اليهود الذين يعيشون حولهم هم الذين يعيشون حياة صحية. . فما اليهود إلا شعب من التجار وأصحاب البنوك والسماسرة».

وقد رد أحد الصهاينة ويدعى يافنيلي، الذي سمى نفسه صهيونيا معاديا للسامية، على اتهام كاوفمان قائلا: «نعم، إن اليهود شعب طفيلي فعلا». وأضاف: «كيف يتسنى لأي صهيوني ألا يتخذ هذا الموقف نفسه. إن معاداة السامية - إذاً - شيء منطقي حتمي. بل إنها - من وجهة نظر يافنيلي - خير خالص، لأنها ستساعد على تحقيق هذا المطلق: هجرة اليهود من الشتات، هذه الهجرة التي ستنهي حياة الشتات وتحقق العودة: «إن حركة التنوير اليهودية (بانتقادها الشخصية اليهودية) قد ضاعفت من حدة معاداة السامية بين الشعوب غير اليهودية. وإذا كان الأمر كذلك، فمعاداة السامية، إذاً، مرسلة من لدن إله إسرائيل، حيث إن حركة الاستنارة هي التي فتحت باب البعث اليهودي». (٥٨) وهكذا دخلت معاداة السامية نفسها دائرة القداسة.

ويبدو أن ثمة حواراً صامتاً، وغير صامت، بين الصهاينة ومعادي السامية، نظراً لاتفاق الرؤية والمصالح. وهذا الحوار الصامت له تاريخ طويل؛ فالصهاينة الاسترجاعيون (غير اليهود) كانوا يصدرون، هم أيضا، مثل الصهاينة اليهود،

عن رؤية معادية للسامية. وقد أشرنا من قبل إلى ايرل شافتسبري السابع (انتوني آشلي كوبر) وإلى رؤيته لليهود والدولة اليهودية. وقد ساهم هذا النبيل الأرستقراطي، بفكره وعمله، في انشاء الدولة اليهودية. ولكنه، مع هذا، وربما بسبب هذا أساسا، كان يرى أن ازالة القيود السامية المفروضة على اليهود البريطانيين «إهانة للمسيحية». (٥٩) ويمكننا أن نذكر أن جوزيف تشمبرلين، الذي كان يكن الاحتقار لليهود، كان يرى أن الصهيونية أداة جيدة لخدمة الاستعمار، لأنها لن تزيد نفوذ بريطانيا فحسب بإقامة مستعمرة بريطانية في سيناء، بل ستخفف الضغط الناتج عن هجرة العمالة اليهودية الرخيصة من أوروبا الشرقية أيضا(٦٠). والوضع نفسه ينطبق على السير لويد جورج، رئيس وزراء بريطانيا، الذي كان لا يعبأ إطلاقاً باليهود ولا بماضيهم ولا بمستقبلهم. (٦١) والذي كان يهيج ضد اليهود في حملاته الانتخابية(٦٢) بشكل فاضح، ومع هذا، وربما بسبب هذا أيضا، أصدرت الوزارة التي ترأسها وعد بلفور. وفي مجال الاعتذار لموقفه المعادي للسامية يقول مؤرخ وعد بلفور، الصهيوني، ليونارد شتاين إن لويد جورج كان يتعاطف مع اليهود «تعاطفاً مجرداً». وما أخفق شتاين في إدراكه هو أن هذا التجريد هو جوهر العنصرية. وما يجدر ذكره أن شتاين يفرق بين معاداة السامية «الفجة الدراجة» ومعاداة السامية «الطبيعة النظيفة»(٦٣)، وهو يرى أن الأخيرة شكل مشروع من أشكال الدفاع القومي عن النفس ضد الأجانب، وهذا النوع «الطبيعي النظيف» هو الشكل الذي وافق عليه كلاتزكين وهرتزل ونوردو ووايزمان وغيرهم من الصهاينة.

لعل أهم الصهاينة الأغيار على الاطلاق هو لورد بلفور الذي يحتل مكانة خاصة في التاريخ اليهودي، واطلق اسمه على مزرعة جماعية في اسرائيل. ويجب ألا ندهش كثيرا إذا اكتشفنا أنه هو الآخر معادٍ للسامية، فقد ساهم في إصدار «قانون الأجانب»، الذي كان يهدف لوضع حد لدخول يهود شرق أوروبا إلى انجلترا. وقد تحدث بلفور بوضوح عن الكوارث الأكيدة التي حاقت بانجلترا من جراء هجرة الاجانب الذين كان أكثرهم من يهود شرق أوروبا. (٦٤) ويجب أن

نذكر القارىء بأن أعوام ١٩٠٣ ـ ١٩٠٥ قد شهدت إعلان كل من قانون الأجانب. المعادي للسامية، ومشروع شرق افريقيا الصهيوني؛ وكلاهما يهدف إلى إبعاد اليهود عن انجلترا.

ويصدر بلفور في معاداته للسامية عن مفهوم تفرد اليهود. وفي المقدمة التي كتبها لمؤلف سوكولوف تاريخ **الصهيونية** أبدى معارضته لفكرة المستوطن البوذي أو المستوطن المسيحي ولكنه قبل فكرة المستوطن اليهودي، لأن «العرق والدين والوطن أمور مترابطة بالنسبة لليهود»(٦٥). هذا الايمان بتفرد اليهود هو مصدر حبه وهو أيضا سبب كراهيته لهم في وقت واحد. وقد اعترف بلفور لوايزمان انه وجد نفسه متفقاً مع افتراضات كوزيما فاجنر «ابنة الموسيقار» عن اليهود، ومتقبلا لها وهي افتراضات معادية للسامية بشكل متطرف(٦٦). وبلفور على حق في تصوره لنفسه؛ فقد كان يرى اليهود على أنهم «جماعة أجنبية معادية»، أدى وجودها في الحضارة الغربية إلى «بؤس وشقاء استمرا دهراً من الزمان»، لأن تلك الحضارة لا تستطيع طرد أو استيعاب هذه الجماعة. وأعلن بلفور أن «ولاء اليهود للدولة التي يعيشون فيها... ضعيف إذا ما قورن بولائهم لدينهم ولعرقهم(٦٧) بسبب طريقتهم في الحياة وعزلتهم. وهذا اتهام لليهود بازدواج الولاء، أو انعدامه أحيانا، وهو اتهام يوجهه الصهاينة ومعادو السامية للشخصية اليهودية دائماً.

اليهودي الخالص :

والآن يحق لنا أن نتساءل: إذا كانت الصهيونية ترفض اليهودي إذا كان شخصية طفيلية هامشية، فما الصورة البديلة؟ ما هذا الكيان المثالي المطلق الذي تبشر به الصهيونية، هذا النمط القومي الخالص(٦٨) ـ على حد قول كلاتزكين ـ أو «اليهودي الذي هو يهودي مائة في المائة»(٦٩) على حد قول بن جوريون؟ وعندما يحاول المرء الاجابة عن هذه التساؤلات، فإنه يواجه حقيقة أخرى غريبة، هي أن الصهاينة المعارضين للاندماج حاولوا إعادة صياغة الشخصية اليهودية ووضع اليهود ليجعلوا منهم شعبا «مثل أي شعب آخر»، على حد تعبيرهم. ولتحقيق

هذا الهدف سعوا إلى «تطبيع اليهود» حتى ينتموا للعصر الحديث، أي أنهم حاولوا تحديث الشخصية اليهودية مثلما حاولوا تحديث اليهودية. والتحديث في حالة الشخصية اليهودية لا يختلف، في بنيته، عن تحديث اليهودية؛ فالصهيونية ترفض التعريف الديني التقليدي، وتطرح بدلا منه فكرة اليهودي الخالص الذي يتسم بكل صفات الانعزال والاستقلال والانفصال التي يتميز بها اليهودي حسب التعريف الديني التقليدي. هذا اليهودي يتمتع بكافة الحقوق المقدسة التي يمنحها الدين اليهودي الشعب المختار. وهكذا يدخل المطلق من النافذة الخلفية، ليتداخل مع النسبي، ولينتقل من مجاله الديني إلى المجال الزمني. وقد قدمت الصهيونية عدة تعريفات لليهودي الخالص تستند إلى أساس ديني أو عرقي أو إثني، وتنطلق جميعها من وجود جوهر يهودي، أو خصوصية يهودية (دينية أو عرقية أو اثنية)، تميز اليهودي وتفصله عن الأغيار.

١ - تعريف عرقي :

كان موسى هس أول داعية لتعريف الشخصية اليهودية على أساس بيولوجي أو عنصري، وقد تنبأ هذا المفكر الصهيوني بأن الصراع بين الأجناس سيكون «أهم الصراعات»، وساهم في المحاولة الرامية إلى التمييز بين العنصرين الآري والسامي، وهو التمييز الذي قدر له - بعد عدة سنوات - أن يكون أحد المفاهيم الأساسية التي تبناها منظرو الفكر العنصري الأوروبي(٧٠). وقد داعب هرتزل، فترة من الزمن على الأقل، فكرة الهوية العرقية، وكثيرا ما استخدم عبارات مثل «الجنس اليهودي» أو «النهوض بالجنس اليهودي»، كما أنه كان يفكر في تميز اليهود عن غيرهم على أساس بيولوجي. (٧١) وعندما قام هرتزل بأول زيارة لمعبد يهودي في باريس كان أكثر ما أثار دهشته هو التشابه العنصري، الذي تصور وجوده، بين يهود فيينا ويهود باريس: «الأنوف المعقوفة المشوهة، والعيون الماكرة التي تسترق النظر»(٧٢).

ويبدو أنه كان بين صفوف الصهاينة كثير من «العلماء» المهتمين بإثبات أن

اليهود عنصر متميز؛ فقد بين كلاتزكين أن بعض الصهاينة أراد إثبات استحالة اندماج اليهود اندماجاً كاملا لأسباب عرقية(٧٣). وأشار روبين إلى «الكتابات المتعلقة بقضية الجنس اليهودي»، وأورد أسماء كثير من «المراجع القيمة»(٧٤). ومن بين الأسماء التي يذكرها عالم يدعى زولشان، يبدو أنه كان يعد حجة في موضوع الجنس اليهودي في أيامه. وقد اورد روبين الكثير من أقواله في كتابه يهود اليوم الذي كان يرمي إلى تقديم تعريف عنصري لليهودية. وقد بيّن روبين أن اليهود «استوعبوا عناصر عرقية أجنبية بدرجة محدودة، إلا أنهم في أغلبيتهم يمثلون جنسا متميزا، على عكس الحال مع دول وسط أوروبا»(٧٥). وأضاف روبين أنه من الواجب الحفاظ بشكل واعٍ على الاستمرارية العرقية اليهودية التي تحققت بشكل تلقائي عبر التاريخ، وأكد أن أي «جنس راق يتدهور بسرعة إذا ما تزاوج بجنس أقل رقياً». واستنكر روبين جميع مراحل عملية الاندماج التي تبدأ بنزع الصبغة القومية، وتنتهي بالتزاوج بين الأجناس المختلفة، إذ إن الشعب يفقد شخصيته من خلال هذا التزاوج، ولن يقدر لأبناء مثل هذا التزاوج أن يتمتعوا بدرجة عالية من الموهبة. وحيث إن التزاوج مع الأجناس الأخرى «يضر بمحاولات المحافظة على الصفات الممتازة للجنس، فمن الضروري، بالتالي، محاولة منعه للمحافظة على انفصالية اليهود»(٧٦).

وقد بنى روبين دعواه الأيديولوجية الخاصة بانفصالية اليهود على أساس ادعائه بتفوقهم ونقائهم. فقد قال ـ على سبيل المثال ـ إن أجناسا «أقل عدداً وأقل موهبة، بالتأكيد، من اليهود» قد حصلت على حق أن تكون شعوباً منفصلة، فلماذا يستثنى اليهود، وهم الأكثر تفوقاً؟ كذلك نقل روبين عن باحث عنصري آخر ـ هو جزيف كوهلر ـ قوله إن اليهود جنس «من أعظم الأجناس التي أنجبتها البشرية موهبة». وسوغ روبين التفوق اليهودي على أساس نظرية داروين: «لم يحافظ اليهود على مواهبهم العنصرية الطبيعية فحسب، بل لقد أصبحت هذه المواهب أكثر قوة من خلال عملية اختبار طويلة(٧٧). وكما قال الفيلسوف اليهودي الأمريكي موريس كوهين فان الصهاينة تقبلوا مقولات معاداة السامية، إلا أنهم

يصلون إلى نتائج مغايرة إذا أحلوا اليهود محل الألمان بوصفهم الجنس المتفوق والأكثر نقاء(٧٨).

وهناك الكثير من واضعي النظريات الصهيونية ومنفذيها ممن لم يؤيدوا النظرية العنصرية بشكل واعٍ، ورغم هذا فهم يقبلونها أمراً واقعاً في تصريحاتهم. فقد ادعى الزعيم الصهيوني البريطاني نورمان بنتويتش - في حديث أدلى به سنة ١٩٠٩ - أن اليهودي لا يمكنه أن يكون مواطنا إنجليزيا كاملا، مثل هؤلاء الانجليز الذين ولدوا «من أبوين انجليزيين وانحدروا من أسلاف خلطوا دماءهم بالانجليز أجيالا كثيرة»(٧٩). وعرف برانديز اليهودية - في خطاب ألقاه سنة ١٩١٥ - أنها «مسألة تتعلق بالدم». وقال إن هذه الحقيقة لقيت قبولا من جانب غير اليهود الذين يضطهدون اليهود، ومن جانب اليهود أنفسهم الذين يحسون الفخر «عندما يظهر إخوانهم من ذوي الدم اليهودي تفوقاً أخلاقياً أو ثقافيا أو عبقرية أو موهبة خاصة، حتى لو كان هؤلاء النابهون قد تخلوا عن الايمان بالدين، مثل سبينوزا أو ماركس أو دزرائيلي أو هايني»(٨٠).

وكان اللورد بلفور - الصهيوني غير اليهودي - يفكر في اليهود على أساس عرقي، وربما كان من المهم هنا أن نتذكر أن إحدى المسودات الأولى لوعد بلفور كانت تدعو إلى إقامة «وطن قومي للجنس اليهودي»(٨١)، وهي جملة تحمل في طياتها تعريفاً بيولوجيا واضحا للهوية اليهودية.

٢، ٣- تعريف إثني وتعريف ديني:

على الرغم من جميع هذه المحاولات الصهيونية، لم تستطع الدعوة لشخصية عنصرية مشتركة أن تصمد طويلا؛ لأن النظريات العنصرية ونظريات التفوق العنصرية ليس لها سند علمي قوي، كما أن كثيراً من الغموض والتشويش يشوبها. «وما ان جاءت الثلاثينات حتى كانت الحياة الثقافية قد تحولت عن العنصرية، وفقدت العنصرية تماما ما كانت يبدو لها من احترام علمي»(٨٢). ولاشك أن الحديث عن «الجنس اليهودي» لايزال يتردد في صفوف الصهاينة

والعنصريين، ولكن هذا الكلام كان يتردد أكثر كثيرا قبل الثلاثينات.

وجاء في كتاب عن سوكولوف أنه «بعد أن عشنا عصراً اصبحت فيه كلمة «عنصر» أو «عرق» أو «جنس» معادلة للقسوة والبربرية، فإن معظم الناس ينفرون من استخدام هذا المصطلح. يضاف الى هذا أن علم الأجناس قد أظهر أن هذا المصطلح لايمكن أن يطبق عن حق على اليهود»(٨٣).

لكن المؤلف أكد أنه «كان من المعتاد، تماما، الاشارة الى اليهود على أنهم جنس، في عصر ماقبل هتلر، وكان الكثيرون يعتقدون أن يهودية المرء مسألة تتعلق بمولده»(٨٤) وسماته الجسدية.

إن التعريفات العنصرية ـ الخالصة ـ مغرقة في الخيال والابتعاد عن الواقع، ولذا يسهل أن يدحضها الواقع، كما أن الاعتبارات العملية تخفف من حدتها، فبحسب الترتيب الهرمي الذي وضعه النازيون للأجناس، يشغل الآسيويون، كما هو متوقع، مرتبة أدنى من الآريين. ولكنهم مع هذا وجدوا أنفسهم مضطرين للدخول في التحالف مع اليابانيين الأمر الذي أضعف ادعاءاتهم العرقية، فاضطروا الى إعادة تصنيف اليابانيين، جاعلين منهم «آريين فخريين». وقد وجد الصهاينة صعوبة بالغة في محاولتهم ترسيخ التعريف البيولوجي للشخصية اليهودية، لأن هذا الرأي كان ينطوي على مغالاة في التبسيط. لقد كان على الصهاينة ـ على عكس النازيين ـ أن يأتوا بتعريف عرقي يصلح لوصف كل يهود العالم بكل انتماءاتهم العرقية، الأمر الذي كان في حكم المستحيل، نظراً لانعدام التجانس العرقي بينهم. وكما أشرنا من قبل، كان هرتزل معجبا بالنظرية العرقية، ولكنه كان صديقا لاسرائيل زانجويل، اليهودي ذي الأنف الطويل مثل أنوف الزنوج، والشعر الكث حالك السواد، الذي كانت نظرة واحدة إليه ـ على حد قول هرتزل نفسه ـ تكفي لدحض أي تصور عرقي لليهود(٨٥). ولذا كان على الصهاينة أن يأتوا بتعريف جديد لليهودي على أساس إثني/حضاري.

وحينما أشار مندوب إسرائيل في هيئة الأمم إلى «الرابطة الفريدة التي لاتنفصم

عراها، والتي بقيت على مدى قرابة أربعة آلاف سنة بين أهل الكتاب وأرض الكتاب المقدس»(٨٦) فإنما كان يحاول أن ينبه الى أن اليهود، المتفرقين في أنحاء العالم وينتمون الى أجناس مختلفة، تربطهم أواصر حضارية إثنية. والحديث عن استمرارية اسرائيل، الذي سبقت الاشارة اليه، هو في نهاية الأمر حديث عن الإثنية اليهودية.

والتصور الاثني لليهود، مثل التصور العرقي، يفترض التفوق اليهودي. وقد تباهى هرتزل في مذكراته بذكاء الشعب اليهودي «الذي يدرك بحدسه ماقد يضطر المرء لتكراره، أكثر من مرة، أمام أعضاء الشعوب الأخرى»(٨٧)، كما أن روبين بيّن أنه لايوجد شعب يبذ اليهود في المواهب العقلية(٨٨). وقد بين بن جوريون أن اليهود يتمتعون بقدر معين من «التفوق الأخلاقي والعقلي»، وأن من الممكن اتخاذهم نموذجا لخلاص الجنس البشري(٨٩). والحديث عن العبقرية اليهودية هو، في جوهره، حديث عن الخصوصية اليهودية والتفوق اليهودي.

بقي، بعد هذا، التعريف الصهيوني الديني، وبرغم أن مثل هذا التعريف يختلف في الأساس الذي يستند اليه عن أساس التعريف العرقي أو الإثني، فإنه لايختلف كثيراً عنه في بنيته؛ فجميع التعاريف ترى الشعب اليهودي كيانا منعزلا غريبا مقدسا، وجميعها تعطي اليهود كلهم الحقوق «القومية» نفسها، الأمر الذي يخرج بالتعريف الديني من المجال الديني الى المجال العرقي أو الاثني.

خلاصة القول، إذا، إن هذه الفكرة الخاصة «باليهودي الخالص» هي جوهر الأيديولوجية الصهيونية، سواء عدّ اليهودي يهودياً على أساس الجنس أو من خلال الميراث الثقافي والتاريخي، أو من خلال الانتماء الديني القومي. والجدل القائم حول الأساس الذي تستند اليه فكرة «اليهودي الخالص» ليس إلا مسألة عرضية بالمقارنة مع الفكرة ذاتها. وعندما دعا ليفي اشكول، رئيس وزراء اسرائيل الأسبق، الى إقامة «حياة يهودية مشتركة»، تهدف الى تقوية نفسها وتدعيم اسرائيل(٩٠)، فإنه لم ير من المناسب أن يوضح مصدر هذا الوجود

القومي الذي افترضه، الأمر الذي يدل على حكمته. فبدلا من أن يثير جدلا أيديولوجيا بين مختلف الطوائف الصهيونية، وضع لنفسه حدوداً لاتتخطى النقطة التي تلقى قبولا اجماعيا من الصهاينة، ألا وهي فكرة اليهودي الخالص.

العربي الغائب:

كما بينّا من قبل، يمكن تلخيص جوهر الأيديولوجية الصهيونية، في النظرية والممارسة، على أنها استيراد ونقل مجموعة من العقائد والأفكار الدينية من مجالها الديني إلى المجال السياسي، وهو نقل للأفكار ينتج عنه، في الممارسة، عمليتا نقل ديموجرافي: نقل اليهود من المنفى الى أرض الميعاد، ونقل العرب من أرض الميعاد الى المنفى. ولتسويغ عملية نقل اليهود هذه، قام الصهاينة بنقد الشخصية اليهودية في المنفى (بوصفها ممثلة للماضي الذي يتمردون عليه)، ثم طرحوا تصوراً لليهودي الخالص الذي سيحل محل يهود المنفى (بوصفه ممثلا للمستقبل المؤمل فيه). وبالنسبة لعملية النقل الديموجرافي الثانية، فثمة انتقاد للشخصية العربية أيضاً، وثمة تصور للعربي في المستقبل. ولقد ركز الصهاينة على انتقاد الشخصية العربية فحسب، ومن النادر أن نجد في الكتابات الصهيونية طرحاً لتصور الشخصية العربية في المستقبل. والصهيونية تتعامل مع الانسان العربي على ثلاثة مستويات، تتسم كلها بأنها «تجرد» الانسان العربي من وجوده المتعين تجريداً متزايداً، حتى يختفي كليا، ويتحول من العربي المتخلف الى العربي الغائب.

١ـ مواجهة الانسان العربي من المنظور العنصري الشائع:

يقدم الصهاينة من هذا المنظور، العنصري التقليدي، تصوراً للشخصية العربية على أنها شخصية مختلفة.

ومثل هذا الوصف أمر شائع في الاعتذاريات العنصرية وفي أدبيات الاستعمار الأوروبي؛ فالوصف هنا ليس وصفاً للعربي، بقدر ماهو وصف لأي آسيوي أو افريقي (أو حتى امريكي أسود). وقد سبق أن بينّا أن الاستعمار الصهيوني، في

أحد تصوراته لنفسه، كان يرى أنه جزء (تابع) لايتجزأ من الحركة الامبريالية الغربية، ومن الهجمة العسكرية الحضارية على الشرق العربي لإدخال الحضارة والسكك الحديدية والبلاستيك والقنابل. وقد اقتبسنا آنفا بعضا من كتابات الصهاينة لتوثيق وجهة نظرنا هذه. ولم يكن من الضروري في هذا الاطار الدراسة الدقيقة للضحية، وإنما كان يكتفي بالحديث عن مدى تقدم الحضارة الغربية، وعن مدى تقدم الانسان الأبيض، كما يكتفي بالاشارة الى تخلف الانسان غير الأبيض (سواء كان أسود أو أصفر أو حنطيا). فالأمور كانت واضحة للعيان، ومن هنا كانت هذه الأوصاف عمومية لاتركز على السمات المتعينة للضحية. وعلى أي حال، فإن أي تفكير عنصري لابد من أن يتسم بهذا التعميم والتجريد والانتقاء، والا وجد نفسه امام وجود متعين محسوس له قيمة إنسانية، أو حضارية، وله كيانه الخاص، الأمر الذي يجعل من العسير تقبل الاعتذاريات التي تسوغ استغلاله. ولايزال لهذا التفكير امتداداته داخل المجتمع الاسرائيلي، وفي الكتابات الصهيونية؛ فالفيلسوف الأمريكي هوراس كالن لم ير العربي إلا في صورة الشيخ العربي من الإمارات البترولية، الذي يضيء قصره بأضواء النيون الحمراء ويستمع للأذان من جهاز تسجيل، ولم يقابل سوى شيخ قبيلة من صحراء النقب، يلبس هو وأولاده ساعات مستوردة لاتبين الوقت، ويحملون أقلاماً لايستعملونها في جاكتات غربية يرتدونها فوق جلابيبهم، ووظيفتهم الأساسية هي تهريب الحشيش بطبيعة الحال(٩٢). وفي أحد استطلاعات الرأي (نشرت نتائجه عام ١٩٧١) جاء أن ٧٦٪ من الاسرائيليين يؤمنون بأن العرب لن يصلوا الى مستوى التقدم الذي وصل إليه اليهود(٩٣). وفي كتاب الأستاذ السيد ياسين توثيق لهذا الجانب من التصور الصهيوني/الاسرائيلي للشخصية العربية.

وفي هذا الإطار، نلاحظ أن العربي الجديد، المقابل البنيوي لليهودي الخالص، لايأتي ذكره الا في النادر. ومن هذه اللحظات النادرة مادوّنه هرتزل في يومياته حينما كان في القاهرة يتفاوض بخصوص واحد من مشروعاته

الاستيطانية الكثيرة فقد استمع الزعيم الصهيوني الى محاضرة عن الري، ويبدو أنه رأى بعض المصريين واستمع لأسئلتهم؛ فكتب يقول «(ان المصريين) هم سادة المستقبل هنا. ومن العجيب أن الانجليز لايرون ذلك، فهم يعتقدون أنهم سيتعاملون مع الفلاحين الى الأبد». ثم أخذ هرتزل بعد ذلك يصف كيف أن الاستعمار ذاته يخلق الجرثومة التي تقضي عليه، وذلك لأنه «يعلم الفلاحين الثورة»(٩٤). ثم أبدى هرتزل دهشته لفشل البريطانيين في إدراك هذه الحقيقة البسيطة. ويحق للمرء أن يتعجب لفشله هو نفسه في إدراكها؛ إذ إنه ذهب ليتفاوض، في اليوم التالي، بشأن منطقة العريش لتكون موطناً للاستيطان الصهيوني. ويبدو أن ماحدث هو لحظة إدراك تاريخية نادرة من جانب الزعيم الصهيوني، فهم فيها قانونا تاريخيا ينطبق على الاستعمار البريطاني وعلى غيره من أنواع الاستعمار، ولكنه غاص، مرة أخرى، في الأسطورة الصهيونية وفي الغيبيات العلمانية، فاستثنى الاستعمار المقدس والمطلق من هذا القانون التاريخي النسبي، ولم تترجم لحظة الادراك عن نفسها في حكمة إنسانية أو سلوك عقلاني.

وقد رسم هوراس كالن صورة الفلسطيني في المستقبل، كما يجب أن يراها، فقال: «لو حصل اللاجئون على جوازات سفر وغيرها من الوثائق التي تمكنهم من التحرك بحرية، ولو حصلوا على مبلغ كاف من المال ليشقوا به طريقهم الى مكان من المتوقع أن يجدوا فيه سبل العيش المعقولة، وقيل لهم إن هذا هو كل ماسيحصلون عليه ولا شيء آخر أبداً ـ لو حدث هذا لبدءوا عندئذ في الاعتماد على النفس»(٩٥)ـ أي أن تحديث الشخصية العربية سينتج عنه ان يفهم العرب المشروع الصهيوني والحقوق المقدسة الصهيونية. وهذه الموضوعية الشاذة، أو غير المنطقية على أقل تقدير، موضوعة متواترة ضمنياً في الكتابات الصهيونية. وقد حضرت محاضرة ألقاها حاييم أرونسون، أحد الكتاب الاسرائيليين، والمفكر الاستراتيجي (وهو، في تصوري، يتسم بذكاء خارق ومقدرة تحليلية فائقة، ولكنه مثل هرتزل تماما. وكالن دخل عالم الأسطورة ولم يخرج منه) أشار فيها أرونسون إلى مشكلة اساسية تواجهها إسرائيل، وهي أنها مجتمع حديث في وسط

سياق حضاري اجتماعي تقليدي. وفي تصوره أن عدم التماثل بين اسرائيـل وجيرانها هو احد اسباب العداوة بينهم، ويشكل أحـد أسس الصراع العـربي الإسرائيلي. ويرى أرونسون أن عملية تحديث العالم العربي ستستغرق مدة طويلة (حوالي مائة عام، على حد تقديره) ولـذا يقترح إحـاطة اسـرائيل بحـزام من الاسلحة النوويـة إلى أن تتم عملية التحـديث. ولكن الأمر الـذي لم يذكـره أرونسون هو مايلي: إذا تمت عملية التحديث في العالم العربي، وسدت الفجوة الحضارية بين اسرائيل وجيرانها، فهل سيظهر العرب تعاطفاً مع وجهة النـظر الصهيونية، أم أنهم سيمتلكون ناصية الأسلحة الحديثة، الأمر الذي سيمكنهم من تسديد الضربة القاضية لهـذا الجيب الاستيطاني الحـديث؟ ولكن يبدو أن التصور الصهيوني يقوم على أن تحديث الشخصية العربية قد يؤدي بالفعل الى تلاشي الشخصية العربية نفسها، أو أنها ستكتشف أنه لاتوجد هوية عربية، وإنما هوية سنية أو شيعية أو مصرية. وهكذا تتبخر القومية العربية وتظهر الدويلات الإثنية الدينية على النمط الاسرائيلي. ولكن الحـديث عن الانسان العـربي في المستقبل هو في نهاية الأمر حديث نادر في الكتابات الصهيونية.

٢ـ العربي ممثلا للأغيار:

إذا كان النظر إلى العربي من المنظور العنصري التقليدي يجـرده فثمة اتجاه أعمق نحو التجريد في الأيديولوجية الصهيونية، هو اتجاه قاصر عليها، يشكل أساس التصور الصهيوني الاسرائيلي للعرب، وهو الموقف الصهيوني من الأغيار. وكما بيّنا من قبل فإن الرؤية الصهيـونية تتسم بـالاستقطاب المتـطرف: يهودي خالص ضد الأغيار. وقد وصف الأغيار في الأدبيات الصهيونية بأنهم ذئاب، قتلة، متربصون باليهود، معادون أزليون للسامية. ويمكن لمن يريد أن يحصل على الكتالوج الكامل لهذه الأوصاف أن يعود لأعمال المفكـرين الصهاينـة. ولكن لايهمنا في السياق الحالي إلا ان الأغيار مقولة مجردة، بل إنها أكثر تجريداً من مقولة اليهودي في الأدبيات النازية، أو مقولة الزنجي في الأدبيات العنصرية البيضاء. وهي أكثر تجريداً لأنها لاتضم أقلية واحدة، أو عدة أقليات، أو حتى عنصراً بشرياً

بأكمله، وإنما تضم كل «الآخرين» في كل زمان ومكان. وقد وضع الصهاينـة الانسان العربي على وجه العموم، والفلسطيني على وجه الخصوص، داخل مقولة الأغيار حتى يصبح بلا ملامح أو قسمات.

وتظهر مقولة الأغيار هذه في وعد بلفور الذي أشار الى العرب، الذين كانوا يشكلون أكثر من حوالي ٩٣٪ من مجموع السكان، على أنهم «الجماعـات غير اليهودية»، دون أي تحديد لهذه الجماعات أو ذكر لاسمها، حتى تظل في مستوى عال من التجريد. هذه «الجماعات غير اليهودية» هي أيّ جماعة إنسانية تشغل الأرض التي سيستوطن فيها الشعب اليهـودي. وبينما كـان هرتـزل يتفاوض بخصوص كريت موقعا للاستيطان الصهيوني كتب عن «الجماعات غير اليهودية» التي تقطنها بطريقة تنم عن عدم الاكتراث والتجريد؛ فقد وصفهم بأنهم «عرب، يونانيون، هذا الحشد المختلط من الشرق»(٩٦).

أما تشرنحوفسكي، في قصيدته «وقت الحراسة»، التي كتبها في تل أبيب عام ١٩٣٦، فلا يكلف خاطره بالاشارة الى العرب، بـل يتحدث عن «الأغيـار» فحسب، بوصفهم رجال «الصحراء المتوحشين»؛ وهم- بهذا- يصبحـون شيئا عاما مجرداً، وجزءاً من الطبيعة يسهل التعامل معه واصطياده وإبادته(٩٧).

وفي اسرائيل لايتحدثون عن اليهود والعرب، وإنما يتحدثون عن «اليهود وغير اليهود». وكما يقول اسرائيل شاهاك إن كل شيء في اسرائيل ينقسم الى يهودي وغير يهودي، وينطبق هذا التقسيم على كل مظاهر الحياة فيها، حتى على مايزرع من خضراوات، من ظماطم وبطاطس وغيرها(٩٨). وفي هذا الصدد قد يكون من المفيد أن نتذكر أن الحاخام أبراهام أفيدان حين أوصى الجنود الاسرائيليين بقتل المدنيين الأغيار أو غير اليهود كان يعني في الواقع العرب فحسب، ولاشك أن جنود جيش الدفاع الاسرائيلي يعرفون تماما ماكان يرمي اليه الحاخام.

هذا هو التصور الصهيوني للعربي، الممثل للأغيار، في الماضي والحاضـر؛ فماذا عن الانسان العربي في المستقبل؟ من هذا المنظور، ستجد أن الزمان قد

تجمد وألغى كما هو الحال في الكتابات الصهيونية؛ فالأغيار ذئاب في الماضي، وذئاب في الحاضر، وذئاب في المستقبل. والانسان العربي الخانع الخاضع للعنف الصهيوني، هو نفسه الانسان العربي المقاتل الأزلي ضد العنف الصهيوني: كلاهما جزء من مخطط ميلودرامي أزلي. وقد وصف رئيس جمهورية إسرائيل السابق إسحق بن تزفي المقاومة العربية في أوائل القرن الحالي أنها مجرد مذبحة يرتكبها معادو السامية(٩٩) حرض عليها قنصل القيصر في فلسطين، أي أن معاداة السامية هي هي لاتتغير؛ فهي تأخذ شكل مذابح في روسيا أو مقاومة عربية في فلسطين! وفي المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) طرح أحد الصهاينة تصوراً مماثلا للتصور الذي طرحه هرتزل عن الانسان العربي في المستقبل، وحذر من أن الفلاحين الفلسطينيين سيثورون ضد الاستعمار الصهيوني، وطالب المستوطنين أن يسلكوا سلوكا مختلفاً حتى لايشتد الصراع مع العرب. وقد رد أحد المستوطنين الصهاينة بأن الفلاحين العرب سيتحولون ضد اليهود مهما كان تصرف وسلوك اليهود حيالهم، فثورة الفلسطينيين ليست محاولة لرد العدوان والظلم الواقع عليهم، وانما هي تعبير عن العداء الأبدي الذي يبديه الأغيار نحو اليهود، بوصفهم «شعباً طرد من بلاده»(١٠٠). وهذا التفسير السهل الذي يشرح كل شيء لايزال شائعا في اسرائيل حتى بين المثقفين؛ فقد فسر المفكر والعالم الصهيوني يشاياهو ليبوفيتز ما سماه الصراع العربي اليهودي (كذا) على أنه تعبير عن الجوهر الأزلي لمأساة الشعب اليهودي التاريخية(١٠١). أما الشاعر بنحاس صادح فيرى أن العرب هم التعبير عن حاجة العالم المسيحي لتصفية ظاهرة اليهود(١٠٢)، ويفسر الكاتب الاسرائيلي يهوشاوا المقاومة العربية على أساس أنها شيء غير مفهوم، ودوافعها غير عقلانية إلى حد كبير، فثمة شيء ما في اليهود يؤدي الى إثارة جنون الشعوب الأخرى(١٠٣). والعرب، بوصفهم أغياراً، لايشذون عن هذه القاعدة. إن مقولة العرب «الأغيار» تعفي الصهاينة من مسؤولية التوجه المحدد للمسألة العربية وللإنسان العربي.

٣ ـ العربي الغائب:

إن ذكر العرب، ولو في مجال التشهير بهم، هو اعتراف ضمني بهم، ولكن الصهاينة يحاولون اخفاء العرب بادخالهم في مفهوم مقولة الأغيار المجردة. هذا الاتجاه يصل الى قمته فيما يمكن أن أسميه مقولة العربي الغائب، فبدلا من الاخفاء الجزئي خلف مقولة مجردة، تصل محاولة الإخفاء الى حد الإغفال الكامل. فالصهاينة أحيانا لايذكرون العربي بخير أو بشر، ويلزمون الصمت حيال الضحية، ويظهرون عدم الاكتراث الكامل بها.

ويفسر بعض المفكرين ظاهرة العربي الغائب على أنها محاولة للتهرب من حقيقة صلبة تتحطم عندها كل الآمال الصهيونية. فيقول شلومو أفنيري، عالم السياسة الاسرائيلي، إن الرواد الصهاينة الأولون لم يكن في مقدورهم مواجهة حقيقة أن ثمن الصهيونية هو نقل العرب، ولذا أخذت ميكانزمات الدفاع عن النفس شكل تجاهل «تعين المشكلة العربية». إن التمسك بالرؤية الصهيونية لم يكن ممكنا دون اللجوء بشكل غير واع لخداع النفس. (١٠٤) ويقول ليبوفيتز إن الصهاينة الأوائل لم يريدوا، لأسباب نفسية واضحة، رؤية الحقيقة، ولم يدركوا أنهم كانوا يضللون أنفسهم ورفاقهم(١٠٥).

وحينما تحدثنا عن اعتذاريات الاستعمار الصهيوني، المؤسسة على فكرة اليهودي الخالص، بينا أنها تتضمن فكرة العربي الغائب، أو الذي يجب أن يغيب.

ولأن العربي غائب، أو يجب أن يغيب، يصبح هنا حتى التجريد العنصري أمراً غير ذي موضوع، فأرض فلسطين هي الغنيمة المطلوبة، أما العمل والعامل الفلسطيني فيجب أن يختفيا ويزولا، وما يظهر في هذا المضمار ليس فكرة الحقوق المستندة الى التفوق، وإنما تظهر الحقوق المقدسة التي تطمس ماعداها من حقوق دون ذكر لها.

وإغفال ذكر العرب، حتى على أنهم ضحية أو موضوع للاضطهاد أو

الاحتقار، يشبه، في كثير من الوجوه، عدم اكتراث الديانة اليهودية بالتبشير. فلا شك أن التبشير بدين ما هو إلا افتراض أن الأديان الأخرى أدنى مرتبة، وأن اتباع هذه الأديان قد يعذبون في الآخرة، مع افتراض أولي كامن هو أن اتباع الديانات الأخرى بشر تجب هدايتهم والنضال من أجل أرواحهم. ان الموقف التبشيري، برغم سذاجته وضيق أفقه، هو، في نهاية الأمر، تعبير عن الاهتمام بالآخر، وأن له روحاً تستحق الهداية. أما اليهودية القديمة فلم تمارس التبشير على مستوى واسع، لأن الأغيار ليسوا مقدسين، ولا يستحقون إرسال مبشرين يهدونهم سواء السبيل. ومرة أخرى، إذا كان هذا الموقف الديني له ما يسوغه داخل إطاره، فهو يصبح موقفا مغاليا في العنصرية حين ينتقل إلى المستوى السياسي.

وإذا كانت محاولات تعريف اليهودي الخالص، على أساس عرقي أو ديني أو إثني، هي محاولات لتأكيد الحقوق المقدسة لليهود في أرض الميعاد، فإن كل الصور التي ترسمها الصهيونية للعربي تهدف إلى انكار أي حق له، فليست له حقوق كرجل حنطي (ليس بأبيض)، ولا حقوق له كرجل نسبي (ليس مقدساً)، ولا حقوق له كرجل متخلف (ليس غربيا متقدما)، ولا حقوق له كفلاح إقطاعي (وليس عاملا في نظام اشتراكي)، ولا حقوق له كغائب، إذ ليس له هذا الحضور الصهيوني المطلق.

هذه التصورات الصهيونية محكومة، إلى حد كبير، بالنسق الأيديولوجي الصهيوني، والرؤى التي تضرب بجذورها في التلمود والجيتو. ولكن الأنساق الايديولوجية والأنماط الإدراكية لا توجد في فراغ، فهي، في نهاية الأمر، نماذج فكرية للتعامل مع الواقع. وفي عملية الاحتكاك هذه تبدأ الانساق، وخصوصا إذا كانت تتسم بالتجريد، في معاناة شيء من التوتر. وقد ينتج عن هذا أن تزداد تكلساً، أو تتغير، أو تنهار كليا. ويمكن أن نضرب بعض أمثلة على ما دخل على التصورات الصهيونية للعربي من تغيرات. فقد لاحظ الدكتور رشاد الشامي في دراسة له (سينشرها مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة عين شمس) تحت عنوان «الأدب الاسرائيلي والحرب»، وهي دراسة في قصة «خربة خزعة» لساميخ

يزهار، أن الفكر الصهيوني الإسرائيلي بدأ ينسب إلى العربي السمات السابقة نفسها التي كان ينسبها ليهود المنفى، وهي السمات التي استوردتها الصهيونية بدورها من أدبيات معاداة السامية. ولعل هذا التحول هو نتيجة منطقية لاختفاء يهودية الجيتو والشتات (سواء في روسيا أو في الولايات المتحدة أو في إسرائيل) وكان من الحتمي أن تجد الصهيونية بديلا من يهودي الجيتو المختفي، وخصوصا بعد أن عاد العربي الغائب عام ١٩٦٧ نتيجة الغزو الصهيوني.

وقد يكون من الممكن القول إن الرؤية الصهيونية الاسرائيلية للعربي هي أول رؤية معادية للسامية بالمعنى الكامل للكلمة فعلا، فهي تضم كل الساميين، اليهود والعرب على حد سواء، ولعل الصورة التي رسمها الصهاينة للعربي التائه الذي لا يرتبط بالأرض، وإنما يحمل جواز سفره ورأسماله ليتجول في أنحاء العالم لعل هذا التصور ذاته هو امتداد للتصور الصهيوني لليهودي على أنه انسان هامشي جوال طفيلي.

هذه الظاهرة تحتاج، بلا شك، لمزيد من الدراسة. وقد يكون من المفيد أن ننبه إلى أن هذا التطور، الذي يأخذ في ظاهره شكلا عنصريا، قد يخبىء تطورا ثوريا، لأنه ينطوي على اعتراف ضمني بالعرب وبوجودهم، وبالتالي بضرورة التعامل معهم، وهو ثانيا يمس وترا حساسا في النفس الإسرائيلية، لأن العربي إذا كان هو اليهودي فإن نظرية الحقوق الصهيونية التي تستند الى فكرة اليهودي الذي ذاق صنوف العذاب طيلة حياته ستجد نفسها تستدعى العربي أيضا إلى الأذهان. وفي أثناء حرب ١٩٦٧ صرح أحد الجنود الاسرائيليين أنه رأى نفسه، الطفل اليهودي المضطهد في الماضي، في الفلسطينيين المطرودين الذين يحملون أطفالهم(١٠٦). وقد صرح البروفيسور أكيفا ارنست ميمون، وهو أحد أعضاء حركة السلام، بأن مشكلة العرب (أو المسألة العربية) تعتبر جزءا أساسيا من المسألة اليهودية(١٠٧).

ولكن تظل ملامح الإدراك الصهيوني الاسرائيلي للعربي في تصوري هي

الملامح الأساسية التي ذكرناها من قبل (العـربي الحنطي المتخلف، أو العـربي الأغيار، أو العربي الغائب)، التي يدعمها بناء المجتمع الاسرائيلي ذاته، والتي تعبر عن نفسها في هيكل اقتصادي قانوني متكامل، ابتداء من قانون العودة (عودة يهود المنفى إلى أرض الميعاد)، مرورا بقوانين الصندوق القومي اليهودي (القوانين التي تمكن الشعب المقدس من الاستيلاء على الأرض المقدسة)، وانتهاء بالقوانين التي تمنع العرب من العودة إلى فلسطين (العربي الغائب أو الذي يجب أن يغيب).



الفصل السادس

الصهيونية واليهودية

تنطلق الصهيونية من رفض لليهودية دينا، ولليهود مواطنين وأفرادا يحيا كل واحد منهم حياته بحسب انتمائه الطبقي أو الحضاري، وتطرح، بدلا من ذلك، نسقاً أيديولوجياً يتسم بالتجريد والاطلاق في موقفه من التاريخ ومن الإنسان ومن الأرض. ويترجم هذا التجريد عن نفسه في فكرة اليهودي الخالص، الذي يعيش في أرض يهودية خالصة (أرض الميعاد)، وإذا كان التجريد، وتجاهل الحقائق، وخلع الإطلاق على ظواهر نسبية هي ضرب من ضروب العنف النظري، فهذا العنف النظري لابد من أن يترجم عن نفسه في عنف فعلي. وهذا ماحدث فعلا. فتاريخ الصهيونية هو تاريخ عنف موجه ضد اليهود (والعرب) يختلف في درجات حدته حسب الزمان والمكان ابتداء من محاولة خلخلة وضع اليهود القانوني في المنفى، ومرورا بالحملات المعادية للسامية ضدهم، وانتهاء بالعنف المسلح وبالتعاون مع النازي.

الوضع القانوني :

قد يكون من المفيد أن نعيد إلى الأذهان الفقرة الخاصة بيهود المنفى في وعد بلفور التي جاء فيها أنه لن يتم فعل أي شيء يكون من شأنه الإخلال «بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في أي دولة أخرى»، وقد أضيفت هذه الفقرة نتيجة ضغط أعضاء الأقلية اليهودية في بريطانيا، الذين كانوا يخشون أن يتحولوا، بالضرورة، إلى مواطنين في الدولة اليهودية، وبالتالي إلى أجانب في أوطانهم.

ولكن الدولة الصهيونية تصر على أنها ليست قاصرة على مواطنيها فحسب، وإنما هي دولة للشعب اليهودي بأسره، داخل حدودها وخارجها، ومما له دلالته

أن بيان إعلان قيام الدولة الصهيونية (عام ١٩٤٨) قد تم عن طريق مجلس قومي يتحدث باسم كل اليهود، سواء في فلسطين أم في خارجها.

وبن جوريون نفسه ـ في عدد أغسطس سنة ١٩٦٢ من جويش فرانتير ـ وصف إسرائيل بأنها «دولة الشعب اليهودي كله»(١).

وقد أصدرت الدولة الصهيونية قوانين كثيرة، وأقامت هيئات مختلفة بهدف ترجمة مفهوم الشعب اليهودي إلى واقع قائم. ومن أهم هذه القوانين «قانون العودة»، الذي يمنح «جميع» اليهود حق مغادرة مسقط رأسهم و«العودة» إلى وطنهم القومي. وتعمل المنظمة الصهيونية العالمية على تكريس الوحدة اليهودية دون أي مراعاة للحدود الوطنية للدول المختلفة. ويحدد «ميثاق» المنظمة مهمتها بأنها «لم شمل المنفيين في أرض اسرائيل التاريخية، وتدعيم وحدة الشعب اليهودي»(٢)

وتدعو كل من الدولة الصهيونية والمنظمة الصهيونية العالمية إلى المثل نفسها، وتعملان على تحقيق الأهداف نفسها، وفي إطار مفهوم واحد خاص بالقومية اليهودية، وعندما حاولتا وضع مثلهما الأعلى موضع التنفيذ، اعترضهما بعض الصعوبات، حيث إن الدولة الصهيونية تقع ـ جغرافيا ـ في الشرق الأوسط في حين تتوزع الأغلبية العظمى من «المنفيين» في جميع أنحاء العالم. وحيث إن الدولة لاتستطيع الوصول إلى «شعبها»، نظرا «لضآلة سلطتها خارج حدودها»، كما قال بن جوريون في إحدى المناسبات، فإن المنظمة الصهيونية العالمية، التي «تمتلك الفرصة والقدرة على القيام بما قد لا يمكن للدولة القيام به، ستكون بمثابة حلقة الوصل بين الدولة ويهود الشتات»(٣).

وتأسيسا على هذا الهدف الصهيوني/ الاسرائيلي، وعلى هذا الأسلوب في العمل، فإن ميثاق المنظمة الصهيونية العالمية يتحدث عن واجبات المنظمة تجاه الدولة، مثل «تقوية دولة إسرائيل»، و«تعبئة الرأي العام العالمي» لتأييدها، ووردت بالميثاق أيضا إشارة إلى «الأنشطة التي تتم خارج إسرائيل»، وحتى بعد

قيام الدولة سنة ١٩٤٨ لاتزال المنظمة الصهيونية العالمية هي اليد الطولى للدولة في محاولة الوصول الى الجاليات اليهودية في الدول الأخرى(٤).

ولايجاد شكل رسمي منظم لهذه العلاقة الشاذة بين دولة مستقلة ومنظمة تعمل نيابة عنها في دول أخرى ذات سيادة، أصدرت إسرائيل سنة ١٩٥٢ قانون «الوضع القانوني للمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية» الذي يتضمن الاعتراف بالمنظمة بوصفها «وكالة مرخصا لها بالعمل في دولة إسرائيل من أجل تنمية وتعمير البلاد». وجاء في الاتفاقية التي أبرمت بين الدولة والمنظمة الصهيونية العالمية ـ التي استهدفت تفسير القانون المشار إليه ـ أن من المهام الموكلة للمنظمة «تنظيم الهجرة في الخارج»، و«نقل المهاجرين وممتلكاتهم إلى إسرائيل»، و«تعبئة كافة الموارد لتمويل هذه الأنشطة (الصهيونية) داخل إسرائيل». وقانون الوضع القانوني للمنظمة ـ الذي وصفه بن جوريون أنه مكمل لقانون العودة ولا يقل أهمية عنه ـ قائم هو الآخر على فكرة الشعب اليهودي(٥).

ولا يقتصر الالتزام بفكرة الشعب اليهودي ـ بالمعنى السياسي للكلمة ـ على القوانين والهيئات، بل يتخذ أشكالا أخرى مباشرة وأقل تجريدا، مثل التصريحات القوية التي يدلي بها المسؤولون الاسرائيليون، بل قد يصل الأمر إلى حد التدخل المباشر في شؤون يهود الشتات، وهناك الكثير من التصريحات الاسرائيلية/ الصهيونية التي تضمنت إشارات إلى وجود علاقة عضوية تربط اليهود بالدولة والوطن القومي اليهوديين. ففي إحدى المناسبات قال يوسف تكواه، مندوب اسرائيل السابق لدى الأمم المتحدة، إن مستقبل اليهود في امريكا ومستقبل يهود اسرائيل «مرتبطان ارتباطا حتميا»(٦). وكتب بن جوريون عن وجود «رابطة لا تنفصم عراها بين دولة إسرائيل والشعب اليهودي. . رابطة الحياة والموت. . ووحدة المصير والغاية»(٧).

وتظهر الدلالة السياسية لمثل هذه الأقوال، حين تترجم إلى أفعال. فعلى سبيل المثال، صرح بن جوريون أمام لجنة العمل الصهيوني بأنه «ينبغي أن يكون لدى

الصهاينة، في الدول الأخرى، الشجاعة الكافية لتأييد دولـة (إسرائيـل) حتى عندما تقف دولهم ضدها». (٨). وأشار بن جوريون إلى أنه عندما يقول يهودي ليهودي آخر «حكومتنا» فانه يعني حكومة اسرائيل دائما. بل إنه ادعى ان «عامة اليهود في مختلف الدول ينظرون إلى السفير الاسرائيلي على أنه يقوم بتمثيلهم»(٩)

وكانت جولدا مائير على نفس الدرجة من الصراحة، ففي احدى المناسبات، إبان توليها وزارة الخارجية، أكدت أن من بين مسؤوليات الدبلوماسيين الاسرائيليين أن يظلوا على اتصال مستمر بالمنظمات الصهيونية المحلية، وأن يعملوا بالتعاون معها(١٠).

والمبدأ الكامن وراء هذه الأقوال هو استقلالية اليهود القومية وانعزاليتهم، وقد وصل الأمر بالحاخام موردخاي كابلان، أحد كبار الصهاينة الأمريكيين ومؤسس حركة إعادة البناء، إلى حدّ المطالبة بالاعتراف قانونا «بيهود العالم كشعب واحد»، حتى يستعيدوا «وضعهم القانون الجمعي» الذي «أضفته حركة الانفاق وفلسفة التنوير اللتان وضعتا نهاية لعزلة اليهود». (١١)

ومثل هذا المنطق خطر لأقصى حد لأن الجهود الرامية للدفـاع عن الحقوق المدنية أو السياسية لليهـود، أو لأي أقلية أخـرى في المجتمع لايمكن أن تكلل بالنجاح إلا على أساس المطالبة بالحرية الفردية لاعضاء هذه الأقلية، وليس على أساس المطالبة باستقلالها القومي. ومن الواضح أن الافتراض الصهيوني الخاص بوجود شخصية يهودية قومية مشتركة بين كل يهود العالم ليس في صالحهم، لأنه يجعل منهم غرباء ومواطنين في أوطانهم، ويضعف من شرعية مطالبتهم بالمساواة أمام القانون، ولكن هذا هو الهدف الصهيوني، لأنه إذا تحققت العدالة لليهود، أينما وجدوا، فإن هذا يعني إفلاس الصهيونية.

وقد رفض غاندي فكرة الشعب اليهودي، وميز بين حقوق الأفراد من جهة، واستقلال الأقليات من جهة أخرى، فنجده يصر على ضرورة «أن يلقى اليهود معاملة عادلة، أيا كان المكان الذي يولدون أو ينشأون فيه. فاليهود الذين يولدون

في فرنسا فرنسيون تماما، كما أن المسيحي الذي يولد في فرنسا فرنسي»، ثم بين غاندي الخطر الكامن من المنطق الصهيوني عندما تساءل: «إذا لم يكن لليهود وطن غير فلسطين، فهل ستسعدهم فكرة أن يكونوا مجبرين على مغادرة أجزاء العالم الأخرى التي يحيون فيها؟ أم أنهم يريدون أن يكون لهم وطنان يحيون في أي منهما كما يتراءى لهم؟» وأخيرا بين غاندي النتيجة المنطقية والحتمية للرؤية الصهيونية: «ان الدعوة للوطن القومي (اليهودي) تقدم تسويغا لطرد ألمانيا اليهود». (١٢).

ولم تكن كلمات غاندي تصويرا مبالغا فيه للموقف، فقد استفاد النازيون فعلا، وإلى أقصى حد من مزاعم الصهيونية وافتراضاتها. ففي المناطق التي سيطر عليها النازيون في أوروبا، كان شعارهم هو: «ليخرج اليهود إلى فلسطين». وكان النازيون يقبلون فكرة وحدة اليهود التي تتجاوز الحدود السياسية، مثل الصهاينة تماما، ولذا أرادوا أن يصبح اليهود مجرد كيان قومي منعزل «أجانب موضوعين تحت الحماية» يمكن السماح لهم بالعمل أطباء أو معلمين مؤقتا(١٣) طالما أنهم في طريقهم إلى وطنهم القومي. وقد تنبأ هرتزل بكثير من المعاني المعادية الكامنة في فكرة أن «اليهود يكونون شعبا واحدا» (آين فولك)، وكان مدركا أن مثل هذه الفكرة قد تعوق استيعاب اليهود، وقد تعرض وضعهم القانوني للخطر، حتى بعد اندماجهم في مجتمعاتهم، بل قد تكون «بمثابة مساعدة للمعادين للسامية»(١٤). لكنه كان يعلم، تمام العلم، أن هذه الفكرة هي جوهر الصهيونية.

الخلاص الجبري:

على الرغم من الادعاءات والدعاوى الصهيونية، فقد تم ـ في واقع الأمر ـ اندماج الأغلبية العظمى من يهود العالم، وحيث إن الصهيونية ترى أن حياة اليهود في الشتات شبه مؤقتة، وان الاندماج شيء ينبغي تجنبه، فلا غرو ان المؤسسة الصهيونية تبدي نفاذ صبر ملحوظ ازاء «فشل» اليهود الواضح، في جميع

انحاء العالم، في أن يرقوا إلى مستوى المجردات الصهيونية بالهجرة إلى أرض الميعاد!.

وقد وصف مسؤول بوزارة استيعاب المهاجرين الإسرائيلية تقاعس يهود الشتات عن الهجرة بقوله: إننا نجد أنفسنا مضطرين لسحب كل مهاجر جديد إلى اسرائيل وكأنه «بغل حرون»، ثم حذر من أن اسرائيل قد تلجأ إلى التدخل الجراحي (أي الذي يشبه العملية الجراحية)(١٥).

وعقب قيام إسرائيل مباشرة أعرب بن جوريون عن خيبة أمله لعدم تدفق أبناء الشعب اليهودي «المنفيين» على اسرائيل، وقال إنه من واجب «الجيل الحالي أن يخلص يهود الدول العربية والأوروبية»(١٦) وتعني عملية الخلاص هذه ـ من الوجهة العملية ـ فرض السيطرة السياسية والصهيونية على اليهود بأي ثمن، واجبارهم على اعتناق رؤية للحياة والتاريخ قد لا يقبلونها بالضرورة. «فتخليص» الجاليات اليهودية، في المصطلح الصهيوني، إن هو إلا طريقة أخرى للقول بضرورة إكراههم «أو حتى اخضاعهم للرؤية الصهيونية»(١٧) ـ على حد قول الحاخام جاكوب أ. بينوتشوفسكي ـ: إن الصهيونية تحاول التحكم في مصير الأقليات اليهودية في العالم، باسم مركزية إسرائيل في حياة الشتات، وذلك عن طريق التدخل في شؤونهم دون استشارتهم. ففي يونيو سنة ١٩٦٠ بعثت جولدا مائير ـ بوصفها وزيرة خارجية اسرائيل ـ رسائل رسمية إلى بعض الحكومات الغربية احتجاجا على بعض الأحداث التي تنطوي على معاداة السامية والتي وقعت في تلك الدول، وقد امتدحت وسائل الإعلام الاسرائيلية هذا الإجراء باعتباره عملا تاريخيا يمنح إسرائيل سلطة حماية اليهود في كل مكان. لكن يهود الغرب نظروا إلى نوايا اسرائيل الطيبة تجاههم بكثير من التشكك، وضاقت بهذا الأمر بعض الدوائر اليهودية الأمريكية، كما عبرت الصحافة اليهودية البريطانية عن استيائها(١٨).

ولكن التدخل في الشؤون الداخلية ليهود الشتات لا يتخذ دائما مثل هذا

الشكل الدبلوماسي، ولعل التدخل الصهيوني في شؤون اليهود العرب خير شاهد على هذا. لقد نال اليهود العرب ـ تاريخيا ـ حصتهم من السعادة والشقاء، مثلهم في هذا مثل أي أقلية أخرى في العالم، وكان وضعهم يختلف من دولة عربية لأخرى، تبعا للظروف الاقتصادية والثقافية السائدة، وهو الأمر الذي أشار إليه شلومو افنيري المدير العام السابق بوزارة الخارجية الاسرائيلية(١٩). ولكن، انطلاقا من الرؤية الصهيونية لم يكن من الممكن ترك اليهود العرب وشأنهم، لأنه كان من الضروري تحقيق «خلاصهم» على الطريقة الصهيونية.

ولكي نفهم التهديد الذي كان ينطوي عليه النشاط الصهيوني بين اليهود في العالم العربي فهما تاما فلابد من النظر إليه على ضوء خلفيته التاريخية المحددة، فقد حاولت القوى الاستعمارية أن تجعل الأقليات في العالم العربي، بما فيها اليهود، تنضوي تحت لوائها. وكان من بين الأساليب التي اتبعت في هذا المضمار فتح آفاق وخيارات غير متاحة للشعب كله أمام الأقليات. ومن أمثلة هذا منح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر طبقا لمرسوم كريمييه الصادر سنة ١٨٧٠، وقبيل اندلاع ثورة الجزائر سنة ١٩٥٤ كانت الأغلبية العظمى منهم قد أصبحوا يهودا فرنسيين. ولم يأت عام ١٩٤٧ إلا وكان ٢٠٪ فقط من اليهود المصريين مواطنين مصريين(٢٠)، أما بقيتهم فقد فضلوا إما أن يظلوا مواطنين لدول غربية، أو بلا انتماء لأي دولة. وعجل تدفق اليهود الاشكنار من مختلف دول شرق أوروبا بعملية تحويل اليهود العرب إلى مواطنين غربيين، وعزلهم عن مجتمعهم. ففي سنة ١٨٣٥ كان عدد اليهود المصريين خمسة آلاف، وارتفع هذا الرقم إلى ٢٥ ألفا سنة ١٨٩٧، وكانت الزيادة ترجع ،أساسا، إلى الهجرة من الخارج، وقد تمت عملية «التغريب» هذه إبان السيطرة الاستعمارية الغربية على العالم العربي ومقاومة العرب إياها.

وقد بدأ الصهاينة نشاطهم، «نيابة عن» اليهود العرب، بتأييد كامل من القوى الاستعمارية. فقد تعاونت حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين مع المستوطنين الصهاينة على حساب عرب فلسطين. وفي العراق حصلت الجمعية الصهيونية

سنة ١٩٢١ على اعتراف قانوني بها من حكومة الانتداب البريطاني التي كانت قائمة هناك آنذاك. وحصل اتحاد تونس الصهيوني على الاعتراف نفسه من السلطات الفرنسية سنة ١٩٢٢، أي بعد عامين من تكوينه. وتكونت في مصر وغيرها ـ بناء على دعوة بريطانية صهيونية ـ عدة فيالق يهودية، ضمت بين صفوفها يهودا من الأشكناز والسفارد، وأخيرا في سنة ١٩٤٨، تأسست دولة استيطانية/ استعمارية، تدعى أنها يهودية، في قلب الوطن العربي، على الرغم من إرادة العرب، وفي الوقت الذي كان فيه وعي حركة التحرر العربية بنفسها آخذا في التزايد.

كان هذا هو الإطار التاريخي للمنطقة حينما أخذ المبعوثون الصهاينة يطوفون جميع أنحاء العالم العربي، بهدف كسب أنصار للدولة الصهيونية والدعوة لتأييدها، وقد اقيمت معسكرات التدريب لمن يحتمل أن يهاجروا الى الدولة الصهيونية(٢١)، كما قامت حملات لجمع التبرعات. وخلال الفترة من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٤٠ جمع الصهاينة تبرعات بلغت ربع مليون دولار في بغداد وحدها. واستمرت حملة جمع التبرعات حتى بعد إقامة اسرائيل. فقد ذكرت مصادر صهيونية أن أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية في مصر دفعوا ـ سرا ـ اشتراكات العضوية سنة ١٩٥١ «أي بعد» قيام اسرائيل استعدادا للمؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين، الذي كانت النغمة الأساسية المسيطرة عليه هي الهجرة(٢٢). وفي ليبيا مثلا ـ وهي المكان الذي كان الصهاينة قد نظروا إليه سنة ١٩٠٨ كمنطقة محتملة للاستيطان الصهيوني ـ قامت حملات لجمع التبرعات لحركة الاستيطان الصهيوني في فلسطين، الأمر الذي أشار إليه تقرير المؤتمر الصهيوني الثاني عشر سنة ١٩٢١. وفي تونس حصل كثير من اليهود على الجنسية الفرنسية، واعتنقوا الأيديولوجية الصهيونية. وفي سنة ١٩٢٢ قام الصهاينة التونسيون بتنظيم حركة احتجاج على الثورة الفلسطينية التي قامت سنة ١٩٢١. وطبع الاتحاد الصهيوني في تونس منشوراته باللغة العربية لتوزيعها على النوادي الصهيونية في جميع أنحاء العالم العربي.

ولعبت الصهيونية في الجزائر دورا بالدرجة نفسها من السلبية والتخريب في صفوف الأقلية اليهودية، ونجحت في دق إسفين بين الجالية اليهودية الجزائرية، التي استوعبتها الثقافة الفرنسية، وباقي الشعب الجزائري . وكما حدث في الدول العربية الأخرى، نظمت في الجزائر اللجان الصهيونية لتجنيد مهاجرين للاستيطان في فلسطين، وأقيم معسكر لاستقبال المهاجرين في الجزائر خلال الخمسينات.

وأرسلت إسرائيل ، إبان نضال شعب الجزائر العربي، مبعوثين، ربما كانت مهمتهما الاتصال بالصهاينة الجزائريين، لتكثيف الأنشطة الصهيونية هناك، إلا أن الثوار أعدموهما. وعشية استقلال الجزائر، وفي أعقاب التواطؤ بين اسرائيل وبريطانيا وفرنسا ضد مصر في حرب سنة ١٩٥٦، أظهر الصهاينة الجزائريون عداءهم للشعب العربي باحتفالهم بالذكرى العاشرة لقيام إسرائيل، وبعدها بعامين (سنة ١٩٦٠) احتفلوا بذكرى مولد هرتزل.

وشهدت المغرب ، هي الأخرى ، بعض النشاط الصهيوني، مثل الزيارات الدولية التي كان يقوم بها الصهاينة الفرنسيون، ونشر الكتابات الصهيونية الداعية إلى «الهجرة الجماعية لليهود المغاربة إلى الوطن» وهو ما يشير إلى أن اليهود في المغرب كانوا منعزلين، يعدون وجودهم هناك أمرا مؤقتا. ووصل التدخل الصهيوني في المغرب إلى درجة غير عادية حين قام بعض شباب اليهود بمظاهرة، ارتدوا أثناءها قبعات بيضاء محلاة بنجمة داود الزرقاء، ورددوا هتافات ضد الرئيس عبدالناصر خلال زيارته للمغرب(٢٣). ان كلّ هذه النشاطات الصهيونية لم تكن تهدف إلى الدفاع عن حقوق أعضاء الأقليات اليهودية في العالم العربي، وإنما كانت تهدف إلى خلخلة انتمائهم السياسي ووضعهم القانوني، وإلى استغلالهم لصالح الوطن القومي اليهودي.

واستغلال يهود العالم العربي يتضح في عمليات التجسس التي نظمتها الوكالة اليهودية، التي كانت تقوم بتجنيد العملاء الصهاينة من بين صفوف اليهود العرب. ففي العشرينات، كونت الوكالة اليهودية شبكة تجسس، كان لها فروع

في العالم العربي، تعمل سرا تحت ستار تنظيمات شرعية، مثل الأندية المكابية أو المنظمات الخيرية اليهودية الكثيرة. وفي الثلاثينات أنشأت الهاجاناه قسما للمخابرات برياسة موشي (شرتوك) شاريت أول رئيس وزراء لاسرائيل وأنشأت المخابرات الاسرائيلية (الموساد) سنة ١٩٣٧ مركزا لتدريب اليهود العرب على القيام بأعمال التجسس على مواطنيهم، وأطلق على هؤلاء الجواسيس اسم «الأولاد العرب».

وفي أعقاب قيام دولة إسرائيل، استمرت عملية تجنيد اليهود العرب للقيام بأعمال التجسس، وتخبرنا الموسوعة اليهودية أنه كانت هناك «حركة صهيونية سرية على درجة عالية من التطور» في مصر تعمل في خدمة الصهيونية(٤)، وكان من الشخصيات البارزة في هذه الحركة المواطن اليهودي/ المصري موشي مرزوق، الذي ولد في القاهرة سنة ١٩٢٦. وجاء في الموسوعة أنه بدلا من أن يرتبط الدكتور مرزوق ببلاده، فانه كان «على اقتناع بأن مستقبل جميع اليهود المصريين يكمن في الهجرة إلى أرض إسرائيل التاريخية». ونتيجة هذه القناعة كرس حياته لا للدفاع عن البلد الذي ولد فيه وتربى، بل «لتحقيق الأهداف الصهيونية»، فقام بتجنيد «اليهود الشبان» ليذهبوا إلى إسرائيل. وكان باستطاعته، هو نفسه، أن يغادر البلاد، ، لكنه «قرر ان يبقى في وظيفته بالمستشفى الإسرائيلي بالقاهرة، وأن يعمل من أجل إسرائيل. وكان من أصدقاء مرزوق شخص يدعى صمويل عزار، من مواليد الاسكندرية، حصل على منحة لدراسة الهندسة الالكترونية في الخارج، لكنه اختار «هو الآخر» - كما فعل مرزوق - أن يبقى في مصر ليؤدي مهمته(٢٥).

ومن بين أسوأ «المهمات» المشبوهة التي قام بها الصهاينة في مصر سرا تلك المهمة التي أصبحت معروفة باسم فضيحة لافون. ففي سنة ١٩٥٥ قام ثلاثة عشر يهوديا مصريا - بناء على تعليمات من اسرائيل - بوضع متفجرات في مكتبة المركز الاعلامي الأمريكي في القاهرة، وفي منشآت أخرى مملوكة لأمريكا وبريطانيا في القاهرة والاسكندرية.

وكان الهدف من هذه الأعمال خلق التوتر في العلاقات بين مصر وهاتين الدولتين الغربيتين. وكما أوضح يوري افنيري في كتابه إسرائيل دون صهاينة. كان المقصود من هذا التوتر تمكين العناصر الاستعمارية الرجعية في البرلمان البريطاني «من منع ابرام اتفاقية تنص على الجلاء عن قواعد السويس، وكذلك تقديم سلاح يستطيع معارضو تسليح مصر في الولايات المتحدة استخدامه». ولكن الهدف من العمليات التخريبية كان. قبل كل شيء، إضعاف مظهر نظام الحكم الثوري الجديد في مصر، وإظهار افتقاره إلى الاستقرار أمام العالم(٢٦). وقد ألقي على بعض العملاء الصهاينة متلبسين بالجريمة، الأمر الذي أدى إلى القبض على جميع المشتركين في المؤامرة. وكان المقبوض عليهم هم ماكس بنيت زعيم الشبكة، والدكتور مرزوق، وصمويل عزار، وعشرة آخرون، وأثناء المحاكمة تمكن اثنان من الهرب، وانتحر ماكس بنيت، أما الباقون، فقد برئت ساحة اثنين منهم، وصدرت أحكام بالسجن على سبعة، بينما صدر حكم بالإعدام على مرزوق وعزار، اللذين كانا يتزعمان شبكتي القاهرة والاسكندرية. وقد وجهت إلى مرزوق تهمة تنظيم مجموعة القاهرة، ووضع ترتيبات الاتصال اللاسلكي مع إسرائيل، بعد أن أمضى فترة تدريب هناك. أما عزار فقد اتهم بتزعم مجموعة الاسكندرية و «إدارة مصنع سري لتصنيع أجهزة التخريب»(٢٧).

وظلت فضيحة لافون تؤرق القيادة الإسرائيلية فترة طويلة بعد انتهاء محاكمات القاهرة. وقد أنكر بن جوريون مسئووليته عن إعطاء أوامر العملية، وألقى اللوم كله على بنحاس لافون، وزير دفاع اسرائيل في الفترة «١٩٥٣-١٩٥٤»، الذي أصر على براءته إلى النهاية. وعندما برأت لجنة تقصي الحقائق لافون، استقال بن جوريون من حزب الماباي الحاكم، وكون بالاشتراك مع بيريز وديان - حزب رافي. وبغض النظر عن الضجة السياسية داخل إسرائيل بشأن المسؤولية الشخصية عن الموضوع، فقد كان هناك اعتراف ضمني بتورط إسرائيل في فضيحة لافون حين منح اسم الدكتور مرزوق رتبة عسكرية في الجيش الإسرائيلي(٢٨)، واطلق عليه، هو وعزار، لقب «شهيدي القاهرة»(٢٩). وما

يهمنا من هذا السياق هو أن فضيحة لافون تسببت في تعقيد موقف اليهود المصريين.

لقد كانت محاولات تحقيق خلاص الشعب اليهودي بالقوة، باسم المثل الأعلى الصهيوني، مصحوبة، في حالات كثيرة، بالمآسي وأحيانا بالمجازر. ومن أمثلة هذا حادث الباخرة باتريا. فقد انفجرت السفينة- التي كانت تحمل لاجئين يهودا- في ميناء حيفا يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤٠ الأمر الذي أدى إلى مصرع ٢٤٠ لاجئا يهوديا و١٢ من رجال البوليس. ووصفت الوكالة اليهودية الحادث وقتئذ بأنه عمل من أعمال «الاحتجاج الجماعي»، أي «ماساداه» جديدة. وكان الحادث مبعث حرج للسلطات البريطانية التي كانت- بوحي من نظرتها إلى موضوع اللاجئين اليهود من منطلق إنساني لاسياسي- تنوي إرسال المهاجرين إلى إحدى المستعمرات البريطانية، في حين كانت الوكالة اليهودية تصر على دخولهم إلى فلسطين، وتوصلت لجنة التحقيق البريطانية، التي تكونت في يناير سنة ١٩٤١، إلى أن غرق الباخرة كان «من عمل جماعة صغيرة محددة تعمل من على الشاطىء دون اتصال بركاب السفينة» وأن تدمير الباخرة باتريا كان، في واقع الأمر، من فعل الصهاينة المتطرفين. ولكن كريستوفر سايكس يقول في كتابه «مفترق الطرق إلى إسرائيل» إن المسؤولية عن الحادث تقع على عاتق «الوكالة اليهودية ذاتها التي كانت تعمل من خلال الهاجاناه». وكان رجال الهاجاناه ينوون تفجير محرك الباخرة، حتى تضطر السلطات البريطانية إلى توطين المهاجرين في الوطن القومي، ولكنهم أغرقوا الباخرة بالكامل بشحنتهاالبشرية. و«لكي تغطي الوكالة اليهودية على هذه الوحشية، فانها لفقت قصة الانتحار الجماعي»(٣٠).

وعندما أشار زعيم الجالية اليهودية الألمانية في فلسطين، مجرد إشارة، إلى أن «قضية الانتحار الجماعي ليست إلا دعاية لامعنى لها»، جرت محاولة لاغتياله أثناء عودته الى منزله بعد حضوره اجتماعا عبر فيه عن شكوكه هذه(٣١). ومن المهم أن نبين أنه على الرغم من النتائج التي توصلت إليها لجنة التحقيق فقد واصلت وسائل الدعاية الصهيونية ترديد خرافتها عن الماساداه.

وقد نشرت المجلة اليهودية مورننج فريهايت -التي تصدر في نيويورك في عددها ٢٧ نوفمبر ١٩٥٠ ـ أن الأمر بتفجير السفينة أعطي إلى من كانوا على ظهر السفينة باتريا من أعضاء الهاجاناه(٣٢)، فقاموا بتنفيذه، ومن المعتقد أن الرجل الذي وضع القنبلة في السفينة أصبح «مسؤولا معروفا في ميناء حيفا».

وقد وقع حادث مماثل عندما انفجرت سفينة أخرى للاجئين اليهود قرب الساحل التركي، وهي السفينة ستروما. . ومن المعتقد أن الشخص الوحيد الذي نجا، «بمعجزة»، من الحادث كان ضابطا سابقا في الهاجاناه(٣٣).

وهذا الموقف العملي من المهاجرين اليهود متسق، لأقصى حد، مع الرؤية الصهيونية، فالصهيونية حركة تحاول إنشاء الدولة اليهودية، وليست نزعة إنسانية تسعى لانقاذ اليهود كبشر. وقد عبر بن جوريون عن هذه الحقيقة في رسالة، بعث بها إلى اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٧ ديسمبر ١٩٣٨، قال فيها «إنه إذا طغت الشفقة على نفوس اليهود، واتجهت كل طاقاتهم نحو إنقاذ اليهود من مختلف البلدان، فلن يؤدي ذلك إلى تلاشي نفوذ الصهيونية. . إننا إذا سمحنا لمشكلة اللاجئين اليهود بأن تنفصل عن. . هدف إقامة الدولة اليهودية نكون قد عرضنا وجود الصهيونية نفسه للزوال»(٣٤) ـ أي أنه كان على الصهيونية الاختيار بين الانسان اليهودي والمثال الصهيوني، فلم تتردد في اختيار الأخير ـ.

نقل السكان اليهود:

إن الرؤية الصهيونية، الخاصة بانعدام قيمة يهود الشتات، وحتمية معاداة السامية، تفترض أن اليهود سيعودون إلى أرض أجدادهم، لأن هذه العودة هي العلاج الأوحد «لمرضهم المتوارث»، ولأنها هي الحماية الوحيدة لهم من الأخطار الخارجية. ففي قرب نهاية القرن التاسع عشر بدأت موجات المهاجرين، من اليهود وغير اليهود، في ترك بلادهم، في روسيا وبولندا، وفي إيطاليا وفي إيرلندا، ليستوطنوا العالم الجديد وغيره من البلاد. واستقر ملايين اليهود في الولايات المتحدة، وخصوصا منذ سنة ١٨٨٠ فصاعدا، فجعلوا منها واحدا من أكبر المراكز

الروحية لليهودية، ولم يذهب إلى فلسطين إلا بضعة آلاف، حتى بعد وضعها تحت الانتداب البريطاني.

وعندما قامت الدولة الصهيونية سنة ١٩٤٨، بعد ستين سنة من الهجرة الصهيونية المنظمة، لم يكن في إسرائيل غير حوالي ٨٠٠ ألف يهودي. ولأن الهجرة التلقائية لم تتم، كان لابد من أن يتم النقل الأول للسكان اليهود من المنفى إلى أرض الميعاد برغم أنوفهم وقد سنحت الفرصة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، حين كانت معسكرات المرحلين في أوروبا تعج باليهود الذين لم يكونوا، بالضرورة، راغبين في الاستيطان في فلسطين. . وقد كشفت إحدى استطلاعات الراي- الذي نشرته صحيفة نيويورك تايمز ١٩٤٨- النقاب عن الهجرة إلى الولايات المتحدة لا إلى فلسطين، نظرا للمحن التي اجتازوها، ونظرا للصراع المسلح الذي كان دائرا وقتها في فلسطين. وقد مارس الصهاينة اقصى أنواع الضغط على نزلاء معسكرات المرحلين لاقناعهم باستيطان فلسطين. ومن بين أساليب الضغط التي اتبعوها «الحرمان من حصص الطعام»، والطرد من العمل، وحرم المنشقون والمعارضون من «الحماية القانونية، ومن حق الحصول على تأشيرة للسفر، وكانوا، في بعض الأحيان، يطردون من المعسكرات كليا»(٣٥).

ومحاولة نقل اليهود من المنفى، مهما كان الثمن، وبغض النظر عن مدى رغبة اليهود أنفسهم في ذلك، تتمثل في الحملة الصهيونية الخاصة «بانقاذ» اليهود السوفيت، فهذه الحملة تتجاهل، عن عمد، الكثير من التعقيدات التي تشوب موقفهم. فهناك أولا كون اليهود السوفيت مواطنين للدولة التي لاتزال- برغم الوفاق- مشتبكة في صراع أيديولوجي واقتصادي، بل وعسكري أحيانا «وإن كان بشكل غير مباشر» مع الولايات المتحدة وحلفائها. وأي حملة يشنها المجتمع الأمريكي- لن تكون في صالح اليهود السوفيت بالضرورة. ولم تغب هذه النقطة عن أحد اللاجئين السوفيت الذي وصف المهاجرين السوفيت بأنهم «قطع

شطرنج في مباراة بين الاتحاد السوفياتي وبين الولايات المتحدة وإسرائيل». «وربما كان بمقدور المرء أن يضيف : والصهاينة الأمريكيين الذين يلعبون دور (السماسرة) المحرضين»(٣٦).

وبالإضافة إلى هذه الاعتبارات المتعلقة بالسياسة الدولية، ينبغي أن نتذكر العوامل الداخلية، الاقتصادية والثقافية، المتعلقة بهيكل المجتمع السوفياتي نفسه، فالاتحاد السوفياتي يتكون من عدة قوميات مختلفة تقوم على توازن غير مستقر. وأي دعوة انفصالية قومية لابد ـ على الاقل من جهة نظر المسؤولين السوفيات وقطاع يعتد به من المثقفين السوفيات ـ من أن تؤدى إلى إشاعة عدم التوازن في هذا الهيكل الضعيف، والصهيونية تشكل مثل هذا التهديد. ويقول السوفيات: إن استمرار الدعوة الصهيونية الانفصالية من شأنه أن يؤدي إلى زيادة حدة المشاعر الانقسامية، بل اثارة المشاعر المعادية للسامية، وسواء وافق المرء على هذا الرأي أم رفضه، فمن الواجب وضعه في الاعتبار لأن اليهود السوفيات يعيشون في مجتمع يلقى هذا الرأي فيه قبولا لدى كثير من المسؤولين والمواطنين العاديين.

اننا نجد الكثيرين ينسون أن الاتحاد السوفياتي، قبل كل شيء، لايزال ـ في بعض نواح هامة ـ «دولة نامية» تحتاج إلى جميع مواردها البشرية. والأقلية اليهودية هناك هي من الموارد الهامة إذ يوجد بينها أعلى نسبة من المتخصصين والخبراء بين جميع الأقليات القومية السوفياتية. وسياسات الهجرة السوفياتية ـ التي أملتها احتياجات البلاد السياسية والاقتصادية ـ تنطبق بالدرجة نفسها على «جميع» المواطنين السوفيت، بغض النظر عن ديانتهم أو جنسهم أو «انتمائهم القومي». وتعتبر الهجرة في الاتحاد السوفياتي عملا من أعمال الخيانة، وينظر السوفيات إلى أولئك الراغبين في الهجرة على أنهم هؤلاء الذين كانوا يرغبون في البقاء في مجتمعهم ليحصلوا على درجة عالية من الخبرة في عملهم، ثم عندما يحين الوقت ليخدموا بلادهم بما اكتسبوه من خبرة، فإذابهم يتجهون إلى الولايات المتحدة ليشتروا «سيارة أفضل». وهذه النظرة للمهاجر الممتاز شائعة للغاية في الدول

النامية، وقد تفسر لنا «لم لايتعرض المهاجرون اليهود للاضطهاد إلا بعد طلبهم تأشيرة الخروج» (٣٧) .

إن حملة التهييج الصهيونية بالنيابة عن اليهود السوفيات، لأنها حملة أيديولوجية لاإنسانية، لاتضع مثل هذه الأمور في حسابها. فلو كانت الحملة تعبيرا عن نزعة إنسانية واهتمام حقيقي باليهود السوفيت، الأفراد والكيان الثقافي، لطالبت بتحسين موقف جميع الأقليات والقوميات السوفيتية، بما في ذلك اليهود، وهم في وطنهم. لكن هدف النضال الصهيوني هو نقل السكان، وهذه هي الاستراتيجية الصهيونية منذ البداية. وقد عبر ليفي أشكول عن هذا بقوله: «نحن لاتناضل الآن من أجل الحقوق اليهودية في الشتات» (٣٨)، وإنما من أجل يهود الشتات أنفسهم، وهذا بالطبع يتناقض تماما مع الخطة التي يفترضها المفكر اليهودي الأمريكي أ. ف. ستون الذي يقترح حث الاتحاد السوفياتي على القضاء على معاداة السامية، وعلى منح اليهود الدرجة نفسها من الاستقلالية الثقافية الممنوحة للقوميات الأخرى، بدلا من التهييج ضد السوفيت، بهدف نقل اليهود خارجه(٣٩).

على أي حال فإن خطة نقل اليهود السوفيت إلى إسرائيل بدأت تفقد، تدريجيا، الأرض التي تقف عليها، لأن أكثر من ٥٠ في المائة، «بل ٨٠٪ أحيانا» من المهاجرين السوفيت يفضلون الذهاب إلى الولايات المتحدة، رافضين «شرف» الذهاب إلى الأرض التاريخية القومية(٤٠). وقد أدى ارتفاع معدلات تخلف المهاجرين السوفيت عن الاستيطان في إسرائيل إلى خلق توتر وتصادم في العلاقات بين مختلف المنظمات الصهيونية. ويتركز الجدل المرير على مدى مشروعية إعطاء مساعدات للمهاجرين السوفييت الذين يختارون الاستقرار في الولايات المتحدة بدلا من اسرائيل. ففي يوليو سنة ١٩٧٦ عرض على مجلس الوكالة اليهودية اقتراح يقضي بأن توقف الجمعية العبرية لمساعدة المهاجرين ولجنة التوزيع المشتركة «مساعداتها الادارية والمالية عن المتخلفين»(٤١) .

ونقل السكان اليهود يمكن أن يتخذ أشكالا أكثر عنفا، ففي إحدى

المناسبات قال كاتب بصحيفة دافار، كبرى الصحف الصهيونية العمالية، إن الأمر لوكان بيده لبعث مجموعة من الشبان الصهاينة الاسرائيليين المتحمسين ليتولوا مهمة تحقيق الخلاص القسري ليهود الشتات المتفرقين، بأن يتخفوا ويثيروا ذعر اليهود، باطلاق نعوت وشعارات معادية للسامية، مثل «اليهود الملاعين» و «أيها اليهود اذهبوا الى فلسطين»(٤٢) .

وقد وصف أ. ف. ستون إحدى الجوانب الهامة في الصهيونية بقوله إن الحركة الصهيونية «تترعرع على مأسي اليهود»(٤٣) . وقد أظهرت التجربة أنه عندما لايتفق الواقع مع الرؤية الصهيونية، أي عندما لايوجد العدد الكافي من الكوارث، فإن الواقع يتم تغييره ليتفق مع الرؤية، وهذا تقريبا ماحدث ليهود العراق.

ونحن لاندعي أن يهود العراق كانوا يحيون حياة مثالية. ففي الأربعينات كان المجتمع العراقي يمر بمرحلة انتقالية، وكانت هناك صعوبات تكتنف حياة جميع الاقليات الدينية أو العرقية هناك، بما فيها الأقلية اليهودية، وفي سنة ١٩٤١ قامت مظاهرات معادية للجالية اليهودية، وإن كانت «الأولى من نوعها»، كما تقول موسوعة الصهيونية وإسرائيل(٤٤). ولكن، في النهاية، كان لليهود العراقيين نصيبهم العادي من السعادة والشقاء، ففي ديسمبر ١٩٣٤ أرسل السيرف. همفري، السفير البريطاني في بغداد، برقية سرية إلى وزارة الخارجية البريطانية قال فيها: إن الجالية اليهودية في العراق تتمتع «بوضع موات أكثر من أي أقلية أخرى في البلاد»، وأوضح أنه ليس هناك «عداء طبيعي بين اليهود والعرب في العراق»(٤٥)، ويبدو أن تقرير السفير البريطاني كان دقيقا بصفة عامة، فيهود العراق كانوا مؤمنين بأنهم عراقيون، اساسا، يرجع نسبهم إلى أيام النفي البابلي، وكان عدد كبير منهم يتمتع برخاء نسبي.

وكانت نسبة قيد الصغار من يهود العراق في المدارس والكليات أعلى كثيرا من النسبة العامة في البلاد، فقد اوضح رافي نيسان، اليهودي العراقي الذي هاجر إلى إسرائيل واستوطن فيها، أنه على الرغم من أن اليهود العراقيين تركوا

ممتلكاتهم خلفهم في العراق، إلا أنهم أتوا معهم بشيء أكثر أهمية «من المال، وهو خبرتنا وعلمنا» ـ على حد تعبير ـ فثلث المهاجرين من يهود العراق تلقوا تعليما أحد عشر عاما على الأقل وهي نسبة تعلو حتى على النسبة المقابلة بين أولئك القادمين الجدد (إلى الدولة الصهيونية) من أوروبا وأمريكا. وأضاف رافي أن «اكثر من ٨٠ في المائة من أرباب الأسر المهاجرة كانوا من الحرفيين المهرة وأصحاب المحلات والمديرين والمحامين والموظفين والمعلمين»(٤٦). وهذا أبعد مايكون عن صورة الأقلية المضطهدة.

وفيما يتعلق بمقدار المشاركة في الحكومة والسلطة، فقد أعلنت الحكومة العراقية «حرية الدين والتعليم والتوظيف ليهود بغداد الذين لعبوا دورا هاما للغاية في تحقيق رخاء المدينة وتطورها». وكان هناك ستة أعضاء يهود في البرلمان العراقي(٤٧)، وعلى الرغم من هذا السلام والاستقرار اللذين كانت تتمتع بهما الأقلية اليهودية قرر الصهاينة جعل العراق هدفا لنشاطهم ـ مثلها في هذا مثل ليبيا ومصر وفلسطين ـ كانت، هي الأخرى، مطروحة في وقت من الأوقات هدفا محتملا لخطة الاستيطان الصهيوني، الأمر الذي كان كافيا في حد ذاته لاثارة التوتر بين أغلبية السكان والأقلية اليهودية، وعندما اقتصرت المخططات الاقليمية الصهيونية على فلسطين (وتخومها) تحولت الأنشطة الصهيونية عن أرض العراق، وتركزت على يهود العراق، فأسس آهارون ساسون، سنة ١٩١٩ جمعية في بغداد تدعى «اللجنة الصهيونية»(٤٩). وأنشأت هذه المنظمة فروعا لها في عدة مدن عراقية (نحو ١٦ فرعا)، بل أرسلت وفدا عنها إلى المؤتمر الصهيوني الثالث عشر الذي عقد سنة ١٩٢٣(٥٠)، كما قامت بتنظيم جماعات شبابية لاعداد الشباب المهجرين، وقامت بطبع عدة نشرات شهرية بالعبرية والعربية، وأسست مكتبة صهيونية(٥١). وكان الصهاينة يقومون أحيانا ـ بغرض تسميم العلاقات بين يهود العراق وباقي الشعب العربي العراقي ـ بتوزيع منشورات في المعابد تحتوي على شعارات مهيجة، مثل «لاتشتروا من المسلمين»، متعمدين أن تصل هذه المنشورات إلى أيدي المسلمين(٥٢). ونجحت الدعاية الصهيونية، إلى حدما،

في بذر الشقاق و المرارة ، كما ألمح السفير البريطاني في برقيته سنة ١٩٣٤، وبين أن منع النشرات الصهيونية من الصدور قد يكون في «صالح اليهود أنفسهم»(٥٣).

ويبدو أنه، برغم الجهود الصهيونية، وبرغم تشاؤم السفير البريطاني، فإن يهود العراق لم يكونوا منعزلين تماما عن وطنهم. فبعد النشاط الصهيوني بفترة طويلة في العراق، وبعد مظاهرات ١٩٤١ المؤسفة، استأنف اليهود العراقيون ـ بجذورهم الثابتة في البلاد ـ حياتهم الطبيعية، فأقاموا حيا يهوديا، واستثمروا مبالغ ضخمة في مجال البناء في مدينة بغداد. فقد جاء في كتاب لمؤلفة إسرائيلية «أن المبعوثين الصهاينة في العراق أدركوا أن الأيديولوجية الصهيونية لن تلقى قبولا في معظم الدوائر اليهودية». وقد حاول أحد هؤلاء المبعوثين تجنيد أتباع من بين المثقفين «إلا انه فشل»(٥٤). ثم جاء قيام الدولة الصهيونية والهزيمة العربية، الأمر الذي أدى، كما هو متوقع، إلى تعقيد الأمور بالنسبة للجميع. فقد أعفى اليهود العراقيون، الذين كانوا يتولون مناصب تتطلب الاتصال بدول أجنبية، من مناصبهم(٥٥). وباستثناء مثل هذه الحالات، فان رد الفعل العراقي كان يتسم بضبط النفس إذا ما أخذنا في الحسبان أبعاد الموقف.

وعلى الرغم من النشاط الصهيوني المكثف داخل العراق، وعلى الرغم من تورط بعض يهود العراق البارزين في هذا النشاط، إلا أنه لم تنشأ حالة هستيريا شعبية من ذلك النوع الذي يجتاح الرأي العام عادة في زمن الحرب، وبصفة خاصة في أعقاب الهزيمة. وقد قال كبير حاخامات العراق للحاخام بيرجر سنة ١٩٥٥ : «إننا نسمع أنكم، في الولايات المتحدة، لم تعاملوا مواطنيكم اليابانيين معاملة طيبة أثناء موجة الانفعال العاطفي التي أعقبت بيرل هاربر»(٥٦)، وكان يشير بذلك إلى اعتقال آلاف من الأمريكيين اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية.

لقد كان من الممكن أن تنتهي المتاعب وقتها، سنة ١٩٤٨، وكان من الممكن أن يستأنف يهود العراق حياتهم بدرجات مختلفة من التوتر والتوافق، وكان الزمن

كفيلا بجعل الجروح تلتئم. غير أن الصهاينة كان لديهم مخطط مختلف عن هذا، فقد كانت هناك خطوات أساسية لابد من اتخاذها بهدف تحقيق الخلاص «لمائة وثلاثين ألف يهودي ولتحسين موقف إسرائيل في الوقت نفسه، من حيث عدد السكان»(٥٧). ونحن نعرف من مصادر صهيونية أن حركة صهيونية سرية- مثل تلك التي كانت تعمل في مصر- قد تأسست في العراق سنة ١٩٤٢. وأعطيت المنظمة الجديدة اسم «حركة الرواد البابليين»، وبدأت في تعليم الشبان اليهود كيفية استخدام الأسلحة النارية وتصنيع المتفجرات(٥٨). وكونت الحركة السرية جيبا شبه مستقل داخل العراق، كانت له اسلحته ومجندوه. وفي سنة ١٩٤٧ كتب إيجال آلون، قائد البالماخ، رسالة إلى دان رام وصفه فيها بأنه «قائد جيتو العراق»(٥٩). وقامت الهاجاناه بتهريب الأسلحة- من بنادق ودخائر وقنابل- إلى العراق(٦٠). وقال آلون في رسالته إلى دان رام إن الهدف من إرسال هذه الأسلحة هو «تشجيع كل أشكال الهجرة»(٦١).

ولكن ما هذا التعبير الغامض؟ وما الهدف من كل هذه الاسلحة؟؟. أو كما قال حاخام عراقي سنة ١٩٥٥: «ماالذي كان يراد من كل هذه الأسلحة؟ (التي عثر عليها فيما بعد) هل كنا سنحارب العراق كله بها، هذا على افتراض أن ولاءنا كان متجها لإسرائيل، وهو، مالم يكن كذلك في الواقع»(٦٢). هذا التساؤل الذي طرح عام ١٩٥٥ كان له مايسوغه، وكان من الممكن أن يظل دون إجابة لولا تكشف بعض القرائن.

شهدت بغداد عددا من الحوادث سنة ١٩٥٠. فقد ألقيت شحنة ناسفة داخل مقهى، اعتاد المثقفون اليهود الاجتماع فيه، ثم انفجرت قنبلة في المركز الإعلامي للولايات المتحدة. ومرة أخرى نجد أن هذا المركز كان مكانا اعتاد الشباب- اليهود منهم خاصة- أن يجلسوا فيه ويقرأوا، وعندما انفجرت قنبلة ثالثة في معبد ماسودا شيمتوف أودى الحادث بحياة صبي يهودي، كما فقد رجل يهودي إحدى عينيه. لاشك أن المؤرخين الصهاينة كانوا سيصورون هذه الفترة على أنها مذبحة

أخرى ضد اليهود، لولا أن النقاب أزيح، بطريق الصدفة، عن مخطط صهيوني منظم للأعمال الاستفزازية(٦٣).

ومن اليهود الذين ظنوا أن الانفجارات كانت من صنع العرب يهودي عراقي يدعى كوخافي، أصبح فيما بعد مواطنا إسرائيليا، وعضوا بجماعة الفهود السوداء. لكنه قال إنه سمع إشاعة تتردد في إسرائيل. (بعد أن كان أفراد الأقلية اليهودية العراقية جميعهم، تقريبا، قد هاجروا إلى الدولة الصهيونية) مفادها أن الحادث كان من فعل عميل صهيوني. «وقد نشر هذا الموضوع أيضا في الصحف، ولم ينفه أحد»(٦٤).وربما كان كوخافي يشير بهذا إلى المقال الذي نشرته صحيفة هاعولام هازيه، يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٦٦، والتقرير الذي نشرته مجلة الفهود السوداء، يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٧٢ اللذين أعادا ترتيب الحوادث التي وقعت أثناء المذابح الصهيونية المنظمة، وأزاحا النقاب عن الحقيقة البشعة بأكملها.

ففي سنة ١٩٥١، أي بعد الانفجار الغامض مباشرة، شاهد لاجيء فلسطيني من عكا، كان يعمل في أحد المحلات الكبيرة في بغداد، وعرف أنه يهودا ناجر، الضابط بالحكومة العسكرية الاسرائيلية في عكا. فأبلغ اللاجيء الشرطة عن وجود الضابط الاسرائيلي، الذي قبض عليه، ومعه شالوم تزالاه وخمسة عشر آخرون من أعضاء المنظمة السرية الصهيونية. وكشف تزالاه أثناء التحقيق عن حقيقة المخطط الصهيوني، وأرشد الشرطة العراقية إلى مخابيء الأسلحة في المعابد(٦٥). وقد حوكم العملاء من أعضاء المنظمة الصهيونية السرية بتهمة محاولة «اثارة ذعر اليهود العراقيين لدفعهم للهجرة الى اسرائيل».وصدر الحكم بالاعدام على اثنين من هؤلاء العملاء ،وبالسجن مددا طويلة على الباقين. وقال محام عراقي (من مواطني تل أبيب الآن) : «لقد كانت الأدلة من القوة بحيث لم يكن شيء ليمنع صدور الأحكام».ويحاول قدوري سليم- المواطن الاسرائيلي واليهودي العراقي الذي فقد عينه في حادث معبد شيمنوف- الحصول على تعويض من الحكومة الاسرائيلية(٦٦).

إن إغراق السفن التي تحمل المهاجرين، والتضييق على اليهود السوفيت، وقلقلة الوضع القانوني ليهود الغرب والشرق، وإرهاب الأقليات اليهودية في العالم العربي هي كلها أشكال من العنف الصهيوني الموجه ضد يهود العالم لحملهم على الهجرة لوطنهم القومي المزعوم.

الصهيونية والنازية :

كل هذه النشاطات الصهيونية هي تعبير عميق عن العنصرية الصهيونية ضد يهود المنفى، اي ضد كل يهود العالم، باستثناء الأقلية الأشكنازية التي توجد في الشرق الأوسط على الأرض العربية، ولكنْ ثمة جانب هام، (وغير معروف) من الفكر والممارسة الصهيونية، يعبر عن هذه العنصرية، لم يوف حقه من الدراسة بعد، اعني علاقة الصهيونية بالنازية. وأعترف، ابتداء، بأن الموضوع يثير الكثير من الدهشة، لأننا نشأنا في عالم يتحدث عن الإبادة النازية لليهود، ورأينا الكثير من الأفلام، وقرأنا كثيرا من الدراسات التي تتناول هذا الموضوع، بعضها بشكل فني مركب، والآخر بشكل دعائي ساذج، ولكن الأغلبية العظمى من هذه الأفلام والدراسات تبين حقيقة حجم الجريمة النازية ضد الاقليات اليهودية في أوروبا، وتؤكدها، وهي جريمة، دون شك، أقل ماتوصف به أنها شيطانية، ولكن هذا النتاج يتجاهل، في الوقت نفسه، عدة عناصر هامة نذكر منها العناصر التالية:

١ ـ أن الاقليات اليهودية لم تكن هي وحدها ضحية العنف النازي الذي نزل بكل الشعوب غير الآرية. فالشعوب السلافية أبيد منها الملايين أيضا، وأبيد أعضاء قبائل الغجر الذين وقعوا في براثن النازيين، كما أبيد كثير من العجزة والمرضى الألمان، ويقال إنه كانت توجد فصائل خاصة للابادة تصاحب الفرق الالمانية المحاربة لابادة الجنود الألمان الذين يقعون جرحى ولايؤمل شفاؤهم.

٢ ـ تهمل هذه الدراسات إبراز حقيقة أن النازية لم تكن انحرافا عن الحضارة الغربية، وإنما هي تيار أساسي فيها كالصهيونية تماما:

أ ـ فالحضارة الغربية حضارة تكنولوجية تعلي من قيم المنفعة والكفاءة والانجاز والتقدم مهما كان الثمن المادي والمعنوي المدفوع فيها، وترى أن البقاء للأصلح والأقوى دائما، وتهمل كثيرا من القيم التقليدية البالية، مثل البر بالضعفاء والشهامة والتقوى ومساعدة الآخرين ،والنازية حينما أبادت اليهود والعجزة قد كانت تفعل ذلك لانهم «غير نافعين». وموضوعة تحويل اليهود إلى شعب منتج ـ كما بينا من قبل ـ كانت مطروحة في أوروبا، في شرقها ووسطها خاصة «وكان عدد كبير من يهود ألمانيا» «ايست يودين» أي من يهود شرق أوروبا الذين لفظهم الجيتو، والذين لم تستوعبهم مجتمعاتهم أو أي من المجتمعات الأوروبية الأخرى، نظرا لتخلفهم الحضاري والاقتصادي. وقدحاولت ألمانيا التخلص من هذا الفائض الإنساني غير النافع بارساله في قطارات الى بولندا التي رفضتهم، كما رفضهم كثير من الدول الأخرى، بما في ذلك الولايات المتحدة التي لم توافق على فتح أبواب الهجرة أمامهم. إن العالم الغربي، برفضه لهؤلاء اليهود، أبد ضمنيا الجريمة النازية ووافق على منطلقاتها الفلسفية، حتى وإن لم يوافق على الشكل المتطرف الذي اتخذته.

ب ـ ويجب أن نتذكر أن الحل النازي للمسألة اليهودية لايختلف كثيرا عن الحلول الغربية الامبريالية المطروحة للمشاكل المماثلة. فالنازية والامبريالية تصدران عن الايمان بتفوق الجنس الآري على الأجناس الأخرى، وان هذا التفوق يعطي الحق للآريين في أن يتخلصوا من مشاكلهم عن طريق تصديرها للبلاد الأخرى، حتى ولو أدى هذا إلى إبادة السكان الأصليين. والحل النازي لايختلف عن ذلك، فهو محاولة لتصدير المسألة اليهودية إلى الدول الأوروبية الأخرى (حيث إن المجال الحيوي للاستعمار النازي كان في أوروبا). فالنازيون، حين وجدوا أن الطريق مسدود أمامهم، قاموا بتصدير اليهود (والغجر والسلاف) لمعسكرات الاعتقال لابادتهم هناك. إن الجريمة النازية هي نتاج منطقي للحضارة الغربية الحديثة، وليست استثناء منها.

ج- وثمة ظاهرة مشتركة بين النازيين والصهاينة (وهي أيضا سمة اساسية للحضارة الغربية) هي عقلانية الاجراءات والوسائل، لا عقلانية الهدف، وقد أشار ماكس فيبر لهذه الظاهرة في كتاباته، فعملية العقلنة، او الترشيد التي يتحدث عنها تنصب على الوسائل والأدوات فحسب، أما الأهداف فهي أمر متروك لاختيار الأفراد. ومعسكرات الاعتقال والتعذيب، سواء في ألمانيا النازية أم في إسرائيل الصهيونية هي مثال جيد على هذا الجانب في الحضارة الغربية. فهذه المعسكرات منظمة بطريقة «منهجية» تحسب فيها حسابات المكسب والخسارة، وتحسب المدخلات والمخرجات. حتى التعذيب لايتم بشكل عشوائي فردي وإنما يتم بشكل مؤسسي منظم (انظر الفصل التاسع ، الذي يتناول طرائق التعذيب الصهيونية) . ويقال انه حتى حينما كان اليهود في طريقهم إلى غرف الغاز لم يكن مسموحا للجنود الألمان باساءة معاملتهم، فعملية الابادة، هذا النتاج الرائع لحضارة العلم والتكنولوجيا، يجب أن تتم بحياد علمي رهيب، يشبه الحياد الذي يلتزمه الانسان تجاه المادة الصماء في التجارب المعملية التي تتخطى حدود الخير والشر. أما الهدف من معسكرات الاعتقال والابادة والتعذيب، أما المضمون الأخلاقي لهذه الأشياء ومدى عقلانيتها من منظور إنساني (لأن فكرة العقل والعقلانية لاوجود لها خارج فكرة الانسان)، فكل هذا متروك للزعيم أو للدولة أو للأهواء الشخصية أو للأسطورة الدينية القومية، ولعل هذا التزاوج بين العقلانية واللاعقلانية ناجم عن أن الحضارة الغربية الحديثة نتاج حركة التنوير العقلانية، والحركة اللاعقلانية المعادية للتنوير في الوقت ذاته، وهي أيضا نتاج انفصال النزعة الامبريقية عن النزعة العقلية، فالتجريب لايؤدي بالضرورة الى انتصار العقل والقيم الانسانية.

ولعل أكبر دليل على أن النازية جزء أصيل من الحضارة الغربية هو أن الرد الغربي على معسكرات الاعتقال والإبادة لليهود لم يكن مغايراً، في بنائه وفي سماته الجوهرية، للجريمة النازية. فالغرب يحاول حل المسألة اليهودية بانشاء الدولة

الصهيونية على جثث الفلسطينيين، وكأنه يمكن أن تمحى جريمة أوشويتز بارتكاب جريمة دير ياسين. أو مذبحة بيروت. والغرب الذي أفرز هتلر وغزواته هو نفسه الذي نظر باعجاب إلى الغزو الاسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت وانحاء أخرى من العالم العربي، وهو الذي ينظر بحياد وموضوعية للجريمة التي ارتكبت والتي ترتكب يومياً ضد الشعب الفلسطيني. إن الحضارة الغربية الحديثة قد أفرزت الامبريالية والنازية والصهيونية، وهي إذ تتنكر الآن للنازية فهذا أمر مفهوم، لأن أبعاد الجريمة والفضيحة ضخمة (خصوصا أن الجريمة ارتكبت ضد الشعوب الأوروبية)، ولكن يجب ألا يُخفى هذا الوضع عن أنظارنا، أو عن أنظار الآخرين، الحقيقة الأساسية التي تؤكد أن النازية جزء أساسي من الحضارة الغربية.

٣ ـ تهمل الدراسات الغربية للظاهرة النازية التشابه الفكري والتعاون الفعلي بينها وبين الصهيونية. وسأحاول في بقية هذا الفصل أن القي الضوء على بعض جوانب هذا الموضوع (لأن النقطتين الأولى والثانية تقعان خارج نطاق هذه الدراسة). أقول «القي الضوء» لأن القضية تحتاج إلى المزيد من الدراسة المكثفة، والاطلاع على المصادر والوثائق الموجودة في كل أنحاء العالم، والتي يمكن تجميعها واستخلاص النتائج منها.

وعلى الرغم من أن هذا الموضوع يثير الآن شيئا من الدهشة إلاأن الأمرلم يكن ذلك في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، فكثير من المستوطنين الصهاينة كانوا يكنون الاعجاب للنازية، وأظهروا تفهماً عميقاً لها ولمثلها ولنجاحها في «إنقاذ» ألمانيا(٦٧). بل عدوا النازية حركة «تحرير وطني»(٦٨). (ربما مثل الصهيونية) التي تزعم الآن أنها، هيَ الأخرى، حركة تحرير وطني)، ولذا كان الشباب الصهيوني والمراجعون يهتفون «ألمانيا لهتلر، إيطاليا لموسليني، وفلسطين لجابوتنسكي»(٦٩). وقد سجل حاييم كابلان، وهو صهيوني كان موجوداً في جيتو وارسو أثناء حصار النازي إياها، أنه «لا يوجد أي تناقض بين رؤية الصهاينة والنازيين للعالم فيما يخص المسألة اليهودية، فكلتاهما تهدف إلى الهجرة، وكلتاهما

ترى أن لا مكان لليهود في الحضارات الأجنبية» وقد سجل كابلان أن هذه الكلمات كانت جديدة على النازيين تماما، وأنهم لم يصدقوا آذانهم حينما سمعوها لأول مرة من أحد اليهود المحاصرين(٧٠).

لقد ادرك الصهاينة طبيعة العلاقة بين النازية والصهيونية، وهي علاقة ذات جذور مركبة يمكن أن نعود بها إلى عدة عوامل من بينها الأصول الألمانية للزعامات الصهيونية. فهرتزل ونوردو كانا يكتبان بالألمانية ويتحدثان بها، وكانا ملمين بالتقاليد الحضارية الألمانية ويكنان لها الاعجاب. أما بخصوص الزعماء الصهاينة من شرق أوروبا فلغتهم كانت اليديشية، وهي رطانة ألمانية أساسا، كما كان اليهود معجبين للغاية بالحضارة البروسية النوردية أو الآرية، ولا يكنون احتراماً كبيراً للحضارات السلافية. ومن المعروف أنه حينما دخلت الجيوش الألمانية روسيا، أثناء الحرب العالمية الأولى، قد خف اليهود الروس لاستقبالها، بوصفها محررة ومنقذة لليهود(٧١). ولعله لم يكن من قبيل الصدفة أن لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى كانت الألمانية. وأن هذه اللغة كانت تمثل تحديا حقيقيا للعبرية حينما نوقشت مسألة لغة الوطن القومي، ونشب ما يسمى «حرب اللغة» في المستوطن الصهيوني. ولعله ليس من قبيل الصدفة أيضا أن هرتزل ـ أثناء بحثه اللاهث عن قوة استعمارية تتبنى مشروعه الإستيطاني ـ توجه، في بادىء الأمر، إلى قيصر ألمانيا. وتزخر مذكرات هرتزل بعبارات الاعجاب والاشادة ببروسيا وبعبقريتها. بل إن جولدمان يرى أن هرتزل قد وصل إلى فكرته القومية من خلال معرفته الفكر والحضارة الألمانية(٧٢).

وقد يكون من التبسيط أن نتحدث عن الفكرين الصهيوني والنازي على أنهما قد تأثرا بالفكر الرومانتيكي الألماني بدرجة واحدة، فمن الواضح أن هذا الرافد الفكري قد أثر في الفكر النازي بشكل مباشر عميق، وأثر في الفكر الصهيوني بشكل أقل مباشرة، وربما أقل قوة، ومن الواضح أيضا أن الفكر الصهيوني، نظرا لانتقائيته، قد تأثر بأنساق فكرية خارج الفكر الرومانسي الألماني، فقد أثرت أفكار تولستوي في جوردون، كما ترك الفكر الماركسي بعض الأثر السطحي على

بوروخوف، أما في حالة هوراس كالن وبرانديز فقد تأثرا بالليبرالية والبرجماتية. ولكن هذا كله لا ينفي أن الفكر الرومانتيكي الألماني، وفكرة الحركة الجرمانية الجامعة قد تركا أثرهما القوي والعميق أحيانا على بنية الفكر الصهيوني ذاتها، الأمر الذي يفسر التشابه البنيوي بين الفكرين. وان كان يجب ألا ننسى أن ثمة مصادر فكرية مشتركة أخرى بين الفكرين (أساطير العهد القديم وتحويلها من أساطير دينية إلى عقائد سياسية ـ الفكر الامبريالي ـ النظريات العرقية) ولكننا سنركز في هذا الفصل على الجوانب التي تعود أصولها للفكر الرومانتيكي الألماني فحسب.

ولعل أهم الأفكار الأساسية في الفكر الألماني الرومانتيكي هو رفضها العقل الإنساني وفعاليته. بوصفه أداة ناقصة قاصرة عن فهم العالم وتغييره (والفكر الرمانتيكي الألماني هو ذروة الفكر المعادي للتنوير). وبدلا من العقل تحل الرومانتيكية فكرة الخيال، والحدس، والعقل الجمعي، والماضي المشترك، والجماعة العضوية. والصهيونية ـ هي الأخرى كما ذكرنا من قبل ـ جزء من هذه الحركة الرومانتيكية اللاعقلانية. فالكتابات الصهيونية تموج بالاشاارت التي تغلب العاطفة على العقل، واللاوعي على الوعي، والمطلقات الصوفية على الظواهر التاريخية الإنسانية. يقول العالم اللغوي الصهيوني اليعازر بن يهودا (١٨٥٨ ـ ١٩٢٣) «يتحرك قلب الإنسان بالعاطفة وليس بالعقل.. لأن قلب الانسان رقيق يمكن التغلب عليه بمثل هذه العاطفة»(٧٣). أما موسى هس، فيلسوف النكسة التي صدرت عنها الصهيونية، فهو في عودته لشعبه يعود لعاطفته «لقد تبين لي أن العاطفة التي ظننت أني قد كبتها عادت إلى الحياة من جديد.. تأججت هذه العاطفة نصف المخنوقة في صدري محاولة التعبير عن نفسها»(٧٤). وهو يحدد هذه العاطفة بأنها عاطفة صوفية، «إنها التفكير في قوميتي التي ترتبط برباط لا تنفصم عراه بتراث أسلافي، وبالأرض المقدسة، وبالمدينة الخالدة» وما إلى ذلك من أشياء سرمدية!. وهو يعي تماما «لاعقلانية» موقفه الجديد، إذ يؤكد أن العودة هي عودة لمجرى التاريخ اليهودي «الذي أهمله العقلانيون كثيرا»، وان

استمداد «الإلهام من منابع اليهودية الرئيسة»، «سيوقظ في الافئدة اليهودية الروح الوطنية، التي تحلى بها الأنبياء والحاخامات»، وفي هذا خير رادع للعقلانية الهدامة(٧٥).

وتعبر هذه اللاعقلانية عن نفسها في أشكال وطرائق كثيرة أهمها فكرة «الفولك»، وروابط الدم والتراب العضوية. «والفولك»، أو الشعب هو كيان عضوي متكامل، «أبدي، ونتاج للنمو الحتمي للسمات الفطرية»، يحاول التعبير عن عبقريته الخاصة من خلال وحدته القومية وأنساقه السياسية وأشكاله الفنية الخاصة به. والحركة الصهيونية بدأت تاريخها مع اكتشافها اليهود «كفولك» أو كشعب: كيان جماعي له تاريخه الخاص وتراثه الحضاري المتميز بل سماته البيولوجية الخاصة به. وقد استفاد مارتن بوبر استفادة كبيرة من هذا المفهوم وأعاد صياغة التراث اليهودي من منظوره، ونسب إلى اليهود كل السمات الصوفية، كالانفصال والتفوق، التي ينسبها الرومانتيكيون الأوروبيون إلى أممهم، واستخدام عبارات وشعارات مثل «التراث والدم»(٧٦). وكان كل من بيرديشفسكي وتشرنحوفسكي يتحدثان عن الشعب اليهودي بالعبارات نفسها وينسبان له الخصائص نفسها، وفي حديثنا عن التعريف العرقي لليهودي الخالص أشرنا إلى استخدام الصهاينة مفهوم «الدم اليهودي».

ويفترض التصور الرومانتيكي أن اليهودي والألماني هما يهود وألمان، بغض النظر عن الزمان والمكان، وبغض النظر عن الحدود والمؤسسات السياسية التي يتواجدون داخلها، لأن انتماء الإنسان السياسي ليس أمراً ذا بال، إن عقائد الإنسان السياسية هي أمر من اختياره، بينما علاقة الإنسان «بالفولك» هي شيء يعلو على الإرادة والوعي الفرديين، ولذا فإن جميع الأشخاص المنحدرين من العرق الألماني، أو الذين تربطهم قرابة الدم الألماني يكون ولاؤهم الأول لألمانيا، ويجب أن يصبحوا مواطنين في الدولة الألمانية، وطنهم الحقيقي. قد يكونون قد نشأوا وترعرعوا، هم وآباؤهم واجدادهم، تحت سماوات أجنبية أو في بيئات

غريبة، لكن حقيقتهم الأساسية تبقى ألمانية. وقد سبق أن اقتبسنا آراء بعض الصهاينة في مسألة ولاء اليهودي لوطنه الصهيوني الحقيقي فحسب.

أكثر من هذا ان النازيين كانوا يؤمنون أيضا بوجود دياسبورا ألمانية Auslandeutsch تربطها روابط عضوية بالأرض الألمانية. وأعضاء هذا الشتات الألماني مثل أعضاء الشتات اليهود تماما يجب أن يعملوا من أجل الوطن الأم. وبما أن العودة للوطن الأم أمر عسير، كما هو الحال مع الصهاينة، اقترح النازيون ما يشبه نازية الشتات، (مثل صهيونية الشتات)، عن طريق تشجيع الألمان في الخارج على دراسة الحضارة واللغة الألمانية، وكان للصهاينة ما يشبه المنظمة النازية العالمية Ausland organization التي كانت لها صلاحيات تشبه صلاحيات المنظمة الصهيونية العالمية، ولها مكانة في ألمانيا تشبه من بعض الوجود مكانة المنظمة الصهيونية في إسرائيل. وقد تعاون الألمان في كل أنحاء العالم مع السفراء والقناصل الألمان تماماً كما يتعاون اليهود والصهاينة مع سفراء وقناصل إسرائيل في بلادهم(٧٧).

وقد عمقت كل من النازية والصهيونية الاعتزاز بالخصوصية القومية وكره الاخرين، كما أكدتا على النقاء العنصري كتعبير عن البعد عن الاغيار. وقد حولت الصهيونية النبي عزرا إلى بطل قومي (بعد نزعه من سياقه الديني)، وتحول هذا النبي، الذي كان يعادي الزواج المختلط، إلى بطل صهيوني يدافع عن الذات القومية، وقد أشار المنظر النازي سترايخر، اثناء محاكمته، إلى هذا التصور الصهيوني للنبي عزرا: لقد أكدت دائما حقيقة أن اليهود يجب أن يكونوا النموذج الذي يجب أن تحتذيه كل الأجناس، فلقد خلقوا قانوناً عنصرياً لأنفسهم، قانون موسى الذي يقول: «إذا دخلت بلداً أجنبياً فلن تتزوج من نساء أجنبيات»(٧٨).
وما ينساه الصهاينة والنازيون أن النبي عزرا حينما تحدث عن النقاء العنصري فهو ـفي الواقعـ كان يتحدث عن النقاء الديني، فالزواج من أجنبية يعني، في واقع الأمر، الزواج من أنثى «غير مؤمنة» ولعل النبي عزرا لو سمع كلمات النازيين والصهاينة لما تمكن من فهمها أو فهم حتميتها البيولوجية.

ويعبر «الفولك» عن نفسه في شكل أساسي هو الدولة، فالدولة ليست نتاج تعاقد بين الأفراد، (حسب التصور الفرنسي الليبرالي) وإنما تسبق الدولة وجود الأفراد وتتخطى ارادتهم. وقد سيطرت فكرة الدولة (الهيجلية) على النازيين والصهاينة، فهرتزل يرى أن الأرض ذاتها ليست إلا أساسا مادياً، وأما الدولة فهي دائما شيء مجرد زائف(٧٩). بل إن هرتزل - كما بينا- كان معجبا بالدولة البروسية بالذات، نموذج هيجل الشهير. وتقديس الدولة - بالمعنى الحرفي - تيار أساسي في الفكر الصهيوني، ففي حديث لصحيفة معاريف (٢٥ يناير ١٩٧٤) قال آرييل شارون إن أهم وأعظم القيم هي مصلحة الدولة، فالدولة هي «القيمة العظمى»(٨٠) أي انه يرفع الدولة إلى مصاف القيم المطلقة (وهذا مثال آخر على تداخل المطلق بالنسبي والمقدس بالقومي).

وفكرة «الفولك» تتضمن وجود علاقة عضوية بين الدم والتراب، أو بين الإنسان والأرض، وهذا يعني عدم احترام الحدود السياسية، وضرورة التعامل مع الواقع من منظور «المجال الحيوي»، وقد عرف سترايخر ألمانيا بأنها «أرض يمكن أن يعيش فيها كل الألمان، وكل المتحدثين بالألمانية، وكل الشعوب التي تجري في عروقها دماء.»(٨١) وكل هذا يعني، بطبيعة الحال، ان الحدود التاريخية أو المقدسة تحل محل الحدود السياسية. وقد تناولنا من قبل التوسعية الصهيونية والحدود الصهيونية التي لا حدود لها.

وثمة موضوعات أخرى مشتركة بين النازية والصهيونية تعود جذورها إلى الرومانتيكية الألمانية وفكرة الفولك، فقد أكد النازيون أهمية التراث النوردي وأساطيره الشعبية، وحولوه إلى نوع من الدين، ومصدر للقيم المطلقة، وتعبير عن خصوصية الشعب، وقد نظر الصهاينة لليهودية بوصفها فولكلور الشعب اليهودي، والتعبير الديني عن عبقريته القيمة، وليست مصدرا للقيم الاخلاقية، ففكرة العهد بين الله والشعب، الذي منح الخالق بمقتضاه الشعب أرض فلسطين المقدسة، هي بمثابة الاسطورة الشعبية لبن جوريون التي يستخلص منها -مع هذا- برنامجا سياسيا. وهو يقرر حدود دولته مسترشدا بمفاهيم العهد القديم، الذي لم

يكن هو نفسه مؤمناً به لأنـه ملحد، ولكنـه يتخيله كتابـاً من كتب الأساطـير الشعبية، فاليهودية هنا مصدر للقيم المطلقة، لا باعتبارها ديناً مرسلا من الله، وإنما بوصفها تراث اليهود الشعبي.

وتشارك الصهيونية النازيـة في فكرة «النبي» الـذي يجسد المـطلق القومي، وصورة النبي العسكري (بن جوريون، الفوهرر) تسيطر على الوجدان الصهيوني سيطرتها على الوجدان النازي. ومن الموضوعات المتفرعة عن فكرة «الفـولك» أيضا فكرة الاختيار، وقد تناولنا هذه الفكرة عند الصهاينة من قبل. وقد سئل هتلر عن سبب معاداته اليهود، فكانت اجاباته قصيـرة بقدر ما كانت قاسيـة وواضحة: «لايمكن أن يكون هناك شعبان مختاران. ونحن وحدنـا شعب الله المختار. هل هذه اجابة شافية عن السؤال؟(٨٢).

وقد تأثر الصهاينة، مثل النازيين، بكتابات نيتشه وفخته، فآحاد هعام ومارتن بوبر وبيرد يشفسكي قد قرأوا أعمال الفيلسوف الألماني وتشربوها. (وفي تصوري أن آحاد هعام وبوبر هما أهم مفكرين صهيونيين على الاطلاق)، فنجد في كتابات النـازيين والصهـاينة كثيـراً من الموضـوعات التي تتـواتر فيهـا كتابـات نيتشـه (السوبرمان - التركيز على الماضي والمستقبل دون الحاضر - احتقار أخلاق العبيد والدياسبورا - انكار التاريخ - معاداة الفكر - دين دون إله).

ولكن العلاقة بين النازية والصهيونية تتعدى مجرد التماثل البنيوي، والتأثير والتأثر الفكري، إذ ثمة علاقة فعلية على مستويات عدة: ولنبدأ بأدناها، وهو كيفية استغلال النازيين الدعاية الصهيونية في الترويج لرؤيتهم الاجرامية. وقد تناول بنيامين ماتوفو هذا الجانب من العلاقة في دراسته «الرغبة الصهيونية والعقل النازي»(٨٣). ويؤكد الكاتب أن الصهيونية مسؤولة، إلى حد كبير، عن الجريمة النازية لأن الصهاينة نشروا في ألمانيا ذاتها المزاعم الصهيونية الخاصـة بالتمييـز اليهودي العرقي والانفصال القومي عن كـل أوروبا. ويـوثق الكاتب مقـولته بالاشارة إلى عدد من التصريحات التي أدلى بها زعماء الصهاينة، فيشير-على سبيل

المثالـ إلى خطبة القاها ناحوم جولدمان في جامعة هايدلبرج عام ١٩٢٠ (ثلاثة عشر عاماً قبل ظهور كفاحي). وقد زعم جولدمـان في خطبته هذه «أن اليهود شاركوا، بشكل ملحوظ للغاية، في الحركات التخريبية، وفي اسقاط الحكومة في نوفمبر ١٩١٨». وقد أكد جولدمان أيضا أنه لا توجد أي عوامل مشتركة بين يهود ألمانيا والألمان، وان الألمان عندهم الحق في أن يمنعوا اليهود من الاشتراك في شؤون «الفولك» الألماني.

وقد أدلى جولدمان وكلاتزكين بتصريحاتها عن ضعف ولاء اليهود لأوطانهم في ألمانيا في الفترة نفسها (وهي التصريحات التي اوردناها في الفصل الخامس). وقد أكد كلاتزكين أن «اليهود» غربـاء.. شعب أجنبي.. يود أن يبقى عـلى هذه الحالة. «ولكي يضرب مثلا على انعزالية اليهود قال إن اليهود قـد هودوا حتى لغتهم، وهي تسمى يديش (أي يهودي). أما وايزمان فقد وصف علاقة الألمان باليهود باستعارة استقاها من عملية الهضم. فهو يرى أن كل بلاد يمكنها استيعاب عدد محدود من اليهود، إذا كانت تود تحاشي الاضطرابات المعوية، وبحسب رأيه فإن ألمانيا «كانت تحتوي فعلا على عدد أكثر من اللازم من اليهود».

كل هذه التصريحات المعادية للسامية خدمت النازيين في حملة الكراهية التي شنوها ضد اليهود، إذ قاموا بطباعة التصريحات والكتيبات الصهيونية التي كانت تشكل الأساس الفكري «للهجمات النازية ضد اليهود» ووزعوها. وقـد قال الفريد روزنبرغ، أهم المنظرين النازيين، والذي صدر عليه حكم الاعدام في نورمبرج، إنه جمع كثيراً من آرائه هـو شخصيا من الأدبيـات الصهيونيـة ومن المؤرخين الصهاينة، وأشار إلى دعوة مارتن بوبر اليهود إلى أن يعودوا إلى أحضان آسيا، وقال روزنبرج أثناء محاكمته: إن «بوبر، على وجه الخصوص، أعلن أن اليهود يجب أن يعودوا إلى أرض آسيا، لأن هناك، وهناك فقط، يمكن العثور على جذور الدم اليهودي والشخصية القومية اليهودية».

ويمكن القول إن الزعماء الصهاينة؛ حينما ادلوا بهذه التصريحات، لم يكن يدور بخلدهم ان النازيين سيستغلونها. وقد يكون في هذا شيء من الحق، وان كان

ذلك لا يعفيهم من المسؤولية. ولكنْ ثمة اشكال للعلاقة بين النازية والصهيونية تمت بشكل واع بين الطرفين، إذ يبدو أن الصهاينة لم يبدوا حماساً كبيراً في حربهم ضد النازية، وأنهم كانوا غير مكترثين بالمقاومة ضد النازيين. وقد حذر كاوتسكي الجميع، في مجال هجومه على الاستعمار الصهيوني، من الآثار الضارة للصهيونية التي توجه جهود اليهود وثرواتهم إلى الاتجاه الخاطىء (الاستيطان في فلسطين)، في وقت تتقرر فيه مصائرهم في مسرح مختلف تماما، (أوروبا وألمانيا)، يجب عليهم أن يركزوا فيه كل قواهم(٨٤). «وكان كاوتسكي يشير إلى ملايين اليهود في شرق أوروبا (بين ثمانية وعشرة ملايين) الذين لم يكن من الممكن تهجيرهم إلى فلسطين، وبدلا من تنظيمهم وتوجيه طاقاتهم، حتى يكونوا مهيئين للدفاع عن أنفسهم حينما تقع الواقعة، فإن القيادات الصهيونية كانت تركز على تهجير بضع مئات منهم إلى أرض الميعاد.

بل إن المسألة، كما يبدو، تتخطى مجرد عدم الاكتراث بمصير اليهود، إذ يبدو أن الصهاينةاكتشفوا، اثناء الارهاب النازي ضد اليهود، ذلك التناقض العميق بين فكرة الدولة اليهودية ومحاولة انقاذ اليهود. وفي حديث أدلى به أحد الزعماء الصهاينة، هو اسحق جرينباوم، رئيس لجنة الانقاذ بالوكالة اليهودية، أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية، في ١٨ فبراير ١٩٤٣، قال انه لوسئل عما إذا كان من الممكن التبرع ببعض أموال النداء اليهودي الموحد «لانقاذ اليهود» فإن اجابته ستكون قاطعة «كلا، ثم كلا. يجب أن نقاوم... هذا الاتجاه نحو وضع النشاط الصهيوني في المرتبة الثانية«، «إن بقرة واحدة في فلسطين اثمن من كل اليهود في بولندا»(٨٥). وكان وايزمان قد عبر عن نفس الفكرة النفعية عام ١٩٣٧ حينما قال «ان العجائز سيموتون... فهم تراب. وسيتحملون مصيرهم.. وينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك« . (٨٦)

وقد اكتشف النازيون أيضا عمق تناقض مصالح الصهاينة مع اليهود. ولعل هذا ما يفسر أن الصهاينة عدوا عدوهم الحقيقي اليهود الأرثوذكس و«الجماعة المركزية للمواطنين اليهود من أتباع العقيدة الموسوية»(٨٧) (التي يدل اسمها على

اتجاهها الاصلاحي). ولعله يفسر أيضا لم كانت تتسم علاقة الدولة النازية بالمنظمات الصهيونية بشيء من الود والتفاهم. فالأرثوذكس والاصلاحيون كانوا يطالبون بمنح اليهود حقوقهم كمواطنين، وباندماجهم في مجتمعاتهم، أما الصهاينة فيعارضون الاندماج، ويعارضون منح اليهود أي حق، إلا حق الهجرة إلى الوطن القومي اليهودي. وقد جاء في دراسة إسرائيلية أن المنظمات والأفراد غير الصهاينة هم الذين أخذوا زمام المبادرة في حركة المقاومة ضد النازي، وتحملوا وحدهم عبئها، وأنه كلما كان النضال أشد ضراوة كان الصهاينة يزدادون ابتعادا عن بقية اليهود(٨٨). ومن المعروف أن القوات النازية كانت تقيم مجالس لليهود في البلاد التي تحتلها بعد حل كل التنظيمات اليهودية، ويقال إن أغلبية أعضاء هذه المجالس كانوا من الصهاينة (وإن كان هذا يحتاج إلى مزيد من التمحيص).

يبدو أن النظام النازي لم يسمح إلا للصهاينة وحدهم بمزاولة نشاطهم، بينما منع الاندماجيون والأرثوذكس من ألقاء الخطب، أو الادلاء بتصريحات، أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر. وقد قام كورت جروسمان، في كتاب هرتزل السنوي (الجزء الرابع)، بدراسة الموضوع، ونشره تحت عنوان «الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينات»، وقد ألحق الكاتب بالمقال ثماني وثائق نازية تحمل كلها توجيهات للشرطة خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في ألمانيا النازية. وأول هذه التوجيهات (رقم ١٨١٣٤/٣٥٤٢٠) صادر عن الشرطة السياسية في بافاريا (بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٣٥) وهو خاص بمنظمات الشباب اليهودي، وجاء فيه أن إعادة بعث المنظمات الصهيونية «التي تدرب اليهود تدريبا مهنيا على الزراعة والحرف، قبل هجرتهم إلى فلسطين، هو أمر في صالح الدولة النازية. بينما جاء في توجيه آخر (رقم ١٨١٣٥/١٧١٨٦) بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٣٥ أنه «يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو إلى بقاء اليهود في ألمانيا. وقدمنع مواطن صهيوني، اسمه جورج لوينسكر، من إلقاء الخطب عن طريق الخطأ، ولكن التوجيه رقم ١٩١٠٦/ ١١١٣٥١ب يصحح هذا الوضع، إذ

صدر أمر بالسماح له بممارسة نشاطه لأنه «مدافع بليغ عن الفكرة الصهيونية . . وتعهد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون أي عوائق».

وكان النازيون مهتمين كثيراً بنشاط المراجعين، ولـذا صدر تصـريح (رقم ١٧٩٢٩/١١٣٥ب) «لمنظمتي) الشباب القومي الهرتزلي و«بريت هاشموريم» بأن يرتدوا أزياءهم الرسمية أثناء اجتماعاتهم. وقد أعطى التصريح، كما جاء في التوجيه بشكل استثنائي، لأن صهاينة الدولة (أي المراجعين) «قد برهنوا على أنهم المنظمة التي تحـاول، بكل السبـل، حتى غير الشـرعية منهـا، أن ترسـل أعضاءها إلى فلسـطين. . والتصريـح بارتـداء الزي سيكـون حافـزا لأعضاء المنظمات اليهودية الألمانية أن ينضموا إلى منظمة الشباب الخاصة بصهاينة الدولة حيث سيتم حثهم بشكل أكثر كفاءة، على الهجـرة إلى فلسطين». وقـد صدر تصريح (بتاريخ ٩ يوليه ١٩٣٥، ١٩٠٥٢/١١٣٥ب) للمنظمات الصهيونية بجمع التبرعـات من أجل تشجيـع الهجرة والاستقـرار في فلسطين، ولشـراء الأراضي هناك، وقد منح التصريح «لأن هذه التبرعات تساهم في الحل العملي للمسألة اليهودية».

وقد كشفت لنا محاكمة إيخمان بعض جوانب العلاقة بين النازيين والصهاينة. فإيخمان كان معجبا، أيما إعجاب، بالصهيونية. فقد كان على ـ حد قولهـ مثاليا، والمثالي ليس ذلك الإنسان الذي يؤمن بفكرته فحسب، بل هو الرجل الـذي يعيش من أجل فكرته، ولذلك فهو على استعداد للتضحيـة بكل شيء، بـل بالجميع، من أجلها. وقد وجد أن الصهاينة ينتمون لهذا النمط المثالي نفسه، وحينما تولى مسؤولية الإشراف على اليهود أوصاه رئيسه بقراءة إنجيل الصهيونية ـ كتاب هرتزل الدولة اليهوديةـ وفور انتهائه من قراءة الكتاب أصبح أيخمان ـ على حد قولهـ صهيونيـا، يطالب بـوضع «شيء في الأرض الـراسخة تحت اقـدام اليهود»، وقد بلغ إعجاب إيخمان بهرتزل أن عبر عن استيائه الشديد من الذين دنسوا مقبرته وشوهوها(٩٠). ولم يكن إيخمان صهيونيا فكريا فحسب (مثل بعض صهاينة الشتات)، بل كان صهيونيا عمليا وفعالا. لقد كان على استعداد للعمل

من أجل تحويل فكرة «العودة» إلى أرض الميعاد إلى حقيقة وواقع . وقد دعاه بعض الصهاينة لزيارة الكيبوتزتسات في فلسطين ،محاولين بذلك كسبه لصفهم ، فوصل إلى حيفا فعلا ، ولكن السلطات الإنجليزية رحلته على الفور(٩١) . وقد ساعد إيجمان الصهاينة على تأسيس معسكرات تدريبية للمهاجرين اليهود ، بل إنه طرد مرة مجموعة من الراهبات من ديرهن حتى يزود بعض الشباب اليهود بمزرعة تدريبية(٩٢) .

وأشكال التعاون بين النازيين والصهاينة ، التي تناولناها حتى الآن ، تمت بشكل غير مقصود (تصريحات صهيونية يستفيد منها النازيون) ، أو التقاء عفوي في منتصف الطريق (نشاط صهيوني يشجعه النازيون) . ولكن ثمة أشكال أخرى من التعاون الواعي ، الذي تم عن طريق المفاوضات . وانتهى بعقد اتفاقية بين الطرفين . هذه الاتفاقية هي الهعفراه(٩٣) ، وهي كلمة عبرية تعني «نقل» ، أي نقل السكان اليهود من ألمانيا إلى فلسطين ، وهو المثل الأعلى للنازي والصهيوني معاً . وقد عقدت هذه الاتفاقية بين النازيين والمستوطنين الصهاينة في فلسطين ، وبمقتضاها أذن النازيون لليهود بالهجرة ووافقوا على الافراج عن أموالهم على أن تودع في أحد البنوك الألمانية وأن يتم إنفاقها داخل ألمانيا ذاتها ، عن طريق شراء البضائع والآلات ، وذلك مقابل كسر المنظمة الصهيونية العالمية الحصار الاقتصادي الذي فرضه يهود العالم على البضائع الألمانية . وقد احتج بعض المندوبين في المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥) على هذا التعامل بين الطرفين ، ولكن لم يتخذ أي قرار في هذا الشأن . وقد منحت ألمانيا مؤسسة الهعفراه الصهيونية حق احتكار البضائع الالمانية المصدرة إلى فلسطين . وكان من نتائج هذه الاتفاقية استيراد خبرة الفنيين اليهود الألمان والآلات الألمانية التي كانت تحتاجها المستوطنات الصهيونية ، كما زادت الصادرات الألمانية إلى فلسطين ثلاثة أضعاف من عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٣٧ (من ١١ مليون مارك إلى ٣٢ مليون مارك) . وعند نشوب الحرب العالمية الثانية ، كان يتبع الهعفراه ١٢ ألف حساب مصرفي ، وكانت قد تعاملت مع ١٦٠ مصرفا ، وقامت بنصف مليون عملية ،

وبلغ مجموع ما حولته الهعفراه ما يعادل ١٤٠ مليون مارك. وقد انعش هذا اقتصاديات المستوطن الصهيوني، فشاهد فترة رخاء، ويقال إن هذه الفترة هي التي تدعم فيها الأساس الاقتصادي للمستوطن الصهيوني، وهي الفترة التي أدت أيضا إلى إفساد البناء الاقتصادي للمجتمع الفلسطيني. وليس من قبيل الصدفة أن ثورة ١٩٣٩ الفلسطينية جاءت في اعقاب تنفيذ اتفاقية الهعفراه. كما كان لتنفيذها انعكاسات طيبة على الاقتصاد النازي أيضا خصوصا أنها نجحت في كسر الحصار اليهودي على السلع النازية.

ولكن الأهم من هذا كله كان في مجال الهجرة الصهيونية، فتهجير اليهود هو الأرضية الأيديولوجية المشتركة بين الصهاينة والنازيين. وقد ساهم الجستابو وفرق الأس. اس. في عمليات الهجرة الصهيونية، وحينما حددت سلطات الانتداب عدد اليهود المسموح بدخولهم فلسطين ساهمت وزارة الاقتصاد في عملية تهجير اليهود على النحو التالي: تودع أموال المواطنين اليهود، الراغبين في الهجرة، في أحد المصارف كما بيّنا من قبل، ثم تقوم المنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية بشراء بضائع بقيمة هذه الأموال. عندئذ تقوم المنظمة بدفع مبلغ من المال للمهاجر اليهودي، مما يجعل من السهل تصنيفه على أنه «رأسمالي»،الأمر الذي ييسر له دخول فلسطين تحت نسبة الرأسماليين إذ كانت النسب الأخرى لا تسمح بذلك. وقد هاجر حوالي ٦٠ ألف يهودي، بمقتضى معاهدة الهعفراه، بين عامي ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩.

وإلى جانب التعاون التنظيمي المعلن توجد حالات من التعاون الفردي غير المعلن، مثل حالة كاستنر ونوسيج(٩٤). أما رودولف كاستنر (١٩٠٦ ـ ١٩٥٧) فهو أحد زعماء الحركة الصهيونية في رومانيا والمجر، وشخصية قيادية في حزب الماباي، ترأس عددا من المنظمات الشبابية الصهيونية، ورأس تحرير بعض المجلات الصهيونية، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية في المجر، ثم أصبح مسؤولا عن «إنقاذ» المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكوسلوفاكيا. وقام بالاتصال بالمخابرات المجرية والنازية (التي كان لها عملاء يعملون داخل المجر، حتى قبل

احتلال القوات الألمانية لها)لتحقيق أهدافه، وقد زادت محاولات «الانقاذ» هذه بعد الاحتلال النازي في إطار تبادل المهاجرين اليهود في مقابل البضائع.

وقد زاد التعاون بين كاستنر والنازيين حتى وصل إلى درجة العلاقة المباشرة التي ربطته بإيخمان، فزار كاستنر ألمانيا عدة مرات، و«نجحت» جهوده حينما سمح النازيون عام ١٩١٤ بارسال ٣١٨ يهودياً ثم ١٣٨٦ يهودياً من أحد معسكرات الاعتقال إلى فلسطين. («يهود من أفضل المواد البيولوجية» ـعلى حدقول ايخمان ـ) في سبيل أن يسود الهدوء بين اليهود المرحلين إلى معسكرات الابادة حيث تنتظرهم أفران الغاز، ويبدو أن كاستنر قد نفذ ما يخصه من الصفقة، حين أقنع اليهود الذين تقلهم القطارات إلى معسكرات الابادة بأنهم ذاهبون في الواقع إلى أماكن أخرى يستقرون فيها أو أنهم كانوا في طريقهم إلى معسكرات تدريب مهني. وثمة نظرية تقول إنه كان من المستحيل على النازي شحن هذه الآلاف المؤلفة من اليهود دون تعاون القيادات الصهيونية.

وقد استوطن كاستنر في إسرائيل ، وأصبح محررا لإحدى مجلات الماباي الناطقة باللغة المجرية، ولكن في عام ١٩٥٣ وزع أحد المواطنين الاسرائيليين منشوراً بين فيه مدى تعاون كاستنر مع النازيين، ودفاعه عن أحد الضباط النازيين أثناء محاكمة نورمبرج، الأمر الذي أدى إلى الافراج عنه (أي أن حماس كاستنر للنازيين استمر حتى بعد سقوط النظام النازي. وقد قام الحزب الحاكم في إسرائيل بمحاولات مضنية لانقاذ كاستنر، ولكن إحدى المحاكم الإسرائيلية حكمت بأن معظم ما جاء في المنشور يتطابق مع الواقع، وبعد إشكالات قضائية كثيرة حسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق أحدهم الرصاص على كاستنر وهو يسير في الشارع.

وأما الفريد نوسيج (١٨٦٤ ـ ١٩٤٣) فهو فنان نمساوي، وكان من أوائل الدعاة للصهيونية، ففي كتاب له، عنوانه محاولة لحل المسألة اليهودية (١٨٨٧، طالب بانشاء دولة يهودية كحل وحيد لهذه المسألة. وقد حضر المؤتمر الصهيوني الأول، ولكنه اختلف مع هرتزل على مواضيع تفصيلية. وقد أقام نوسيج عدة

تماثيل ذوات طابع صهيوني واضح، وكان نوسيج متشربا بالثقافة الألمانية، متحمسا لها، كما هو الحال مع معظم الزعماء الصهاينة، فعمل جاسوسا للألمان أثناء الحرب العالمية الثانية، ووضع خطة لابادة اليهود الألمان المسنين والفقراء. وحينما وصلت القوات النازية إلى بولندا قام نوسيج بتقديم عدة خطط للهجرة اليهودية، فعينه النازيون عضوا في مكتب لقسم الشؤون اليهودية، ورئيسا لقسم الفنون (اليهودية) التابع له. وقد اكتشفت المقاومة اليهودية تعاونه مع النازي. وانه عضو في الجستابو؛ فأطلقت عليه النار عام ١٩٤٣ وختمت حياته.

وكما قلت في البداية فان هذا الموضوع يستحق الدراسة منا، لأنه لا يلقي الأضواء على الحركة الصهيونية فحسب، وإنما على الايديولوجية النازية، بل على الحضارة الغربية كلها. وقد تجمع في العالم عدد لا بأس به من الوثائق التي يمكن أن تجيب عن بعض الأسئلة، وأن تثير أسئلة جديدة. وسلوك الصهاينة وتعاونهم مع النازيين في الحملة ضد اليهود. ثم في إبادتهم كان أمراً منطقياً متسقاً مع رؤيتهم. وإذا كان كثير من البشر لا يسلكون دائماً سلوكاً منطقياً متسقاً مع رؤاهم الأيديولوجية، وأنهم حينما يجابهون الواقع، حتى ولو كان ترجمة عملية لرؤاهم، فانهم يفزعون منه، فان المدهش في حالة الصهاينة، ربما بسبب تجريدية رؤاهم الحادة وتجردهم الكامل من الخلق الديني والإنساني، أنهم سلكوا تجاه بني جلدتهم واخوانهم سلوكاً يتسق اتساقاً كاملا مخيفاً مع منطق الأسطورة الصهيونية.



الفصل السابع

الاستجابة اليهودية للصهيونية

الرفض اليهودي للصهيونية

تتخذ الصهيونية إذاً موقفا عنصريا من «يهود الشتات» (أي كل يهود العالم تقريبا حتى عام ١٩٤٨، وأغلبيتهم الساحقة بعد ذلك التاريخ) على مستوى القول والفعل. وهذه الدراسة هي دراسة في علم اجتماع المعرفة مستخدمة الصهيونية كحالة. ولعل «استجابة» يهود العالم تقع خارج نطاق هذه الدراسة فرفض الصهيونية لايعبر عن أقوال الفاعل وإنما عن رد الفعل لقوله ولفعله، ولذا فهو مختلف عن بنية القول الصهيوني مناقضا له ويقع خارج حدوده. ولكن الصهيونية- كما أسلفنا- في مجابهة معارضة صهاينة ويهود الخارج ومقاومتهم إياها قلصت من نطاقها ومجالها، وجعلت الصيغة الصهيونية العضوية لاتنطبق عليهم إلا في مجال الهوية والدعم، ولكنها مع هذا استمرت في تسميتهم «صهاينة» الأمر الذي أدى إلى ظهور مشكلة في تعريف من هو الصهيوني. وبالتالي دخلت القضية في نطاق هذه الدراسة.

ويمكن القول إن مقاومة اليهود للصهيونية تأخذ شكلين: واحدا علنيا وصريحا في المرحلة الأولى (التي استمرت حتى بعد الحرب العالمية الثانية) وهذه نطلق عليها «الرفض اليهودي للصهيونية». اما الثاني فهو يأخذ أشكالا كامنة ومضمرة، ونسميها «التملص اليهودي من الصهيونية». (وهناك شكل ثالث بينهما وهو موقف عدم الاكتراث) يصعب تناوله، وان كنا سنعتبره شكلا من اشكال التملص. ولنبدأ بتناول الشكل الاول.

عندما ظهرت الصهيونية، أول ماظهرت على المسرح السياسي الدولي، كانت الاستجابة اليهودية لها أبعد ما تكون عن الترحيب، وقد جاء في موسوعة الصهيونية وإسرائيل: «أن كل المنظمات اليهودية الرئيسة قد اتخذت من

الصهيونية موقفا معارضا أو موقفا غير صهيوني»(١) (أي غير مكترث بالصهيونية). ومن المعروف أن المعارضة اليهودية اضطرت القيادة الصهيونية لنقل مقر انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) من ميونيخ إلى بازل. وقد أعلنت اللجنة التنفيذية لمجلس الحاخامات في ألمانيا ـ عشية انعقاد المؤتمر ـ اعتراضها على الصهيونية، على أساس أن فكرة الدولة اليهودية تتعارض مع عقيدة الخلاص اليهودية. كما اتخذت المنظمتان اليهوديتان الرئيستان في انجلترا ـ مجلس مندوبي اليهود البريطانيين، والهيئة اليهودية الانجليزية ـ مواقف مماثلة. وأعرب المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكان عن معارضته التفسير الصهيوني لليهودية على أنها انتماء قومي(٢). وعارض حاخام فيينا، مسقط رأس هرتزل، فكرة انشاء دولة يهودية لأنها فكرة «معادية لليهود ترجع كل شيء إلى العرق والقومية» (٣). وقد تبنت اللجنة اليهودية الأمريكية موقفا مناهضا للصهيونية عام ١٩٠٦، ثم انتهجت نهجا غير صهيوني استمر حتى أواخر عام ١٩٤٠. وعندما صدر وعد بلفور أعلن رفضه، في الحال، في عريضة موجهة إلى الحكومة الأمريكية ٢٩٩ يهوديا أمريكيا، وقعوا عليها على أساس أنه يروج لمفهوم «الولاء المزدوج»(٤). وفي ٤ مارس سنة ١٩١٩ بعث جوليوس كان، عضو الكونجرس الأمريكي عن كاليفورنيا، ومعه ٣٠ يهوديا امريكيا بارزا رسالة إلى الرئيس وودرو ويلسون يحتجون فيها على فكرة الدولة اليهودية. واعرب أكثر الموقعين على هذا الاحتجاج أنهم «يعبرون عن رأي الأغلبية اليهودية للأمريكيين»، وكتبوا يقولون إن «إعلان فلسطين وطنا قوميا لليهود سيكون جريمة في حق الرؤى العالمية لأنبياء اليهود وقادتهم العظماء». واستطرد البيان يقول «إن دولة يهودية لابد من أن تضع قيودا أساسية (على غير اليهود) فيما يتعلق بالجنس، وأكد أن توحيد الكنيسة والدولة في أي صورة سيكون بمثابة قفزة إلى الوراء تعود إلى ألفي عام». وأعرب كان وغيره من الذين وقعوا على الاحتجاج ـ في عبارة إنسانية رائعة ـ عن أملهم في أن ما كان يعرف في الماضي «بالأرض الموعودة» يجب ان يصبح «ارض الوعد» لكل الأجناس والعقائد(٥).

وهكذا ، على عكس الصورة العامة التي تخلقها الصهيونية وتروج لها على نطاق واسع، لم ترفض الجماعات اليهودية في كثير من الدول تأييد النشاطات الصهيونية فحسب، بل حاربتها فعلا، الأمر الذي أدى بالحركة الصهيونية إلى تبني الاستراتيجيات المختلفة التي عرضناها في الفصول السابقة. ويمكن تقسيم رفض اليهود للصهيونية إلى عدة اتجاهات:

١ ـ الرفض الاندماجي: وهو الرفض الذي ينلطق من الإيمان بأن اليهود أقلية دينية، تعتنق الديانة اليهودية، وأنهم مواطنون عاديون يتجه ولاؤهم إلى الدول التي يعيشون فيها، وأن اليهود ليس لهم تاريخ يهودي مستقل، وإنما هم ـ كأقلية ـ يشاركون في تواريخ الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها. واليهودية الاصلاحية هي التعبير الديني عن هذا الاتجاه. ويتألف هذا التيار من أعضاء الطبقات المتوسطة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الذين لم يجدوا صعوبة اقتصادية أو حضارية في الاندماج في مجتمعاتهم. وقد تسبب إعلان دولة إسرائيل وصداقتها مع العالم الغربي الرأسمالي في تساقط الجمعيات التي تعبر عن هذا الاتجاه، فصهاينة الخارج، هم في نهاية الأمر يهود مندمجون في مجتمعاتهم، يدينون بالولاء الفعلي لها، وإن كانوا يمارسون أحاسيس صهيونية «قومية» خارج حدود أوطانهم.

٢ ـ الرفض الأرثوذكسي: يرى المتدينون أن الحركة الصهيونية معادية للدين اليهودي لأنها تهدف إلى تحويل اليهود من جماعة دينية قومية إلى جماعة قومية وحسب (والموقف الديني يشبه في هذا الجانب الموقف الاندماجي). وقد أعلنت جماعة ناطوري كارتا في النيويورك تايمز (١٧ نوفمبر ١٩٧٥) وفي الجارديان البريطانية (٢٨ يناير ١٩٨٨) أن الصهيونية تلقى معارضة شديدة من كبار الحاخامات، الذين يرون أنها بمثابة رفض تام للطابعين الروحي والديني للشعب اليهودي، ومعظم اعضاء هذه الحركة من بقايا يهود شرق اوروبا الذين هاجروا الى بريطانيا والولايات المتحدة.

٣ ـ الرفض الاشتراكي (واليساري عامة): يصدر الرفض الاشتراكي / اليهودي للصهيونية عن تصور أن اليهود هم أقلية دينية او اثنية أو حتى طبقية، وأن ما

يسري على كل الأقليات والطبقات يسري عليهم، وأن حل المسألة اليهودية يكون عن طريق حل المشاكل الاجتماعية والطبقية للمجتمع كله. وقد كان هذا هو الحل الاكثر شيوعا بين صفوف الشباب اليهودي في روسيا وبولندا، وبين صفوف العمال اليهود، الأمر الذي جعل الوجود اليهودي في صفوف الحركات الثورية في شرق أوروبا وروسيا أمرا ملحوظا. (وقد أفزع هذا أثرياء اليهود في الغرب، أمثال روتشيلد، فسارعوا إلى تمويل الحركة الصهيونية ليحولوا الشباب والعمال عن طريق الثورة).

والاشتراكيون اليهود ينظرون إلى الصهيونية على أنها حركة ثورة مضادة، اشتركت مع القوى الاستعمارية من أجل السيطرة على العالم العربي، ووضع إسفين بين الثوريين اليهود وبين الحركة الثورية العالمية. وكان كثير من اليساريين اليهود يدركون، تمام الادراك، الدور الرجعي الذي لعبته الصهيونية في التحالف مع الامبريالية، وفي تحويل الشباب اليهودي عن المنظمات الثورية.

وقد ظل عداء الاشتراكيين اليهود للحركة الصهيونية مستمرا، وإن كان التيار قد خمد، بعض الشيء، في الاربعينات والخمسينات بعد ظهور دولة إسرائيل، لكنه مع هذا بدأ في الظهور مرة أخرى في الغرب، خصوصا بعد أن ظهرت، بوضوح، الطبيعة الاستعمارية للدولة الصهيونية، ويلاحظ أن قطاعات كثيرة من اليسار الجديد في الغرب في الستينات تعادي إسرائيل، على الرغم من (أو بسبب) انخراط عدد كبير من الشباب اليهودي في صفوفه، وهم شباب ساخط على قيم المجتمع الرأسمالي الاستهلاكي الذي تمثله الدولة الصهيونية في العالم الثالث.

وقد ضم تيار الرفض الاشتراكي اليهودي للصهيونية ـ عبر السنين ـ عددا كبيرا من المفكرين اليهود البارزين، مثل روزا لوكسمبرج، وليون تروتسكي، وإليا إهرنبورج، وكارل كاوتسكي. وفي السنوات الأخيرة ضمت القائمة ماكسيم رودنسون وإسحاق دويتشر ونعوم تشومسكي. ولايزال عدد كبير من المنظمات اليسارية في اوروبا والولايات المتحدة، والتي تضم في صفوفها أعدادا كبيرة من اليهود تنتهج موقفا مناهضا للصهيونية والاستعمار.

٤ ـ ومن بين المعارضين للصهيونية دعاة «قومية الشتات» الذين يرون أن اليهود يكونون أقلية قومية، ولكنها أقلية تكونت في «الشتات». ولذلك فحل المسألة اليهودية يكون من خلال تقبل هذه الحقيقة الأساسية. وكان المؤرخ الروسي اليهودي سيمون دوفنوف هو مسطر هذه الحركة (غير المنظمة)، ويجب التنويه هنا بأن ثمة مقابلا يساريا لتصور دوفنوف الليبرالي، هو حزب البوند (اختصار تحالف العمال اليهود في روسيا وبولندا وليتوانيا، وهو حزب اشتراكي يهودي تأسس في بولندا عام ١٨٩٧)، ورفض الادعاء الصهيوني القائل إن الدولة اليهودية هي الحل الوحيد والحتمي لمشاكل اليهود. غير أن أعضاء الحزب لم يكونوا من دعاة الاندماج الكامل، فقد رأوا أن الاضطهاد الذي يحيق بالعامل اليهودي ليس سببه وضعه الطبقي فحسب، بل انتماؤه الأمني أيضا. وقد خلصوا من ذلك إلى أنه من واجب العمال اليهود دخول الصراع الطبقي كأعضاء في طبقة اجتماعية وأيضا كجماعة قومية شرق اوروبية، بمعنى أن حزب البوند كان له هدف بروليتاري، وهدف قومي (ليس صهيونيا بالضرورة). إذإنه يعتبر اليهود الذين يتحدثون اليديشية احد شعوب شرق اوروبا لا شعبا يهوديا عالميا. ولقد عارض البوند الصهيونية وعدها حركة بورجوازية، ورأى في إنشاء دولة صهيونية في فلسطين ضربا من التفكير الطوباوي، لأنه من غير الممكن أن تستوعب كل يهود العالم، كما أنها تفقد يهود العالم الحق في المطالبة بحقوقهم الاقتصادية والاجتماعية حيثما وجدوا، بالاضافة إلى أن إنشاء هذه الدولة يجعل الصراع بين العرب واليهود أبديا، ويجعل وجودها وبقاءها مرهونا برضى يهود الغرب. وقد اتهم البوند الصهيونية العمالية بالتعاون مع البورجوازية التي تريد إنشاء دولة صهيونية لإيجاد أسواق لبضائعها واستثماراتها. كان البوند يظهر معارضته للتراث الديني اليهودي، فقد انتقد تحريم العمل في يوم السبت، ولكنه مع هذا قام بالدفاع عن أسلوب حياة اليهود في شرق أوروبا ضد التجريدات والتخريجات الصهيونية، فاعترف باليديشية كلغة قومية لليهود دون العبرية (وذلك لعدم فهم معظم اليهود كلا من العبرية والروسية). وقد استخدم البوند

هذه اللغة في دعايته بين العمال اليهود. كما طالب الحزب، عام ١٩٠٥، بالحكم الذاتي لليهود في الناحية الثقافية، ودعا إلى تنمية الشخصية اليهودية في العالم. وقد نادى البوند، في ذلك الوقت، بأنه يجب الاستيلاء على سلطة الدولة في المجالات الثقافية، على أن تسلم للأقليات ذاتها.

ومن أهم دعاة قومية الشتات، في الوقت الحالي، المفكر اليهودي الأمريكي آي. اف. ستون، الذي ينظر نظرة قاتمة إلى ما يسميه قومية أهل ليليبوت (بلاد الأقزام في رواية مغامرات جلفر) ويعني بها اسرائيل، وهي قومية ضيقة الأفق، إذا ما قورنت بقومية الشتات بنظرتها العالية، ويؤكد ستون ان القومية الأولى هي ثمرة الاهتمام الضيق بالمصلحة القبلية، أما الثانية فتنبع من رؤية إنسانية. وقد ألقى ستون نظرة شاملة على منجزات الشتات، فوجد أن الفترات التي ازدهرت فيها حياة اليهود مرتبطة بحضارات ذات رؤية تعددية، سواء في الفترة الهيلينية (في الاسكندرية)، أو في الفترة التي سادت فيها الحضارة العربية في الأندلس (وشمال إفريقيا)، أو في العصر الحديث في غرب أوروبا والولايات المتحدة. وهو يرى أن ازدهار حياة اليهود في الشتات وإسهاماتهم الحضارية ظاهرة إيجابية جديرة بالحفاظ عليها وتدعيمها(٦).

وتضم كل هذه التيارات في صفوفها الكثير من الأعضاء، كما كان لها في الماضي فعالية وثقل، وإلى جانب ذلك يوجد عدد كبير من الشخصيات اليهودية التي اتخذت مواقف من الصهيونية تستحق التناول المستقل. ويعد ناثان بيرنباوم- الذي صاغ اصطلاح «الصهيونية» بمعناها السياسي الحديث- مثالا رائعا للمواجهة بين الصهيونية واليهودية. وكان بيرنباوم، في وقت ما، أحد القادة الصهاينة. ففي عام ١٨٨٥ أسس وحرر أول جريدة صهيونية في ألمانيا، وفي عام ١٨٩٣ نشر كتيبا ينادي فيه بايجاد حل للمسألة اليهودية يطابق الخطوط الصهيونية، وحضر ايضا أول مؤتمر صهيوني عام ١٨٩٧، ولكنه استقال بعد عام من المنظمة الصهيونية العالمية لادراكه الخطر الكامن في الرفض الصهيوني ليهود الشتات، ولذا أصبح من دعاة قومية الشتات. وفي عام ١٩٠٨ كانت له يد في

انعقاد مؤتمر حول موضوع اليديشية حضره كبار كتاب هذه اللغة، ونادى المؤتمر بأن تكون هذهاللغة هي لغة اليهود القومية. وبعد الحرب العالمية الأولى طرأت على آرائه تغيرات عميقة، وأعلن ارتداده عما وصفه بالالحاد واعتنق وجهة نظر أرثوذكسية، واستمر بقية حياته واحدا من أكبر اليهود المناوئين للصهيونية(٧)

ومن الشخصيات الهامة الأخرى السير أدوين مونتاجو، العضو اليهودي الوحيد في الوزارة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور، فقبل صدور وعد بلفور بأسابيع قليلة كتب مذكرة تبين أن الوعد ينطوي على معاداة لليهود لأنه عندما يصبح لليهود وطن قومي فإن الدعوة لحرماننا من حقوقنا، كمواطنين بريطانيين، ستزداد قوة، وبالتالي ستصبح فلسطين جيتو لكل يهود العالم، وسيصبح اليهود أجانب بوصفهم من مواطني الدولة الصهيونية. وقد وصف مونتاجو الصهيونية بأنها «عقيدة سياسية مضللة، لايمكن لأي مواطن محب لوطنه في المملكة المتحدة الدفاع عنها»، ثم أنكر وجود ما يسمى الأمة اليهودية أو الجيش اليهودي. وقد أشار مونتاجو إلى المفهوم الديني لعقيدة الماشيح فقال: إن عودة المنفيين يجب ان تتم من خلال الارادة الإلهية، ثم اضاف متهكما: «اني لم أسمع قط، حتى من أكثر المتحمسين للمستر بلفور أو للمستر روتشيلد، أن ايا منهما سيثبت أنه الماشيح». واقترح مونتاجو «حرمان كل صهيوني من حق التصويت» بدلا من حرمان اليهود البريطانيين من جنسيتهم، وأضاف أنه يميل «إلى تحريم المنظمة الصهيونية بوصفها منظمة غير شرعية تعمل ضد المصلحة القومية (الإنجليزية)»(٨).

وهناك شخصيات يهودية أخرى أظهرت تعاطفا مع الصهيونية، بل ساهمت في صياغة بعض أفكارها الأساسية في الترويج لها. غير أنها، مع هذا، تحفظت إما على بعض الجوانب الأيديولوجية وإما على الممارسات الصهيونية. ومن الأمثلة الدرامية على هذا آحاد هعام، أهم الفلاسفة الصهاينة، والذي بشر بكثير من المقولات الصهيونية التي عرضنا لها من قبل، لكنه ـ مع هذا ـ بشر بآراء أخرى تدل على بعض الخلافات الدقيقة العميقة مع الصهيونية. فعلى سبيل المثال، كان آحاد هعام يرى أن الدولة اليهودية مجرد وسيلة وليست غاية، لأن الغاية الحقيقية ـ

بحسب تصوره- هي تطوير الحياة الثقافية لليهود، والانبعاث الـروحي لليهود واليهودية. ولذا عندما رأى أن كل طاقات اليهود بدأت تتجه نحو تأسيس «دولة صغيرة تصبح، مرة أخرى، كرة قدم في أرجل جيرانها الأقوياء» وجد أن هذا هو إحدى علامات المرض، وليس من علامات النهضة. ولذا فقد جلس في أول مؤتمر صهيوني «حزينا في ليلة زفاف»- على حد قوله- وكتب لأحد أصدقائه خطابا يخبره فيه أنه اتضح له أن الدمار قد تجاوز البناء: «من يعلم ما اذا كانت هذه ليست العلامة الأخيرة لشعب يحتضر؟»(٩).

ولكن إذا كانت خلافات آحادهعام مع النظرية الصهيـونية غـامضـة فـان اعتراضاته كانت واضحة وقاطعة بالنسبة للممارسة الصهيونية في فلسطين. فعلى سبيل المثال، نبه الحاخام الروسي الصهاينة إلى الحقيقة البسيطة الخطيرة، وهي أن العرب ليسوا غائبين. وفي خطاب له، بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩١٣، احتج على مقاطعة العمال العرب(١٠) (وهو الاجراء الذي أخذ شكلا مؤسسيا، فيما بعد، من خلال الهستدروت). وفي أحد تصريحاته الأخيرة احتج آحاد هعام على جريمة قتل طفل عربي ارتكبها أحد الصهاينة(١١). وفي خطاب مفتوح، نشـر في جريـدة هآرتس (٨ سبتمبر ١٩٢٢) أعرب المفكر الصهيوني عن حزنه لارتباط «اليهود بالدم»، مؤكدا أن تعاليم الرسل والأنبياء قد أنقـذت اليهود من الـدمار، ولكن المستوطنين الصهاينة في فلسطين لايسلكون مسلكا يتمشى مع تلك التعاليم، وفي نهاية خطابه سأل آحاد هعام بغضب واضح: «يا إلهي أهذه هي النهاية؟... هل هذا هو حلم العودة إلى صهيون أن يُدنس ترابها بدم الأبرياء؟ ان الله قد أنزل بي العذاب إذ مد في حيـاتي حتى أرى، بعين رأسي، أنني قـد حدت عن جـادة الصواب... إذا كان هذا هو الماشيح، فاني لا أود رؤية عودته؟»(١٢).

ويظهر هـذا التناقض الـواضح نفسـه في موقف مـارتن بوبـر الذي أيـد الاستيطان الصهيوني في فلسطين، ثم استنكر العنف الصهيوني، وناضـل من أجل تحقيق سلام حقيقي بين اليهود والعرب. وبعد عام ١٩٤٨ قاد الحملة من أجل الدفاع عن الحقوق الانسانية والسياسية والمدنية للعـرب، بل إنـه كان،

أحيانا، يهاجم الصهيونية على أنها «أنانية جماعية»(١٣). ولكن موقف بوبر، على الرغم من كل مشاعره الانسانية، كان مثيرا للسخرية. فهذا المدافع عن حقوق الفلسطينيين كان يعيش في منزل عربي لايستطيع أصحابه أن يعودوا إليه (فقد اخبرني المفكر الفلسطيني/الأمريكي ادوارد سعيد أن أسرته كانت تمتلك هـذا المنزل، وأن بوبر رفض أن يتركه حينما حاولوا استرداده).

ومن الشخصيات الصهيونية الهامة الأخرى الحاخام الاصـلاحي الأمريكي يهودا ماجنس، أول رئيس للجامعة العبرية، لقد بدأ حياته صهيونيا سياسيا، ثم تحول إلى الصهيونية الثقافية، ثم يبدو أنه وصل، في النهاية، إلى مرحلة رفض فيها تماما فكرة إنشاء دولة يهودية خالصة (وقد يكون من المفيد أن يقوم أحد الباحثين بدراسة هذا النمط المتكرر: المفكر الصهيوني الذي يعتنق الصهيونية في الغرب، حيث الأحلام المثالية الوردية، ثم يرتد عنها بعد مواجهـة الواقـع الدمـوي في فلسطين. ولعل الصهيونية تضم في صفوفها أكبر عدد من هذه الشخصيات إذا ما قورنت بالحركات الأخرى)، وقد كرس ماجنس نفسه للترويج لفكرة التفاهم اليهودي/العربي، ودعا إلى وضع نظام يتسم بالتكافؤ التام بين العرب واليهود، وطالب بتقييد الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وفي مقـال تحت عنوان «مثـل كل الشعوب» كتبه عام ١٩٣٠) حذر الصهـاينة من أن العـرب يشكلون الأغلبية المطلقة في فلسطين، وحيث إنه لايمكن للغاية، مهما سمت، أن تبرر الواسطة الدنيئة، فقد عبر عن اطمئنانه (أو، في الواقع، عن أمله) إلى أن اليهود لن تسمح لهم أنفسهم بغزو أرض الميعاد على طريقة يشوع بن نون الذي فتح كنعان (وأباد سكانها)، والذي ثبت الوجود اليهودي عن طريق «السيف». وماجنس كان من المؤمنين بأنه «لا يمكن تأسيس الـوطن اليهودي.. بكبت الـطموح السيـاسي للعرب.. لأن مثل هذا الوطن سيؤسس عـلى رؤوس الحراب مـدة طويلة»، ولذلك فقد اقترح التغلب على الصعاب التي تواجه الصهاينة «باستخدام جميع الأسلحة التي وضعتها الحضارة تحت تصرفهم! باستثناء الحراب- مثل الأسلحة الـروحية والثقـافية والاجتمـاعية والمـالية والاقتصـاديـة والـطبيـة.. والأخـوة

والصداقة»(١٤). واعترض ماجنس على خطة التقسيم، ودعا إلى دمج إسرائيل في الشرق الأوسط. وفي ٢٨ أبريل ١٩٤٨ تنصل المجلس الأعلى للجامعة العبرية منه، وأعلن أن أي شيء يحمل اسم يهودا ماجنس لايمثل وجهة نظر المجلس أو هيئة التدريس بالجامعة.

ويتسم موقف ألبرت أينشتاين، العالم الرياضي الشهير، من الصهيونية بالتحول نفسه، فقد كانت له مواقف مماثلة للصهيونية، ولكنه، فيما بعد، تبنى موقفا معاديا للصهيونية. وفي عام ١٩٣٨ قال أينشتاين: إن «الطبيعة الأصلية لليهودية تتعارض مع فكرة إنشاء دولة يهودية بحدود وجيش وسلطة زمنية». وأعرب عن مخاوفه بخصوص «الضرر الداخلي الذي ستتكبده اليهودية» إذا تم تنفيذ البرنامج الصهيوني: «إن اليهود الحاليين ليسوا هم اليهود الذين عاشوا في فترة المكابيين»، ثم أشار إلى أن «العودة إلى فكرة الأمة، بالمعنى السياسي لهذه الكلمة، هو تحول عن الرسالة الحقيقية للرسل والأنبياء»(١٥)، ولهذا السبب، وفي العام نفسه، فسر انتماءاته الصهيونية وفقا لأسس ثقافية. إن قيمة الصهيونية- بالنسبة له كما قال- تكمن أساساً «في تأثيرها التعليمي والتوحيدي على اليهود في مختلف الدول»، وهذا تصريح مبني على الايمان بضرورة الحفاظ على يهود الشتات وتراثهم وامكان التعايش بين اليهود وغير اليهود(١٦). وفي عام ١٩٤٦ مثل أمام اللجنة الأنجلو- أمريكية، وأعرب عن عدم رضاه عن فكرة الدولة اليهودية، وأضاف قائلا إنه كان «ضد هذه الفكرة دائما»(١٧). (وهذه مبالغة من جانبه، حيث إنه، كما أشرنا من قبل، قد أدلى بتصريحات تحمل معنى التأييد الكامل لفكرة القومية اليهودية على أساس عرقي).

ولكن الشيء الذي أزعج اينشتاين وأقلقه، أكثر من غيره، هو مشكلة العرب. ففي عام ١٩٢٠ في رسالة بعث بها إلى وايزمان حذر أينشتاين من تجاهل المشكلة العربية، ونصح بأنه يجب على المستوطنين الصهاينة ان يتجنبوا «الاعتماد بدرجة كبيرة على الإنجليز»، وأن «يسعوا الى التعاون وعقد مواثيق شرف مع العرب» وقد نبه اينشتاين إلى الخطر الكامن في الهجرة الصهيونية(١٨). ولم

تتضاءل جهود اينشتاين أو اهتمامه بالعرب على مر السنين، ففي خطاب، بتاريخ ابريل سنة ١٩٤٨ ، أيد هو والحاخام ليوبابيك موقف الحاخام يهودا ماجنس الذي كان يروج لفكرة إقامة دولة مشتركة، مضيفا أنه كان يتحدث «باسم المبادىء، التي هي أهم إسهام قدمه الشعب اليهودي للبشرية(١٩). وكما هو معروف رفض اينشتاين أن يقبل منصب رئيس الجمهورية في الدولة الصهيونية حينما عرض عليه.

التملص اليهودي من الصهيونية

ولكن على الرغم من الموقف المعادي الذي واجهته الصهيونية في بادىء الأمر إلاأن الدارس لايملك إلا أن يعترف أنها قد أصبحت «حركة شعبية» تتمتع بتأييد عدد كبير من اليهود. وقد عدل كثير من اليهود المناهضين للصهيونية، واليهود غير الصهاينة، من مواقعهم أو غيروها تماما بسبب الأمر الواقع الذي فرضته الصهيونية ابتداء من التحالف مع القوى الاستعمارية ومرورا بإقامة الدولة الصهيونية، وانتهاءبسلسلة الانتصارات العسكرية التي حققتها هذه الدولة. كما غير كثير من الجمعيات اليهودية الأرثوذكسية والاصلاحية موقفها المعادي للصهيونية الذي كانت قد اتخذته وفقا لأسس دينية. فعلى سبيل المثال أصبح لمنظمة «أجودات إسرائيل» التي قامت كمنظمة مناهضة للصهيونية، أحزاب سياسية تمثلها داخل الدولة الصهيونية، وتدخل الائتلافات الحكومية المختلفة، بل لها مستوطنات زراعية، ومشاريع اقتصادية، تمدها الوكالة اليهودية بالمعونات، مثلها مثل أي تنظيم صهيوني آخر.

وقد أخذت المنظمات اليهودية الاصلاحية، هى الأخرى، تتقهقر عن مواقفها الرافضة للصهيونية، وتتبنى مواقف أكثر عرقية وقومية، بل إن هذه المنظمات تقوم الآن بممارسة الضغط السياسي لصالح الدولة الصهيونية، وتوجد الآن «كيبوتسات إصلاحية» في إسرائيل. ومن الملاحظ أن كتب العبادة الاصلاحية الجديدة تتضمن نظرة قومية تركز على الخصوصية اليهودية(٢٠)، وقد تم استرجاع عدد كبير من الاشارات ذات الطابع القومي الانعزالي التي كان قد تم استبعادها

في القرن التاسع عشر، وتم الاستبدال بالخط الإنساني العالمي خطا أكثر انعزالية.
ولعل أحد مظاهر ازدياد النفوذ الصهيوني داخل معسكر اليهودية الإصلاحية أن «الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية» (أي الاصلاحية) عقد مؤتمره السنوي الخامس عشر في مدينة القدس للمرة الاولى عام ١٩٦٨ وذلك عقب عدوان ١٩٦٧، وفي غمرة الحماس «القومي» الذي اكتسح يهود العالم كما أصبحت اليهودية الاصلاحية ممثلة رسميا داخل المنظمة الصهيونية العالمية.

ويمكننا القول إن الصورة العامة الواضحة للجماعات اليهودية في العالم هي صورة قائمة من منظور النضال ضد الصهيونية. فقدأحكمت المنظمة الصهيونية الهيمنة عليها، حتى إن الانطباع العام في الغرب (حيث تتواجد الأغلبية العظمى ليهود العالم) هو أن كل اليهود صهاينة، ولم يبق في ساحة النضال اليهودي ضد الصهيونية سوى بعض التنظيمات الضعيفة الصامدة، مثل ناطوري كارتا، والحاخام يوسف‌بخر، وجماعة الحاخام ألمر برجر، «البدائل اليهودية الأمريكية للصهيونية»، وبعض الشخصيات العامة التي تلعب دورا قيادياً في مجتمعها كله، ولكنها ليس لها علاقة كبيرة بالتجمعات اليهودية التي يقوم الصهيونيون بقيادتها. ولعل هذا الوضع هو السبب في دهشة كثير من الناس حينما يقوم أحد الدارسين بتناول موضوع العنصرية الصهيونية ضد اليهود ومقاومة اليهود إياها. فالعنصرية لم تعد واضحة المعالم لأن الضحية قد تقبلتها واتحدت معها، والمقاومة لاتكاد تذكر للسبب نفسه، ولذا يصنف الموضوع على أنه موضوع ذو أهمية «أكاديمية» أو تاريخية فحسب.

ولكن، على الرغم من هذا الاستسلام للمثل الصهيونية، فإن الدارس الموضوعي الذي يرفض أن يأخذ الأمور بشكل سطحي، لايملك إلا أن يلاحظ أن التوترات لاتزال قائمة وعميقة بين يهود العالم والدولة الصهيونية، بل بينها وبين صهاينة الخارج أنفسهم- وهي توترات متوقعة ناجمة عن تحول القول الصهيوني العضوي بكل تبسيطاته وتناسقه الهندسي الى فعل.

ومن أهم التوترات التي ظهرت بعد إعلان الدولة هو تحديد العلاقة بين

المنظمة والدولة، إذ تصور أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية أنهم سيستمرون في «الإشراف» على الدولة والاشتراك في توجيه سياساتها (أليسوا هم أعضاء في «الشعب اليهودي» وجزءاً من قياداته؟ وأليست الدولة مدينة بوجودها لهم ولجهودهم؟). ولكن الصهاينة الاستيطانيين كان لهم وجهة نظر أخرى. فمن البداية كان التصور أن تكون الجماعات اليهودية في الخارج بمثابة كوبري (جسر) للوطن القومي، أو لبنات لبنائه أو حتى مستعمرات توظف في خدمته. وانطلاقا من هذه الرؤية وصف بن جوريون المنظمة الصهيونية بأنها كالسقالة التي استخدمت لبناء الدولة، ولذا لم يعد أي مبرر لوجودها بعد إعلان الدولة- أي أنه عرف المنظمة كمجرد اداة وعرف علاقة الدولة بالمنظمة على أنها علاقة نفعية مالية وليست عضوية- فالسقالة ليست جزءا عضويا من البناء، ولذا يمكن الاستغناء عنها بعد الانتهاء من عملية البناء. وقدكسب الصهاينة الاستيطانيون هذه المعركة وتحولت المنظمة الصهيونية الى سقالة دائمة- خادم قانع خاضع مطيع يقنع بدور الادارة الطيعة في يد صاحبها الذي يستخدمها في ابتزاز يهود العالم وامتصاص أموالهم. (تشبه من بعض الوجوه الجماعة الوسيطة العميلة التي تستخدمها النخبة الحاكمة لامتصاص فائض القيمة من الجماعة) فقد استمرت التوترات بين الدولة والجماعات اليهودية، بما في ذلك القطاعات المتعاطفة مع القول الصهيوني لاتزال واضحة وكثيرا ما يحدث أن المؤمنين بقول ما يبدأون في محاكمة النخبة القائدة من منظور منطق القول كله أو من منظور جزء منه، لا من خارجه، وهذا ما حدث مع أعضاء الجماعات اليهودية (بل مع بعض صهاينة الخارج) الذين ينظرون للصهيونية ويجدونها مخيبة للآمال اليهودية الصهيونية. وقد طرحت الصهيونية نفسها منذ البداية على أنها ستؤسس دولة ستكون المأوى والملاذ لهم في ساعة الضيق، وأنها ستقوم على حمايتهم أينما كانوا، وأن دولتهم اليهودية ستكون مفخرة لهم تزيد من اعتزازهم بأنفسهم وبيهوديتهم- وهي ادعاءات ضخمة لم يكتب لمعظمها التحقيق- اذ ثبت بالتجربة أن الصهيونية، رغم كل ادعاءاتها، عاجزة تماما عن «حمايتهم» أو «انقاذهم». ولا يرى المرء كيف يمكن للصهيونية «حماية»

يهود الاتحاد السوفيتي أو الولايـات المتحدة إن تعـرضوا لحملة من الاضـطهاد الشعبي والحكومي المنظم؟ بل لا نعرف كيف يتأتى للحركة الصهيونية او الدولة الصهيونية حماية يهود دولة صغيرة مثل مدغشقر ان تعرضوا لمثل هذا الاضطهاد؟ ومن المعروف أن الحركة الصهيونية أثناء فترة حكم النازي في ألمانيا لم تتمكن من «حماية» اليهود، بل إنها استفادت من مأساتهم وتعاونت مع القتلة. وما قد يكون له دلالته، وربما طرافته، أنه عندما اقتربت قوات روميل من الاسكندرية أعـد المستوطنون الصهاينة خطة محكمة للانتحار!

وثمة حقيقة مثيرة للدهشة وردت في كتاب نظرة شاملة على الشؤون اليهودية (وهو كتاب سنوي ينشر تحت رعاية المؤتمر اليهودي العالمي) مفادها أن أعضاء الأقليات اليهودية في العالم يشعرون أن أمنهم قد تـزعزع بسبب الأحـداث في الشرق الأوسط. وأن الجو الذي يعيش فيه اليهود في عدة بلاد قد تحول من جو آمن الى جو قلق مشحون. فمنذ خمسة عشر عاما لم يكن هناك مؤسسات يهودية تتطلب حراسة مسلحة. أما الآن فلا يوجد سوى مؤسسات قليلة من دون حراسة، بل أحيانا يشعر الأعضاء البارزون في القيادات اليهودية بالحاجة إلى مثل هذه الحماية. ويقتبس كاتب المقال احصائية وردت في نيوزويك (سبتمبر/ ايلول ١٩٨٢) تدل على أن ٧٧٪ من يهود الولايات المتحدة يرون أن أحداث الشرق الاوسط قد تؤدي إلى زيادة حدة معاداة اليهود، وقد عبر يهود بلاد غربية أخرى- من بينها فرنسا وايطاليا والمانيـا الغربيـة- عن الهاجس نفسـه «هذا يختلف عن الاحساس بالرضا الذي عبر عنه العديد من اليهود من قبل عدة سنين مضت من أن إسرائيل هي مصدر قوة وأمن لليهود أينما كانوا»، وكما قال الصهيوني المستوطن اسحق بركائي في جريدة دافار(٢١): «إن امواج معاداة اليهود تتصاعد في العالم بسبب أعمالنا نحن بالذات. وبذلك اتضح لكثير من اليهود أن دولتهم ليست غير قادرة على حمايتهم وحسب من معاداة اليهود، بل إنها هي نفسها الباعث لهذه الآفة، وحتى في بلدان لم تعهدها من قبل»

ويشير يهود العالم إلى أن الدولة الصهيونية التي تدعي أنها تتحدث باسمهم،

هي دولة لها مصالحها الخاصة المختلفة عن مصالحهم أحيانا والمتعارضة معها أحيانا أخرى، وأنها- أي الدولة الصهيونية- تدافع عن مصالحها هي (كأي دولة) دون أخذ مصالحهم في الاعتبار، فهي تتعاون مع نظم عنصرية معروفة بعدائها لليهود (مثل النظام العسكري في الأرجنتين قبل سقوطه). وهي تتدخل في شؤونهم (كما حدث في حادثة بولارد) وتأخذ أموالهم وتتلقى الدعم منهم، ولاتسمح لهم بتوجيه أي نقد لما يدور داخل الدولة، أي أن الدولة ربطت مصيرهم بمصيرها واستبعدتهم من صنع القرار (وكأنهم آلة أو اداة أو مجرد جماعة وسيطة!). ويرى المتدينون من اليهود أن الدولة تتزايد فيها معدلات العلمنة والاباحية والفساد الخلقي (وهم محقون في ذلك. وقد صرح امنون روبنشتاين بأن المجتمع الإسرائيلي من اكثر المجتمعات اباحية في العالم). بل إن هذه الدولة الصهيونية الفاسدة بدأت تحل محل الدين اليهودي كاطار مرجعي لليهود، بحيث اصبحت الدولة بالنسبة لكثير من اليهود هي كنيسهم ورئيس وزرائها هو حاخامهم. وتقاس القضايا الداخلية والدولية بمقياس مدى نفعها وضررها لإسرائيل(١٢)».

ويشير اليساريون اليهود إلى أن إسرائيل تحولت إلى بائع سلاح للدول الرجعية والفاشية في أمريكا اللاتينية ولها علاقات مشبوهة بالنظم الدكتاتورية، وأنها تحولت إلى رجل امريكا القبيح الذي توكل إليه الولايات المتحدة كل الأعمال القذرة التي لايمكنها أن تقوم بها (كما حدث عندما قامت الدولة الصهيونية بتزويد سوموزا بالأسلحة، وكما حدث في فضيحة ايران جيت).

وقد صدر عن المؤتمر اليهودي العالمي (عام ١٩٨١) وثيقة بصورة بحث أعد بناء على طلب من المؤتمر واستغرق إعداده سنتين، ويمكن اعتباره بمثابة عريضة الاتهام الموجهة من أهم قطاعات يهود الخارج (يهود الغرب المندمجين) لمجتمع المستوطنين. ويذهب البحث إلى «أن إسرائيل دولة ذات نزعة مادية متزايدة حدث فيها قضم في المثل القديمة والقيم اليهودية الخاصة بالعدالة الاجتماعية. ونظام الانتخابات الاسرائيلي، يفضي إلى حكومات ائتلافية غير قادرة على حل

المشكلات الأساسية. وسياسة إسرائيل الداخلية لاتبدو مشرقة بصورة خاصة: وهناك احتكار ديني تمارسه المؤسسة الدينية الارثوذكسية يضر باليهود المحافظين والإصلاحيين وبالعديد من اليهود العلمانيين. وهناك تجاهل للرأي العام العالمي، الذي اصبح انتقاديا اكثر فأكثر في الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية. والزعامة اليهودية في المنفى لاتستطيع تأييد سياسة الاستيطان التي تنتهجها حكومة اسرائيل لانها غير مقتنعة من ناحية عدالتها»(٢٣).

ولكن هذا النقد يظل نقدا من الداخل لاينصرف الى مقولات الصهيونية الأساسية أو منطلقاتها ولايشكل رفضا لها، وإنما هو نوع من أنواع الغمغمة التي تريح الضمير، ولكنها مع هذا ذات دلالة عميقة. وهي تزداد دلالة حينما توضع في سياق أوسع، أعني سياق الظواهر الأخرى التي تعبر عن رغبة حقيقية في التملص من عبء الصهيونية الثقيل. والمتملصون من الصهاينة هم الذين ينون الديباجات الصهيونية المتشددة ويتشدقون بها بصوت جهوري عال، ثم يسلكون حسبما تمليه عليه مصالحهم الوطنية والفردية المختلفة، والمتملص اليهودي من الصهيونية حريص بطبيعة الحال على اخفاء نفسه على مستوى القول، ولكنه يظهر على مستوى الفعل، وان ظهر على مستوى القول فهو يظهر حيا مستأنسا لايتفق البتة مع عمق التملص. ويمكننا القول إن التملص هو في واقع الأمر الرفض اليهودي للصهيونية، ولكنه رفض يستخدم الصيغة الاسفنجية الصامتة التي طالما استخدمها الصهاينة.

وفي مقال هام بعنوان «رفض الشتات» وصف آحاد هعام موقف يهود العالم من وجودهم خارج فلسطين بأنه «سلبي من الناحية الذاتية، ايجابي من الناحية الموضوعية:(٢٤) يعني انهم حينما يعبرون عن رأيهم بشكل واع (اي على مستوى القول بمعنى ديباجات) فإنهم يتخذون موقفا سلبيا رافضا، أما حينما يمارسون حياتهم بشكل كامل وتلقائي (اي على مستوى الفعل) فإنهم يتقبلون حياتهم في «الشتات»، وبالتالي يرفضون المثل الصهيونية. وهذا تعريف دقيق لما نسميه

التملص الذي يأخذ في تصورنا شكلين أساسيين.

اولا: رفض فكرة «نفي الشتات» او «الدياسبورا» الصهيونية التي تحولت بعد انشاء الدولة الى فكرة مركزية اسرائيل في حياة الدياسبورا، بدلا من ذلك نجد تأكيدا واصرارا على اهمية «الشتات» ومركزيته في حياة الجماعات اليهودية وتجربتها التاريخية.

ثانيا: يترجم هذا الرفض نفسه إلى فعل: وهو رفض الهجرة إلى اسرائيل.

مركزية الدياسبورا- الشتات:

لاحظ سيمون دوفنوف- المؤرخ الروسي اليهودي- أنه في أواخر القرن التاسع عشر لم يهاجر إلى فلسطين سوى عدة مئات من الرجال، في الوقت الذي كان يهاجر فيه عشرات الآلاف إلى الولايات المتحدة. وعلى أساس هذه الملاحظة انتهى الى أن «الأمل في نقل قلب الشعب اليهودي من الشتات إلى الوطن الأصلي التاريخي (أي فلسطين) يبدو لا أساس له». وقد كرس دوفنوف كل جهوده لتحسين الحياة السياسية والثقافية للمجتمعات اليهودية، كل في وطنه، بل لقد تكهن بأن «المركز الرئيس لليهودية سيكون الولايات المتحدة»(٢٥).

وقد اثبتت التطورات صدق نبوءته، فيهود الولايات المتحدة ليسوا مهددين بالدمار عن طريق التزاوج والاستيعاب، كما زعم الحاخام آرثر هرتزبرج في عدد ديسمبر ١٩٧٥ من صحيفة مومنت، بل إن الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة قد كشفت عن هوية أمريكية يهودية مستقلة عن التصورات الصهيونية الخاصة باليهودي الخالص. فاليهودي الامريكي يساهم في حضارته الأمريكية ويثريها، ولايتعارض الطابع اليهودي الخاص باسهاماته مع انتمائه لوطنه أو ولائه له، تماما مثل الامريكيين من أصل ايطالي، الذين يساهمون في المجتمع الامريكي ويضيفون لحضارته، دون أن تتعارض جذورهم الحضارية الايطالية مع انتمائهم لوطنهم الامريكي الجديد الوحيد. وهم إن كانوا يزدادون تأمركا واندماجا، خصوصا بعد الجيل الثالث، فهذا هو الاتجاه العام في الحضارة الأمريكية.

والقارىء لأعمال القصاص الأمريكي اليهودي، سول بيلو، يلاحظ أنه يهتم بالشخصيات اليهودية/الامريكية والمشاكل الخاصة باليهود الامريكيين. ولكن لايمكن فهم هذه الشخصيات ولا مشاكلها ولا اللغة التي تتحدث بها بالعودة إلى فكرة الوطن اليهودي القومي، وانما بالعودة للتجربة الأمريكية الفريدة. ولعل هذا هو السبب الذي دعا مائير لفين- وهو قصاص من الدرجة الثالثة، يكتب عن مواضيع صهيونية أساسا- إلى أن يهاجم بيلو لفشله «في اعطاء وصف تفصيلي لاجتماعات اليهود، ولحملات جمع التبرعات لإسرائيل، ولاهتماماتنا التي تشغلنا نحن اليهود»(٢٦). ومن المعروف أن بيلو قد هاجم المفهوم الصهيوني الخاص باليهودي الخالص، والمفهوم القائل إن اليهودي عليه أن يحيا في إسرائيل حتى يصبح شخصية متكاملة، وليس مجرد شخصية متمزقة منقسمة على نفسها.

وقد وصف بيلو نفسه بأنه امريكي مخلص لتجربته، ولحضارته الأمريكية «يتحدث اللغة الانجليزية الأمريكية، ونشأ في الولايات المتحدة، ولا يمكنه أن يرفض ستين عاما من حياته هناك(٢٧)»، ولذا فهو يرى ان اصطلاح «كاتب يهودي» هو «اصطلاح مبتذل من الناحية الفكرية، ضيق الأفق ولا قيمة له اطلاقاً(٢٨)». ومن الطريف أن بيلو، على الرغم من رواياته واقواله، كتب كتابا صهيونيا مغرقا في العنصرية عن رحلته إلى اسرائيل. ولعل هذا الكتاب ذاته دليل على أن يهود الدياسبورا يروجون صورة واعية عن أنفسهم تختلف عن مواقفهم المتعينة. وبيلو حينما يكتب رواياته، فانه يدع خياله الخلاق يفصح عن رؤيته المركبة، أما في كتابه الدعائي فهو يتبنى موقفا اكثر واقعية. ولعل طموح بيلو للحصول على جائزة نوبل كان له اثره الكبير على الآراء السياسية التي أفصح عنها في كتابه (وقد حصل بيلو بالفعل على الجائزة بعد صدور الكتاب).

وتتميز رواية فيليب روث، الروائي الأمريكي، التي تحمل عنوان شكوى بورتنوي، بأنها رواية عن يهودي امريكي يقوم برحلة الى اسرائيل. والرحلة، هذه المرة، جزء من الرؤية الروائية وليست جزءا من كتاب اعلامي. وحينما يصل

بطلنا الى اسرائيل فإنه لا يعجبه ما يرى، إذ لا يجد ذاته الامريكية اليهودية المركبة هناك. ولذا، فهو حينما يقابل فتاتين اسرائيليتين في ارض الميعاد تنتهي العلاقة نهاية مأساوية- ملهاوية، إذ تسأله الاولى، وهي ملازم في الجيش الاسرائيلي، عما إذا كان يفضل الجرارات او البلدوزرات او الدبابات(٢٩). أما الثانية، ناعومي، فهي اسرائيلية حقة، ولدت في إحدى المستعمرات بالقرب من الحدود اللبنانية، واتمت خدمتها في الجيش الاسرائيلي، ثم استقرت في احدى المستعمرات الواقعة على الحدود السورية، وهي لاتكف عن الثرثرة عن الاشتراكية وعن الفساد الذي يسود المجتمع الامريكي(٣٠)

وقد لقنته هذه الفتاة المحاربة درسا في التاريخ اليهودي من وجهة نظر صهيونية، فأخذت تتحسر على تلك القرون الطويلة التي عاشها اليهود بلا ديار ولا مأوى، والتي افرزت أمثاله من الرجال، «الخائفين المخنثين الذين لايعرفون قدر أنفسهم، والذين أفسدتهم الحياة في عالم الأغيار». بل إنها تلومه لما حدث لليهود في ألمانيا النازية. «فيهود الشتات بسلبيتهم هم الذين ساروا بالملايين إلى غرف الغاز دون أن يرفعوا يدا ضد مضطهديهم.. الشتات! إن الكلمة ذاتها تثير حنقي(٣١)». ولا غرو بعد هذا أن بورتنوى لم يوفق في العثور على فتاة أحلامه في اسرائيل.

ومن أهم المفكرين اليهود في الولايات المتحدة، الذين تبنوا بشكل واضح فكرة مركزية الدياسبورا، الحاخام الاصلاحي جاكوب برنادر آجوس الذي يرى أن الهوية اليهودية ليس لها اي أساس عرقي، إذ إن اساسها ديني فحسب. ويؤكد آجوس أهمية الشتات، ويشير إلى أن اليهودية في الولايات المتحدة ليست ديناً دخيلاً لشعب اجنبي غريب، وانما هي واحدة من الديانات الاساسية في هذا البلد(٣٢). وهو يقدم رؤية ليهود الولايات المتحدة على أنهم جماعة دينية لها جانب فرعي اثنى، على عكس الاسرائيليين الذين يتطورون بشكل سريع ليصبحوا مجرد «قومية علمانية» لا تشكل العقيدة القديمة بالنسبة لها إلا واقعا «ثانويا»، بل ان الحاخام آجوس يرى أن الصهيونية ستؤدي، في نهاية الأمر الى تقسيم يهود العالم

الى قسمين، قسم ديني، وقسم عرقي(٣٣). ومن المفكرين المدافعين عن مركزية الدياسبورا، عالم الاجتماع اليهودي الأمريكي (الباكستاني الأصل) مايكل سلزر، الذي تبنى موقف سيمون دوفنوف، اذ يعتقد هو أيضا أن مركز الدياسبورا قد انتقل من أوروبا إلى الولايات المتحدة، ويرى أن اليهود في امريكا قد حصلوا على فرص لاحصر لها للتعبير الحر وللنمو، لاتخضع لأي قيود، وبعيدة عن حياة الجيتو، وعن النظرة الاندماجية البسيطة للقرن التاسع عشر. إن اليهودي يمكنه أن ينمي هويته اليهودية دون أن يتناقض ذلك مع هويته الامريكية(٣٤). ومما يجعل التجربة اليهودية في الولايات المتحدة فريدة، أنه لا توجد حضارة امريكية خالصة تستبعد اليهود، لأن المجتمع الامريكي هو خليط من الاقليات والجماعات المهاجرة، كل منها يحتفظ بشيء من تقاليده الحضارية. وقد اقترحت في **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية** استخدام اصطلاح «اليهود الجدد» Neo-Jews اشارة إلى يهود مرحلة ما بعد الجيتو الذين يعيشون في حضارة لم تعرف تقاليد معاداة السامية، إلا بشكل سطحي ولم تفرض على اليهود أي وظائف اقتصادية أو مهن محدودة.

ومن أهم الشخصيات الامريكية الاخرى المدافعة عن مركزية الدياسبورا الحاخام جاكوب نيوزنر وهو يعتبر من أكبر الحجج في التلمود في العصر الحديث. ويفرق نيوزنر بين اليهودية كانتماء اثني او سياسي واليهودية كانتماء ديني، وهو يرى أن دولة إسرائيل قد تتمتع بشيء من المركزية في الوجود اليهودي كوجود دنيوي تاريخي، أما بخصوص القضايا الإنسانية والوجودية التي يواجهها اليهود كقضايا الحياة الثابتة الأزلية «فالصهيونية واسرائيل لاتشكلان مركز حياة اليهود»(٣٥). وقد اتهم نيوزنر في كتابه **اليهودية الامريكية: مغامرة في الحداثة الصهيونية** بأنها تحاول أن تحل محل اليهودية وأنها استولت على لغة اليهودية ورموزها. بحيث أصبح بعض اليهود يقرنون بين فكرة صهيون التقليدية الروحية ودولة إسرائيل الصهيونية،ويوحدون بينهما «على الرغم من أن الأولى توجد في السماء ونهاية الزمان» بينما توجد الثانية الآن وهنا. وقد تسبب هذا في أن كثيرا من اليهود فقدوا

جوهر التجربة الدينية وهو المقدرة على تجاوز الواقع، إذ إن تطلعاتهم الدينية قد تمحورت حول دولة إسرائيل. (٣٦)

ويبدو أن حدة رفض نيوزنر للفكرة الصهيونية عن مركزية اسرائيل آخذة في التزايد كما يتضح في مقاله الغاضب المنشور في الواشنطن بوست(٣٧) في ١٩٨٧/٣/١٠ بعد حادثة بولارد. فقد أكد بلا مواربة أنه قد حان الوقت للقول: إن أمريكا أفضل من القدس بالنسبة لليهود، وان كانت هناك أرض ميعاد فإن اليهود الأمريكيين يعيشون فيها ويشعرون بالسلام والأمن على نحو لايمكن أن يتاح لهم في اسرائيل. فاليهود في الولايات المتحدة طائفة مقبولة تجري مع التيار الرئيس للحياة الأمريكية، وينتمي لها سبعة اعضاء في مجلس الشيوخ الأمريكي - أي أن ٧٪ من أعضاء المجلس ينتمون لطائفة تشكل ٢٪ من مجموع السكان -. لكل ذلك دعا نيوزنر الجميع لطي المسألة وتساءل: «أين بحق يفضل أن يكون اليهودي؟» والسؤال خطابي غير حقيقي. فالمقال يقرر بما لايدع مجالا للشك أن اليهودي الأمريكي يعيش حياة يهودية كاملة في الولايات المتحدة، وأن الدولة اليهودية لاتشكل مركزا روحيا بالنسبة له.

ويروج الصهاينة صورة الشاب اليهودي في «المنفى» الملتف حول الدولة الصهيونية، يؤيدها ويؤازرها، بل على استعداد لأن يموت من أجلها. وهي صورة لو ناقشتها مع أي يهودي لقبلها على أنها صورة صادقة، فهي، في الواقع، الصورة المثالية (أو الديباجة) التي يجب أن «يذيعها» عن نفسه. ولكن حيث إن أوهام المرء عن نفسه تختلف، إلى حد كبير، عن ممارساته وقناعاته الحقيقية التي تتحكم في سلوكه، فلن يثير دهشتنا أن نكتشف أن عددا كبيرا من استطلاعات الرأي العام تبين أن الأغلبية العظمى من الشباب اليهود يعدون أنفسهم يهودا بالعقيدة، وليس بالقومية(٣٨). وفي مقال نشر في إحدى الصحف اليهودية عام ١٩٧٦ كتب الاستاذ حاييم واكسمان - وهو صهيوني متحمس - يقول: إن معظم اليهود الأمريكيين ليسوا صهاينة، وإن إسرائيل لاتلعب دورا رئيسا في حياتهم. وقد قام الاستاذ واكسمان بتقويم نتائج الدراسات الاكاديمية واستطلاعات الرأي

المختلفة، فتوصل إلى أن ١٣٪ فقط يرون أنه من الضروري تأييد إسرائيل، وأن ٢٨٪ فقط وافقوا على «أن إسرائيل تعد مركزا للحياة اليهودية المعاصرة». ووجد أكثر من ثلثي الطلبة، ممن أدلوا بأصواتهم، «ان مساندة الصهيونية ليست بالشيء الضروري ليصبح الإنسان يهوديا حقيقيا»(٣٩). بل إن ١٪ فقط من الشباب اليهود، الذين أدلوا بآرائهم في استطلاعات الرأي هذه، سيقومون بدراسة امكان الإقامة في إسرائيل، أو سيشجعون أطفالهم على الهجرة إليها.

رفض الهجرة الاستيطانية

وبالفعل نجد أن رفض مركزية دولة إسرائيل الصهيونية يترجم نفسه إلى رفض الهجرة إليها. ولذا على الرغم من كل انتصارات الصهيونية وانجازاتها وهيمنتها المعلنة إلاأن أقلية من الشعب اليهودي هي التي تعيش في إسرائيل. فعدد سكانها لايزيد عن أربعة ملايين من مجموع يهود العالم البالغ عددهم ١٣/١٢ مليونا. وإذا كانت نسبة يهود المستوطن تتزايد فهذا ليس بسبب الهجرة وإنما بسبب تناقص عدد يهود العالم، وتزايد نسبة التكاثريين المستوطنين بالقياس إلى نسبتها بين أعضاء الجماعات. وكما قال أحد المثقفين الفرنسيين أن أقلية من اليهود فحسب هي التي تختار، او اختارت اسرائيل، مما يكشف عن حقيقة هامة، وهي أن الأغلبية قد اختارت الشتات. (٤٠) ولعل هذا يفسر لم لاتزال إسرائيل تعيش من دون الاعداد الكبيرة من «المنفيين» من أبنائها الذين من أجلهم أنشئت الدولة(٤١).

وقد تذمر أحد الزعماء الصهاينة البارزين من أن اليهود الأمريكيين ينظرون الى اسرائيل كما لو كانت ديزني لاند، أي مدينة ملاه يهودية او متحفا يهوديا، مجرد مكان يؤمه الجمهور من اجل الاستمتاع والإثارة والثرثرة. ويبدو أن يهود العالم الذين يشعرون بروابط حضارية وروحية عميقة بصهيون غير مقتنعين بأن الاستقرار المادي هناك أمر ضروري وحيوي من أجل تحقيق تطلعاتهم الحضارية والدينية، وكما قال المثقف الفرنسي (الذي أشرنا إليه من قبل) مستخدما استعارة

تشبه استعارة ديزني لاند، إن معظم اليهود لايظهرون حماسا كبيرا للذهاب إلى اسرائيل إلا لمجرد قضاء إجازة هناك. ولكن تدل الاحصائيات على أن اليهود لايجدون صهيون مكانا مسليا بما فيه الكفاية، ولذا فنسبة السياح اليهود التي تذهب إلى بلاد أخرى غير أرض الميعاد تفوق نسبة الذين يذهبون إلى اسرائيل بمراحل.

والصهيونية، التي تطرح نفسها على أنها الحل الأوحد للمسألة اليهودية، تعني، أولا وقبل كل شيء، ضرورة العودة إلى الوطن القومي العضوي المزعوم، وأي شيء خلاف هذا ليس سوى استعراض لفظي ليس له قيمة كبيرة، وإذا ما أراد المرء أن يعطي اصطلاح «صهيوني» مضمونه الصحيح فلانجده يعني إلا شيئا واحدا أساسيا هو: نقل السكان، اي الهجرة أو «العالياه»- كما يحلو للصهاينة تسميتها- .وقد لاحظ بن جوريون أن كثيرا من المفاهيم والمصطلحات يتم الحفاظ عليها واستخدامها حتى بعد أن تفقد دلالتها، ومصطلح «صهيوني» لايمثل أي استثناء من القاعدة. وقد وصف الزعيم الصهيوني إصرار بعض اليهود على تسمية انفسهم «صهاينة»، في الوقت الذي يتجاهلون فيه المقولة الصهيونية الأساسية، أي الهجرة،ووصف هذا السلوك بأنه نوع من أنواع التزييف. وأصدق مثل على ذلك، في تصوره، يهود الولايات المتحدة (اي الأغلبية العظمى من يهود العالم) الذين لايبدون اي استعداد للهجرة، ومع ذلك يصرون على تسمية أنفسهم صهاينة، «ومثل هذا الموقف- على حد قوله-شيء سخيف»(٤٢)، وقد وصف ليفي اشكول صهيونية الشتات الوصف الذي تستحقه، باعتبارها «قولا معاديا للقومية (اي الصهيونية) ترتدي ثوبا لفظيا قوميا (أي صهيونيا)»(٤٣)، بل إن بن جوريون اكتشف أن هذه الصهيونية إن هي إلا غطاء كثيف يغطي به صهاينة الخارج الاندماج المتزايد الذي يتم على مستوى الفعل، فكأن صهاينة الخارج يطلقون الديباجات اللفظية الجهورية التي تخبىء النكوص الحقيقي المعادي للصهيونية الاستيطانية وتشكل طعنة نجلاء لها.

ومن الملاحظ، كما أسلفنا، أن صهيونية يهود غرب أوروبا المندمجين ترجمت

نفسها إلى دعم مالي للصهيونية بهدف تحويل سيل المهاجرين عن أوطانهم، أي أنها صهيونية معادية في جوهرها لفكرة الشعب الواحد. وقد تحولت هذه الصهيونية وأصبحت تقدم الدعم المالي والسياسي، وتؤكد «الهوية اليهودية» بشكل عام غير عضوي لايفرض عليها الهجرة الاستيطانية. وقد شاهدت السنون الأخيرة تصاعدا في نشاطات هذه الصهيونية الخارجية وتقلصا شديدا في الصهيونية الاستيطانية. فزادت المؤتمرات والعلاقات، ولكن لايزال معدل الهجرة السنوية من الولايات المتحدة التي تضم أضخم كتلة بشرية يهودية في العالم لايزيد عن ٢٥٠٠ يهودي (حتى عام ١٩٨٦)، وهي حمولة ثلاث طائرات جامبو! والنكتة الشهيرة القائلة إن الصهيوني هو يهودي يجمع التبرعات من يهودي آخر لارسال يهودي ثالث لأرض الميعاد ماهي إلا محاولة للتفريق بين الصهيونية الاستيطانية الحقة، والمواقف المختلفة التي تتظاهر بأنها صهيونية.

ومهما كان من أمر هذه المواقف، فهي تصدر عن قناعة كاملة بأن الاستيطان في فلسطين هو، دائما، واجب يضطلع به الآخرون (المنبوذون من شرق اوروبا لا المندمجون في غربها). ويقال إن بارون ادموند دي روتشيلد، وهو من كبار الدعاة الى الصهيونية الخارجية، والذي كان وعد بلفور خطابا موجها إليه، يقال انه سئل عن المنصب الذي يريد أن يتبوأه في الدولة اليهودية، فقال إنه سيختار بالتأكيد منصب سفير الدولة في باريس أو لندن. وتدل إجابة البارون على أن إحساسه بكوميدية موقفه وتناقضه كصهيوني في الخارج- أو صهيوني متملص من الصهيونية- كان قويا. وكان تعليق بن جوريون على هذه الظاهرة يتسم بالمرارة، فقد لاحظ أنه بعد إنشاء الدولة الصهيونية لم يكن هناك سوى خمسة من الزعماء الصهاينة الذين «سارعوا بالذهاب إلى اسرائيل». وحينما قدم اقتراح في المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين في القدس (١٩٧٢)، بأن الزعيم الصهيوني الذي لايهاجر إلى اسرائيل خلال أربع سنوات من انتخابه لاينتخب مرة أخرى لأي منصب صهيوني، أثار هذا الاقتراح ما يشبه الثورة، وهددت رئيسة منظمة الهداسا (المنظمة النسائية الصهيونية) بالانسحاب إذا ما تمت الموافقة على هذا القرار.

وبالفعل تم العدول عنه، وعدنا للاسفنجية والصمت.

لكل هذا علينا أن نحاول أن نميز بين الصهيونية الاستيطانية الحقة والصهيونية الخارجية المربحة المسلية، وأن نتبع نصيحة بن جوريون فلا نصنف الصهاينة الخارجيين الذين لاينوون هم أو نسلهم الاستيطان في اسرائيل على أنهم صهاينة (اقترح بن جوريون تسميتهم «أصدقاء اسرائيل»)(٤٤).

١) انطلاقا من ذلك علينا أن نستبعد هؤلاء اليهود الذين يدفعون بسخاء للنداء اليهودي الموحد، ويقومون بشراء سندات، إسرائيل. فهم في أغلب الأمر لايدركون «المضمون القومي» للتبرعات التي يدفعونها. وقد صرح وايزمان بأن بعض اليهود قد يتبرعون بأموالهم من أجل إنشاء جامعة في القدس، بدوافع خيرية، غير أن مثل هذا العمل يعتبر من وجهة نظره هو تعبيرا عن «النهضة القومية»(٤٥). ولكن وجهة نظره هذه لاتغير من طبيعة الموقف، ولا من دوافع المساهم الذي يدفع ما يدفع لاحبا في «الوطن القومي اليهودي»، وإنما تعبير عن هويته اليهودية الأمريكية وعن سخائه «اليهودي» التقليدي! وعلى كل ذكر ريتشارد كروسمان أن وايزمان كان لايكن سوى الاحتقار لليهود المندمجين، ولكنه كان على استعداد دائم لجمع أموالهم من أجل مشروعه الصهيوني،(٤٦) أي أنه كان في واقع الأمر مدركا لحقيقة دوافعهم، وأنها ليست يهودية خالصة، وإلا لم كان يكن لهم الاحتقار بدلا من الشعور بالجميل والعرفان؟.

٢) علينا أيضا أن نستبعد هؤلاء اليهود الذين يدفعون تبرعات خشية الابتزاز الصهيوني، أو ليهدئوا ضمائرهم الصهيونية التي تعذبهم لأنهم يرفضون الهجرة الاستيطانية. وقد وصف آرثر هرتزبرج هؤلاء (بمقدرته الفائقة على نحت المصطلح) بيهود النفقة، أي أنهم يدفعون التبرعات للدولة الصهيونية لاحبا فيها، وإنما اتقاء شرها وشراء سكوتها عنه.

٣) وعلينا أن نستبعد أيضا هؤلاء اليهود الذين يذهبون إلى الاجتماعات الصهيونية متصورين أن هذه الاجتماعات لاتزيد عن كونها تعبيراً عن هويتهم اليهودية الأمريكية،فهم يذهبون إلى هذه الاجتماعات بهدف معايشة الجو الاثني

اليهودي الذي يفتقدونه في مجتمعهم، والذي يشعرون داخله بالاطمئنان، والذي يتعرفون من خلاله على هويتهم التي يتهددها المجتمع الاستهلاكي الحديث بالخطر. فهم في هذا لايختلفون كثيرا عن سلوك العرب/الامريكيين الذين يريدون الحفاظ على ما تبقى من هويتهم العربية ومن تراثهم العربي، وهذا الأمر لايتعارض مع المثل الحضارية الأمريكية التي تتسم الآن بالتعددية بعد سقوط فكرة ضرورة انصهار المواطنين الامريكان في بوتقة واحدة. وقد شبه مراقب سلوك هؤلاء الصهاينة موقفهم من الدولة الصهيونية بموقف الرجل الذي يحتفظ بعشيقته فيقضي معها بعض ساعات ملونة من المتعة (ليرفع معنوياته مثل الصهيوني الذي يذهب للمؤتمرات الصهيونية)، وهو يغدق عليها الأموال (مثلما يدفع الصهيوني بسخاء للدولة الصهيونية) ولكنه يعود في نهاية الأمر لزوجته الأمريكية الحقيقية، يعيش معها في السراء والضراء.

٤) وعلى المرء أيضا أن يستبعد من اصطلاح «صهيوني» هؤلاء اليهود الأمريكيين الذين يؤيدون إسرائيل لأنهم «مواطنون أمريكيون صالحون». فهم يظنون- عن حق أو عن غير حق- أنهم بتأييدهم إسرائيل إنما يخدمون وطنهم هم. إن النقطة التي يصدرون عنها هي الإيمان بضرورة «خدمة الوطن» الذي يعيشون فيه. ولعل هذا هو الذي يفسر سبب إصرار الزعماء الصهاينة على أن تكون المصالح الامريكية والإسرائيلية متماثلة حتى يتسنى لهم استغلال الأغلبية العظمى من يهود العالم الموجودين في الولايات المتحدة. وقد صرح برانديز، عام ١٩١٢، بأن «تعددية الولاء مرفوضة» إذا ما كانت الولاءات متعارضة، وأكد أن هذا الوضع لاينطبق على الصهيونية. ثم ذهب الى حد التصريح بأن «الولاء لأمريكا يتطلب أن يعتنق كل يهودي امريكي العقيدة الصهيونية، مع أنه يعلم تماما أنه لا هو، ولا حتى نسله، يمكن أن يعيشوا في فلسطين»(٤٧). وهذا أمر مفهوم طبعا في إطار تماثل المصالح بين الدولة الصهيونية والدولة الأمريكية، وفي إطار أن إسرائيل هي الخادم المطيع للمصالح الأمريكية في المنطقة. ولكن هذا لا يجعل مثل هذا اليهودي «صهيونيا»، وإنما يجعل منه مواطنا أمريكيا يهوديا مؤمنا بأهمية إسرائيل في

خدمة مصالح بلاده الامبريالية، وهو في هذا لايختلف عن أي مواطن مسيحي أو بوذي، من أصل الماني أو ياباني، يتخذ الموقف نفسه للسبب عينه. إن تأييد هذا المواطن اليهودي لإسرائيل ليس تأييدا عقائديا، وإنما هو تأييد عملي مرتبط بظروف وحسابات سياسية معينة،وقد يتغير بتغييرها. وقد يحدث هذا التغيير، في حالته، ببطء شديد، ولكنه سيحدث لا محالة إذا ما تغيرت الأوضاع.

٥) قد يكون من الهام من الناحية التحليلية أن نستبعد من اصطلاح صهيونية استيطانية أولئك اليهود الذين يستوطنون لأسباب اقتصادية.

وعندما ننظر إلى المهاجرين اليهود، من الاتحاد السوفيتي، لايستطيع أحد أن يثبت أن أغلبيتهم تذهب إلى إسرائيل لأسباب اخرى غير الاسباب الاقتصادية البحتة. فاسرائيل بالنسبة لبعضهم ليست «وطنا» على الاطلاق، والكثير منهم لايعرف العبرية، بل إن بعضهم من غير اليهود غادروا الاتحاد السوفيتي مع أزواجهم أو زوجاتهم اليهود(٤٨). «وفي مقال نشر في مجلة نيويورك تايمز- بعنوان «وحيد بلا رفيق في أمريكا»- وصف بعض المهاجرين الأسباب التي دعتهم إلى ترك الاتحاد السوفيتي، فقال أحدهم: إن «الحياة هناك أصبحت مملة». وقال أحد اساتذة علم الجبر: إنه ترك الاتحاد السوفيتي لأنه أدرك ان الوقت قد حان لأن يفعل ذلك، وأشار مهاجر ثالث إلى أنه ترك الاتحاد السوفيتي لأنه يريد أن يعيش حياة «أفضل». وحتى يؤكد مدى عمق التزامه بهذه الفلسفة قال: إنه جاء «لا ليشتري سيارة، ولكنه ليكون لديه سيارة بمحرك أكبر». وقد خرج أحد مصممي الأزياء عن القاعدة عندما وجد أن حياته كيهودي في الاتحاد السوفيتي لم تعد تحتمل، ومع هذا فضل أن يستقر في الولايات المتحدة الامريكية عن أن يذهب إلى إسرائيل(٤٩). ومن المستحيل أن نعرف كم مهاجرا (سوفيتيا) يشبه ايفان الذي ترك إسرائيل بعد أن عمل سنة في الكيبوتز، لأنه يكره «التعصب الديني والطقس الحار»، وكأنه كان يتوقع أن تكون أرض الميعاد في القطب الشمالي أو على مقربة منه على أسوأ تقدير، أو لعل الحركة الصهيونية قد وعدته بأرض ميعاد مكيفة الهواء.

وقد وصفت إحدى المؤسسات اليهودية المهاجر اليهودي النموذجي بأنه شخص لم يهرب من الاضطهاد، وإنما هاجر بناء على إرادته، ولدوافع غير عقائدية أساسا.» وقد أيدت نتائج هذا التقرير تقريرا آخر نشره مجلس المعابد اليهودية في نوفمبر ١٩٧٤ جاء فيه أنه بينما ينظر الأمريكيون إلى الحملة من أجل الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي على أنها محاولة لإنقاذ بقايا الشعب اليهودي هناك فإن المهاجرين السوفيت لايشاركون في مثل هذه الأوهام الرومانتيكية(٥٠)، أو الديباجات الصهيونية.

وكما صرح إسرائيل فاينبلوم (المهاجر السوفيتي المقيم في إسرائيل(٥١) وهو صهيوني حقيقي) في (٣٠ ابريل ١٩٨٧ الجيروساليم بوست) أنه ضمن الـ ١٦٣ الف مهاجر سوفيتي الذين استقروا بالفعل في اسرائيل حضر ٢٠٪ منهم وحسب بسبب الدوافع الدينية أو النفسية (اي العقائدية)، أما الآخرون فقد وجدوا أنفسهم في إسرائيل «على حد قوله».

وإذا كان اليهود السوفيت ينقصهم الدافع العقائدي الصهيوني فإن الكثير من الصهاينة الامريكيين ينقصهم مثل هذا الدافع أيضا، على الرغم من كل ادعاءاتهم. وقد صرحت مجموعة من اليهود الامريكيين، لأحد الصحفيين الاسرائيليين، بأن «عملية الهجرة إلى اسرائيل ماهي إلا الجانب الآخر لعملية الاستيعاب». وقد كان تعليق محرر معاريف ذا دلالة إذ قال: «في مقابل حصولهم على كذا مترا مربعا للاسكان، وفي مقابل كذا من الأجور، وغيرها من الامتيازات، يصبح هؤلاء الناس على استعداد لأن يسيروا في مقدمة المناضلين من أجل الوجود اليهودي»(٥٢).

هذا، ومن المعروف ان الوكالة اليهودية قد أغلقت مكاتبها الخاصة بالهجرة في عدد من المدن الأمريكية لعدم وجود راغبين في الاستيطان في اسرائيل، ومع هذا بدأت الوكالة اليهودية في البحث عن مهاجرين من بين صفوف اليهود العاطلين في مدينة نيويورك وما حولها. ولا أعتقد أنه يمكن تسمية هؤلاء الذين استجابوا لنداء الوكالة «صهاينة»، أوحتى من أصدقاء إسرائيل، وإنما هم «عاطلون»

يبحثون عن فرص للعمل، واذا تصادف وجود مثل هـذه الفرص في الارض المقدسة، ارتس يسرائيل، فلم لا؟.

بل إن تآكل مركزية المستوطن واحجام اليهود عن الهجرة لأسباب عقائدية يتضح أكثر ما يتضح في المنطق الذي تستخدمه الدعاية الصهيونية الآن بين صهاينة ويهود الخارج لإثارة حماسهم للمشروع الصهيوني. وقد طرح أخيرا أحد المستوطنين مشروعا للتعاون بين أعضاء الأقليات في اسرائيل يركز على مقدرات اعضاء الأقليات المهنية والفكرية، وينطلق من حقيقة معاصره وهي أن رأسمال عصر العلم هو العقول ـ تماما كما كانت النقود هي رأسمال عصر الصناعة ـ. ولذا نادى بتحويل إسرائيل إلى أول مجتمع في عصر الفضاء واكثرها تركيبا من الناحية التكنولوجية والعلمية والثقافية. وبذا تصبح قوة عظمى صغيرة في صادرات التكنولوجيا بحيث تحل مشكلة ميزان المدفوعات، وترفع مستوى مواطنيها، وتسد الهوة الاجتماعية الاثنية داخل المجتمع الصهيوني، وأخيرا تضمن استمرار وجود الهوة الكيفية بينها وبين جيرانها العرب.

ومن ثم لن يطلب من اليهود الهجرة، وإنما سيطلب منهم إقامة مشاريع في إسرائيل ذات طابع كيفي متميز. ويمكنهم عن طريق هذه المشاريع قضاء أوقات أطول في إسرائيل، والمساهمة بكفاءتهم العلمية والتكنولوجية دون أن يهاجروا إليها بالضرورة، كما يمكنهم أيضا المساهمة في استيراد وتسويق السلع الإسرائيلية، بل يمكن أن يتحولوا إلى وكلاء يتقاضون عمولة (محترمة) تستخدم لتمويل المشاريع المختلفة(٥٣). وكل هذه مهمات خطيرة، والمشروع لاشك ينم عن قدر كبير من الذكاء. ولكن ما يهمنا في إطارنا التحليلي هو أن الكاتب لا يهيب بوحدة الشعب اليهودي الأزلية، وإنما يتوجه للرغبة في تحقيق الذات والطمع في الربح، وبذا تحول صهيون من ديزني لاند أو «فندق صهيون» إلى «معمل صهيون العلمي»، أو «شركة صهيون الاستثمارية المربحة»، بل إنه يتم «بيع» الهجرة الصهيونية ذاتها باللجوء للدافع نفسه. فقد ظهر مؤخرا في الجيروساليم بوست إعلانا يحث على الهجرة إلى اسرائيل، ولم يذكر فيه أي مصطلح من المصطلحات الصهيونية

المألوفة، وإنما كانت اللغة نفعية استهلاكية. فإسرائيل حسب الإعلان ليست أرض الميعاد ولا مسرح الخلاص، وإنما هي بلد تتوفر فيه أسباب الراحة المادية للمهاجر حيث يمكنه أن يمتلك بيتا واسعا كبيرا بشروط ائتمانية سهلة وبالتقسيط المريح. وبذا يمكن القول: إن الجماعة اليهودية هي التي غزت الدولة الصهيونية، وليس العكس، أو لعلنا نكون أكثر دقة لو قلنا إن الاستهلاكية الغربية هي التي غزت الجميع. ولكن إذا كانت الاستهلاكية الغربية هي النسق القيمي الذي يحيط بالجميع، واذا كان المستوطنون أنفسهم يدينون بوجودهم وأمنهم للمعونات الأمريكية. أليس من المنطق أن ينتقل مركز الجاذبية من إسرائيل إلى الولايات المتحدة والدول الغربية. وتصبح الدولة الاستهلاكية العظمى في أمريكا،وليست الدولة الصهيونية الصغرى في فلسطين، هي محط الآمال. وقد ظهرت تنظيمات يهودية في الولايات المتحدة تعبر عن هذا التملص من أهمها جماعة بريرا وهي جماعة يهودية أمريكية اطلقت على نفسها هذا الاسم- وهو كلمة عبرية تعني «الاختيار»-للرد على الشعار الاسرائيلي «اين بريرا» ein briera (أي «لا اختيار»). وقد ازدهرت هذه الجمعية في منتصف السبعينات. وكانت تضم في صفوفها تحالفا بين اليهود المتدينين (محافظين واصلاحيين وارثوذكس) ويهود غير متدينين. وعلى الرغم من أن اعضاء بريرا كانوا يسمون أنفسهم «صهاينة»، ويتبنون كثيرا من المواقف الصهيونية، ويؤكدون على حق اسرائيل في البقاء إلا أن الصهيونية التي كانوا يؤمنون بها كانت صهيونية غربية مخففة، صهيونية الإحسان والانقاذ والحفاظ على الهوية اليهودية أينما وجدت، أي أنها تؤمن بمركزية الدياسبورا (الأقليات) في الولايات المتحدة وغيرها من الدول). وهم لهذا السبب كانوا يحاولون الحفاظ على مسافة بينهم وبين الدولة الصهيونية ليضمنوا استقلالهم الثقافي. كما أنها صهيونية دخل عليها قيم دينية واخلاقية جعلت من المستحيل على أعضاء بريرا تقبل سياسات إسرائيل دون تساؤل. وقد كان أعضاء هذه الجمعية يشجعون الاتجاهات «المعتدلة»، داخل إسرائيل وينشئون علاقات مع من يطلق عليهم الحمائم، كما أنهم كانوا يؤيدون

حق تقرير المصير للفلسطينيين. لكل هذا لم تكن المؤسسة الصهيونية سعيدة للغاية بوجود هذه المنظمة، وقضت عليها في نهاية الأمر.

ولكن مع اوائل الثمانينات ظهرت جماعة جديدة تضم التحالف القديم نفسه. (١٤٣) وكثير من شخصياتها يسمى الأجندة اليهودية الجديدة New Jewish Agenda. وهي تهدف لملء الفراغ الذي خلفته بريرا وتحاول في الوقت ذاته ألا تلقى المصير نفسه. وهي تطرح الافكار نفسها التي طرحتها جماعة بريرا تقريبا، وتعبر عن التناقض نفسه الكامن في الفكر الصهيوني بين صهيونية الإحسان والانقاذ الغربية وصهيونية الاستيطان الشرقية. كما أنها تحاول أن تطبق صيغة صهيونية معتدلة أو مقلصة بما في ذلك الاعتراف بحق تقرير المصير للفلسطينيين والدفاع عن صهيونية الخط الأخضر، أي النشاط الصهيوني داخل حدود ١٩٤٨. والمنظمة الصهيونية- مرة اخرى- ليست سعيدة للغاية بهذه الجمعية وتحاول تصفيتها. وقد تلقى بعض اعضاء الجمعية خطابات تهديد من اتباع كاهانا في الولايات المتحدة. وقد انضم الحاخام الاسكندر شندلر إلى جماعة صغيرة تضم الحاخام جرسون كوهين Gerson Cohen (عميد الكلية اللاهوتية اليهودية Jewish Theological Seminary) تنادي بأن يهود أمريكا ككل يمكنهم الاحتفاظ باهتمامهم باسرائيل وفي الوقت ذاته عليهم أن يصوغوا مصيرهم المستقل» دون تقبل لمركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا(٥٤). وظهور مثل هذه الجماعة الصغيرة (التي تضم شخصيتين يمكن اعتبارهما من أهم الشخصيات اليهودية في الولايات المتحدة. ويقعان على رأس اليهودية الإصلاحية والمحافظة اللتين تضمان أغلبية يهود أمريكا) هو تعبير عن تزايد التمسك «بمركزية الدياسبورا (الأقليات). والجمعيات- مثل بريرا اليهودية الجديدة- تجتذب عادة العناصر. ولكن تأكيد «الشتات» ومركزيته ورفض الهجرة لاسرائيل إن هو إلا تملص، اي رفض اسفنجي صامت للصهيونية، ولايمكن مقارنته، بأي حال مع حركات الرفض الأولي، ولكن تكمن أهمية الأشكال الجديدة الاسفنجية للرفض في أنها تساعد الدارس على تقويم القوة الذاتية الحقيقية للصهيونية. واعتقد أن

النضال العربي ضد الصهيونية، في الشرق الأوسط، وهو الساحة الاساسية التي يتم فيها النضال ضد الصهيونية، سيساعد حركات الرفض اليهودية في العالم، وسيشد من أزرها، لأن الصهيونية ستظهر على حقيقتها: أكذوبة لاسند لها في الواقع، لم تكتسب مقومات الحياة إلا من خلال العنف.

وقد نجحت الانتفاضة بالفعل في فك قبضة الصهاينة عن يهود العالم فازدادت احتجاجاتهم وزمجرتهم وقلقهم. ولعل من أهم الاصوات التي ظهرت معبرة عن القلق هي صوت المحافظين الجدد وهو اتجاه فكري بين اليهود المؤيدين لريجان يقال إنهم ساهموا في صياغة كثير من أفكاره الاستراتيجية بخصوص زيادة التسلح والتخلي عن الوفاق واتخاذ سياسة نشطة ضد الاتحاد السوفيتي، ودعم حلفاء الولايات المتحدة (بما في ذلك اسرائيل) في سياسة المواجهة مع الاتحاد السوفيتي. ولذا كان أعضاء هذا الاتجاه ضد أي ضغط على اسرائيل للانسحاب من الضفة الغربية لتهدئة الرأي العام العالمي فسياسة ريجان بخصوص الشرق الأوسط في واقع الأمر كانت مستمدة من توجيهات هذه الجماعة. وقد وصفت الجير وساليم بوست صوتهم بأنه يعبر الآن عن اليأس الهادىء. وقد قال نورمان بودورتز، رئيس تحرير مجلة كومنتاري المعبرة عن هذا الاتجاه: «إن الأمر الواقع لايمكنه الآن الاستمرار ولكن بدائل الاحتلال المستمر غير سارة وخطيرة» أي لاخيار. وهذا اليأس الهادىء هو دليل على التراجع دون شك. وقد وافقه آدام جارفنكل منسق الدراسات في معهد أبحاث السياسة الخارجية (الذي يتبنى خطا محافظا جديدا) فقد قال: إن كل الخيارات تتضمن مخاطر لايمكن تقبلها وتشكل كوارث من الناحية الأمنية والسياسية والأخلاقية. والنخبة الإسرائيلية تعرف ذلك، وتعرف أنه لامخرج «ولذا فهم يصورون المشكلة على أنها قضية علاقات عامة. . . إن السير أثناء النوم الذي نراه الآن في النخبة الإسرائيلية يعود إلى ايمانهم انه لا يوجد شيء يمكن القيام به»، بل إن جارفنكل تنصل من الخط الذي كان يتبناه المحافظون الجدد وهو ضرورة ترك اسرائيل وشأنها وقال: «إن إرادة ريجان قد اختارت بمحض ارادتها ألا تقوم بشيء درامي علني في الشرق الأوسط لان أي شيء من هذا

القبيل مصيره الفشل. . . إن الموقف في اسرائيل يحطم قلبي حقا، واشعر بالاضطراب والضياع وأنا على استعداد أن اتقيأ كلما قرأت النيويورك تايمز. أما ارفنج كريستول، وهو اكثر اعضاء هذا الاتجاه أهمية فتشكل تصريحاته تراجعا هاما إذ نصح الإسرائيليين ان يقرروا مساحة الأراضي التي يودون الاحتفاظ بها، وأن يرسموا الحدود ثم ينسحبون. «ولا أرى لم تصاب اسرائيل بالرعب من دولة في الضفة الغربية تحكمها منظمة التحرير الفلسطينية(٥٥)

ولكن ليس كل يهود العالم مصابين بهذه الفوضى وهذا الضياع، فوودى ألن الكوميدي الشهير كتب مقالا في النيويورك تايمز يعلن احتجاجه الكامل ضد القمع الصهيوني للمواطنين العرب. وقد عبر هنري سايجمان المدير التنفيذي للمؤتمر اليهودي الأمريكي وثيودور ايلينوف رئيس اتحاد الابراشيات العبرانية الأمريكية(٥٦)، وكذلك ارفنج هاو الكاتب الشهير وآرثر هرتزبرج وهو استاذ بجامعة كولومبيا ومن أهم المفكرين الصهاينة. كل هؤلاء، وغيرهم، عبروا عن احتجاجهم. بل إن أعضاء الاجندة اليهودية الجديدة نظموا مظاهرة صغيرة أمام القنصلية الاسرائيلية في نيويورك. (٥٧) وقد كان صوت شندلر، وهو من أهم الشخصيات اليهودية في الولايات المتحدة، مرتفعا في احتجاجه، فقد اكد أنه يهاجم اسرائيل «لأن مصداقية يهود الولايات المتحدة اصبحت أمرا مشكوك فيه، «إذ إنهم دائما في طليعة النضال من اجل العدالة الاجتماعية، وقد سألنا الناس كيف يمكننا أن نلزم الصمت؟ ثم استمر شندلر قائلا: «إن اسرائيل ضيعت كثيرا من الفرص في الماضي». فالاعتقاد بأن العرب في الأراضي (المحتلة) سيقبلون في نهاية الأمر بمفهوم اسرائيل العظمى إذا ماتحسن وضعهم الاقتصادي كان اعتقادا خاطئا. وشعار اين بريرا (لاخيار) يعكس غياب الارادة السياسية. فهذا لم يكن وصفا للواقع. واتفق تماما مع بيريز أن الوضع القائم قنبلة زمنية». وقد طالبت سبع شخصيات يهودية بريطانية بينها ثلاثة حاخامات حكومة اسرائيل بضرورة الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني(٥٨). إن ارتفاع كل هذه الأصوات أكبر دليل على مقولتنا إن يهود العالم قد خضعوا صاغرين للصهيونية،

وانه حينها تتاح لهم الفرصة فإنهم سيعبرون عن مصالحهم الحقيقية، وهي ليست بالضرورة متماثلة مع المصالح الصهيونية، وبهذا لايكون النضال العربي ضد الصهيونية مجرد نضال لتحرير الأرض العربية والانسان العربي فحسب، وانما هو أيضا نضال من اجل تحرير الانسان اليهودي الذي أخفق في كفاحه ضد ايديولوجية عنصرية هيمنت عليه وعلى معتقداته.



الفصل الثامن

مشكلة الشرعية الصهيونية

اخفقت الصهيونية ـ كما اسلفنا ـ في اجتذاب يهود العالم الذين تتركز أغلبيتهم في العالم الغربي، وفي تحويل الدولة الصهيونية مركزا لهم، فهم يشعرون أن الصهيونية لا تجيب عن الأسئلة التي يواجهونها في حياتهم إذ إنهم يحلون مشاكلهم داخل إطار مجتمعاتهم الغربية من خلال مؤسساته المختلفة عن طريق الانتخاب والنظم التشريعية والتنفيذية والقضائية المختلفة. وحتى مشكلة المعنى التي يواجهها يهود العالم الغربي (شأنهم شأن كل أعضاء المجتمعات الغربية) فإنهم يحلونها داخل إطار هذه المجتمعات. وقد بينا أن الصهيونية، على مستوى من المستويات، لم تخفق في مساعدتهم فحسب، بل إنها خلقت لهم العديد من المشاكل من خلال تدخلها في شؤونهم الداخلية كما أنها تقوم بابتزازهم.

وإذا كانت الصهيونية قد اخفقت مع يهود وصهاينة الخارج فانها أخفقت في الداخل أيضا ـأي في إسرائيلـ وتسببت في خلق مشكلتين جديدتين وهما المسألة الإسرائيلية والمسألة العربية الفلسطينية. وحيث إن هذا كتاب يتناول الأيديولوجية الصهيونية فسنكتفي بالتعرض للمسألة الإسرائيلية، وستعرض للمسألة الفلسطينية بمقدار تماسها مع المسألة الإسرائيلية.

ولا بد من أن نميز بين المسألتين اليهودية والإسرائيلية إذ إن الخلط بينهما هو فى نهاية الأمر تقبل للمقولات الصهيونية الخاصة بوحدة الشعب اليهودي ووحده تاريخه وتراثه، وهي مقولات ليس لها ما يساندها في الواقع. ولو بحثنا عن العناصر المشتركة بين المسألتين لاكتشفنا أنها لا وجود لها. فالمسألة اليهودية (بصيغة الفرد) هي مشكلة يهود شرق أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، أثناء مرحلة تعثر التحديث وما نجم عن مشاكل للجماعات اليهودية والشعوب والاقليات الأخرى داخل الامبراطورية الروسية من خلال التأقلم مع الاقتصاد

الجديد. ونحن ـ العرب. لا علاقة لنا بهذه المشكلة، إذ إننا لم نتسبب فيها، بل لعل كثيرا من المفكرين العرب لم يسمعوا عنها في حينها، إذ إنها لا تنتمي إلى البنية التاريخية العربية. وعلى كل لم تعد المسألة اليهودية مشكلة مطروحة، فقد تم حلها بطرائق مختلفة (انظر الفصل الأول).

أما المسألة الإسرائيلية، فهي مشكلة أعضاء التجمع الاستيطاني الصهيوني، وخصوصا جيل الصابرا، الذي ولد على أرض فلسطين، ونشأ فيها، ولا يعرف له وطناً آخر، ولا يتحدث سوى العبرية. وهذه المسألة نحن طرف فيها، ولايمكن حلها دون تدخلنا، إذ إنها مسألة توجد في صميم البنية التاريخية العربية. وعلى الرغم من أن المسألة اليهدوية هي التي أفرزت المسألة الإسرائيلية (إذ إن الصهيونية، في محاولتها فرض حلها للمسألة اليهودية بمساعدة الإمبريالية، نجحت في التأثير عل بعض اليهود المهاجرين إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلاد لتحويلهم إلى فلسطين، على الرغم من كل هذا فإن المسألتين منفصلتان تماماً وتنتميان إلى بناءين مختلفين، وعملية الربط بينهما هي محاولة للتعمية ولطمس معالم كليهما. ومن مصلحة الصهيونية افتراض وحدة المسألتين، حتى تربط أمن الدولة الصهيونية بأمن الإسرائيليين، وبأمن الجماعات اليهودية في العالم معاً، وحتى تفرض على يهود العالم فكرة الشعب اليهودي الواحد وكل المقولات الصهيونية الأخرى.

وقد خلقت الصهيونية المسألة الإسرائيلية ولم تأت بحل لها. ولذا لاتخلو صحيفة إسرائيلية من عبارات مثل «أزمة الصهيونية في الثمانينات»، و«هل تغلق دكان الصهيونية(١)» و«الملك يحتضر(٢)». ويتحدث ناحوم سولن عن «صهيونية من دون روح صهيونية، ويشير إلى ما سماه «انحسار الصهيونية»(٣). والدارس للمؤتمرات الصهيونية الذي يضطره ضميره العلمي والوطني أن يقرأ وقائع ما يدور فيها يصاب بالغثيان والملل. فكل القضايا التي طرحت من قبل تطرح مرة أخرى. فالمؤتمر الواحد والثلاثون الذي عقد في نهاية عام ١٩٨٧م طرح مرة أخرى «تصفية الأزمة التي تجتازها المنظمة الصهيونية وفشلها في جلب المهاجرين ومشكلة

الحدود» وعشرات القضايا الأخرى التي لا يغير فيها سوى الاسم(٤).

وقد كتب إسرائيلي خبيث في باب العمود الخامس من الجير وساليم بعنوان «الصهيونية الخالدة». والمقال عبارة عن حوار بين متشائم ومتفائل. يعلن الأول موت الصهيونية بينما يؤكد الثاني خلودها». فالهجرة الصهيونية من الولايات المتحدة لاتزال على قدم وساق. فالقنصلية الإسرائيلية في نيويورك أرسلت مائة نعش ـ إذ إن يهود أمريكا يحبون أن يدفنوا في إسرائيل ـ .المهاجرون يحضرون إذاً ولكن في قسم البضائع، والتظاهرات الصهيونية لاتزال تعقد ولكن في مكاتب الجنازات وتطرح الشعار التالي: «أعطوني المؤمن عليهم، الموتى، الموميات، التي تود أن ترقد حرة» (وهذا معارضة ساخرة للشعار المكتوب على تمثال الحرية). «ورغبة اليهود الأمريكيين في أن يدفنوا في إسرائيل هي أكبر دليل على أنهم قد يعهدون بوجودهم الزمني للولايات المتحدة، ولكن حينما يختص الأمر بالأبدية فإنهم يعرفون أن وطنهم الحقيقي هو إسرائيل [ومن هنا الصهيونية الخالدة]. كان بوسعهم أن يدفنوا في إحدى المناطق كثيفة الأشجار في الولايات المتحدة، ولكنهم يفضلون الريادة في أرض الميعاد بين شعبهم في تابوت خشبي. . . ويالهم من مهاجرين شجعان مخلصين. . . لا تراهم قط يتألمون من مفارقة أوطانهم ولا من أن مدينة بكين يوجد فيها كنتالي فرايد تشيكن ولا يوجد في إسرائيل، بل إنك لا تراهم على الاطلاق وهذه هي الطريقة التي يفضل الإسرائيليون أن يروا عليها المهاجرين إليهم. حمدا للسماء كنا نظن طوال الوقت أن الهجرة الأمريكية قد انتهت. . . ولكننا نعرف الآن الحقيقة. . . إن الأمريكيين «يموتون» من أجل الحضور إلى إسرائيل»(٥).

إن هذا المقال الكوميدي ليس مجرد نكتة رائعة، أو قطعة أدبية جميلة، وإنما هو تعبير عن أزمة عميقة، ودراسة أزمة مجتمع ما تشكل تحدياً خاصاً إذ إن فهمها والحكم عليها لا يتطلبان فهم أداء الفاعل فحسب (أي الرصد من الخارج)، وإنما فهم دوافعه والمعنى الذي يضفيه على أفعاله وأفعال الآخرين. وهذا ما سنحاول انجازه في عرضنا هذا لأزمة الصهيونية الاستيطانية.

وعناصر الأزمة متشابكة ، كما سيتضح لنا أثناء التعرض لجوانبها ـكل على حدةـ. فمشكلة الهوية مرتبطة بالأزمة السكانية (الديموغرافية)، وكلاهما مرتبط بأزمة الهجرة والاستيطان وبقضية تطبيع الشخصية اليهودية». وأزمة صهاينة الداخل مرتبطة من بعض النواحي بأزمة صهاينة (ويهود) الخارج، وتتبلور العناصر في قضية اليهود الشرقيين (من السفارد واليهود العرب ويهود البلاد الإسلامية). ورغم علمنا بهذا التشابك إلا أننا فصلنا العناصر بعضها عن بعض كضرورة تحليلية.

قضيـــة الهويـــة :

لعل أولى الخطوات التي تتخذها أي حركة بعث قومي أو حركة تحرر وطني هي تحديد «النحن» و«الهم»، ومن يقع داخل نطاق الهوية ومن هو خارجها. وهذه الخطوة ليست أكاديمية أو حماسية أو مجرد ديباجة تبريرية «وإنما هي قول من صميم الفعل السياسي، إذ إنها خطوة ضرورية لصياغة المشروع» بجميع جوانبه الحضارية والسياسية والاقتصادية ولتعريف من سيتم تجنيده ومن سيتم استبعاده، ومن هو الصديق ومن هو العدو. ولكن الصهيونية ـكما اسلفناـ ليست حركة قومية أو تحررية أو حركة تحرر وطني، وإنما هي مجموعة من الأقوال أفرزتها الظروف المؤقتة الخاصة بالتحديث المتعثر/ المتوقف في شرق أوروبا من ١٨٨٢ ـ ١٩١٧، وهي أقوال تبناها التشكيل الاستعماري الغربي ووظفها لصالحه من خلال استخدام قيادات المادة البشرية اليهودية التي فرضت على بعض أعضاء الجماعات اليهودية مفهوم الشعب اليهودي الواحد (واليهودي الخالص). وقد أشرنا إلى الصراع الذي نشب بين دعاة الديباجة العلمانية والديباجة الدينية بخصوص مصدر «يهودية» اليهودي الخالص، وهل هي «التطور التاريخي اليهودي» و«التراث اليهودي» أم أنها هي الاختيار الالهي والتاريخ المقدس، وارجىء حسم الخلاف واتفق الجميع على الإشارة إلى الجماعات اليهودية بكل تنوعهم على أنهم «اليهود» أو «الشعب اليهودي» بشكل عام مطلق مع التزام الصمت تجاه رقعة الخلاف.

وقد ظلت حالة اللاحرب واللاسلم سائدة حتى إقامة الدولة حين أصدر قانون العودة الذي يعطي لأي «يهودي» الحق في الاستيطان في فلسطين استنادا إلى «يهوديته» التي لم يتم تعريفها! وبذا تم وضع قضية الهوية على المحك (بل تم وضع قضايا أخرى مثل «الشخصية اليهودية»، و«وحدة الشعب اليهودي»). وقد بدأت المشاكل في التفاقم على التو بهجرة يهود الهند المعروفين باسم بني إسرائيل إذ لم تعترف دار الحاخامية بيهوديتهم. وقد حاول بن غوريون أن يحسم القضية فكتب لعدة شخصيات «يهودية» (على أساس ديني وأثني) في انحاء العالم يستفتيهم في الأمر، فجاءته الإجابة معبرة عن الواقع غير المتجانس إذ إن تبني بعضهم مقاييس الشريعة اليهودية (اليهودي هو من ولد لأم يهودية أو من تهود). وتبنى البعض الآخر المعيار الشخصي (اليهودي هو من يعتبر نفسه كذلك)، بل تبنى نفر ثالث معيار القسر الخارجي (اليهودي هو من يعتبره الآخرون كذلك!). ومساحة الاختلاف هنا واسعة لأقصى حد لأنه لا ينصرف إلى منطوق التعريف أو حتى إلى بعض جوانبه الفرعية وإنما إلى أساسه ذاته. وقد فجر الموقف الأخ دانيال (اليهودي البولندي الذي تنصر وتحول إلى راهب كاثوليكي) حين هاجر إلى إسرائيل، وطلب اعتباره يهوديا بمقتضى قانون العودة والشريعة اليهودية (من ولد لأم يهودية حتى لو تحول عن الديانة اليهودية). وقد رفضت المحكمة العليا طلبه واعترفت أن حكمها منافٍ للشريعة اليهودية! وقد تم تعديل قانون العودة بحيث عُرّف اليهودي بأنه من ولد لأم يهودية بشرط ألا يكون على دين آخر، كما نص على أن اليهودي هو المتهود. ولكن هذا الحل لم يرض المؤسسة الدينية التي تريد إضافة عبارة «تهود حسب الشريعة» وهي عبارة تعني في واقع الأمر تهود على يد حاخام ارثوذكس».

وقد يقول قائل إن هذه الاشكالية هي من مخلفات الماضي، وهي من الأمور الشكلية التي لا تمس الجوهر، ولن تؤثر في سلوك المستوطن الصهيوني من قريب أو بعيد. ولكن هذا سيكون من قبيل «تطبيع» النسق السياسي الصهيوني أي أن النظر إليه كما لو كان نسقاً سياسياً طبيعياً ليس له ظروفه الخاصة التي تحدد طبيعته

الخاصة فتعريف اليهودي مسألة أساسية للعقد الاجتماعي الصهيوني للأسباب التالية:

١) إذا كان تعريف المسيحي في الولايات المتحدة مسألة شكلية فهذا يعود إلى أن حكومة الولايات المتحدة لا تبحث عن شرعية مسيحية، فمصادر شرعيتها تقع خارج نطاق الديانة المسيحية والتراث المسيحي ككل. أما الدولة الصهيونية فهي تدعي أنها «يهودية» وأنها تجسد قيما (اثنية دينية أولادينية) يهودية، وأنها استمرار للدولة اليهودية القديمة (ولذا يطلق الصهاينة على إسرائيل اصطلاح «الهيكل الثالث»). وهي انطلاقا من هذا تطلب من اليهود الالتفاف حولها ودعمها، وباسم هذه اليهودية المزعومة تقوم بضم الأراضي. فالفشل في تعريف من هو اليهودي يضعف من مقدراتها التعبوية ويضرب في صميم أسطورة الشرعية.

٢ ـ تُدعى الدولة الصهيونية أنها دولة كل اليهود في أنحاء العالم. ومن المعروف أن المؤسسة الارثوذكسية تصر على أن التهويد يجب أن يتم على يد حاخام ارثوذكس، وهذا يعني في واقع الأمر استبعاد أكثر من ٨٠٪ من يهود العالم الذين يعرفون اليهودي على أسس لادينية أو لا يقبلون باليهودية الارثوذكسية. فأغلبية يهود الاتحاد السوفيتي قد تحولوا إلى يهود اثنيين، والمهاجرون منهم حينما يصلون إلى إسرائيل يواجهون الكثير من المتاعب بسبب اصرار المؤسسة الارثوذكسية على تعريفها. كما أن كثيراً منهم متزوج زيجات مختلفة (أي من غير اليهود)، وبالتالي لا تعترف المؤسسة الارثوذكسية بأولادهم كيهود. أما يهود الولايات المتحدة فأعداد كبيرة منهم من الإصلاحيين والمحافظين الذين لا يعترف الارثوذكس بيهوديتهم. وقد طُرح مؤخرا حل صهيوني اسفنجي هلامي باعتبار قانون العودة قانوناً سياسياً لمن يشاء وقانونا دينيا لمن لا يرضى بهذا الحل، ويمكن لكل فريق أن يفسّره بالطريقة التي يراها على أن تحتفظ السلطة الارثوذكسية بسلطتها كاملة في

أمور الأحوال الشخصية وفي عمليات التهويد التي تتم داخل إسرائيل، وفي هذا عودة للابهام الأول وللمربع صفر.

٣ ـ تفجرت القضية داخل إسرائيل ذاتها في المعركة بين الدينيين واللادينيين. فالمؤسسة الدينية ترى أن الدولة اليهودية لا بد من أن تتبع القيم الدينية/ الاثنية فتقيم شعائر الدين اليهودي وتمنع الإباحية وتغلغل الممارسات اللادينية (مثل البغاء والصور الفاضحة وأكل لحم الخنزير الذي يستهلكه الإسرائيليون بشراهة). أما العناصر اللادينية فهي لا تكترث كثيرا بالمضمون الديني لهذه الشعائر وترى أنها شكل من أشكال الفولكلور والموروث القومي. وقد قام اللادينيون بحرق أحد المعابد اليهودية وهذه واقعة مرتبطة في وجدان أعضاء الأقليات بالنازية ومعاداة اليهود.

٤) عرفت الصهيونية في أول أيامها اليهودي على أنه اليهودي الأبيض (أي الاشكناز)، وهي في هذا كانت متسقة تماما مع نفسها، فهي كانت تقدم نفسها على أنها تجربة تتم داخل إطار التشكيل الاستعماري الغربي، ولكن نظراً لملابسات الاستيطان ذاتها وطبيعة التكوين الاثنى للمهاجرين فقد تم اخفاء هذا التعريف، الذي يعادل بين اليهودي والاشكنازي، عن الانظار. ولكن اخفاءه عن الانظار (أي اللجوء للحل الاسفنجي) لا يحل المشكلة إذ إن القضية تثار بأشكال متفاوتة في الحدة. فالرؤية الكامنة التي توجه الدولة الصهيونية لاتزال أولا وأخيرا رؤية اشكنازية تحاول القضاء على الأشكال الحضارية «الشرقية» التي أحضرها اليهود الشرقيون معهم (من السفارد واليهود العرب ويهود البلاد الإسلامية). وقد أدى وصول الفلاشاه إلى طرح القضية مرة أخرى، إذ لم تعترف دار الحاخامية بيهوديتهم وطلبت منهم أن يتهودوا! كما أن لونهم الأسود قد أثار العنصرية البيضاء القديمة بين الاشكناز.

٥) مما يزيد مسألة الهوية تعقيدا ظهور «هوية إسرائيلية جديدة بين جيل الصابرا

من الاشكناز تتسم بسمات عديدة من بينها احتقار عميق ليهود العالم («وعقلية المنفى») وعدم اكتراث بالقيم التي تنعت «باليهودية» في القول الصهيوني. وقد وسم عالم الاجتماع الفرنسي جورج فريدمان الصابرا بأنهم «أغيار يتحدثون العبرية»، ويجد البعض صعوبة بالغة في تصنيف هوية هؤلاء على أنها «يهودية».

كل هذه العناصر والتوترات والتناقضات تجعل من العسير على اليهود أنفسهم تصديق مقولة «الشعب اليهودي» الذي يتجاوز الأزمنة والأمكنة والذي يتسم بجوهر عضوي يهودي أزلي والذي تنطلق منها الايديولوجية الصهيونية. فالفعل أثبت أنه لا يوجد جوهر واحد أو وحدة عضوية وإنما سمات عديدة متنوعة تنوع التشكيلات الحضارية والتاريخية التي تواجد فيها اليهود. ويرى بعض المحللين أن الأعوام القادمة ستشهد ظهور شعب يتحدث العبرية في إسرائيل لا يربطه بأعضاء الجماعات اليهودية في الماضي سوى روابط واهية (مثل علاقة اليونانيين المحدثين بالاغريق القدامى). أما في خارج فلسطين فستتزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط بحيث لا يبقى سوى أقليات يهودية تعرّف نفسها على أساس ديني، ومعظم المؤشرات تشير إلى هذا الاتجاه. إن قضية من هو اليهودي إذاً ليست قضية دينية أو سياسية، وإنما هي قضية مصيرية تنصرف إلى الرؤية للعالم وللذات وللأساس الذي يستند إليه تضامن المجتمع ومصدر الشرعية فيه.

تطبيع الشخصية اليهودية :

بعد أن طرح الصهاينة فكرة اليهودي الخالص كما أسلفنا وجدوا أن يهود المنفى شخصيات مريضة شاذة غير سوية. وهذا الشذوذ، من وجهة نظرهم، له مظهران أساسيان: واحد اقتصادي والآخر سياسي. أما المظهر الاقتصادي فيتضح في عدم انتاجية اليهود واشتغالهم بأعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة مثل التهريب والأعمال المالية والعقارات وتجارة الرقيق الأبيض. أما المظهر السياسي فيتلخص فيما يطلق عليه اشكالية الـ Powerlessness أي افتقاد

السلطة أو السيادة. فالصهاينة يرون أنه بعد تحطيم الهيكل الثاني عام ٧٠ ميلادية أصبح اليهود جماعات مشتتة تشتغل بالتجارة والربا وتوجد خارج نطاق مؤسسات صنع القرار لا تساهم في صياغته، وتفتقر إلى أي سيادة سياسية مستقلة، مما كان يعني - من وجهة نظر الصهاينة- توقف مسار «التاريخ اليهودي».

وقد عبر بوروخوف المفكر الصهيوني العمالي عن القضية نفسها بطريقة أخرى، إذ لاحظ ان الهرم الاجتماعي عند اليهود مشوه تماماً فبدلا من وجود قاعدة عريضة من العمال والفلاحين والطبقات المنتجة وقلة من المفكرين والأطباء والمحامين والوسطاء، كماهو الحال في معظم المجتمعات، نجد العكس تماما عند اليهود، فالهرم الانتاجي مقلوب على رأسه إذ إن معظم اليهود من الوسطاء. ومن الشخصيات الأساسية في الأدبيات اليهودية والصهيونية في القرن التاسع عشر شخصية الشنورير Schnorrer وهي كلمة يديشية تعنى المتسول. ومن المعروف أنه نتيجة عملية التحديث والعلمنة التي أخذت في التصاعد المتزايد في أوروبا مع بدايات القرن التاسع عشر تم اجتثاث أعداد كبيرة من أعضاء الطائفة اليهودية فيها من مراكزهم السكانية ومصادر رزقهم التقليدية. وقد تزامنت هذه العملية - كما تقدم - مع انفجار سكاني بين أعضاء الجماعات اليهودية أدى إلى زيادة نسبة العاطلين عن العمل بينهم مما اضطر أعداداً كبيرة منهم إلى التسول بلغت نسبتهم ١٠٪ من مجموع كل يهود أوروبا (مع منتصف القرن التاسع عشر). ولم تستقر الأمور أو تتحسن مع تصاعد حركة التصنيع، بل ازدادت التناقضات واحتدمت حتى تعثرت عملية المتحدثين في أواخر القرن فأخذت دول شرق أوروبا تقذف بجيوش المتسولين على دول غرب أوروبا مما كان يسبب كثيراً من الضيق والحرج ليهود أوروب الغربية المندمجين. وقد كان روتشيلد يظن أن هرتزل هو أحد هؤلاء المتسولين وأنه وصل على رأس جيش منهم يودون الاستيلاء على أمواله. وقد تساءل «من الذي سيدفع مصاريف أول ١٥٠ ألف متسول «أي مستوطن صهيوني) يصلون إلى فلسطين(١)؟ وقد كان روتشيلد محقا إلى حد ما في استيائه ومخاوفه، فالمستوطنون في فلسطين، في مرحلة من المراحل، كان كل همهم هو

امتصاص أموال البارون قبل أن يبدأ التمويل الغربي للمستوطن الصهيوني. ومن الطريف أن هرتزل نفسه كان يشير إلى أعضاء المؤتمر الصهيوني الأول باعتبارهم جيشا من المتسولين كان هو على رأسه(٧). ولا شك أن صورة الشنورير هذه كانت عالقة في أذهان المفكرين الصهاينة الأول حينما تحدثوا عن طفيلية يهود المنفى وعن عدم انتاجيتهم وشذوذهم وعن افتقارهم إلى السلطة والسيادة.

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للجتمع اليهودي المثالي (أي المجتمع الصهيوني) كجزء من مشروع حضاري متكامل يهدف إلى تطبيع «الشخصية اليهودية» (وهذا في واقع الأمر أول استخدام للمصطلح في الأدبيات الصهيونية). والتطبيع هنا يعني شفاء من عقلية الاستجداء الاقتصادي من الغير أو الأغيار والاعتماد السياسي عليهم. فلا ينغمسون في أعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة ويتحولون إلى شعب يهودي منتج بمعنى الكلمة يسيطر على كل مراحل العملية الانتاجية وبالتالي مصيره الاقتصادي والسياسي. وقد عبر بوروخوف عن القضية نفسها بقوله إن الحل الصهيوني هو أن يقف الهرم على قاعدته بحيث يتركز اليهود في العمليات الانتاجية (في قاعدة الهرم) فيعملون بأيديهم وتصبح أغلبيتهم من العمال والفلاحين، أما المهنيون والعاملون في القطاعين التجاري والمالي فيصبحون قلة على قمة الهرم، شأنهم في هذا شأن أي مجتمع آخر. وهذا ما يطلق عليه اصطلاح «العمل العبري» و«غزو العمل» و«غزو الأرض» - أي أن يستولي الصهيوني على الأرض ويعمل فيها بيده ويسيطر على كل مراحل الإنتاج، وهو إن فعل هذا يكن قد أنجز الثورة الصهيونية الحقة، فاستولى على الأرض وزرعها وعلى الهيكل الاقتصادي وعمل فيه وعلى الهيكل السياسي وتحكم فيه وتحول هو ذاته من شخصية هامشية إلى شخصية منتجة، أي أنه يكون قد تم «تطبيعه». ومن هنا يكون الاستيطان الاحلالي (الاستيلاء على الأرض وطرد سكانها والعمل فيها) ليس فعلا خارجيا يحمل مدلولا اقتصاديا محدودا، وإنما هو فعل شامل له أبعاد سياسية وقومية وفي نهاية الأمر نفسية، وهو أيضا يحل مشكلة المعنى بالنسبة للصهاينة ويعقلن وجودهم في فلسطين التي تلفظهم والتي يقاتل أهلها ضدهم.

أ- تراجع الانتاجية :

ولكن بعد مرور اربعين عاما على تأسيس الدولة الصهيونية يمكن القول إنها أبعدما تكون عن قصة النجاح الموعود ، فيلاحظ المراقبون تناقص معدل النمو الاقتصادي في إسرائيل «بين عامي ٤٨ - ١٩٧٣.كان معدل النمو:- ١٠٪ انخفض إلى (٣-٢٪) عام١٩٧٣، ثم إلى ٨ر١- ١٪ في الفترة ٨٢- ٨٧». ويلاحظ كذلك تزايد معدل البطالة «فقد كان في المتوسط ٣٪من ٤٨- ٧٣ وقفز إلى ٧٪ ويتوقع ان يصل إلى ١٠٪». وعلى الرغم من أنه تمت السيطرة على التضخم إلا أن حجم ديون الدولة الصهيونية يجعل المواطن الصهيوني من اكثر الافراد مديونية في العالم «٦٢٠٠ دولار بالنسبة للشخص الواحد». وستلتهم فوائد الديون الجزء الاكبر من عائدات المنتجات الزراعية والصناعية. وهذه الحقائق الاقتصادية الصماء قد لاتعني الكثير من منظور اقتصادي محض .فالمعونات الأمريكية تصب في الكيان الصهيوني وتحل المشاكل الاقتصادية، ولكنها تعني الكثير من منظور المعنى، فهي تخلق سياقا للمشاكل الصهيونية الخاصة وتكون بمثابة التذكرة اليومية بفشل التطبيع واستمرار أمراض المنفى. فالمواطن الاسرائيلي لم يتحول إلى شخصية منتجة يعمل بيديه ويتواجد في كل المراحل الانتاجية. فانتاجية العامل الإسرائيلي تعادل نصف انتاجية العامل الأميركي، وهو أقل انتاجية من عمال الدول الصناعية كلها «باستثناء ايطاليا»(٩). ويظهر تقلص الانتاجية الاسرائيلية في تقلص القطاع الانتاجي وتضخم قطاع الخدمات، إذ يوجد أربعة اشخاص يعملون في الخدمات مقابل كل شخص يعمل في الانتاج(١٠). وقد لاحظ أمنون روبنشتاين، أحد مؤسسي جماعة شنوى، أنه في عام ١٩٤٥ ، اي قبل إعلان الدولة كان عدد اليهود المشتغلين باعمال انتاجية هو ٢٤٪ وبعد إعلان الدولة وقف الهرم الانتاجي على قاعدته، وبلغ عدد اليهود المشتغلين بوظائف انتاجية ٦٩٪، ولكن بعد مرور مائة عام على الاستيطان الصهيوني والممارسة الصهيونية هبطت النسبة مرة أخرى الى ٢٣٪ (١١).

وقد ساهمت الانتفاضة المجيدة في فضح العدو أمام نفسه، إذ ثبت أن العمالة العربية المنتجة لاتزال قائمة على أرض فلسطين قبل أو بعد ٤٨، إذ يبلغ عدد العمال الذين يعملون وراء الخط الأخضر ١٢٠ ألفا، وسيظهر مابين ٢٠ و٣٠ ألفا في الاحصائيات الرسمية «حسب أقوال الصحفيين الغربيين(١٢). ولكن يخبرني طلبتي الفلسطينيون الذين يذهبون إلى الارض المحتلة أن العدد ولاشك اكبر من ذلك كثيراً، وأن العدو يخفي الأرقام الحقيقية خوفا من أن تتحطم اسطورة العمل العبري تماما وهي اسطورة الشرعية الاستيطانية الاحلالية. ويشكل العرب ٤٠٪ من كل عمال البناء «٥٠ ألف عامل بناء»، وحوالي ١٧٪ كل عمال الزراعة (١٧ الف عامل)، و٢٠ الفا في قطاع الخدمات في الفنادق وفي اعمال النظافة وجرسونات في المطاعم، ونتيجة الاضراب لاتجد مزارع يافا عمالا يقطفون ثمارها، وبدأت تتعفن مئات الأطنان من الخضروات في الحقول. وتوقفت تقريبا مصانع النسيج وتوقف كذلك العمل في قطاع البناء. والغي ٣٠٪ من كل الحجوزات في الفنادق. ويحاول الكيان الصهيوني أن يحل أزمته عن طريق استيراد العمال ـ ولكن كيف يتأتى له أن يجد ١٥٠ ألف عامل بين يوم وليلة؟ وكيف يمكنه ايواؤهم وهل يمكنه حل المشاكل التي ستنجم عن وجودهم داخل مجتمع مهتز مثل المجتمع الصهيوني؟ وأخيرا أين سيجد العمال الذين هم على استعداد أن يتقاضوا من ١٢ـ ٢٠ دولارا في اليوم ـ؟

ولكن المهم أن المجتمع الصهيوني لم يحاول أن يحل مشكلة العمالة من الداخل، أو حتى بالتوجه إلى «الضمير اليهودي العالمي» وإنما محاولة استيراد العمالة، وكأن كل الحديث عن الزيادة والانتاجية والعمل العبري قد تبخر حتى على مستوى الديباجات اللفظية. وقد كتبت قارئة اسرائيلية تدعى آن كي خطابا للجيروسالم بوست تسخر فيه من وزيري الزراعة والصناعة لانهما بدآ يبحثان عن عمال في تركيا والفلبين والبرتغال لا في اسرائيل ذاتها. وقد اقترحت أن الحل يكمن في رفع الأجور أي أنها لم تقترح أي ديباجات صهيونية، ممايدل على مدى تآكل الصهيونية كعقيدة وكمصطلح(١٤).

وتعبر أزمة الانتاجية عن نفسها في تفشي المضاربات في صفوف الإسرائيليين حينما ظهر أن مصارف اسرائيل الأساسية وقطاعا كبيرا من المواطنين العاديين متورطون في عمليات مضاربة تضمن لهم أرباحا ثابتة بضمان الحكومة دون بذل أي جهد ودون مخاطرة كبيرة «وهذه هي عقلية الوسيط الطفيلي». وقد كشف النقاب عن أن بعض الكيبوتسات متورطة هي الأخرى في أعمال السمسرة والمضاربات. وقد تزايدت معدلات الجريمة في اسرائيل بشكل مذهل. ويلاحظ انتشار المخدرات والأمراض النفسية والبغاء «تعد إسرائيل الآن من أهم مصادر البغايا في أوروبا، وقد أصبحت لغة القوادين هي العبرية في بعض المدن الأوروبية في امستردام خاصة».

ولايمكن الزعم بعد كل هذا ان الحركة الصهيونية، عملا بالقول الصهيوني، قد طبعت اليهود اقتصاديا ونجحت في تحويلهم من شخصيات هامشية طفيلية الى شخصيات منتجة سوية.

ب- اقتصاد الشنورير «الاقتصاد التسولي»

وإذا كان العامل العربي قد سلب الصهاينة السيادة الاقتصادية جزءاً كبيرا من احترامهم انفسهم وهيمنتهم على الأرض والانتاج فإن الدعم الأمريكي قد سلبهم السيادة السياسية واي بقية باقية من انتاجية او احترام الذات. فالمعونات الأمريكية التي تصب على الكيان الصهيوني قد ضمنت له الاستمرار رغم ضعف الانتاج وقد افرزت في الوقت ذاته نمطا اقتصاديا وسياسيا اجتماعيا جديدا، دينامياته والياته مختلفة عما هو مألوف لدى دارس المجتمعات الإنسانية ولعله لم تجر تسميته حتى الآن. وعبارة الاقتصاد التسولي وهو الأسم الذي نقترحه هي عبارة من نحتنا استنادا إلى كتابات بعض الصحافيين الإسرائيليين «وإلى تجربة يهود شرق أوروبا في القرن التاسع عشر» . وقد وصف سبير المجتمع الاسرائيلي باعتباره مجتمعا يعتمد اعتمادا كليا على الهبات الخارجية، وأشار إلى الاسرائيليين باعتبارهم اكبر زبون في العالم للمساعدات الأجنبية، فالمجتمع الصهيوني «مجتمع

يمد يده لأستجداء الكرماء»، مجتمع «يأكل وجبات مجانية» ، « تعتمد قائمة طعامه على الزيت الذي يقطر من الخارج».

وينتهي المقال بالحديث عن اليد الممدودة إلى الأمريكيين (وعلى كل وصفت إسرائيل بأنها «ذراع قتالية ممتدة» لحساب الأمريكيين، فلا بأس إذاً أن يكون في آخرها يد مفتوحة لتناول الأجر منهم). وقد وصف زيفا ياريف المجتمع الاسرائيلي بأنه مجتمع «ينفذ بانصياع رغبة من يقدم له الخبز(١٧)، أما ديفيد كاتسي فقد تحدث عن «صدق شنور باليديشية» ثلاثة بلايين دولار نحافظ عن طريقها على مستوانا المعيشي المرتفع الذي اعتدناه منذ عام ١٩٦٧(١٨). وفي مقال عن مسرحية «شمي صعب» «اناشيم كاشيم» للكاتب المسرحي يوسف باريوسف وردت كلمة schnorrer state أي الدولة المتسولة(١٩).

تستند تسميتنا إذاً لرؤية الفاعل نفسه، ولكن رؤية الفاعل نفسه ليست هي الواقع كله، ولذا سنحاول أن نتعامل مع بعض الحقائق والسمات التي يتصف بها الاقتصاد الاسرائيلي التسولي. ومن المعروف أن الولايات المتحدة تغدق على إسرائيل العطاء كما لم تغدق على أحد من قبل أو بعد، وأن المجتمع الصهيوني يعتمد في أمنه، بل في وجوده واستمراره على الولايات المتحدة اعتمادا شبه كلي وكامل. وقد أخذت المساعدات الأمريكية في التصاعد الرهيب من ٦٠ مليون دولار سنويا معظمها مساعدات اقتصادية، في الفترة «١٩٤٨ـ ١٩٧١»، الى ١٨ بليون في الفترة من ١٩٧٣ الى ١٩٨١ «ثلاثة أرباعها مساعدات عسكرية». وابتداء من عام ١٩٨٤ أصبحت كل المساعدات منحا مباشرة. وفي عام ١٩٨٥ أصبحت هذه المنح لاتصل بالتقسيط وانما دفعة واحدة. وتزيد المساعدات في العام الآن عن ثلاثة بلايين دولار. ويقول مقال الايكونوميست(٢٠) «الذي اعتمدنا عليه في احصائياتنا» إنه إذا ما اضيفت المساعدات الأخرى من يهود العالم «واكثرهم في الولايات المتحدة» فإن حوالي ثلث ميزانية التشغيل يعتمد على المساعدة الخارجية. وقد لاحظ سبير انه لاتوجد دولة في العالم يتم دفع كل ماينقصها من عملة صعبة من قبل مواطني الدول الأخرى سوى اسرائيل. وقد

قامت المساعدات بتغطية النفقات التالية من خلال السنوات الثلاث المنتهية في ديسمبر ١٩٨٦ :

- كل المستوردات الأمنية والعسكرية البالغة خمسة مليارات دولار تقريبا.
- كل المستوردات من الوقود التي ستبلغ بحدود أربعة مليارات دولار.
- كل المستوردات من المواد الاستهلاكية التي ستبلغ حوالي ملياري دولار «او اكثر».
- وكذلك كل الجولات والرحلات التي يقوم بها المواطنون «المقاتلون» الى الخارج والتي ستصل نفقاتها الى ملياري دولار(٢١)

إن الهبات تتدفق على المتسوطنين الصهاينة وعلى تجمعهم «دون أي عوائق في حدود ١٣ مليون دولار في اليوم- أي أقل بقليل من ثلاث دولارات للفرد الواحد يوميا»-«وهذا أكثر من دخل الفرد في كثير من الدول العربية». ويجب ان نضيف إلى ذلك رأس المال الثابت أي الأرض وماعليها من منازل استولى المستوطنون عليها بمساعة الامبريالية. كما يجب ألا يفوتنا أن نذكر المساعدات غير المنظورة مثل «الخبرة اليهودية» التي تصب في المستوطن دون مقابل والمساعدات العديدة لبرامج اجتماعية محددة. واذا أضفنا الى كل هذا العمالة الفلسطينية الرخيصة اكتشفنا أن اجر المستوطنين الصهاينة اجر مجز ولاشك، يساعدهم على الاستمرار في الاستهلاك والقتال على الرغم من عدم انتاجيتهم.

واعتماد المجتمع الصهيوني على الهبات والتمويل الخارجي أكثر من اعتماده على انتاجيته ادى الى تحولات بنيوية عميقة نلخصها فيما يلي «استنادا لمقال سبير» :

١ - أصبح المجتمع الاسرائيلي مجتمعا «مشوشا» «مصطنع الثقافة» يعتمد على التمويل الخارجي، تتشعب فيه البيروقراطية وتختفي المنافسة وتزيد الفجوة الاقتصادية، وظهرت طبقة متوسطة مستهلكة تتمتع بالتبرعات المجانية» وترتدي جلدا سميكا من عدم الاكتراث الاجتماعي . «وانقسم المجتمع الى مجموعات ضغط تهتم كل واحدة بنفسها فقط» وهو مجتمع سينفتح عاجلا او آجلا.

٢ ـ ولكن التطورات السابقة ـ رغم عمقها وخطورتها ـ هي تطورات قد تصيب أي مجتمع تدخل عليه الثروة الفجائية، ولاتقاس بأي حال بالتطور البنيوي الأعمق الآخر ـ أي انقطاع الصلة بين الجهد والمبادرة من جهة والمكسب والأجر من جهة أخرى. فالتمويل الخارجي ـ كما تقدم ـ أصبح المصدر الأساسي للدخل بالنسبة لأعضاء التجمع الصهيوني، وهو دخل ليس مرتبطا بانتاجيتهم اليومية أو بكد يمينهم، او عرق جبينهم أو عملهم وإنما مرتبط بالدور الاستراتيجي الذي يضطلع به التجمع ككل، وبالدور الذي يقع له أجرا عن هذا الدور.

٣ ـ لكل هذا يرى خبراء الاقتصاد في بنك اسرائيل في محاولتهم تقييم أداء إسرائيل الاقتصادي والتنبؤ بمسارها الاقتصادي أن أهم حدث اقتصادي في السنوات الأخيرة ليس التحولات الانتاجية الاجتماعية آنفة الذكر، أو انخفاض أو ارتفاع انتاجية الإسرائيليين، أو حجم الاستيراد أو التصدير، أو الميزان التجاري وغيرها من المعايير المستخدمة في تقييم الأداء الاقتصادي والاجتماعي للمجتمعات الأخرى، وإنما هو «زيادة المساعدات الأمريكية إلى إسرائيل «أهم مصادر الدخل الثابت» من حوالي ١٠٪ من الناتج إلى حوالي ٢٠٪. وعلى كل يبين الكاتب أن مصطلحات مثل «العجز التجاري» وخلافه غير ذات موضوع، لأن الإسرائيليين حصلوا من الخارج على تحويلات من جانب واحد، أي على هبات لاحاجة لسدادها، بمبلغ اجمالي يصل الى ١٣ مليار دولار، تماما لقيمة العجز المتراكم خلال ثلاث سنوات في ميزان مدفوعاتنا» وتظهر فرادة الاقتصاد الإسرائيلي وشذوذه وعدم خضوعه للمقاييس المألوفة أنه رغم عجزه وافلاسه وطفيليته فإن وفد صندوق النقد الدولي سيأتي إلى القدس» ولن يصنف اسرائيل كبلدمفلس. فالولايات المتحدة تسد الفجوة وتدفع الفرق «والمصارف العالمية التي تستطيع أن تقرأ جيدا كل تلميحات الإدارة الأمريكية مستعدة اليوم أن تزيد قروضنا من أموالها». وهذا ليس من قبيل الاحسان، أو الاعجاب بالتراث اليهودي، فالمصارف محايدة موضوعية قاسية لاتأخذ عادة مثل هذه الاعتبارات في الحسبان، وانما ترجع إلى معرفة هذه المصارف بالسلعة الاساسية التي ينتجها المجتمع

الإسرائيلي»، أي دوره القتالي كما تعرف مدى اهتمام الممول والمستثمر وموقف العميل المالي يتم تحديده لااستنادا إلى عنصر واحد، بل إلى عدة عناصر أهمها الضمانات التي يمكن الحصول عليها. ولعل هذا يفسر الدور غير العادي الذي يلعبه وزير الخارجية الأمريكي في توجيه السياسة الاقتصادية الاسرائيلية، فهو- على حد قول شموئيل شنيتسر- في مقال له بعنوان «كم بقى لنا من الاستقلال» يقوم بتحديد الأهداف وسبل العمل، «وهو يلعب دور المشرف الدائم على تنفيذ التعليمات المكتوبة .والتي يقوم . . بنقلها إلى وزراء المالية الاسرائيليين»(٢٢). وقد بين سبير أن تغيير وزراء المالية الاسرائيليين كبح التضخم النقدي كلها امور ثانوية بالقياس إلى القرار الأمريكي الخاص بحجم المعونة الأمريكية (٢٣)، فامريكا اشترت «باموالها الحق الاخلاقي» في عملية الاشراف التي تقوم بها، إذ إن من يقدم الأموال هو صاحب صلاحية الحسم(٢٤) وهو صاحب السلطة والسيادة الحقيقية .

ويقرر شنيتسر أن السياسات الاجتماعية للمجتمع الصهيوني وعلاقاته الدولية، وانفاقه الامني كلها اصبحت تقريبا تقع خارج نطاق القرار الإسرائيلي المستقل. فوزير الخارجية الامريكي يعمل منطلقا «من صالح بلاده» لامن الأهداف الصهيونية، ولذا فحينما تدفع بلاده الهبات فإنه يريدها أن تنفق «لاغراض الطيران» أي «لاغراض القتال». فهو غير معني بالاهداف الصهيونية التي من بينها أن إسرائيل «دولة مهاجرين» يجب أن تقوم بتزويد خدمات الرفاه لمواطنيها، وهو لايدرك أن سياسات اسرائيل الاقتصادية يجب ان يكون لها خصوصيتها الصهيونية. فالبطالة التي تؤخذ «كظاهرة طبيعية» في امريكا يمكن أن تكون لها «ابعاد هدامة» «في الدولة الصهيونية»، إذ إنها «ستشجع ظاهرة النزوح من البلاد». ولكن هذه كلها أمور صهيونية لاتعني وزير الخارجية الأمريكية كثيرا. إن الأمر قد وصل في إسرائيل الى حد أن العقد الاجتماعي هناك قد اصبح مؤسسا على حقيقة الهبات الامريكية الضخمة، فالإسرائيليون لم يعد بوسعهم «العمل بموجب حاجاتهم وبموجب تطلعاتهم» «الصهيونية»، وحينما يتفاوض العمال مع أرباب الصناعات، فإن كل مايمكن إحرازه خلال إجراء مفاوضات

مع ممثلي العاملين ومع أرباب العمل هو ايجاد أساس من الاتفاق القومي لضرورة تنفيذ السياسة التي يمليها جورج شولتز (٢٥). «ولكن مانسيه شنيتسر هو أن وزير الخارجية الأمريكي عو المعادل الأمريكي الحديث لبلفور، وان العقد الاجتماعي الإسرائيلي الجديد هو امتداد لعقد بلفور القديم وترجمته المتعينة في ظروف الثمانينات».

وافتقار اسرائيل الى حرية القرار «للسيادة والسلطة» يظهر بشكل أكثر في علاقات إسرائيل الدولية التي لايمكن تفسيرها أو فهمها إلا من منظور التبعية الإسرائيلية للولايات المتحدة. فعلاقة الدولة الصهيونية مع جنوب افريقيا تسقط من شرعيتها في علاقاتها مع الدول الافريقية التي تشكل مجالا للانتشار الاسرائيلي في مواجهة الرفض العربي. وعلاقاتها مع الدول الفاشية المختلفة، مثل النظام العسكري في الارجنتين، التي تضطهد اعضاء الجماعات اليهودية وغيرها من الأقليات والطبقات يسقط شرعيتها كدولة يهودية تشكل ملجأ ليهود العالم. وتزويدها السلفادور بالسلاح تسقط من شرعيتها كدولة ديمقراطية صغيرة تدافع عن مثل المساواة والعدالة. وتدعم الصورة السلبية التي تقوض كل اساطير الشرعية الاسرائيلية/ الصهيونية حينما تقف إسرائيل «إلى جانب كل إجراء سياسي أمريكي في العالم مهما كان زائدا عن اللزوم ويستحق الانتقاد». لايمكن تفسير أو فهم كل ذلك من منظور مصلحة إسرائيل أو «رغبتها في البقاء»، وإنما يمكن تفسيره وفهمه في اطار دورها الاستراتيجي ومصالح الولايات المتحدة.

بل إن ميزانيات اسرائيل العسكرية لايمكن تفسيرها هي الأخرى الا في الاطار نفسه، وقد قام سبير بتحليل ماسماه «استهلاك اسرائيل الأمني» فأشار إلى أن احتياطي رأس المال العسكري لاسرائيل «أي «اجمالي شيكات الاسلحة والذخيرة والعتاد والارضية وماشابه ذلك» «ازداد من ٢١,٥ مليار دولار إلى ٤٥,٥ مليار دولار. وبينما كان هذا الاحتياطي يعادل في قيمته الناتج القومي عام ١٩٧٤م، فانه يعادل اليوم أكثر من ضعفي الناتج». وبينما زاد احتياطي راس المال العسكري بمعدل ٧,٥٪ سنويا ازداد الناتج القومي بحدود ٢,٥٪ فقط. هذا التزايد لايمكن تفسيره

بمحاولة اسرائيل تحقيق التوازن العسكري مع دول المواجهة، إذ إن الكاتب يذكر أن احتياطي رأس المال لهذه الدول «بما في ذلك مصر» كان يزيد عن ٣٦٪ عام ١٩٧٣ بالنسبة لاحتياطي اسرائيل، وانخفض إلى ١٧٪ عام ١٩٧٩، ثم تراجع إلى ٦٪ عام ١٩٨٤م. وإذا تم استبعاد مصر فان احتياطي اسرائيل العسكري يزيد ٥٠٪ على احتياطي سوريا والأردن معا. هذه الزيادة لا يمكن شرحها في إطار احتياجات إسرائيل الأمنية وحدها، وإنما يمكن تفسيرها بالعودة إلى حلقة أوسع. فالاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية والنفقات الأمنية الإسرائيلية - كما يقول الكاتب الإسرائيلي- لاتحددها المتطلبات الأمنية الذاتية الحقيقية لاسرائيل «وإنما للممول الموجود في واشنطن ومانهاتن». ومن هنا تصب المساعدات. ومايهم ليس أداء المجتمع الاقتصادي وإنما أداؤه العسكري. ولـذا نجد أن ثمة فرقـا بين المتسول التقليدي والمتسول الإسرائيلي.

فبينما كان المتسول التقليدي يمد يده في اطار ديني يعد المتصدقين بالثواب وجنات النعيم، فإن الشحاذ الإسرائيلي سميك الجلد، كل همه هو استهلاك المساعدات يأخذ دون خجل ودون ان تعلو خدوده أي حمرة، لن يحرم نفسه من المأكل والملذات مادام هناك شخص آخر يقوم بتسديد الحساب «ياخذ بكلتا يديه من صحن المساعدات»(٢٦)، وبدلا من أن يطلب للمحسن جنات النعيم فإنه يعد بإطلاق السنة الجحيم على المجتمعات المستهدفة.

إن المجتمع الصهيوني لم يعد كيانا قوميا مستقلا منتجا يستمد احترامه لنفسه من إنتاجيته، فقد اصبح كالمماليك يستمد رزقه من مقدرته على القتال، فهو ذراع تقاتل وكف تقبض، لايد تنتج وتزرع وتحصد، وبالتالي أصبح الحديث عن الشرعية التي يكتسبها المشروع الصهيوني من خلال الانتاجية وتحويل المستنقعات والصحراء إلى أرض خضراء كلاما أجوف يعرف المستوطنون أنفسهم مدى كذبه.

ولكن حتى هذا الجانب من صورة الذات كعنصر قتالي قد أخذ يهتز هو الآخر. اهتزاز صورة جيش الدفاع الإسرائيلي. وقد أسلفنا أن الوجود الصهيوني يستند

إلى العنف إذ أنـه هدف إلى التخلص من أصحـاب الأرض وإحلال آخـرين محلهم. وهي عملية لايمكن أن تتم بالوسائل السلمية. كما أنه كيان غرس في المنطقة بسبب دوره القتالي ضد المنطقة العربية. وعلى مستوى من المستويات يمكن القول إن المشروع الصهيوني كان يهدف إلى نقل الشنورير (وكل الفائض البشري اليهودي) إلى فلسطين وتحويلهم إلى مادة قتالية تخدم المصالح الغربية. وهذا هو أحد أهداف كل الجيوب الاستيطانية التي أسسها العالم الغربي في آسيا وافريقيا. ولذا يستند وجود كل جيب استيطاني إلى قوة عسكرية ضخمة لتطرد السكـان الأصليين أو لتقمعهم، ولتنفذ المخطط العسكري الغربي وتحقق الحد الأدنى من الطمأنينه لجماهير المغتصبين. والقوة العسكرية الصهيونية تنتمي لهذا النمط، وقد أحرزت قدرا لابأس به من النجاح والشرعية أمام جماهير المستوطنين. ولكن ابتداء من حرب عام ١٩٧٣ بدأ ايمان المستوطنين الصهاينة بالعجل الذهبي- اي الجيش الاسرائيلي- في الاهتزاز ثم في التآكل. ثم جاءت عملية غزو لبنان التي انتهت بانسحاب القوات الاسرائيليـة دون أن تحقق ماكـانت تهدف اليـه- اي القضاء بشكل نهائي على المنظمة-. وشهدت هذه الفترة عمليات فدائية مستمرة، لم تتوقف البته، كان آخرها وأهمها وتاجها عملية قبية التي بينت بما لايدع مجالا للشك ان الذراع القوية ليست قادرة بالضرورة على حمايتهم طول الوقت، وتوفير الأمن المـطلق لهم. ثم جاءت ثـورة الحجارة لتبـين مـدى عجـزه عن القيـام بالعمليات الجراحية والضربات الاجهاضية التي تسكت الآلام مرة واحدة.

وقد نجحت العسكرية الصهيونية في ترسيخ فكرة أن إسرائيل دولة صغيرة تدافع عن نفسها ضد هجمات جيرانها العرب في وجدان الاسرائيليين، مما عقلن الحروب الصهيونية ضد العرب حتى عام ١٩٦٧. ولذا كان يتم تجنيد الشباب الاسرائيلي بنجاح شديد، عن طريق التوجه الى حسهم الخلقي والقومي ورغبتهم في البقاء، باعتبار أن الدفاع عن الذات رغبة إنسانية خلقية مشـروعة. ولكن حرب لبنان في نظر هؤلاء ليست حرب اختيار- اي أنها ليست حربا دفاعية فرضت على إسرائيل-.

وقد أعلنت المؤسسة العسكرية أن الهدف من عملية «سلام الجليل» هو هدف «دفاعي» حتمي لوقف مايسمونه الهجمات الفدائية وتطهير مساحة ٦٧ كيلو متر مربع من لبنان. وكانت النتيجة هي خسارة مقدارها ستة بلايين دولارا وحوالي ٧٠٠ قتيل، وتآكل صورة إسرائيل الإعلامية، ثم ظهر أن الهدف الحقيقي كان فرض حكومة عميلة في لبنان تحت حماية إسرائيل(٢٧). وقد أدى هذا إلى تساقط الاجماع القومي الإسرائيلي والانهيار العصبي الذي أصيب به مناجم بيجين (يقال بسبب اكتشافه أن شارون خدعه، ونقول بسبب الهزيمة التي لحقت بجيش الدفاع الإسرائيلي)، هذا الانهيار العصبي رمز مناسب لما حدث لاسرائيل كلها. كما أن استمرار الاحتلال في الضفة الغربية مايزيد عن عشرين عاما كان من الصعب الدفاع عنه باعتباره دفاعا عن النفس.

ولذا شهدت القوات العسكرية الاسرائيلية لأول مرة في تاريخها ظواهر احتجاجية مختلفة، جديدة عليها كل الجدة، مثل رفض الخدمة العسكرية تماما، أو رفض الخدمة في الضفة الغربية وغزة، أو زيادة تزوج أبناء الكيبوتسات، العمود الفقاري للمؤسسة العسكرية واحتياطيها الحقيقي. وقد ورد في الصحافة الإسرائيلية أن ١٧١ ضابطا كبيرا في الاحتياط برتبة عقيد فما فوق قد نزحوا عن اسرائيل وهو عدد يعادل ١٠٪ من مجمل الضباط برتبة عقيد فما فوق ممن خدموا في الجيش الاسرائيلي حتى الآن. وقد زادت كذلك نسبة النازحين من الخبراء العسكريين والمهندسين والعاملين في الصناعات الحربية بعد توقف العمل في مشروع الطائرة اللافي. وقد جاء في جريدة هتسوفيه(٢٩) أن المهندسين والفنيين اصطفوا في صفوف طويلة قرب سفارتي الولايات المتحدة وكندا من أجل فحص امكانية الهجرة. وجاء في دافار (١٩٨٧/١٢/٧) أن هناك ٢٠٤ طيارين اسرائيليين تتراوح أعمارهم بين ٢٥ و٣٥ سنه اصبحوا دون عمل ودون مصادر رزق ويفكرون بالنزوح عن فلسطين المحتلة(٣٠).

وقد زادت نسبة تعاطي المخدرات وانتشار الجرائم الجنسية بين أفراد القوات الإسرائيلية، وضعف مستوى الأداء بشكل ملحوظ حتى أنه ورد في أحد تقارير

البنتاجون (التي نجحت المؤسسة العسكرية الصهيونة في اخفائها مدة عامين) أن ١٠٪ من كل الخسائر أثناء حرب لبنان كان مصدرها الإسرائيليين أنفسهم، وهذه تعد نسبة عالية للغاية (ومع هذا نشرت جريدةالجيرو ساليم بوست(٣١) في صفحتها الأولى خبرا مقتضبا للغاية عن الانتقاد الذي وجهه جيمس ويب وزير البحرية الأمريكي الى القوات البرية الاسرائيلية (وذلك في مقال نشرته مجلة الأمريكان بوليتيكس) وصفها فيه بأنها لاتشكل ندا يتكافىء مع اي وحدة عسكرية أمريكية. وقد أشار إلى ارتفاع نسبة عدد القتلى الاسرائيليين الذين قتلوا خطأ برصاص قواتهم اثناء حرب لبنان، ولكنه لم يذكر النسبة. وغني عن القول إن جيش «الدفاع» الاسرائيلي هذا وصورته التي يذيعها عن نفسه لبنة أساسية في العقد الاجتماعي الصهيوني وسند أساس لشرعية الصهيونية سواء في علاقة المجتمع الصهيوني مع نفسه أم مع العالم الخارجي.

الأزمة السكانية:

كل مظاهر الأزمة السابقة كان يمكن للكيان الصهيوني تجاوزها واستيعابها أو على الأقل تجاهلها، كماكان يفعل في الماضي، طالما أن المادة البشرية اليهودية لاتكف عن الحضور لخلق حقائق جديدة، ولخلق أمر واقع جديد ولتجديد المادة القتالية. فماذا تهم قضية الهوية أو التطبيع لو أن الوقود البشري لايكف عن التدفق لألة الحرب والاستيطان الصهيوني؟ ولكن الأمر ليس كذلك إذ إن ثمة أزمة سكانية عميقة تجعل من المشروع الصهيوني أكذوبة عقيمة دخلت في طريق مسدود.

ولفهم هذا الجانب من أزمة الصهيونية الاستيطانية علينا أن نغير المنظور قليلا ونتحدث لا عن المستوطن الصهيوني وحسب، وإنما أيضا عن الجماعات اليهودية في الغرب خصوصا في الولايات المتحدة. فالحركة الصهيونية منذ ظهورها في أواخر القرن الماضي تعاني من أزمة سكانية حادة تتهددها في الصميم. فالمشروع الصهيوني مشروع استعماري وعد بتقديم المادة البشرية المطلوبة للاستيطان

والقتال. ولكن منذ عام ١٨٨٢ حتى الوقت الحالي حدثت التطورات التالية:

١) استؤنف التحديث المتعثر المتوقف في شرق أوروبا عام ١٩١٧ (عام توقيع وعد بلفور) مما فصل الكتلة البشرية اليهودية في روسيا عن المشروع الصهيوني، إذ إن المجتمع السوفيتي الجديد الذي حرّم معاداة السامية فتح أمامهم فرص الحراك الاجتماعي. وقد كان هناك مفكرون يهود كثيرون تنبأوا بذلك وراهنوا عليه وانخرطت أعداد كبيرة من الجماهير اليهودية (اليديشية) في صفوف الاحزاب الثورية الاشتراكية في روسيا وغيرها.

٢) قام هتلر بإبادة الكتلة البشرية اليهودية في بولندا ووسط أوروبا (ضمن من أباده من أقليات وكتل بشرية اخرى).

٣) ظهر أن الولايات المتحدة تشكل نقطة جذب بالنسبة للمهاجرين اليهود من أوروبا ومن كل أنحاء العالم، وقد بدا هذا الاتجاه في التبلور مع تعثر التحديث وتوقفه في شرق أوروبا. ومن المعروف أن بضعة آلالاف التي اتجهت إلى فلسطين للاستيطان فعلت ذلك لأن أبواب الولايات المتحدة كانت موصدة دونها. ولكن بعد أن فتحت الأبواب منذ الستينات والهجرة اليهودية تتجه أماما نحو المنفى البابلي الجديد اللذيذ.

٤) يلاحظ التناقص المستمر في أعداد أعضاء الأقليات اليهودية في العالم (خارج إسرائيل)، ويتوقع أن يصل عددهم إلى ٩ ملايين عام ٢٠٠٠ وإلى ٨ ملايين عام ٢٠١٥. ويتحدث علم اجتماع الجماعات اليهودية عن «موت الشعب اليهودي» اي اختفاء اعضاء الجماعات للأسباب التالية (التي ذكرها البروفسور روبرت باكي الخبير في الشؤون الاحصائية والديموغرافية في محاضرة ألقاها في تل أبيب في ١٩/٨/١٩٨٧):

أ) قلة الانجاب لدى العائلات اليهودية.

ب) كثرة وقوع حالات الطلاق وتفسخ الأسرة اليهودية.

ج) الزواج المختلط والإكثار منه خلال السنوات الاخيرة ولاسيما زواج الفتيات

اليهوديات من غير اليهود (كان الزواج المختلط في الماضي يكاد يكون مقصورا على الذكور).

د) بلوغ عدد كبير من اليهود سن الشيخوخة من الاجيال القديمة مما زاد في نسبة الوفيات بين اليهود (وتفوقها على نسبة المواليد)(٣٢).

ه) بعد أن قامت الدولة الصهيونية بتهجير ماأمكنها تهجيره من يهود الشرق (وهم على أي حال كانوا أقلية لاتتجاوز ١٠٪ من يهود العالم)، لم يبق سوى جيوب يهودية متفرقة في أمريكا اللاتينية واستراليا وجنوب أفريقيا وإيران. ويلاحظ أن أعضاء هذه الأقليات آخذين في الاندماج، وحينما يهاجرون فإنهم عادة مايهاجرون أساسا إلى الولايات المتحدة.

٦) يبقى بعد ذلك الاحتياطي البشري الوحيد للكيان الصهيوني في الاتحاد السوفيتي، وتشير الدلائل إلى أنه لو فتح باب الهجرة، فان مايزيد عن مائتي الف (أو أربعمائه ألف حسب رواية أخرى) سيتركون الاتحاد السوفيتي بسبب مجموعة من العناصر خاصة بالمجتمع السوفيتي ذاته. ولكن لايتوقع أن يهاجر منهم إلى اسرائيل سوى ٢٠٪ كما صرح إسرائيل فاينبلوم المهاجر السوفيتي المقيم في اسرائيل(٣٣). وبالفعل تدل آخر الاحصائيات عن صدق توقعاته إذ بلغ عدد المهاجرين في يناير(١٩٨٨)٧٢٢ مهاجرا ولكن لم يصل منهم الى اسرائيل سوى ٢١٠ أي ١٩٪ فقط(٣٤).

وخلاصة القول إنه بعد مايزيد عن مائة عام من الاستيطان الصهيوني لم يهرع الشعب اليهودي إلى وطنه، وآثر البقاء خارج حدود أرضه ووطنه المزعوم دون أن يحرك ساكنا، منفيا بارادته متمتعا بمنفاه. أو لعل أعضاء هذا الشعب، إذا مانفضنا غبار القول الصهيوني، ليسوا أعضاء فيه وإنما هم بشر عاديون يعيشون في أوطانهم الفعلية ينتمون إليها، ولايفكرون في الهجرة لأنه ليس هناك مايدعو لذلك. وحتى حينما يفكرون في ترك أوطانهم فهم كبشر يدرسون البدائل والفرص وتتجه أغلبيتهم نحو الولايات المتحدة، مما يدل على أنهم أبناء عصرهم، وأن حساباتهم دقيقة وسليمة، فمن ذا الذي يترك الأمن في الولايات المتحدة والمستوى

المعيشي المرتفع، ويشيد بيته بجوار البركان في الضفة الغربية والجولان والنقب.
ولقد لخص يهودا باور الموقف في مقال بعنوان «الصهيونية: نحو ايديولوجية واقعية» على النحو التالي: «لاتوجد جماهير يهودية تدق على بواباتنا بل العكس إن أغلبية اليهود السوفيت تدق على بوابات أمريكا. أما يهود آسيا وافريقيا فهم إما هنا في اسرائيل وإما في فرنسا، ولم يبق سوى بقايا صغيرة منهم ولن يأتي يهود الغرب الآن ولا في المستقبل القريب، اللهم إلا أقلية صغيرة(٣٥).

ويبدو ان هذه الازمة آخذة في التفاقم فقد بلغ معدل الهجرة إلى إسرائيل إلى أدنى مستوى له عام ١٩٨٥، إذ وصل ١١,٢٩٨ مهاجرا وحسب، بانخفاض ١٤٪ عن العام الذي سبقه (حينما وصل ١٩,٢٣٠، كان من بينهم ٧,٨٠٧ يهودي اثيوبي). وقد ذكر يعقوب تسور أن الرقم لعام ١٩٨٥ كان في الواقع ١٠,٧١٦ وحسب(٣٦).

وقد بلغ من مدى تراجع الصهيونية في مجال الهجرة أنها لاتضمّن إعلاناتها عن الهجرة أي حديث عن أرض الميعاد أو عن أرض الأجداد، بل تتحدث الاعلانات الآن عن البيت رخيص الثمن، أو عن حمام السباحة كبير الحجم وعن التقسيط المريح طويل الأمد. كما تطرح مشروعات عديدة عن تحويل إسرائيل إلى مجال للاستثمار من قبل يهود العالم. بحيث يحضرون لإسرائيل عدة شهور لتفقد استثماراتهم. وقد طالب يهودا باور في المقال الذي سبق أن أشرنا اليه بتبني سياسة واقعية في الهجرة وهي مطالبة يهود العالم بهجرة $\frac{1}{2}$ ٪ وحسب، أي ٢٨ ألفا من الولايات المتحدة (التي لايزيد عدد المهاجرين منها في الوقت الحالي عن ٢٥٠٠ سنويا)، و١٦٠٠ من انجلترا، و٢٥٠٠ من فرنسا. وهو مايسميه «حلما طائشا ولكنه يمكن تحقيقه». ونحن نتفق معه في الوصف وان كنا نختلف معه في التمنيات إذ إن كل المؤشرات تشير إلى العكس(٣٧).

ومما يزيد المشكلة السكانية حدة بالنسبة للكيان الصهيوني ظاهرة النزوح إذ:
أ) أخذت أعداد النازحين في التزايد في الآونة الأخيرة. وقدبلغ عددهم ١٧,٨٨٢

عام ١٩٨٤ . ويتراوح عدد الاسرائيليين الذين هاجروا من إسرائيل (أو «ارتدوا» حسب الاصطلاح الصهيوني) إلى الولايات المتحدة بين ٤٠٠ و٥٠٠ ألف (وفي بعض التقديرات يصل إلى ٧٠٠ ألف) . ويذكر ناحوم سولن في مقاله آنف الذكر رقم ٣٥٠ ألفا ، كما أنه يذكر أن عدد الذين هاجروا إلى إسرائيل عام ١٩٨٤ حوالي ٢٠ ألفاً (بما في ذلك يهود اثيوبيا)، ونزح عن البلد في المقابل إلى البلدان الغربية ما بين ٢٠ و٣٠ ألف يهودي . وقد تحدثت إحدى الصحف الإسرائيلية عن «خروج صهيون» وكلمة «الخروج» في الوجدان الديني اليهودي تشير عادة إلى «الخروج من مصر» وإلى صهيون أو أرض كنعان / فلسطين، ولذا فالعبارة تحمل قدراً كبيراً من السخرية النابعة من الاحساس بمفارقة الموقف . ويضيف المقال أن عدد النازحين سيبلغ بعد ١٢ سنة ٨٠٠ ألف إسرائيلي(٣٨) . ويطلق على هؤلاء اسم اصطلاح «الدياسبورا الإسرائيلية». وهذه مفارقة لفظية أخرى تسبب الكثير من الحرج للصهاينة، لأن الدياسبورا كانت دائماً أمريكية أو روسية . أما أن تكون إسرائلية! مصدرها مادة بشرية من أرض الميعاد أي صهيون فهذا ما لا يقبله منطق القول الصهيوني .

وحتى ننقل للقارىء العربي كيفية استجابة الوجدان الإسرائيلي لهذه الأرقام الصماء سنقتبس كلمات بتسيلئيل عميكام صاحب مقال على همشمار الذي أسلفنا ذكره إذ قال تعليقا على رقم ٨٠٠ ألف المتوقع : «إذا وضعنا في الاعتبار أن عصبة الأمم قد قررت الاعتراف بحق اليهود في أن تكون لهم دولة خاصة بهم في الوقت الذي كان عدد المستوطنين في البلاد يقدر بحوالي ٦٠٠ ألف فاننا سنفهم المغزى الكامل لهذه المعلومة المفجعة» .

ومن التطورات الهامة أن قرار النزوح أصبح مقبولا اجتماعيا فيظهر على التلفاز الإسرائيلي بعض النازحين ليتحدثوا عن قصص «نجاحهم» في الولايات المتحدة، كما تظهر في الصحف الإسرائيلية إعلانات عن إسرائيليين يودون بيع شققهم استعدادا للهجرة، وهذه أمور كانت تتم في السر في الماضي . كما يلاحظ أن نوعية النازحين نفسها قد تغيرت ، فمعدل النازحين من بين أبناء الكيبوتسات

التابعين لأكبر حركتين (الحركة الكيبوتسية الموحدة والكيبوتس القطري) في فئة العمر ٢٥ ـ ٤٥ هي ٦٪ في المتوسط. وهذا المعدل يساوي معدل النزوح لهذه الأجيال في المجتمع الاسرائيلي(٣٩). وقد اشرنا إلى العناصر العسكرية التي نزحت عن المستوطن الصهيوني بأعداد كبيرة آخذة في التزايد. وقد أدت الأزمة السكانية إلى طرح قضايا كثيرة كان الصهاينة قد اغفلوها (عن عمد أو عن غير عمد). فهي كما بينا تثير بحدة مشكلة «الشعب اليهودي» ومدى جدية رغبته في العودة، كما أنها تثير مجددا مسألة الحدود. وقد بينا من قبل أن الصيغة البرجماتية كانت تفترض أن التوسع سيقترن بورود مزيد من المستوطنين، وقد بين افنيري في إحدى مقالاته («كيف ستكون النهاية» هاعولام هازه ١٩٨٣/٩/٣) أن التوسعية الصهيونية لا تستند إلى ديناميات أو مقولات توراتية أو غيرها، وإنما إلى قوة إسرائيل العسكرية الذاتية. ولذا حينما سنحت الفرصة لضم الضفة الغربية وسيناء والجولان لم يتوان جيش الدفاع الاسرائيلي عن ذلك على الرغم من أن بعض المناطق التي ضمت ليست ضمن أرض الميعاد. ولكن الانتصار العسكري المجيد يتحول إلى انتشار جغرافي قاتل في غياب المادة البشرية اليهودية.

أزمــة الاستيــطان :

ولعل فزع الصهاينة من انكماش المادة البشرية اليهودية القتالية هـو الذي يجعلهم يطلقون التصريحات «المخيفة» عن خططهم للاستيطان التي تتعاطاهـا وسائل الإعلام العربية بشراهة غير عادية دون دراسة أو مراجعة، مع أن الهدف من هذه التصريحات هو التمويه والتغطية على العجز والفضيحة. وقد ذكرت مجلة تايم الأمريكية(٤٠) أن أحد المسؤولين في إسرائيل قد صرح بأن الدولة قد بدأت مشروعا استيطانيا واسع النطاق في الضفة الغربية المحتلة. وكان من المتوقع أنه في منتصف ذلك العام سيكون قد شيد حوالي ستة الاف وحدة سكنية بحيث يستقر هناك ما يزيد عن خمسة وثلاثين ألف إسرائيلي، مما سيضاعف عدد المستوطنين اليهـود بحيث يصل عـددهم إلى ما يـزيد عن ستيـن الفا، وقـالت المجلة إن

المسؤولين الإسرائيليين صرحوا بأن عدد المستوطنين سيصل إلى مائة ألف مع نهاية عام ١٩٨٧ (أي العام الماضي)، كما أنهم يتحدثون بفخر شديد عن العام ٢٠١٠ حينما ستضم الضفة ١,٢٥٠,٠٠٠ مليون عربي!

وصاحب هذه التصريحات هو متيتياهو دروبلس (رئيس شعبة الاستيطان في الوكالة اليهودية عام ١٩٨٢) الذي قال إن الخطة تتضمن أيضا تطوير المستوطنات القائمة وتحويل بعض المستوطنات العسكرية إلى مستوطنات مدنية. وقد صرح دروبلس نفسه في ٢ ديسمبر ١٩٨٧ نقلا عن (الشرق الأوسط) بأن هناك خطة «مدروسة» أخرى تستهدف زيادة عدد المستوطنين اليهود في الضفة الغربية وغزة لتبلغ نسبتهم أربعين في المائة من مجموع السكان العرب في نهاية القرن الحالي. وتفترض هذه الخطة هجرة مليون ونصف مليون يهودي من الاتحاد السوفيتي!.

هذه التصريحات «التآمرية» الخطيرة تحتاج إلى شيء من التدقيق ومقارنتها مع الواقع:

١ ـ على سبيل المثال كيف يمكن تقبل رقم مليون ونصف مليون يهودي من الاتحاد السوفيتي، فكل التنبؤات والتوقعات والاحصائيات المتفائلة المغرقة في التفاؤل تشير إلى أن عدد المهاجرين من الاتحاد السوفيتي لن يزيد عن ٤٠٠ ألف بأي حال على أحسن تقدير، وأنه ـ كما اسلفنا ـ لن يهاجر منهم إلى إسرائيل سوى نسبة صغيرة. ولا نعرف حتى الآن أثر الانفراج السياسي والانفتاح الاقتصادي داخل الاتحاد السوفيتي على سلوك الاقلية اليهودية هناك. فقد تتفتح أمامها فرص الحراك الاجتماعي من جديد فتحجم عن الهجرة).

٢ ـ وتذكر الاحصائيات أنه يعيش في الضفة الغربية حوالي ٧٠ ألف مستوطن بعد عشرين سنة من ضم الضفة، أي بمعدل ثلاثة آلاف ونصف مستوطن كل عام. وقد شهدت عشرون السنة هذه تدفق المهاجرين السوفيت في السبعينات، ومع هذا لم تستوطن أعداد كبيرة منهم في الضفة.

٣ - والرقم ٧٠ ألفاً ذاته موضع شك فكما بين داني روبنشتاين(٤١) حينما يقوم المرء بتحليل تفاصيل التقارير المختلفة كأن تضع اسم كل مستوطنة وإلى جواره عدد المستوطنين فإن العدد في واقع الأمر لا يتجاوز ٦٠ ألفاً. وقد صرح وزير المواصلات الاسرائيلي باللغل ان عدد المستوطنين قد وصل أخيراً إلى ٦٠ ألفاً(٤٢). وهذا يهبط بالرقم إلى ثلاثة آلاف مستوطن كل عام. وهو رقم ولا شك مضحك، وقد بين الاستاذ ارنون سافير أن تزايد السكان العرب في عام وربع عام يعادل كل الاستيطان اليهودي في عقدين(٤٣).

٤ - العدد ٦٠ ألفاً أو ٧٠ ألفاً يضم سكان الأحياء السكانية داخل القدس وتوجد عشرة مراكز مدنية استيطانية على طول الخط الأخضر لا تبعد عنه أكثر من ستة أمتار، أي انها توجد اسما وحسب في الضفة الغربية، ومع هذا يحسب سكانها ضمن الـ ٦٠ ألفاً، (يبلغ عدد سكان معاليه ادويلم وحدها ١٢ ألفاً وهم لا يعتبرون أنفسهم سكان الضفة الغربية). ولذا لن نكون مبالغين إذا قلنا إن عدد المستوطنين في الضفة الغربية الذين توغلوا بالفعل في المناطق المحتلة لايزيد عن ٢٠ ألفاً في أحسن تقدير (وهذا هو تقدير مجلة تايم(٤٤)).

٥ - ونوعية المستوطنين في الضفة الغربية تختلف تماماً عن نوعية المستوطنين الصهاينة في الماضي، فهم ليسوا مثل «الرائد» الصهيوني القديم الذي كان يحمل بندقيته بيد ومحراثه باليد الأخرى، وإنما هو شخص مرفه يبحث عن الفائدة والراحة واللذة. وقد سميت هذا النوع من الاستيطان في مقالة لي منذ عدة سنوات «الاستيطان مكيف الهواء»، وقد فوجئت بالمعلق العسكري الإسرائيلي البارز زئيف شيف يتحدث عن «الأمن ديلوكس» أو الأمن الفاخر ويشير إلى المستوطنين اليهود الذين لا يريدون أن يحملوا البندقية أو المحراث «فهم يطالبون الجيش الاسرائيلي وأجهزة الأمن الأخرى بأن يضمنوا لهم نوعا من العيش الممتاز في المناطق (المحتلة)، وبأن تكون حياتهم مكفولة امنيا... وطبيعة الأمن الذي يطلبونه بالمواصفات التي

يطلبونها ليست موجودة في أي مكان آخر في إسرائيل، وان إسرائيل بأكملها لا تتمتع بمثل هذا الأمن الفاخر(٤٥).

٦ ـ وهؤلاء المستوطنون المرفهون لا يقيمون بالفعل في المستوطنات. فمن المعروف أن عددا كبيرا منهم يصل إلى حوالي ثلاثة أرباعهم يستقلون السيارات في الصباح ليذهبوا إلى أعمالهم في تل أبيب أو القدس ولا يعودون للضفة إلا في المساء(٤٦)، الأمر الذي يبين أن المستوطنات لا تزال عبارة عن منامات يقضي فيها المستوطنون سحابة ليلهم (ترى مجلة تايم ان عددهم يصل إلى ٨٠٪ وأنهم يقطنون الضفة بسبب المساكن الرخيصة والإعفاء من الضرائب). وكل هذا يتنافى مع فكرة الاستيطان الصهيوني التي لا تهدف إلى مجرد اغتصاب المكان، وإنما تهدف إلى ابتلاع الزمان أيضا، ولذا فالصهيونية لا ترسل جنود احتلال وإنما ترسل مستوطنين يخلقون واقعاً يهودياً ـ والمستوطنون المتنقلون لا يختلفون كثيراً عن جنود الاحتلال ـ .

٧ ـ وتظهر أزمة الطاقة البشرية اليهودية فيما أشار إليه الاستاذ ارنون سافير في المستوطنات الوهمية أو اللعبة Jummy مثل آرييل وعمانويل وقريات أربع وعشرات غيرها التي تقف خالية من السكان تقريباً وتوضع حولها الحراسة المشددة، بل إن مدينة القدس التي شُيد كثير من الأحياء اليهودية حولها مثل جيلو وراموت ورامات اشكول انخفض عدد سكانها من اليهود من ٧٤٪ من مجمل عدد السكان إلى ٧٠٪، ولايزال المعدل آخذاً في الهبوط(٤٧). بل إن المستوطنات في الجليل والنقب بدأت تفقد سكانها. وقد اشتكى ناحوم سولن في مقاله المعنون «صهيونية دون روح صهيونية»(٤٨) من أنه بدلا من تطوير مناطق الجليل والنقب التي كانت تشكل تحدياً ليهود العالم الذين يرغبون في الهجرة إلى إسرائيل وظفت مليارات الدولارات في تطوير مناطق تقطنها أكثرية عربية وأقلية يهودية في الضفة الغربية. وقد وصف أحد المعلقين الإسرائيلي الانفاق على الاستيطان الفاخر في الضفة الغربية بأنه «الصنبور الذي لا يغلق أبدا».

ومع الانتفاضة الأخيرة انطلق السخط على الاستيطان مكيف الهواء من عقاله فوصفهم رابين بأنهم يشكلون عبئا على المؤسسة العسكرية(٤٩). ويظهر تساقط الاجماع القومي بخصوص قضية هامة مثل الاستيطان في النقاش الذي دار في اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي والذي نشرت تفاصيله الجيروساليم بوست إذ صرح وزير الاستيطان يعقوب تسور بان المستوطنين من أعضاء جماعة جوش ايمونيم يولدون بملعقة فضة في أفواههم على عكس المستوطنين في الجليل. كما هاجمهم بيريس في الاجتماع نفسه ، فرد عليه يوسف شابيرا (وهو وزير دون وزارة) أن الأمة (أي أعضاء المستوطن الصهيوني) كانوا يقفون وراء المستوطنين في الشمال حينما كان يهاجمهم الإرهابيون، أما الآن فنصف الأمة فقط يقف وراء المستوطنين في الضفة الغربية(٥٠).

وقد عبر يسرائيل هاريل رئيس تحرير مجلة نيكودا التي يصدرها المستوطنون في الضفة الغربية عن تساقط الاجماع القوي حين قال إن اليقين القديم بخصوص الاستيطان قد تراجع ، ثم أشار إلى خلل أساسي في الشخصية القومية الإسرائيلية. إذ إن الإسرائيليين -حسب تصوره- يفتقرون إلى الاحساس بأنهم يشكلون دولة ، ثم عقد مقارنة بينهم وبين الشعوب الأخرى. فقال: «في أوروبا أو أي مكان آخر لا يمكن التنازل عن المطالبة بأرض لأن شعباً آخر يعيش عليها» (ولعل تصريحه هذا بخصوص الشخصية القومية الإسرائيلية يهدىء قليلا من هؤلاء الذين يفسرون ما يسمى النجاح الاسرائيلي» «والفشل العربي» بالعودة إلى مكونات الشخصية وكأنها شيء ميتافيزيقي ثابت يحكم على صاحبه بالنجاح والفشل)، ثم استمر يسرائيل هاريل في التحذير قائلا «إذا حدث تقهقهر ما فهو لن يتوقف عند الخط الأخضر [حدود ١٩٤٨] إذ سيكون هناك انسحاب روحي يمكن أن يتهدد وجود الدولة ذاته». ويبين هاريل ان شامير في الماضي كان يتحدث عن الحكم الذاتي من قبيل الدعاية، ولكنه الآن يعني ما يقول «وما نسمعه في الليكود عن اننا وصلنا طريقا مسدودا فعلينا أن نجد مخرجاً ما يثير قلقنا. فمثل هذه الأقوال تدل على تآكل الخط الأساسي»(٥١).

اليهــود الشرقيــون :

أسس الاشكناز الجيب الصهيوني من خلال خلايا زراعية/ عسكرية متناثرة على أرض فلسطين ،ثم قامت بالاستيلاء عليها وطرد سكانها حينما سنحت الفرصة. وأعلنت قيام الدولة الصهيونية. ولكن «الدولة» شيء و«المجتمع» شيءآخر.وحتى يتم تأسيس مجتمع متكامل كان لا بد من أن يضم مادة بشرية جديدة لشغل «قاعدة الهرم الانتاجي»(٥٢). لتصبح عمالا وفلاحين يقومون بالأعمال الانتاجية. ومن هنا تهجير اليهود العرب بالوعد أحياناً (اليمن) وبالوعيد أحيانا أخرى. وقد نجح الصهاينة في انجاز هذا الجزء من مخططهم إلى حد بعيد (بسبب عمالة بعض الحكومات العربية وجهل بعضها الآخر).

وقد كانت الأمور مستقرة وهادئة داخل الكيان الصهيوني حتى عام ١٩٦٧. وكان الهرم المقلوب قد وقف على قاعدته من خلال يهود البلاد العربية وتربع على قمته يهود البلاد الغربية الذين كانوا يديرون الأمور ويستخدمون اليهود السفارد كعمالة رخيصة وأداة لضمان دوران دولاب العمل، ويهللون بأنه تم تطبيع الهرم اليهودي مع أن قاعدته كانت سفاردية شرقية وقمته اشكنازية غربية. ولكن مع دخول العمالة العربية بعد عام ١٩٦٧، ومع تزايد الثروات التي صبت في التجمع الصهيوني حقق اليهود الشرقيون شيئا من الحراك الاجتماعي، وتركوا قاعدة الهرم الانتاجية والأعمال الوضيعة للعمال العرب، بل تحولوا إلى مقاولين أنفار (فهم يجيدون التعامل مع المادة البشرية العربية بسبب خلفيتهم الثقافية المشتركة وبالتالي تحولوا إلى جماعة وسيطة). وقد زاد هذا من طفيلية وهامشية القطاع اليهودي في الاقتصاد الإسرائيلي. وقد بدأ الشرقيون يطالبون بالمساواة مع الاشكناز. ولكن المفارقة الكبرى تكمن في انه كلما ازدادت مساواة الشرقيين بالغربيين ازدادت أزمة المجتمع الصهيوني تفاقما إذ إن العنصر اليهودي (بشقيه الغربي والشرقي) سيزداد صعودا إلى قمة الهرم وانعزالا عن قاعدته الانتاجية مما يزيد من تواجد العرب فيها.

ويحاول الاشكناز تحاشي هذا الموقف عن طريق استيعاب الشرقيين دون دمجهم في المجتمع . فالاستيعاب لا ينطوي على صهر الجماعات المختلفة بل يعني إمكانية السيطرة والتحكم لدرجة قد تصل الهيمنة(٥٣) . وهذا يعني أن الشرقيين سيصبحون يهودا بالمعنى العام للكلمة دون أن يصبحوا «اشكناز» ، أي أنهم سيحلون أزمة التجمع الصهيوني السكانية كيهود دون أن يهددوا مواقع الاشكناز المتميزة . ويتم انجاز ذلك عن طريق طرح إطار مرجعي ثقافي غربي يشعر الشرقيون داخله بدونيتهم بشكل دائم ، فالشرقي حينما يحكم على نفسه بمقاييس حضارية اشكنازية سيجد نفسه ناقصا (وهذا تكنيك استعماري معروف يشكل جوهر التبعية) . كما أن الإحساس بالدونية تجاه الاشكناز يترجم نفسه إلى إحساس بالفوقية تجاه العرب وكره عميق نحوهم يجعل الشرقيين حريصين على خلق مسافة واسعة بينهم وبين العرب (وهذه هي إحدى السمات الأساسية لسلوك الطبقات التي توجد في الوسط) . وقد أدى ذلك إلى تهميش الشرقيين سياسيا تماماً وقطع جسورهم مع العرب . فالشرقيون ليؤكدوا ولاءهم للدولة، وحتى لا تنصرف إليهم شبهة الخيانة ، يأخذون موقفا متشددا من العرب (وهم بذلك حمائم تحاول أن تكون صقورا) . ولكن بسبب موقفهم المتشدد هذا يؤكد أعضاء المؤسسة الاشكنازية أن الشرقيين غير صالحين للتفاوض مع العرب (أي أنهم صقور لا تصلح أن تكون حمائم) .

وقد ساند عملية التهميش السياسي والثقافي للشرقيين هذه (التي تشبه من بعض الوجوه عملية تغييب العربي وتهميشه في علاقته بالأرض) ساندتها بنية القوة المتحيزة للاشكناز الذين احتفظوا بكل مؤسسات صنع القرار في أيديهم ـ الوزارة والكنيست والوظائف الإدارية والسياسية العليا ، وبالدرجة الأولى المناصب القيادية في الجيش ـ. ويلاحظ أثر هذا الوضع على حدود الحراك الاجتماعي الذي يحققه الشرقيون، فقد زادت نسبتهم في جميع مراحل التعليم ما عدا مرحلة التعليم العالي، ونجدهم في الجيش في جميع مستوياته ولكن نسبتهم تقل حتى تصل إلى قمة الهرم العسكري . فلا يوجد سوى ٣٪ من الشرقيين بين

القيادات(٥٥). وقد يشغل أحدهم منصب رئيس الدولة الشرقي، أما منصب رئيس الوزراء صاحب القوة الفعلية فهو من نصيب الاشكناز. وهم قد يوجدون في الموشافيم ولكن لا يسمح لهم بدخول الكيبوتسات، أي المؤسسة التي تفرخ فيها القيادات السياسية والعسكرية إلا بنسبة صغيرة. والفجوة بين الاشكناز والشرقيين ليست فجوة طبقية اجتماعية بالمعنى المألوف، وإنما هي جزء من طبيعة المجتمع الصهيوني الاستيطاني الاحلالية باعتباره مجتمعاً مبنياً على اغتصاب الأرض وطرد سكانها واستيراد عنصر بشري يهودي شرقي فقير عليه أن يبقى كذلك، حتى يظل في قاعدة الهرم الانتاجي.

ولذا يمكن القول إن أزمة اليهود الشرقيين هي عن حق بؤرة أزمات المجتمع الصهيوني فهي تعبر عن أزمة الهوية والأزمة السكانية الاستيطانية وأزمة الانتاجية والتطبيع أي أزمة الايديولوجية الصهيونية (الاستيطانية). فان قنع الشرقيون بموقعهم في قاعدة الهرم وتقبلوا الصيغة الاسفنجية التي تجعل منهم يهودا وطليعة الشعب اليهودي القتالية دون أن يكونوا اشكناز ودون أن يشاركوا في صنع القرار بما يتناسب مع عددهم، وزادوا معدلاتهم الاستهلاكية دون أن يتحركوا إلى قمة الهرم فإن أزمة الصهيونية يمكن أن تحل إذ يقال إذاً: «هذا شعب يهودي واحد منتج طبيعي مثل كل الأمم له مؤسساته الديموقراطية». ولأمكن الاستمرار في القتل والقتال والاستيطان بالمادة البشرية اليهودية الشرقية توجهها المادة البشرية اليهودية الغربية وبذا تستمر الامبريالية في الدعم والتمويل. ولكن ان صاح الشرقيون وبددوا الصمت وملأوا الفراغات وطالبوا بأن يتحول القول إلى فعل وقالوا: إن كنا شعبا واحدا حقا، فلمَ لا نشارك في صنع القرار بما يتفق مع نسبتنا العددية، ولم لا نصعد نحن أيضا إلى قمة الهرم؟ إن صاحوا بذلك ففي هذا الانهيار الكامل للايديولوجية الصهيونية. ولا يوجد في تصوري حل لهذه الاشكالية.

إن ما حدث لا يمكن وصفه إلا بأنه انفراط للعقد الاجتماعي الصهيوني أو على الأقل تآكل شبه كامل له، فقد كان هناك اتفاق على بعض المقولات الأساسية

مثل إن «اليهود شعب واحد» يطمح «للعودة»لأرضه، وأن الصهيونية ستنهي «حالة المنفى» وستقوم بتطبيع اليهود». وقد فشلت الصهيونية في كل هذا. فاليهودي هـذا المكون الأسـاسي لهذا الشعب اليهـودي لم يعرّف بـطريقـة تـرضي كـل الأطراف، وهو شعب يرفض العودة لـوطنه القـومي، مما يخلق أزمـة سكانيـة استيطانية. وهو إن «عاد» لا يتم تـطبيعه بـل يستمر فيـها كان فيـه من طفيلية وهامشية، ولذا لم يعد هناك اتفاق على المكونات الأساسية للصهيونية وأهدافها المبدئية، فالرؤية ليس لها ما يساندها في الواقع، والواقع صلب لا يود أن يرضخ للرؤية.

وقد ترجم هذا التآكل نفسه إلى عدم اكتراث بالمشروع الصهيوني الذي ترجم نفسه بدوره «إلى عدم الايمان بالقيم الصهيونية «الريادية» المبنيـة على التقشف وتـأجيل الاشبـاع. وبدلا منهـا ظهرت عقليّـة «الروش قـطان» ، أي «الرأس الصغير». وصاحب الرأس الصغير، في المصطلح الإسرائيلي، هو الإنسان ذو المعـدة الكبيرة الـذي لا يفكر إلا في مصلحتـه ومتعته واحتيـاجاتـه الشخصية، وينصرف تماماً عن خدمة الوطن أو حتى التفكير فيه. فهـو إنسان استهـلاكي علماني مادي لا يؤجل متعة اليـوم إلى الغد. وبـدلا من إسرائيـل التي كانت ستصبـح نوراً لـلأمم (ذات فولت عـال للغايـة) أصبحت ـحسب قول أحـد الصحفيين الاسرائيليين ـ مجتمع الثلاثة فيه V ، الفولفو والفيديو والفيلا. (ويمكن القول إن عقلية الروش قطان هي حالة لا تصيب الصهاينـة وحـدهم وإنمـا أي مجتمع يفتقر إلى الاتجاه ولا يحل مشكله المعنى).

لكل هذا ليس من الغريب أنه لم يعـد يؤمن أحد بـأن المشروع الصهيـوني مشروع حي قادر على الاستمرار وعلى العطاء وعلى توفير الأمن للاسرائيليين أو ليهود الخارج، واكتسب مصطلح «صهيونية» ذاته بعض الايحـاءات القدحية. فالكلمة العبرية «تسيونوت» أي «صهيونية» تعني كـلام مدع أحمق(٥٦)، وهي تحمل الآن معنى «التباهي بالوطنية بشكل علني ومبالغ فيه، والاتصاف بالسذاجة الشديدة في حقل السياسة(٥٧). والمقصود بجملة مثل «اغطيـة صهيونيـة» هو

«فلتتفوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أي معنى». وفي المقال الفكاهي «الصهيونية الخالدة» الذي أشرنا إليه آنفاً يلاحظ الشخص المتشائم أن كلمة صهيونية Zionism والزومبي Zombie ـ وهو الميت الذي أعيد إلى الحياة بعد أن دخلت قوة خارقة جسده، ولكنه لم يستعد القدرة على الكلام ولا حرية الارادة ـ يلاحظ ان الكلمتين توجدان في الصفحة نفسها في القاموس الانجليزي(٥٨) (راجعت قاموس المورد وقاموس لونجمانز Longmans فوجدت ان الكاتب مبالغ بعض الشيء فهما يقعان في صفحتين متتاليتين. ولعل القاموس الذي عنده حروفه صغيرة!)



الفصل التاسع

شرعية الوجود

عودة العربي ومشكلة الشرعية الحقيقية:

وانفراط العقد الاجتماعي الصهيوني هو في واقع الأمر سقوط القناع، فما يسمى الشرعية الصهيونية إن هو في واقع الأمر إلا محاولة لاخفاء أزمة الشرعية الأعمق وهو أن إسرائيل هي «فلسطين»، وأن «العمل البلدي» هو في واقع الأمر «الاحلال العبري»، وأن «السيطرة على الانتاج» هي «طرد العرب منه»، وأن «استعادة السيادة السياسية» هي «سلب العرب إياها»، وأن شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» تعني في واقع الأمر «أرض يُطرد شعبها منها ليحل شعب آخر محله» ـ وهذا ما سميناه العربي الغائب أو العربي المغيب. وكان لا بد من أن تطلق السحابة الكثيفة من الأقوال عن «الشرعية الصهيونية»، وعن النجاح والفشل في إطار هذه الشرعية حتى لا يواجه المستوطنون مشكلة الشرعية الأعمق. (وهذه استراتيجية إنسانية عامة أن يخلق الإنسان نوعا من المشاكل يمكنه حلها، أو قابلة للحل حتى يخبىء المشاكل التي لا حل لها). وهذه المشكلة بالنسبة للمستوطنين الصهاينة هي أن العربي الغائب ليس غائبا وأن حقوقهم المقدسة المجردة كثيرا ما تبهت بجوار الحقوق العربية المباشرة، وخصوصا إذا كان الإسرائيلي يعيش في منزل عربي يقرع صاحبه الأبواب. وهذا ما سماه عاموس ايلون «عقدة الشرعية» وهو احساس شائع يعبر عن نفسه في أدب الإسرائيليين وأقوالهم. فقد قال ايلي ايلون، الشاعر الإسرائيلي الشاب، إن «العبث التاريخي» للشعب اليهودي، وأي شيء يقيمه الإسرائيليون مهما كان جميلا، إنما «يقوم على ظلم الأمة الأخرى». ولسوف يخرج شباب إسرائيل ليحارب ويموت «من أجل شيء قائم أساسا على الظلم، ان هذا الشك، هذا الشك وحده، يشكل أساسا صعبا للحياة(١).

وتتناول قصة في «مواجهة الغابة» التي كتبها الروائي الإسرائيلي أبراهام ب. يهوشوا، والتي وصفها بعض النقاد بأنها هدامة وانتحارية، بعض الأحداث في حياة طالب يكتب دراسة عن الحروب الصليبية، وهي «تجربة» تاريخية أخرى عقيمة وعاجزة تطارد العقل الإسرائيلي، وقد عين أحد المسؤولين بالصندوق القومي اليهودي البطل على مضض حارسا لغابة غرسها الصهاينة في موقع قرية عربية ازالوها مع ما ازالوا من قرى ومدن، وتحمل كل شجرة في الغابة اسم أحد المساهمين المتحمسين من صهاينة الشتات، وعلى الرغم من أن البطل ينشد الوحدة إلا أنه يقابل عربيا عجوزاً ابكم من أهل القرية يقوم برعاية الغابة، وتنشأ علاقة حب/ وكراهية بين العربي والاسرائيلي، فالاسرائيلي يخشى انتقام العربي، ومع ذلك ينجذب إليه بصورة غريبة. ويكتشف الحارس، المعين من قبل الصندوق القومي اليهودي، أنه يحاول،بلا وعي، مساعدة العربي في اشعال النار بالغابة، ولكنه يفشل، وفي النهاية، عندما ينجح العربي في أن يضرم النار في الغابة كلها، يتخلص البطل من كل مشاعره المكبوتة(٢).

وإذا كانت الاعتذاريات الصهيونية، المركبة والفريدة، قادرة على اراحة ضمائر صهاينة لندن ونيويورك فهي غير ناجحة، بالقدر نفسه، مع الاسرائيليين الذين يعيشون وسط الاكذوبة الصهيونية، وعلى حطام القرى العربية، ويختلطون أحيانا بالضحايا. بل إن أولادهم ليسألونهم، أحيانا عن العرب، وكما يقول عاموس أيلون: إن الإسرائيليين غير قادرين على «ترديد الحجج البسيطة المصقولة وانصاف الحقائق المتناسقة التي كان يسوقها الجيل (الصهيوني) السابق(٣).

ومما يزيد مسألة الشرعية الحقيقية الجذرية تفاقما أنه مع الانكماش اليهودي في العدد والهوية، الذي قوض دعائم الشرعية الصهيونية حدث تمدد عربي على المستويين نفسيهما ـ أي أن العربي بدأ يقرع الأبواب بشدة لم يعهدها المستوطنون المستنيمون إلى الحلم الصهيوني وإلى قوة القمع الصهيونية من قبل، وقد حدث هذا التمدد نظراً إلى أن الفلسطينيين منذ البداية أدركوا الطبيعة الاحلالية للغزوة

الصهيونية. ومن هنا بقيت مئات الآلاف من الشبان الفلسطينيين الجالسين الملتصقين بالأرض لايبرحونها. بل إن الالاف الأخرى التي اضطرتها الظروف الاقتصادية القاهرة للهجرة تعود كل عام، ما استطاعت، للمساهمة في الحصاد ولتثبيت العناصر البشرية التي بقيت، ولتزويدها بالعون المادي والمعنوي.

ويبدو أن الفلسطينيين منذ بداية الغزوة الصهيونية وهم مدركون، ربما بشكل غريزي غير واعٍ، أنها غزوة سكانية استيطانية، احلالية، ولذا تصل معدلات الإنجاب بينهم إلى أعلى معدلات في العالم. ويبلغ عدد سكان فلسطين المحتلة أربعة ملايين من بينهم ٧٥٠ ألف عربي. وقد زاد اليهود بمعدل ٢٪ في العقد الماضي بينما زاد العرب بمعدل ٤٪، وإذا استمرت معدلات الزيادة على ما هي عليه ـوهو أمر متوقعـ فسيكون عدد العرب عام ٢٠٠٠، ٢٢٪ من مجموع السكان (بالمقارنة إلى ١٧٪ في الوقت الحالي). وتضم الأراضي التي احتلت بعد عام ١٩٦٧، ١,٢٥٠,٠٠٠ عربي في مقابل ٦٠ ـ ٧٠ ألف إسرائيلي على أحسن تقدير. فإذا حسبت الأراضي المحتلة فإن نسبة العرب ستزيد إلى ٣٦,٤٪ مما يعني أنه مع استمرار المعدل الحالي في الزيادة فإن عدد اليهود وعدد العرب سيكون متساويا عام ٢٠١٥(٤). ومرة أخرى فلنحاول أن نرى استجابة الفاعل لهذا التمدد العربي. فقد ورد في اعلان المؤتمر اليهودي الأمريكي (٢١ سبتمبر ١٩٨٧) أن الطفل اليهودي الذي يولد اليوم في اسرائيل يمكنه أن يتوقع أن يدخل المدرسة العليا (الثاوية) في أرض يكون فيها السكان العرب مساوين تقريبا للسكان اليهود، وذلك قريبا جدا ـأي أن «خروج صهيوني» يقابله «دخول» ابن البلد وتكاثرهـ.

والمادة البشرية الفلسطينية ليست بدائية أو متخلفة (كما كان يروج الصهاينة)، وإنما هي متقدمة قادرة على اكتساب المهارات اللازمة للاستمرار في العصر الحديث وتحت ظروف القمع والقهر. وعدد الطلبة الفلسطينيين من خريجي الجامعات يتزايد بشكل لا يدخل الطمأنينة كثيرا على قلب الصهاينة (تعد نسبة خريجي الجامعات من الفلسطينيين أعلى النسب في الشرق الأوسط إن لم تكن

اعلاها على الاطلاق). مما حدا ذلك الاستاذ آرنون سافير استاذ الجغرافيا الاسرائيلي(٦) على القول «إن السيادة على أرض اسرائيل لن تحسم بالبندقية أو القنبلة اليدوية، بل ستحسم السيطرة من خلال ساحتين: غرفة النوم والجامعات، وسيتفوق الفلسطينيون علينا في هاتين الساحتين خلال فترة غير طويلة». وليقارن القارىء هذا القول بالقول الصهيوني في بداياته حينما كانوا يتحدثون عن طرد العرب البدائيين الذين يشبهون الهنود الحمر. والصهاينة يعلمون أن ازدهار التعليم يعني مزيدا من المقاومة والسخط والوعي السياسي الذي يمكن أن يتحول إلى عنف (كما قال هليل فيرعي الباحث في مركز الشؤون العامة الإسرائيلي في مقال نشرته صحيفة وول ستريت جورنال). كما أنهم يعرفون تماما أن ضحية العدوان يتعلم من المعتدي، وأن المستعمَر يتعلم من المستعمِر كيف يستخدم السلاح والقوة. بل قد بدأ العرب مؤخرا في استخدام الاسلحة «الديموقراطية» المتاحة داخل النظام السياسي الاسرائيلي مثل الاشتراك في العملية السياسية الاسرائيلية. وقد حذر رعنان كوهين، رئيس شعبة الانتخابات في حزب العمل، من أن قوة العرب البرلمانية ستصل إلى عشرين مقعدا في الكنيست عام ٢٠٠٠، ولن يكون بالإمكان إقامة حكومة دون أخذ هذه الحقيقة في الحسبان(٧).

وهذا التمدد العربي لم يكن أفقيا وحسب، أي تمدد في المكان والأرض، وإنما كان تمددا رأسيا أيضا في الزمان والتاريخ. وقد أخذ التمدد الرأسي شكل تماسك وتضامن غير عادي. ولا بد هنا من أن نشير إلى دور منظمة التحرير الفلسطينية الثوري المبدع (بالمعنى العميق للكلمة). فالفلسطينيون موزعون في كل مكان داخل حدود الدول العربية التي تتفاوت صداقتها وعدوانها للفلسطينيين من يوم ليوم (حسب درجة حرارة النخبة الحاكمة وما تمليه عليها مصالحها المباشرة الضيقة). وتوجد أعداد كبيرة منهم في العالم العربي. ومع هذا نجحت المنظمة في أن تبقى الجميع، مع اختلاف انتماءاتهم السياسية والدينية داخل إطار الوحدة والانتماء الفلسطيني إلى داخل إطار الهوية، فتحول كل فعل فلسطيني عادي إلى

فعل ثوري، ابتداء من تلك العجوز التي تجلس داخل المخيمات تنسج المنسوجات الملونة التي تباع في أقاصي الأرض باسم فلسطين، ومرورا بمحمود درويش واحد من اعظم شعراء العصر الحديث، وانتهاء بذلك المقاتل الذي يحمل البندقية وينتصر ويستشهد. ومن داخل هذه الهوية ظهرت ثورة الحجارة.

وأنا أعتقد أن هذه الثورة ليست تعبيرا عن اليأس كما يقول المحللون السياسيون من المؤمنين بالنظريات البافلوفية عن الفعل المنعكس الشرطي، وإنما هي تعبير عن امتلاء وأحساس بالهوية. وهي امتلاء زادت منه أزمة المجتمع الصهيوني المتفاقمة التي أدركها الفلسطينيون في الداخل وفي الخارج فشدت من أزرهم، فانطلقوا ممسكين بالأحجار والنجوم. وقد كتبت مقالا في جريدة الرياض السعودية في ٢٤ فبراير ١٩٨٤ أي منذ أربعة أعوام عنوانه «القاء الحجارة في الضفة الغربية» أتنبأ فيه بأن الحجارة ستصبح السلاح الأساسي في يد الجماهير. وقد استندت في رصدي هذا للأحداث لما كنت أراه من تآكل داخل الكيان الصهيوني وامتلاء وتماسك داخل المجتمع الفلسطيني (داخل وخارج فلسطين) (انظر الملحق الثالث).

الحرب السابعة :

وعودة الفلسطيني بكل هذه القوة لا بد من أنه سيزيد من أزمة المجتمع الصهيوني الحقيقية، وسيفضح الأكذوبة الأساسية انه لا يوجد عرب. وقد كان هذا الادراك المتحيز إدراكا يسانده العنف والقوة. وحيث إن المؤسسة العسكرية الصهيونية نجحت طيلة هذه الأعوام في قمع العرب فإن عملية التغييب استمرت وكانت تصدر التصريحات المختلفة عن عدم وجود ما يسمى الفلسطينيين، أو أن الفلسطينيين لهم دولة بالفعل وهي شرق الأردن. ومن المفارقات أنه مع نجاح عملية التغييب كان بوسع العدو اظهار شيء من المرونة والاعتدال نحو العرب، فالاعتدال الصهيوني ليس تعبيرا عن التسامح أو عن حب الآخر، وإنما هو تعبير عن الاطمئنان الصهيوني بخصوص غيابه، فهو اعتدال يتم داخل اطار الشرعية

الصهيونية التي يقبل بها العربي المغيب، ويخضع لها فيكافأ على ذلك مكافاة تتناسب طرديا مع مقدار غيبوبته وتقبله. ولكن إذا ظهر العربي الغائب وأكد نفسه وطرح مشكلة الشرعية الحقيقية والأعمق، أي قضية الوجود الصهيوني ذاته فإن الاعتدال الصهيوني المزعوم يختفي ويظهر بدلا منه سياسة القبضة الحديدية.

وهذا ما حدث مع الانتفاضة. إذ إن العربي الغائب ظهر وفي يده حجر يلقي به على الصهيوني وعلى أوهامه فيشج رأسه ويزلزل الأسطورة فينتبه هذا فجأة إلى أنها أرض لها شعب. وقد قال نسيم زفيلي، رئيس قسم الاستيطان الحالي بالوكالة اليهودية، إن هناك حالة فزع وهلع بين المستوطنين في الضفة الغربية (وهذه هي الحالة التي تنتاب الانسان حينما يفقد الوهم فيصبح عاريا أمام الحقيقة). وقد رفض يسرائيل هاريل هذا الوصف، وأعطى تحليلا أعمق وأشمل إذ قال إن اليقين القديم [أي الاسطورة] الذي شد من أزر جوش ايمونيم قد اهتز لأول مرة. فهناك قلق بخصوص الاحتمالات السياسية. وهو قلق لا يتصرف إلى المستوطنات ذاتها وحسب، وإنما ينصرف إلى [ما هو أعمق]: إلى ارادة الأمة وإلى جذورها والى طبيعة رؤاها. ثم اضاف «لقد دخلنا مرحلة جديدة في النضال من أجل ايرتس يسرائيل (أي عادت مشكلة الشرعية الأساسية ولم تعد القضية مشكلة الشرعية الصهيونية). فالعرب لا يريدون الضفة الغربية وحسب بل عكا ويافا أيضا... والحكومة تعطي العرب اشارات إلى أن مكاننا هنا في الضفة الغربية مؤقت(٨) . فكأن الانتفاضة قد همشت ثم غيبت المستوطنين وطرحت قضية الوجود الصهيوني وقد عبر الفيلسوف الاسرائيلي ديفيد هارتمان عن القضية مستخدما تقريبا المصطلح الذي استخدمناه منذ خمسة أعوام في الطبعة السابقة لهذا الكتاب إذ قال إن ثورة الحجارة تقول للصهاينة: «نحن لا نخاف منكم، وهي طريقة أخرى للقول أنتم لستم هنا»(٩).

لم تعد القضية إذاً قضية «هوية يهودية» أو تطبيع شخصية يهودية» أو «صورة جيش الدفاع» أو «تمدد المستوطنين» أو «الحدود»، وهي كلها قضايا تفترض

«الوجود الصهيوني» وتنطلق منه، وإنما أصبحت قضية «الوجود» ذاته في مقابل الغياب. وقد عبر أوري افنيري عن هذه الأفكار ذاتها بشكل ينم عن الذكاء (دون أن يستخدم مصطلح الشرعية). ففي مقال له بعنوان «الحرب السابعة»(١٠) حذر فيه من الادعاء بأنّ ما يحدث هو مجرد اضطرابات أو «مخالفات نظام» وأن الثوار هم مجرد المحرضين» أو «جمهور محرض غاضب». فمثل هذه الأقوال تزور الصورة الحقيقية». فالأقوال السابقة ـ والحديث حديثنا ـ تفترض أن الثورة تدور داخل إطار الدولة الصهيونية، بينما ما يحدث قد تخطى هذا النطاق، ويدور في إطار مختلف: إنها ـ على حد قول افنيري ـ «حرب بكل معنى الكلمة، إنها مثل حرب فيتنام ومثل حرب الجزائر». «فالعدو هو الشعب الفلسطيني إذ يقف وراء هؤلاء الأولاد [الصغار] الجمهور الفلسطيني في المناطق المحتلة. ويقف وراء هذا الجمهور كل سائر أبناء الشعب الفلسطيني». ولذا فهو يسمي هذه الحرب السابعة، ولكن افنيري ـ وهنا مربط الفرس ـ يجد أن حروب ٥٦ ثم ٦٧ ثم حرب الاستنزاف ثم حرب لبنان) حروب حاربتها الجيوش العربية نتيجة للصراع العربي الاسرائيلي، على مستواه العام لاعلى مستواه الاسرائيلي الفلسطيني المباشر. أما الحرب الأولى والتي تدعى حرب الاستقلال (أي حرب الاستيلاء على فلسطين) فهي كانت أساسا حربا على هذا المستوى المباشر. وسواء أخذنا برؤيته أم لا للحروب العربية الاسرائيلية فإن النتيجة التي يخلص لها غاية في الأهمية إذ يقول «إن الحرب السابعة هي نتيجة حالة من المواجهة المباشرة بين المستوطنين والفلسطينيين «وكأنا في حلقة مفرغة، عدنا من خلالها إلى بداية حرب الاستقلال» ـ أي أن ما يوضع موضع التساؤل الآن هو الوجود الصهيوني ذاته لا مدى النجاح أو الفشل الصهيونيين ـ . فالأسئلة تطرح من خارج نسق الايديولوجية الصهيونية لا من داخلها.

وإذا ما عدنا إلى قضية التشدد والاعتدال فإننا نلاحظ أن عودة العربي قد أدت إلى التشدد الصهيوني، والتشدد دائما هو علامة من علامات الأزمة. فالتصريحات تتوالى عن ضرورة الضرب بيد من حديد، وأفلام التلفاز تشهد العالم أجمع على أن

تحطيم العظام ودفن الأحياء هي أحداث يومية في الدولة التي تدعي أنها يهودية. وهذا التشدد مفهوم تماما إذا كان ما يوضع موضع التساؤل هو وجود المرء ذاته لا شكل سياساته.

ومع هذا نرى أنه من الضروري أن نحكم على التشدد «الإسرائيلي في إطار أوسع بحيث نستخدم مؤشرات أخرى مثل نسبة النزوح والعزوف عن الانجاب كمؤشرات على التراخي الفعلي في مقابل التشدد اللفظي. كما يمكن أن نشير إلى توقف المستوطنين عن اصلاح منازلهم أو توسيعها أو زراعة حدائقها لأن المستقبل لم يعد مؤكدا كما كان من قبل(١١)، أي أن الشك العربي وعدم اليقين هو الذي يسم سلوكهم الفعلي، وأن التشدد في الوقت نفسه يسم الألفاظ التي يتشدقون بها (وهل يمكن القول -على طريقة علماء الشخصية القومية- إن هذا ينم عن حب الاسرائيليين للألفاظ وأنهم يطربون للغة؟).

محاولات التملص الاسرائيلي:

هذه إذاً هي بعض ابعاد أزمة الصهيونية الاستيطانية يتعايش معها معظم الاسرائيليين وان كان يتمرد عليها بعضهم ممن يدركون مدى عمقها وجذريتها وهم يحاولون أن يأتوا بالحلول لها. فعلى سبيل المثال يوجد لفيف من المثقفين الإسرائيليين يحاول أن يتخلص من العبء الصهيوني، لا يرفضه وإنما بمحاولة نسيانه وبتحويل الصهيونية إلى عملية بدأت وانتهت، أي أنهم يدخلون عنصرا تاريخيا على البنية الحلولية وعلى الغيبيات العلمانية. فيطالب البعض أن ينظر إلى الصهيونية باعتبارها عملية انقاذ محدودة. ويتحدث الكاتب الاسرائيلي أبراهام يهوشوا عن الصهيونية، بوصفها حركة انقاذ عملية(١٢)، ظهرت حلا للمأزق اليهودي منذ قرن (أي المسألة اليهودية في شرق أوروبا)، وهو يعتقد أن العملية قد وصلت إلى نهايتها. بل انه يذهب إلى أبعد من ذلك، فيؤكد ان «الشعب اليهودي» بأكمله في أرض الميعاد، يحاول تسويغ نظريته بالعودة إلى تاريخ اليهود، في فترة المعبد الثاني، عندما كانت هناك دياسبورا كبيرة العدد «مشتتة

خارج أرض اسرائيل»(١٣) (وهذه حقيقة تاريخية ولكن الصهاينة لا يعودون للتاريخ وإنما يلغونه ومثل هذه الحقيقة يتم النظر إليها باعتبارها انحرافا عن جوهر «التاريخ اليهودي»).

ويشارك يوري افنيري يهوشوا في نظريته، مفضلا أن ينظر إلى الصهيونية على أنها عملية منتهية، أهميتها تاريخية، وليست ديناميكية مستمرة، ويقترح الكاتب الاسرائيلي بواز إفرون أن على الاسرائيلي في علاقته بالصهيونية أن يكون مثل الأمريكي في علاقته بالبيوريتانية.. وبذا تصبح الدوافع الايديولوجية أو الاقتصادية التي دفعت الرواد الأوائل (الصهاينة أو البيوريتان) إلى الاستيطان (في فلسطين أو الولايات المتحدة) موضوعاً ذا أهمية تاريخية أو أكاديمية محضة، وليست موضوعا أساسيا)(١٤).

هناك أيضا مثال واضح للتمرد الاسرائيلي المحدود على الرؤية الصهيونية، يتمثل في منظمتي شينوى-ويعد، وهما منظمتان سياسيتان، صغيرتان تعملان داخل الاطار الصهيوني، إلا انهما مع هذا تمثلان جهدا تنظيميا للتمرد على الحد الأقصى الصهيوني. وعلى الرغم من أن هذين التنظيمين يؤيدان فكرة الشعب اليهودي، بالمعنى السياسي، ويؤكدان ضرورة الهجرة والاستيطان في فلسطين. إلا أنهما قدمابرنامجايصدرعن الحد الأدنى الصهيوني يختلف، في كثير من الوجوه، عن الموقف الصهيوني التقليدي من العرب والصراع في الشرق الأوسط. ومن الشخصيات التي انضمت إلى «يعد» الجنرال بيليد، وشالوميت آلوني، عضو الكنيست، وآرييه الياف، الأمين العام السابق لحزب ماباي. ويشغل الجنرال بيليد الآن منصب رئيس مجلس ادارة المجلس الاسرائيلي للسلام الاسرائيلي الفلسطيني الذي يدعو إلى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وبحقوق العرب.

وتوجد مجموعات هامشية كثيرة تحاول التملص من الصهيونية، ولكنها تمر بعمليات انشقاق واندماج لانهاية لها، وقد حفلت هذه المجموعات، مؤخرا،

باهتمام متزايد داخل اسرائيل وخارجها، ومن هذه الجماعات جماعة ماتزين وركاح والقوة الجديدة ليوري افنيري والفهود السوداء. وهذه الجماعات، مثل يعد وشينوى، كثيرا ما تختفي ثم تظهر مرة أخرى تحت اسماء جديدة، وتطرح شعارات مختلفة، ففي انتخابات الكنيست عام ١٩٧٧، ظهر حزب إسرائيلي جديد تحت اسم شيلي، وهو مكون من موكيد وجماعة آرييه الياف، وجماعة منشقة عن الفهود السوداء، والحركة التابعة ليوري افنيري. أما شينوي فقد انضمت إلى الجنرال ييجال يادين لتكون الحركة الديمقراطية للتغيير (وإن كانت لم تقم بأي تغيير ملحوظ أو غير ملحوظ بعد دخولها الائتلاف الوزاري). وهناك كذلك امنون روبشتاين الذي يقضي معظم حياته السياسية في تكوين جماعات صهيونية معتدلة تحاول أن تظل صهيونية وتتملص من بعض الجوانب الأساسية. وقد قام أخيرا (فبراير ١٩٨٨) بمحاولة تأسيس حركة سياسية جديدة تسمى المركز الجديد ولكنه اخفق في محاولته.

ويقوم كثير من الشخصيات العامة الاسرائيلية ببعض النشاط من أجل حقوق العرب المدنية والسياسية، وتعارض الصهيونية نظريا وعمليا، مثل اسرائيل شاهاك رئيس الرابطة الاسرائيلية لحقوق الإنسان والحقوق المدنية، وفيلشيا لانجر.

وتعاني هذه الجماعات والشخصيات من الوان شتى من المضايقات والارهاب على المستويين الرسمي والاجتماعي. وتتعرض جماعة ماتزين، والجماعات المماثلة، لهذا الارهاب أكثر من غيرها من المنظمات، نظرا لموقفها الجذري المناهض للصهيونية. ولا شك أن مثل هذه الهجمات تساعد على احتواء القوى المناهضة للصهيونية. غير أن وجود هذه الجماعات التي تغطي الاتجاهات السياسية من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، يعد ذا أهمية حيوية بالنسبة لليهود الاسرائيليين الذين يبحثون عن هوية جديدة وعن تعريف جديد، لتلك الهوية.

الطابع الصهيوني لدولة اسرائيل :

ورغم أهمية هذه الجماعات المناهضة للصهيونية والجماعات غير الصهيونية، بوصفها بديلا للصهيونية من الناحية النظرية، إلا أنها ليست ذات وزن سياسي يذكر في المجتمع الاسرائيلي، وهذا أمر لا يصعب فهمه، لان نشأة المجتمع الاسرائيلي هي نشأة صهيونية بالدرجة الأولى، وبناؤه بناء صهيوني في جوهره. فعلى الرغم من أن اسرائيل تعد الآن مستقلة نسبيا عن الايديولوجية التي أدت الى انشائها، مثلها في ذلك مثل المجتمعات الأخرى، إلا أن العلاقة بين الايديولوجية الصهيونية والمجتمع الاسرائيلي علاقة فريدة. فكل مجتمع - تقريبا - يفرز الايديولوجية والايديولوجيات التي تسود فيه وتهيمن عليه، لكن الصهيونية ايديولوجية أنشأت مجتمعا. ومن هنا جاءت السمات الفريدة للمجتمع الاسرائيلي، فقد أنشأت الحركة السياسية شعبا، ولم ينشىء الشعب الحركة السياسية، وأنشأ الهستدروت (النقابة العمالية) الطبقة العاملة الاسرائيلية، ولم تنشىء الطبقة العاملة النقابة. فاسرائيل -مثل الجدل الهيجلي- تقف على رأسها سعيدة غافلة عن نظام الواقع المتعين، ولعل هذا الوضع هو الذي يفسر سر سيادة الأفكار الصهيونية، برغم انفصالها عن الواقع.

وصهيونية الدولة لم تتناقص بعد انشائها، لأنها عرَّفت نفسها وديناميتها على أساس صهيوني سافر. فنجد أن قانون العودة، وقانون الوضع السياسي للمنظمة الصهيونية قانونان صهيونيان فريدان، يشكلان الأساس الايديولوجي للمجتمع الاسرائيلي.

ويعيش المواطن في اسرائيل داخل شبكة كثيفة من الرموز والأساطير التي نسجها الصهاينة من التراث الديني اليهودي، واعطوها مضمونا «قوميا». فعلم بلاده ابيض وازرق، لون «الطاليت» (شال الصلاة اليهودي)، تتوسطه نجمة داود، وهي رمز قبّالي، ويتحدث نشيده القومي عن «عودة» الى وطنه تذكر المرء بالعودة إلى العصر الماشيحاني. وحتى اسم الدولة (اسرائيل) واسم الأرض (أرتس

اسرائيل)، هي كلها تسميات دينية وقومية في الوقت ذاته. والبرلمان الذي يجتمع فيه ممثلو «الشعب اليهودي» في اسرائيل يسمى «الكنيست» او مكان الاجتماع، وهو اسم يذكر المرء بالمعبد اليهودي الذي يطلق عليه «بيت هاكنيست». وقد غيرت اسماء المدن والموانىء والقرى، وسميت بأسمائها العبرية القديمة، ذات الرنين الديني والبريق الصوفي، لتصبح اسرائيل شيئا أشبه بالمتحف.

والمواطن الاسرائيلي، في نظرته للعالم، وادراكه للواقع، ليس لديه صورة واضحة عن فلسطين او الفلسطينيين أو الشرق الاوسط. وهو يستخدم الفاظا لا صلة لها بالواقع، مثل السامرة ويهودا، وينظر الى الشرق الاوسط من منظور «الحقوق المطلقة» و«المقدسة» الواردة في التوراة والتلمود التي لا يمكن مخالفتها او التشكيك فيها، والتي تستبعد تماما اي اساس للحوار وقد لاحظ الكاتب الاسرائيلي بن عيزر ان الاتجاه السائد في اسرائيل (في الدوائر الدينية وغيرها) يرى العرب على انهم العماليق الذين ورد ذكرهم في التوراة. وقد شبه الصهاينة الاستيطان في فلسطين بغزو يشوع بن نون لأرض كنعان، كما شبهوا السكان العرب في الاراضي المحتلة، في بعض الأحيان، «بالأمم السبع المذكورة في التوراة، التي صدر أمر بابادتها»(١٥).

والفلسفة الصهيونية التي تشكل رؤية الاسرائيليين للواقع، من الناحية العاطفية والعقلية، وتعزلهم عن الزمن والتاريخ لها أساس اقتصادي وسياسي راسخ. فالهستدروت مثلا، مؤسسة صهيونية استعمارية استيطانية فريدة، فحتى اسمها باللغة العبرية «الاتحاد العام للعمال اليهود في أرض اسرائيل»، يوحي بالارتباط العضوي العميق بينها وبين الصهيونية. وقد قال بن جوريون، في مجال وصفه لهذه المؤسسة، «إنها ليست مجرد اتحاد عمال، أو حزب سياسي، أو حتى مؤسسة تعاونية، انها تعبير عن وحدة شعب جديد، يبني بلدا جديدا، ودولة جديدة، ومستعمرات جديدة، وحضارة جديدة. كما وصف متحدث آخر المهمة الرئيسة للهستدروت بأنها تحقيق لأهداف الصهيونية في تشجيع الهجرة وبناء المستوطنات»(١٦).

وهــذا الاتحـاد العمــالي ، الـذي انشىء عــام ١٩٢٠ ، ليخلق طبقــة عـاملة يهوديـة ، أسندت إليـه مهمة وضـع الـرؤيـة الصهيـونيـة العنصـريـة للعمالة العبرية الخالصة موض التنفيذ، فشن حملة ضد العمالة العربية والانتاج العربي، كما كان يستخدم في بعض الأحيان، موارده المالية لتعويض الرأسماليين اليهود عن الفرق بين العمالة اليهودية مرتفعة الثمن، والعمالة العربيـة الأقل تكلفة، الامر الذي مكن أصحاب العمل اليهود من البقاء داخل الحظيرة القومية الخالصة(١٧). ونظرا لأن الهستدروت كان مسؤولا عن المستوطنات، فقد كان يشرف على الهاجاناه، وهي الذراع العسكري للوكالـة اليهوديـة والمستوطنـين الصهـاينة، كـما كان هـو القناة الاسـاسية التي تـوجه من خـلالها الاعـانـات والمساعدات التي كانت تصب في الجيب الاستيطاني الصهيوني، والتي تصب الآن في الدولة الصهيونية.

ويعد الهستدروت أهم مؤسسة صهيونية على الاطلاق، لا يفوقه في الاهمية إلا الجيش، عندما أصبحت له مكانة ذاتية مستقلة بعد عام ١٩٤٨ . وهو الآن اتحاد عمال يضم الاغلبية العظمى للقوى العاملة الاسرائيلية، جميع فئات العمال، ومديري المصــانع، وموظفي الحكـومة. ويبلغ عـدد أعضائـه، طبقا لإحـدى التقديرات، حوالي ١,١ مليـون من مجموع السكان البالغ عـددهم حوالي ٣ مـلايين. وقـد يبدو غـريبا أن يملك الهسـتـدروت قطاعـا كبيـرا من الاقتصـاد الاسرائيلي، يضم صناعة ضخمة وبنوكا وشركات ملاحة وطيرانا، بالإضافـة إلى اكبر شركة مبان في اسرائيل. وقد يكون الهسـتدروت هو اتحاد العمال الوحيد في العــالم الـذي تـوجـد فيه «ادارة اتحــادات العمــال»، نـظرا لـطبيعتـه البروليتارية/الرأسمالية المختلطة، وانشطته الاستيطانية الاستعمارية.

وعندما ينظم العمال الاسرائيليون اضرابا، فهم يفعلون ذلك ضد «اتحادهم» الذي كثيرا ما يكون هو المالك الوحيد او الجزئي للمصنع الذي يضرب العمال ضده. وإذا أخذنا في الحسبان أن أمـوال الاضرابـات هي أيضا تحت سيـطرة الهستدروت يتضـح لنا شذوذ هذا الوضع، حيث يجد العمال أنفسهم، احيانا،

ينظمون اضرابا ضد مؤسسة رأسمالية تقوم بادارة نقابتهم العمالية، وتسيطر على قوتهم، وتتحكم في الأموال المخصصة لتمويل الاضراب. والعامل الذي يترك الهستدروت تواجهه صعاب لا قبل له بها، حيث إنه لا يتمكن من العثور على عمل في أي مكان آخر. غير أن البحث عن وظيفة لن تكون مشكلته الوحيدة، فإنه سيجد ايضا ان مصاريف علاجه الباهظة تشكل عبئا كبيرا، نظرا لأن الهستدروت لديه اكمل برنامج شامل للتأمين الصحي في اسرائيل. إن التوجه الصهيوني للهستدروت، وقبضته الحديدية على حياة الفرد، يثبط أي نزعة نحو التمرد من جانب المواطن الاسرائيلي العادي.

ومن العوامل الهامة الأخرى التي تساعد على تشديد قبضة الصهيونية على المجتمع الإسرائيلي هيمنتها على الأحزاب السياسية. فهذه الاحزاب تتلقى الدعم السخي من المنظمة الصهيونية العالمية، ومن المتبرعين السذج في الخارج الذين يعتقدون أنهم يهبون مالا للفقراء في اسرائيل. وثمة تقدير بأن الأموال الصهيونيةالتي تدخل سنويا في خزائن الاحزاب السياسية الاسرائيلية تصل الى ٣,٥ مليون دولار(١٨).

ولو اخذنا في الحسبان الفارق بين عدد السكان في إسرائيل وعدد السكان في الولايات المتحدة، لوصل هذاالمبلغ الى ما يوازي، في الواقع، حوالي ٢٥٠ مليون دولار تصب في النظام الحزبي الأمريكي، ولو أخذنا بالحسبان الفرق بين دخل الفرد في الولايات المتحدة واسرائيل لوجدنا أن هذا الرقم قد يتضاعف ثلاث مرات. ومن السمات الشاذة للغاية للحياة السياسية الاسرائيلية ان معظم الأحزاب الإسرائيلية لديها «فروع» في المنفى، فنجد أن شيمون بيريز على سبيل المثال، يشيرالى حزب العمل على أنه «حزب يهودي صهيوني عالمي»(١٩). وتصدر فروع الشتات عن منطلقات صهيونية الشتات الخيرية، ولذلك فهي تضطلع بعملية جمع الأموال وتجنيد اليهود للقيام بالضغط السياسي.

وبعض الأحزاب تقوم بنقل الحملات الانتخابية الإسرائيلية إلى الولايات

المتحدة. فقد اوردت جريدة النيويورك تايمز، في عددها الصادر في ٣ أبريل ١٩٧٧، أن بعض السياسيين يقومون بنشاط لجمع الاموال، دون تسجيل أنفسهم كعملاء أجانب... ومن المعتقد ان ممثلي الحركة الديمقراطية الجديدة للتغيير، التي يرأسها ييجال يادين، قد جمعت حوالي ٥٠,٠٠٠ دولار، بينما كشف الجنرال ارييل شارون أنه «قد تلقى بضعة آلاف من الدولارات من الولايات المتحدة» على اثر زيارته لها.

وحينما تتخذ الأحزاب المناهضة للصهيونية والأحزاب غير الصهيونية موقفا معاديا للأيديولوجية الحاكمة، فهي لايمكنها الحصول على المعونات والأموال اللازمة للاشتراك في واحدة من اكثر الانتخابات تكلفة في العالم. ونظرا لأنها ترفض فكرة القومية اليهودية، وتقبل فكرة القومية أو الهوية الإسرائيلية، فإن هذه الأحزاب لايمكنها مخاطبة يهود الشتات إلا داخل حدود ضيقة لأقصى حد. ويزيد من تفاقم الموقف أن الأحزاب السياسية في إسرائيل ليست أحزابا بالمعنى المتعارف عليه، فهي مؤسسات استيطانية/ استيعابية أسست الدولة، وليست أحزابا تتواجد داخل الدولة، وما الدولة الصهيونية سوى مجرد تعبير شكلي عن وضع استيطاني قائم بالفعل، جوهره المؤسسات الاستيطانية التي تدعى بالاحزاب. وتظهر استيطانية الأحزاب في علاقة الاعضاء بها، وفي الوظائف التي تضطلع بها، فالحزب ليس مجرد انتماء ايديولوجي، بل هو أيضا انتماء اقتصادي وسلالي. فكل حزب له مشروعات الإسكان الخاصة، وله شركات للبناء، ومراكزه التعاونية، ومستشفياته ونظامه للضمان الصحي، كما أن لكل حزب مصارفه ومكاتبه للتسليف والتوظيف، ولعل هذا الوضع يفسر ارتباط الأعضاء بالأحزاب في اسرائيل، ويفسر أيضا ظاهرة الانضباط والمركزية في الأحزاب الاسرائيلية.

ومعظم المشاريع التي تتحكم فيها الاحزاب، والخدمات التي تقدمها تتلقى الدعم على شكل منح او قروض مقدمة من الوكالة اليهودية، أو عن طريق حملات مباشرة لجمع الأموال في الخارج. فقد تلقى الحزب القومي الديني ،على

سبيل المثال، مبلغ مليون دولار من الوكالة اليهودية في سنة ١٩٧١ـ ١٩٧٢. والاحزاب الصهيونية، كما بينا، تسيطر سيطرة تامة على حياة أعضائها، ولا يمكن الاحتفاظ بهذه الهيمنة إلا عن طريق الدعم الصهيوني. وقد رسم ايموس ايلون صورة لإسرائيل على أنها دولة تتكون من مقاطعات حزبية منفصلة تقريبا، أو ما سماه «ولايات اقطاعية مستقلة». وبعض المناطق الريفية هي فعلا «جيوب مغلقة تابعة لحزب واحد»، حيث ترتبط معظم المستعمرات والمستوطنات التعاونية المتاخمة لها بالحزب نفسه(٢٠).

ونظرا لأن الأموال المتاحة للأحزاب المناهضة للصهيونية وغير الصهيونية محدودة، فإنها لا يمكنها القيام بمثل هذا العدد من المشاريع الخارجة على نطاق العمل السياسي، الأمر الذي يجعل هذه الاحزاب اقل جاذبية للافراد، وتفرض على هذه الاحزاب ـ في الوقت نفسه ـ هامشية تسبب لها الكثير من الاحباط واليأس. وفي عددها الصادر بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٧٤، نشرت جريدة هاعولام هازيه مقالا يبين بشكل واضح كيف يقوم البناء الصهيوني للاحزاب الاسرائيلية بفرض الموقف الصهيوني على كثير من رجال السياسة. فقد عرف موشى كول، وزير السياحة ورئيس الحزب الليبرالي المستقل، بموقفه المعتدل، ولكنه أجبر في آخر الأمر على «تصحيح» مواقفه، واخذ يدلي بتصريحات تنادي بضم الاراضي المحتلة: «ليكن معلوما لجيراننا في الشرق (اي العرب) اننا لا نقيم المستوطنات ونسلحها لنهدمها بعد ذلك». وقد اوردت هاعولام هازيه، في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٧٤، على لسان الوزير نفسه هذا التصريح: «لست على استعداد لنقل مستوطنة قائمة، حتى اذا كان هذا مقابل تسوية سلمية للصراع». وعندما سأله مراسل جريدة معاريف عن موقفه الجديد المتشدد، وجد موشى كول نفسه مضطرا للقول: «لا لم اكن أبدا من الحمائم، فأنا دائما من الصقور(٢١)». والاساس الاقتصادي لهذا الموقف المتعنت معقد وجدير بالتأمل. فالحركة التعاونية الزراعية التابعة للحزب الليبرالي المستقل تشيد مستعمرات جديدة في الأراضي المحتلة، وتجند الشبان الذين يريدون الهرب من وضع العامل الاجير،

فيصبح من الضروري ان يعمل الحزب على ان تستثمر وزارة العمل ووزارة السياحة الملايين في المستعمرات الجديدة، وبذلك تتحول الى مشروعات ناجحة اقتصادياً(٢٢). وعندئذ فقط تبدأ المستعمرات والحزب في النمو. ومثل هذه العملية المعقدة لا يمكن وضعها موضع التنفيذ، إلا إذا كان الحزب مستعدا للتكيف مع السياسات الصهيونية التي تنادي بضم الأراضي المحتلة.

ونظرة إلى مصادر التمويل لجماعة جوش ايمونيم، والجماعة القومية الدينية، التي تنادي بضم الاراضي المحتلة، تبين لنا بشكل واضح مدى اهمية التمويل الصهيوني للأحزاب، فقد نشرت جريدة معاريف، في عددها الصادر بتاريخ ٦ ديسمبر ١٩٧٥، أن هذه الجماعة اليمينية المتطرفة لديها عدة ملايين من الليرات الاسرائيلية في خزانتها، وتشير الجريدة الى المصادر التالية لدخل الحركة (ويلاحظ ان المصدرين، الأول والثاني، وحدهما من داخل اسرائيل اما الباقي فمن خارجها):

١ ـ رجال أعمال اسرائيليون اثرياء.

٢ ـ بعض الاحزاب السياسية الاسرائيلية.

٣ ـ اعضاء مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسة بالولايات المتحدة.

٤ ـ النداء اليهودي الموحد.

٥ ـ سندات اسرائيل.

٦ ـ الحاخام فابيان شونفلد، رئيس جماعة يهودية ثرية بضاحية كوينز ـ نيويورك، ورئيس حاخامات امريكا.

٧ ـ دافيد بيزلسون، رئيس شركة ملاحة دولية (وكان أول من منح معونة لهذه الجماعة، التي تنادي بضم الاراضي المحتلة، كما ساهم في إقامة أول مستوطنة تابعة لهم).

٨ ـ شخصيات يهودية مرموقة، ورجال أعمال أثرياء بفرنسا، وانجلترا، وسويسرا، وكندا وجنوب افريقيا طبعا(٢٣). والأبعاد العالمية لهذه المعونة الممنوحة لجماعة صغيرة متطرفة داخل إسرائيل دليل على طبيعة العون

الممنوح للجماعات والأحزاب الأخرى الأكثر تأثيرا ونفوذا ومقدرة.

إن موقف إسرائيل، الدولة الصهيونية، وموقف الاسرائيليين، العنصر السكاني الجديد، الذي ادخل في المنطقة، لهو موقف شاذ ليس له مثيل. فالاسرائيليون يعيشون في منطقة الشرق الاوسط العربي، تساندهم ايديولوجية نشأت في أحياء اليهود في اوروبا، يتلقون المعونات والتأييد من الدول الغربية، ومن يهود الشتات. وقد كتب يوري افنيري يقول: إنه بعد أن يقوم الطيار الاسرائيلي بغارة جوية على القاهرة أو دمشق، فانه يعاني من الكوابيس أثناء نومه، لا بسبب قتل من قتل من الأطفال العرب اثناء الغارة التي قام بها، ولكن بسبب عذاب الاطفال اليهود في جيتوات شرق أوروبا اثناء إحدى المذابح التي ارتكبت في الماضي ضد اليهود. ولكي تكتمل الصورة يجب ان نتذكر ان هذا الطيار في الغالب قد تلقى تدريبه في الغرب، صنعت طائرته في الولايات المتحدة، وحصلت عليها اسرائيل من خلال احدى المنح الكثيرة التي تحصل عليها من الولايات المتحدة. هذه الصورة تلخص بوضوح شذوذ وضع اسرائيل، وهو وضع بلا شك يحتاج الى كثير من التطبيع.

ولو حاولنا ترجمة هذه الصورة المرئية الى مصطلح سياسي قد يكون اقل وضوحا، ولكنه اكثر خضوعا للتحليل، لقلنا إن الصهيونية هي نسق أيديولوجي، او بناء فوقي له ثلاثة ابنية تحتية. أما البناء التحتي الاول، فهو المناطق اليهودية شبه المستقلة في شرق اوروبا (الجيتو- الشتتل- مناطق الاستيطان) التي افرزت المسألة اليهودية، وافرزت ايضا الخطوط العامة والشكل المتميز للاسطورة الصهيونية، والبرنامج الصهيوني المقترح لحل مشاكل اليهود واليهودية، وقد اختفى الجيتو بعد ان افرز الايديولوجية الصهيونية، اي ان الصهيونية نسق فكري يستند الى بناء تحتي أولي غير موجود.

وإذا كان الجيتو في اوروبا الشرقية، هو الذي افرز تلك المسألة وحلها الصهيوني المقترح، فهو لم تكن لديه القدرة او الوسيلة الكفيلة بتنفيذه، فعملية

نقل السكان من اوروبا الشرقية، ومن جهات اخرى، الى افريقيا واسيا، عملية تحتاج الى ان تساندها قوة عالمية وتتبناها، ولابد من ان تكون لهذه القوة مصالح استعمارية في الشرق، الأمر الذي ينقلنا الى البناء التحتي الثاني الذي يتكون أساسا من القوى الاستعمارية (الغربية) المختلفة التي تبنت الفكرة الصهيونية وساندتها ودعمتها لخدمة مصالحها، وان كان يضم ايضا يهود الشتات الذين يودون الدفاع عن مواقعهم الطبقية، او الذين يؤيدون الصهيونية لسبب أو لآخر، أي ان الصهيونية تستند الى بناء تحتي ثان لا تربطه بها أي علاقة معنوية او جدلية، وانما تربطه بها علاقة نفعية وميكانيكية.

أما البناء التحتي الثالث، دولة اسرائيل نفسها، فهو فريد في أنه نتاج البناء الفوقي الصهيوني، ونتاج مناورات الحركة ومضارباتها وجهودها. وكما بينا من قبل فإن الايديولوجية هنا هي التي افرزت المجتمع، ولم يفرز المجتمع الايديولوجة. كما تظهر فردية هذا البناء التحتي، في أنه ليس البناء التحتي الوحيد، ولا الرئيس، اذ يظل البناء التحتي الرئيس هو الامبريالية الغربية. ومن النتائج التي ترتبت على هذا التعدد في الابنية التحتية أن المواطن الاسرائيلي يعيش داخل بناء فوقي صهيوني تلمودي، تسانده ثلاث أبنية تحتية، لا يتحكم هو في اي منها، كما أنه ليس مسؤولا عن اي منها. فهو لا ينتمي لجيتوات شرق اوروبا، وهو ليس جزءا من التشكيل الحضاري الغربي، كما أنه لا يمكنه أن يتحكم في دينامية الامبريالية الغربية، ولكنه مع هذا مدين بوجوده المادي، وبفكره ووجدانه للجيتو وللامبريالية. وحتى البناء التحتي الاسرائيلي، هو الآخر يهيمن عليه ماديا ووجدانيا الصهاينة (والامبريالية).

ولا تصل الشعوب والمجتمعات المختلفة إلى حد معقول من الثورية والعقلانية، من خلال الوعظ والارشاد أو عن طريق التوصل إلى الافكار الصحيحة (على الرغم من أهمية الوعظ والارشاد وعلى الرغم من ضرورة وجود الأفكار الصحيحة على المستوى النظري)، وإنما تصل إليها من خلال الممارسة التاريخية، فيدفع المجتمع ثمن الأخطاء التي يرتكبها (سوء تنظيم اجتماعي، أو

حروب توسعية) ويجني ثمار انتاجيته وعقلانيته. ومثل هذه الممارسة هي وحدها القادرة على تبديد الأساطير ودحض الاكاذيب وتفنيد الأوهام التي قد يفرزها مجتمع ما عن نفسه او عن الاخرين. ولكن المجتمع الإسرائيلي محروم من مثل هذه الممارسة التاريخية. ومثل هذا الاحتكاك بالواقع الذي قد يبدد الاساطير، او على الاقل قد يخفف من حدتها. فالإسرائيليون، كما بينا، لا يتواجدون داخل انساق فكرية تعبر عن موقفهم التاريخي المتعين، وإنما هم سجناء الجيتو بكل رموزه وافكاره المغلقة، وأساطيره وطقوسه اللازمنية عن انفصال اليهودي الخالص عن الاغيار، ولكن ما يساعد الاسطورة على الاستمرار أن المجتمع الإسرائيلي لا تتحكم فيه العلاقات الانتاجية والاجتماعية التي تسود فيه، وانما تتحكم فيه القوى التي تمول أوهامه واساطيره الصهيونية. بل يمكننا القول إن النمط الانتاجي الأساسي السائد في المجتمع الاسرائيلي هو «دوره» الصهيوني، الذي يتلخص في أن يشكل الاسرائيلي طليعة الشعب اليهودي الذي يدافع ذاتيا عن «مصير الشعب اليهودي» ووحدته، ويدافع موضوعيا عن مصالح الامبريالية. وكلما ازداد اصرار الإسرائيليين على البقاء داخل الجيتو اليهودي، الخالص المقدس، ازدادت عنصريتهم ضد الفلسطينيين، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى ازدياد العداوة ضدهم من سكان المنطقة، وبالتالي يزداد اعتمادهم على دولة استعمارية كبرى.

ويحقق المجتمع الاسرائيلي عن طريق دوره الصهيوني هذا عائدا اقتصاديا مرتفعا، ويضمن لنفسه مستوى معيشيا عاليا، ويضمن بقاءه واستمراره. والإسرائيليون ليسوا متفردين في هذا الوضع، فالطبقات المستغلة والحاكمة تلجأ عادة الى عزل اقلية ما، عرقية او دينية او اثنية عن بقية طبقات الشعب. وتحقق لها مستوى معيشيا متميزا لتستخدمها في قمع بقية أعضاء المجتمع كله، والامبريالية العالمية لا تنظر إلى اسرائيل بوصفها استثمارا اقتصاديا عاديا (وان كان هذا لا يمنع تحقيق عائد اقتصادي مرتفع، ان سنحت الفرصة)، وإنما تنظر اليها على انها استثمار سياسي بالدرجة الأولى، ولذلك فهي تضحي بالعائد المادي المباشر في

سبيل الهدف الاستراتيجي النهائي. وهوخلق جماعة استيطانية في منطقة الشـرق الاوسط، وجودها رهن بوجود الاستعمار، تقوم بدور العميل النشيط المدافع عن مصالح الاستعمـار. والانفصال النسبي للمـواطن الاسرائيـلي عـن اي واقع اقتصادي محدد يجعله محاربا نشطا، مثل الجندي النـازي الذي كان يتقدم الى غايته دون اي تساؤل او تردد، فالأسطورة المجردة تعزل الانسان عن الواقع، بل عن مصالحه وذاته. إن الاسرائيليين- كشعب- يلعبون الدور نفسه الذي لعبته أقلية الايبو في نيجيريا، وشعب القوقاز في روسيا القيصرية، فهي أقليات كانت تتمتع بوضع ممتاز نسبيا، نظير اضطلاعها بوظيفة القمع الموكلة اليها، سواء من قبل الاستعمار الانجليزي او القيصري الروسي.

ومفهـوم الطبقـة المحاربـة أو الجماعـة الاثنية المحـاربة (او الـطبقة/الامـة المحاربة، إذا اردنا استخدام مصطلح ليون بعد تعديله) ليس غريبا عن الشرق الأوسط. فالمماليك حكموا هذا الجزء من العالم قرونا عدة، إلى أن قضى محمد علي على البقية الباقية منهم، وهم في نهاية الأمـر طبقة محـاربة ليس لهـا انتماء حضاري أو عرقي قوي للمنطقة (أو اي منطقة أخرى). بل إن عدم الانتماء هذا هو شرط أساسي للانخراط في سلكها، ولذا كان يتم إعداد المماليك عن طريق اختطاف الأطفال ثم تنشئتهم تنشئة عسكريـة حتى يحتفظوا بليـاقتهم البدنيـة والعسكرية، وحتى تزداد عزلتهم عن بقية اعضاء الشعب الذي سيقومون بالدفاع عنه ضد الغزو الاجنبي، والذي سيقومون ايضا بقمعه لضمـان تحقيق فائض القيمة لانفسهم وللطبقة الحاكمة.

ولعل طريقة التنشئة في الكيبوتس، هذه المؤسسة الزراعية العسكرية، تذكر المرء بطريقـة تنشئة المـاليك مـن تـركيز عـلى الجماعيـة، وعـلى الانضبـاط العسكري، وعلى الزهد في الحياة، وان كان لا يستبعد الترف بالنسبة للجماعة كلها. ولعل هذه التنشئة هي اقرب شيء في العصر الحديـث لطريقة تنشئـة المماليك ومن امور ذات الدلالـة أن الكيبوتس هو المكان الذي ينشأ فيه أعضاء

النخبة العسكرية الحاكمة في إسرائيل الذين لا يمتلكون وسائل الانتاج، ولكنهم يلعبون دورا قياديا في المجتمع كله.

وبالرغم من تمتعهم بمستوى معيشي متميز، ومكانة اجتماعية عالية، إلا أنهم يستغلون المجتمع الإسرائيلي، بالمعنى التقليدي للاستغلال، وإنما يقومون بقيادته كله ليلعب دوره «المملوكي» أو «الصهيوني»، الموكل إليه من قبل الامبريالية، تجاه المجتمعات العربية المحيطة به.

وقد يكون تشبيه علاقة المجتمع الاسرائيلي بالمجتمعات المجاورة، بعلاقة القوقازيين والايبو والمماليك بالمجتمعات التي كانوا يعيشون فيها، تشبيها غير دقيق، (وكل التشبيهات في نهاية الأمر غير دقيقة) ولكنه- في تصوري- يبين لنا الطبيعة الشاذة للوجود الاسرائيلي في المنطقة والطبيعة الشاذة لبناء المجتمع الإسرائيلي، الذي يستمد صورته عن نفسه واساسه الاقتصادي من خارج المنطقة، ويعيش باصرار داخل الاسطورة الصهيونية.

وقد ساعد العرب أنفسهم على استمرار هذا الوضع بفشلهم النسبي حتى الآن في الحاق ضربة عنيفة تصيب الاسطورة الصهيونية في جذورها. كما ان العرب بالغائهم ،حتى عهد قريب، الوجود الفلسطيني اوبوضعه تحت الوصاية الجبرية، خلقوا لاسرئيل الفراغ اللاتاريخي الذي مكنها من التنفس والتحرك بحرية وطلاقة، فضلا عن أن ما يبديه العرب من مظاهر الرفض الكامل لكل قطاعات المجتمع الإسرائيلي، بما في ذلك القطاعات المعادية للصهيونية، من شأنه ان يطمس معالم التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع الاسرائيلي، ويزيد من هيمنة الاسطورة.

ماساداه والعدم:

ولكن الاسرائيليين في نهاية الامر، بشر، يمارسون احساسهم بأنفسهم، ولهم ادراكهم المباشر للواقع، وهو ادراك يتخطى حدود الايديولوجية الوهمية المفروضة

عليهم، ويتخطى الواقع الوهمي الممول. هذا التناقض الحاد الذي يعيشه الاسرائيليون، وهو تناقض لا يملكون له حسما، هو الذي يفسر سقوطهم في هوة الجبرية. فالوجدان الاسرائيلي يرى حالة الحرب كما لو كانت حالة نهائية، فمنذ بضع سنوات لاحظ الشاعر الاسرائيلي حاييم جوري بمرارة أن «هذا التراب» (اي تراب اسرائيل) لا يرتوي»، فهو يطالب دائما «بالمزيد من المدافن وصناديق دفن الموتى»، كما لو كانت ارض اسرائيل آلهة ثأر بذيئة، وليس مجرد قطعة أرض أو اقليم(٢٤). كما لاحظ الكاتب الاسرائيلي بن عيزر أن الاسرائيليين الشباب، الذين يخدمون في الجيش، يشعرون أن أهلهم بالاشتراك مع الدولة يضحون بهم دون تعويض او عزاء من عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت(٢٥)، ولذا فهم يشعرون أن هذه الحروب هي «تضحية علمانية بإسحق»، اي انها تضحية بشرية لا هدف لها ولا معنى.

إن القيادة الصهيونية/الإسرائيلية، التي تمركزت وتشرنقت داخل الاسطورة الصهيونية، لاترى أي نهاية لهذا الوضع، بل ترى أن ثمة حتمية لهذه الحروب التي تمد لها المعونات بشكل دائم، والتي تشدد من قبضة الصهيونية على الاسرائيليين، وتضمن استمرار وجود «اسرائيل جيتو مسلحا حصينا». ويظهر هذا الاستسلام الكامل في كلمات موشيه ديان في جنازة صديقه روي روتبرج، الذي قتله الفدائيون الفلسطينيون. فقد قال وزير الدفاع والخارجية الاسرائيلي السابق: «إننا جيل من المستوطنين، ولا نستطيع غرس شجرة او بناء بيت، دون الخوذة الحديدية والمدفع؛ علينا الا نغمض عيوننا عن الحقد المشتعل في افئدة مئات الالاف من العرب حولنا. علينا ألا ندير رؤوسنا حتى لاترتعش ايدينا. إنه قدر جيلنا، انه خيار جيلنا، أن نكون مستعدين ومسلحين، أن نكون اقوياء وقساة، حتى لا يقع السيف من قبضتنا وتنتهي الحياة(٢٨).

وتعبر هذه الحتمية والعبثية عن نفسها بشكل كوميدي أحيانا (ويقال إن الاسرائيليين يتمتعون بقسط كبير من روح النكتة والدعابة). فقد وجدت هذه الابيات من الشعر على حائط دورة مياه الرجال في الجامعة العبرية:

ليذهب السفارد إلى اسبانيا
والاشكناز إلى أوروبا
والعرب إلى الصحراء
ولترجع البلد إلى الله.

فقد منحنا من المتاعب الكفاية عندما وعد بها الجميع(٢٧). حتى الشعور بالحصار، وهي فكرة مسلطة على الاسرائيليين الذين يعانون من الكلوستروفوبيا (الخوف المرضي من الاماكن المغلقة)- نجده يخرج في عبارات فكاهية. ففي وقت من الاوقات كان الشباب الاسرائيلي يردد اغنية شعبية مرحة عنوانها «العالم كله ضدنا(٢٨)»، وفي الوقت الذي زادت فيه حوادث اختطاف الطائرات والهجمات الفلسطينية على المستوطنات، بعد «نصر» ١٩٦٧، قال صحفي في جريدة معاريف ساخرا إن كل مواطن اسرائيلي قد يكون في حاجة الى خط بارليف خاص به لضمان سلامته.

وحالة الحرب الدائمة، وفقدان الاحساس بالاتجاه، او السيطرة على الموقف يسبب هذا الاحساس بالعبثية. ففي مواجهة العنف المحيط به في فلسطين كتب في يومياته يقول: «يبدو أن العالم كله مريض عقليا، ولاسيما نحن اليهود، فالناس الذين قضوا شبابهم في الحرب وآثارها يجب معاملتهم كالمجانين(٢٩)».

ثم غاص روبين في التجريد الذي اضعف من ادراكه الحقيقة، ووجد نفسه يتصور ان اليهود يطلقون النار على العرب، ويشتبكون معهم في صراع ابدي دون سبب واضح. ولذا لم يكن غريبا ان نجده يتجه إلى النقيض، ويدعو إلى الجنون نفسه الذي يندد به، فيقول: «لقد حكم علينا أن نعيش في حالة حرب دائمة مع العرب، وليس هناك وسيلة لتجنب التضحيات الدامية(٣٠)».

ويصل هذا الايمان بالقضاء والقدر ذاته في أسطورة الماساداه حيث يموت اليهود موتاً بطولياً على مذبح الدولة. ماساداة كلمة ارامية تعني «القلعة»، وتعني هنا آخر قلعة يهودية سقطت في أيدي الرومان أثناء التمرد اليهودي ضد الامبراطورية

الرومانية، وتقع ماساداه على قمة صخـرة مرتفعـة عند البحـر الميت. ويروي المؤرخون أن الحاكم اليهودي هيرود كان قد أقام هذه القلعـة خوفـا من خطر كليوباترا، ملكة مصر، وملاذا يحتمي فيـه عند الحاجة من «الشعب اليهودي» الذي كان يريد عزله واعادة حكامه السابقين. لهذا السبب قام هيرود بتحويل ماساداه من مجرد صخرة الى قلعة حصينة أدخل فيها نظاما متقدما، نسبيا، للري ولتخزين المياه. وقد احتل الرومان القلعة، ولكن اليهود اثنـاء الثورة اليهـودية استولوا عليها، وذبحوا كل افراد الحامية الرومانية، بعد ان وعدوهم بالأمان ان هم استسلموا (الامر الذي يفسر خشية اليهود من الاستسلام فيما بعـد). ثم حاصر الرومان القلعة من كل الجهات عدة سنوات حتى احدثوا ثغرة في جدرانها، ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي: إن هذا الوضع دفع القائد اليهودي الى اقناع رفاقه بممارسة انتحار جماعي، بدلا من الوقوع أسرى في ايدي الرومان، الامر الذي أودى بحياة ٦٠ من الرجال والنساء والاطفال، ثم احرق منازلهم ومخازن مؤنهم، وحتى يمكن تفسير كيفية تنفيذ عملية الانتحار الجماعي هذه (اذ لو انتحر الجميـع فعـلا لما بقى احد عـلى المسرح يُعلق عـلى الاحداث) قـال المؤرخ يوسيفوس: إن امرأتين وخمسة اطفال قد اختبأوا في أحد الكهوف، وشـاهدوا المنتحرين وهم يقومون بفعلهم البطولي الاخير، وقد تحولت قلعة ماساداه بعد ذلك الى موقع عسكري روماني، ثم الى قلعة صليبية (اي ان ماساداه تحولت الى رمز القوة العسكرية المحاصرة).

وقصة ماساداه هذه أثارت شكوكا كثيرة، فمصدرها الوحيد هو يوسيفوس فلافيوس. ويوسيفوس هذا هو في الواقع، يوسف بن ماتيـا هاكـوهين، وهـو سياسي وقائد عسكري ومؤرخ يهودي من اسرة ارستقراطية. وحينما نشبت الثورة اليهوديـة عينته الحكومة الجديدة عام ٦٦م قائدا عسكريا لمنطقة الجليـل التي كانت تعد من اهم المناطق من الناحية العسكرية. ولكن حينما وصلت القوات الرومانية، سرعان ما تساقطت التحصينات اليهودية، وحاول هاكوهين الهرب، ولكنه لم يفلح، إذ أبقاه جنوده رغم انفه. ثم تمكن القائد وبعض جنوده بعد ذلك

من اللجوء الى احد الكهوف، حيث قرر الجنود الانتحار بطريقة جماعية، فقام هاكوهين بعمل القرعة بنفسه بطريقة كفلت له ان يكون هو آخر المنتحرين، ثم اشرف على تنفيذ عملية الانتحار ذاتها بكفاءة شديـدة. وحينما لم يتبق الا هـو وشخص اخر، اقنع فلافيوس الجندي المتبقي معه بالاستسلام للرومان بدلا من الانتحار. وحينما مثل هاكوهين بين يدي القائد الروماني فلافيوس فسبسيان ادعى النبـوة، وتنبأ ان القـائد الرومانـي سيتبـوأ عـرش رومـا، ثم غـير اسمـه الى يوسيفوس، واتخذ اسم القائد الروماني اسما ثانيا له(٣١). ومثل هذه الشخصية قد يكون من الافضل عدم تصديق رواياتها، خصوصا إذا كانت رواية بطولية فيها تعويض عن فشل اخلاقي ارتكبه المؤرخ في حياته، وعلى كل وصفت الموسوعة اليهودية يوسيفوس فلافيوس بأنه لا يعتد به مؤرخا، فطموحه كان أساسا طموحا ادبياً، كما وصفت كتبه بأنها ذات قيمة ادبية بالدرجة الاولى(٣٢). واعلنت الباحثة اليهودية ويسي روز مارين أن نتائج دراساتها تؤكد ان قصة ماسـاداه خرافـة، وأسطورة ملفقة، وأنه لا يمكن التدليل التاريخي على سلامة الاكتشافات الأثرية التي تستند اليها القصة.

وحتى لو افترضنا صدق أسطورة الانتحار هـذه، فإن المؤرخـين الصهاينـة يسقطون كثيرا من العناصر التاريخية، حتى تبدو ماساداه كأنها تعبير حقيقي عن «وحدة الشعب اليهودي». فلا تذكر المصادر الصهيونية، مثلا، شيئا عن الحرب الطبقية التي كانت رحاها دائرة بين فقراء اليهود واثريائهم، وانه قبـل حادثـة ماساداه ذبح ما لا يقل عن ١٢ الف يهودي من اثرياء اليهود على يد اخوانهم من فقراء اليهود. كما لا تذكر المصادر الصهيونية شيئا عن القلاع اليهودية الأخرى التي آثرت الاستسلام والبقاء على الانتحار والموت، وكل هذا يدعونا إلى رؤية حادثة ماساداه على انها الاستثناء وليست القاعدة، والى جانب كل هذا لا تذكر المراجع الصهيونية ان الانتحـار محرم في اليهـودية (كـما هو الحـال في المسيحية والاسلام). وأن هذه الديانة السماوية تحرم دفن المنتحرين او اقامة شعائر الدفن الدينية لهم.

ولكننا نعرف من قراءتنا تاريخ الحركة الصهيونية انها لا تمانع بتاتا في دفن اليهود ثم اعلان انتحارهم، كما حدث في السفينة باتريا وغيرها، وكما حدث بشكل مغاير في العراق او المانيا النازية، وفكرة نفي الشتات الغرض منها هو دفن يهود الشتات. ولعل هذا هو المصير الذي لا تمانع الصهيونية أن تدفع إليه الاسرائيليين إن هم لم يمتثلوا لدينامية المثل الأعلى الصهيوني المستحيلة. ولعل هذا يفسر لم احاطت الحركة الصهيونية، والدولة الصهيونية من بعدها، قصة ماساداه بهالات صوفية، وحولتها إلى إسطورة قومية محورية. وقد نظمت اسرائيل حملات دعائية ضخمة حول عملية الكشف عن القلعة التي قادها رئيس اركان الجيش الاسرائيلي، الجنرال يادين، وشارك فيها الجيش بامكانات واسعة، في الفترة من سنة ١٩٦٢ حتى ١٩٦٥. وتقوم أجهزة الإعلام الإسرائيلي بمحاصرة العقلية الاسرائيلية واليهودية باسطورة ماساداه. ففي كل عام تقيم بعض اسلحة الجيش الاسرائيلي احتفالات ترديد يمين الولاء على قمة القلعة، ويقسمون في نهايته بأن «الماساداه لن تسقط ثانية». ويتم تنظيم رحلات لافواج من السياح اليهود وطلبة المدارس الاسرائيلية للحج الى القلعة، كما تحرص اسرائيل على ان تدرج زياراتها ضمن برنامج كل زعيم سياسي اجنبي يذهب الى اسرائيل، بل أعلنت إسرائيل عام ١٩٦٩ عن «دفن المنتحرين». ولعل استحالة المثل الأعلى الصهيوني، وتجريديته المتطرفة، لايمكنها ان تترجما عن نفسيهما إلا في اسطورة ماساداه، حيث يقف اليهودي الخالص ضد الاغيار الذئاب ويحاول تدمير نفسه، وياحبذا لو دمر الآخرين أيضا، فاسطورة شمشون عادة ما تضاف ملحقا لاسطورة ماساداه.!!

مـــا العمـــل؟

إن الصورة العامة التي رسمناها هي صورة لإيديولوجية استيطانية اقتلعت بعض أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب وغرستهم غرساً في فلسطين بعد أن استولت عليها وطردت سكانها منها، وقد تمت عملية نقل اليهود (وطرد العرب) باسم شعارات «يهودية» مثل «وحدة الشعب اليهودي»، أو «أرض الميعاد»، أو «العمل

العبري»، أو «تطبيع الشخصية اليهودية»، أو «اليهودي الخالص». وهي شعارات تفرض العزلة على جماعة المستوطنين وتوسع من الهوة بينهم وبين جماعة المستوطنين ،وتوسع من الهوة بينهم وبين الواقعين الجغرافي والتاريخي اللذين يعيشون فيهما. ويساند هذه العزلة عدد كبير من المؤسسات «الصهيونية» التي تعطي مضموناً اقتصادياً وسياسياً للشعارات اليهودية .ويساند الكيان الصهيوني كله دولة استعمارية راعية (إنجلترا في البداية والولايات المتحدة في الوقت الحالي). وهذه الدولة تفعل ذلك لأن جماعة المستوطنين بغض النظر عن إدراكهم أنفسهم «كطليعة للشعب اليهودي» هم موضوعياً جماعة بشرية مملوكية تخدم مصالحه الاستراتيجية، إذ إنها بسبب عزلتها مفروض عليها القتال. وهو ما لخصناه بالقتال نظير المال. ونحن نرى أن لا مخرج لها من هذا الوضع. فمقومات حياة هذا الاستيطاني توجد في الولايات المتحدة ،وأسباب هلاكه توجد في العالم العربي. فهو يعيش في أمريكا ويموت بنا، وهو يوجد في الغرب ويغيب بالعرب، فالدولة الصهيونية في تصورنا معسكر مرتزقة وبالتالي ساحة قتال بيننا وبين الامبريالية العالمية.

ورغم إدراكنا هذا البعد الدولي الشامل للصراع العربي الصهيوني، ورغم إيماننا في نهاية الأمر أنه صراع عربي- غربي يأخذ شكل صراع عربي- صهيوني إلا أنه يظل علينا أن نتعامل مع هذا الصراع العام في أخذ تجسداته المتعينة، أي الاستعمار الصهيوني. وكما قلت من قبل إنّ الجزء لايمكن أن يرد إلى الكل تماماً كما انه لايمكن أن يرد الكل إلى الجزء. لكل هذا لابد من البحث عن حلول للصراع العربي الصهيوني لاتتطلب توقف هذا الصراع، أو الكف عن الصراع الاكبر مع الغرب وإنما تفترض استمراره.

وغني عن الذكر اننا لن نقدم في ختام هذه الدراسة حلا تفصيليا لمشكلة الصراع العربي/الاسرائيلي، أو للمشاكل الناجمة عنه، فمثل هذا الحل يقع خارج نطاق مثل هذه الدراسة، وانما سنقترح اطارا يمكن ان يهتدي به من يريد.

وفي تصوري أن ثمة مجالاً للحركة وللخروج، وثمة امكان لاحلال مثل أعلى

متفتح محل الأسطورة المغلقة. ومثل هذا المثل الأعلى مطروح منذ أمد طويل، ويجب ألا نمل من تكراره حتى ولو قبل الحكام العرب غير ذلك: الدولة الديموقراطية الحديثة، التي تضم الفلسطينيين والإسرائيليين، وضمان الحقوق المدنية والسياسية الكاملة لكل الأقليات (بما في ذلك اليهود) في كل انحاء العالم. هذا الحل الإنساني المعقول. يتوجه لكل عناصر المشكلة الحقيقية، ويستبعد كل العناصر الوهمية، فهو يتوجه إلى العنصر الفلسطيني الاصيل، وإلى العنصر الإسرائيلي الدخيل، ويحاول أن يجد اطارا يعبر كل فريق من حلاله عن شخصيته المستقلة، دون أن يتجنى على حقوق الآخرين. وهو يستبعد العناصر الوهمية مثل: الادعاء القائل إن اليهود يكونون شعبا واحدا، وإن اليهود السفارد والاشكناز، واليهود الاصلاحيين والارثوذكس والمحافظين، واليهود المتدينين والملحدين، والذين يتحدثون اليديشية والعبرية والعربية والانجليزية واللادينو والفرنسية والصينية والالمانية والروسية، ويهود الفلاشا السود في الحبشة وجماعة بني اسرائيل في الهند، واليهود الشقر في الغرب والسمر في الشرق كل هؤلاء يكونون شعبا واحدا. وهو يستبعد أيضا «الحقوق» المقدسة والمطلقة «وحق» يهود نيويورك او يهود بيرو او جبال الملايا أن يهاجروا الى ارض الميعاد (فلسطين العربية) في اي وقت يشاءون، كما يستبعد «حق» إسرائيل في أن تستولي على الارض العربية لتوطينهم فيها. ولكن الحل المطروح مع هذا، او بسبب هذا يؤكد حق كل يهودي في أن يحصل على حقوقه المدنية والسياسية كاملة في وطنه.

داخل هذا الاطار يصبح على العرب أن يتعاملوا مع مشكلة ذات أبعاد محدودة، هي المسألة الاسرائيلية، مسألة أربعة الملايين مواطن اسرائيلي الذين يتحدثون العبرية، والذين لا يعرفون لهم وطنا آخر. والذين من حقهم أن يحتفظوا بهويتهم الحضارية المستقلة، وهي مسألة ليست مستعصية على الحل، على الرغم من كل المصاعب التي قد تواجهنا. فالعالم العربي يضم أغلبية عربية، تتحدث العربية، ولكنه يضم أيضا عشرات الجماعات الاخرى التي لها هويات وحضارات مختلفة، لا يحاول العالم العربي ابتلاعها او تدميرها، طالما أنها لا

تتعدى على حقوق الاغلبية، وطالما انها لا تمثل خطرا على فكرة تـوحيد العـالم العربي.

ولكن لا يمكن أن يتحقق هذا الحل الإنساني إلا عن طريق العرب وحدهم، فهم وحدهم العنصر الحر الذي يمتلك حدا معقولا من حرية الحركة والإرادة. وانا من المؤمنين بأن التناقضات الداخلية في المجتمع الاسرائيلي، مهما بلغت من حـدة، لن يمكنها احـداث التغيير في الاتجـاه المطلوب، لأن البنيـة الصهيونيـة للمجتمع الإسرائيلي كفيلة بإحباط كل امكانات الرفض الحقيقية.

ولعل الصيغة المثلى لتحقيق هذا الحل هو ما سميته من قبل «الحوار المسلح»، اي ان يحاول العرب الكشف عن العناصر العقـلانية الثـورية داخـل المجتمع الاسرائيلي، وخصوصا بين يهود العالم الاسلامي والعربي السفارد وفي صفوف يهود الشتات، وان نحاورها ونشجعهـا ونتبناهـا. ولكن الحوار وحـده، إن لم تسانده القوة العربية الضاغطة، وإن لم يسانده الكفاح المسلح، لن يجدى فتيلا، حتى ولو كان مع اعقل العقلاء من الاسرائيليين وأكثرهم حكمة وثورية. فمثل هذا الحوار المجرد سيكون بمثابة دليل تستخدمه السلطة الصهيونية الحاكمة لتبين مدى ضعف العرب وتخاذلهم أمام الزحف المطلق الصهيـوني المسلح. والحوار المقترح ليس دعوة للصلح مع الصهيونية، فأنا من المؤمنين بأنه لا سلام ولا صلح ولا حوار مع الايديولوجية الصهيونية او مع ممثليها داخل اسرائيل او خارجها، فمثاليتها وديناميتها ومؤسساتها مبنيـة على الحـد الاقصى من العنف الفكري والعقلي. وانما هي دعوة للحوار تقع خارج نطاق الرؤية الصهيونية كليا، وتنطلق من رفض لكل مقوماتها ونتائجها. كما أن هذه الـدعوة للحـوار، ليست دعوة للسلام المبني على الاستسلام والتنازل، وهو سلام على أي حال لم يؤد إلى شيء، إلا إلى احتلال لبنان وذبح الفلسطينيـين في بيروت، بـل هي دعوة لان يقـوم الإنسان العربي بـدوره التاريخي، كي يحـرر ارضه، ويحـرر نفسه من الهجمـة العنصرية، الامبريالية/الصهيونية، وهو ان حرر نفسه وارضه فسوف يحرر ايضا الاسرائيليين ويهود العالم من هيمنة أيديولوجية غيبية عنصرية.

الملاحِق

الملحق الأول
في علم اجتماع المعرفة

هذه الدراسة يمكن تصنيفها على أنها دراسة تطبيقية في علم اجتماع المعرفة، وهو علم لا تزال حدوده آخذة في التبلور. ويعتبر كارل ماركس، من بعض الوجوه، هو مؤسس هذا العلم، حينما طرح رؤيته الخاصة بعلاقة الأفكار (أو البناء الفوقي) بعلاقات الانتاج (أو البناء التحتي)، وقد ساهم ماكس فيبر، من خلال دراسته في علم اجتماع الدين، في هذا المجال، حيث بين علاقة البروتستانتية بالرأسمالية، وعلاقة الكونفوشية بطبقة المتعلمين البيروقراطيين في الصين القديمة. وحاول دوركهايم وشيلر ومانهايم وسوروكين وجورفيتش(١) توسيع حدود هذا العلم واعطاءه شكلا محددا. وقد عرفه عاطف غيث بأنه العلم الذي يهتم بالعلاقة بين أنساق الفكر والوقائع الاجتماعية(٢). أما الطاهر لبيب فقد عرفه بأنه تحليل لطبيعة العلاقة الموجودة بين أنماط الانتاج الفكري ومعطيات البيئة الاجتماعية، وتحديد وظائف هذا الانتاج في المجتمعات ذات التركيب التنضيدي Stratification أو الطبقي(٣). وقد عرفه كاتب مدخل «علم اجتماع المعرفة» في معجم فونتانا للفكر الحديث «بأنه دراسة علاقة أساليب التعبير وأشكال الأفكار بالسياقات الاجتماعية المختلفة»(٤).

وقد حاول بيتر برجر وتوماس لكمان، في كتابهما «التكوين الاجتماعي للواقع» تقديم ما تصوراه تعريفا جديدا لعلم اجتماع المعرفة، فبينا أن مفهوم «المعرفة» و «الواقع» مفهومان نسبيان من الناحية الاجتماعية. فمعرفة المجرم تختلف عن معرفة عالم الجريمة، ومعرفة الراهب في الصين وما يشكل واقعه يختلفان عن معرفة سائق القطار وواقعه في انجلترا، وبالتالي فإن كل معرفة مرتبطة بسياقها الاجتماعي المختلف، ويرى برجر ولكمان أن علم اجتماع المعرفة يمكن تعريفه من خلال تحديد مجاله وأهدافه:

١ ـ فهو علم لا يدرس «الأفكار» بالمعنى التقليدي، وإنما يدرس أيضا كل الظواهر التي تندرج تحت اصطلاح «معرفة» بغض النظر عن مدى صدقها أو كذبها، أو مدى تماثلها او عدم تماثلها مع الواقع. ولذا فهو يتعامل مع أفكار رجل الشارع، كما يتعامل مع «معرفة» الساحر في المجتمع البدائي.

٢ ـ وعلم اجتماع المعرفة لا يدرس الأفكار بالمعنى الخاص، ولا المعرفة بالمعنى العام الشامل فحسب وانما يدرس، كذلك، العملية الاجتماعية التي تؤدي إلى ظهور كم من المعرفة يقبل على أنه الواقع، إن علم اجتماع المعرفة يدرس كيف تصبح الفكرة الذاتية (الفردية) معرفة اجتماعية، ثم واقعا اجتماعيا(٥).

وكل التعريفات السابقة تفترض وجود علاقة بين طرفين، الطرف الأول هو عالم المنتجات الفكرية (أيديولوجيات ـ فلسفات ـ قصائد ـ معمار ـ نظريات علمية)، والثاني هو الواقع الاجتماعي والتاريخي. وهي ترى أن مهمة هذا العلم هي دراسة العلاقة بين الطرفين، ولعل الاختلاف بين تعريف غيث ومعجم فونتانا، من جهة، وتعريف لبيب من جهة أخرى، هو، في نهاية الأمر، اختلاف في مدى الاهتمام بتفاصيل الحياة الاجتماعية، في مقابل الاهتمام بتفاصيل الحياة الفكرية، وهو أيضا اختلاف على تحديد مدى «استقلالية» الفكر عن الواقع، أو الواقع عن الفكر، ومدى ارتباطهما.

وقد قام إلزورث فورمان، في كتابه علم اجتماع المعرفة في الولايات المتحدة (١٨٨٣ ـ ١٩١٥)، بتحديد موقعين (يطلق عليهما ماهو اصطلاح «موضوعين» في علم اجتماع المعرفة، هما: الموقف النقدي/الانعتاقي (ماركس ولوكاش وماركوز وهابرماس)، والموقف الاجتماعي/ التكنولوجي (كونت دوركهايم وجورفيتش). (ويبدو أن هذا التمييز يحتوي على أصداء من تمييز مانهايم بين الأيديولوجية واليوتوبيا). ويتفق الموقفان على الخطوط العريضة التي تحدد مجال علم اجتماع العرفة:

١ ـ ان ثمة علاقة بين المعرفة وأساسها الاجتماعي (فالمعرفة لا تهبط علينا من السماء).

٢ ـ حينما يدرس الفلاسفة أصل المعرفة، فانهم يدرسونها بشكل مجرد، وهذا يختلف عن موقف عالم اجتماع المعرفة.

ولكن الموقفين يختلفان بعد ذلك في النقاط التالية:

١ ـ يرى الفريق النقدي أن الأساس الاجتماعي للمعرفة هو الطبقات والفئات صاحبة المصالح، بينما يرى الفريق الثاني أن هذا الاساس هو الحضارة أو الجماعة بوصفها كلا.

٢ ـ ولذا، فبينما يقوم الفريق الأول بالتركيز على تحليل الأيديولوجية السائدة في المجتمع، يركز الفريق الثاني على تحليل المشاعر الجماعية، مثل موقف الرجل العادي، والأنماط العقلية الجماعية، وطريقة التفكير البدائي.

٣ ـ من هذا المنظور يرى أعضاء الفريق الأول أن مهمة العلوم الاجتماعية هي كشف القوى الاجتماعية المستغلة، عن طريق إظهار القوانين التي تتحكم في التاريخ، حتى تساهم في تغيير المجتمع، بينما يرى أعضاء الفريق الثاني أن مهمة العلوم الاجتماعية هي تراكم المعرفة حتى يتسنى إظهار الأنماط المتكررة في المجتمع، وحتى يتم الحفاظ على اتزان المجتمع وثباته.

٤ ـ ويصبح دور العالم الاجتماعي، من وجهة نظر الفريق الأول، هو أن يكون ناقدا ثوريا عقلانيا، يعمق من وعي الجماهير، ويقوم بتحليل اشكال القمع المتعينة، في ضوء صياغاته النظرية المثالية (الثورية). أما دوره، من وجهة نظر الفريق الثاني، فهو أن يكون الخبير أو المستشار المحترف الذي يأخذ رأي غيره من الخبراء، ويكتشف الأنماط المتكررة في السلوك الانساني.

٥ ـ والصورة الأساسية للمجتمع، من وجهة نظر الفريق الأول، هي صورة الصراع. فالمجتمع ليست له أولوية على الفرد والسلطة، والترتيب الهرمي،

وعدم المساواة ليست ضرورية للتطور الانساني، والتغيير الجذري مسألة ممكنة، والانسان كائن خلاق ليست له دوافع ثابتة، ولذا فهو قادر على إحداث تغييرات عميقة. أما بالنسبة للفريق الثاني فالصورة الأساسية هي صور النظام. فالمجتمع له أولوية منطقية وتاريخية وأخلاقية على الفرد. وعدم المساواة ضروري للحفاظ على نظام المجتمع واستقراره. والتغير البطيء «العضوي» هو وحده الممكن، فالانسان كائن له دوافع أو أهواء أساسية يجب التحكم فيها، وهو كائن لا يعيش سوى داخل التقاليد، ولذا فهو غير قادر على إحداث أية تغييرات جذرية(٦).

وتوجه الاعتراضات التالية لعلم اجتماع المعرفة:

١ - إنه لا يعطى أهمية كافية لمضمون التفكير ومدى صدق مقولة ما أو كذبها.

٢ - إن البناء الحضاري الفوقي، بعد أن يظهر للوجود، تصبح له حياته الخاصة، ويتحول إلى جزء من تراث حضاري دائم.

٣ - إن منتجات الانسان الحضارية والفكرية والجمالية متعددة المستويات، ولذا فعلم اجتماع المعرفة هو علم تبسيطي لأنه يرد هذه المنتجات إلى وضع سياسي محدد، كأن يربط بين المادية والراديكالية، والمثالية والمحافظة، أو أن يطلق اصطلاح «بورجوازي» على أعمال فلوبير وزولا وجويس وبروست.

٤ - إن الأشكال الفنية قد تنمو من داخلها، محكومة بمنطقها الداخلي الخاص، وهي تعد انعكاسا للأشكال الفنية التي سبقتها بالضرورة وامتداداً لها(٧)

بعد هذا العرض القصير المبتسر لبعض التعريفات والتيارات في علم اجتماع المعرفة، والاعتراضات الموجهة ضده، قد يكون من المفيد أن نبين بعض منطلقاتنا الخاصة بهذا العلم في هذه الدراسة وابتداء يمكن أن نقرر أن الاعتراضات الموجهة لهذا العلم، برغم وجاهة بعضها، ليست حتمية بالضرورة، ولعل ما يتصوره البعض نقطة قصور يصبح، هو ذاته، موطن قوة

إذا ما اختلف المستوى التحليلي. ولنأخذ، على سبيل المثال، الاعتراض الأول- وهو أن علم اجتماع المعرفة يحاول ألا يحكم على مدى صدق مقولة ما أو كذبها، كما أنه لا يعطي أهمية كافية للمضمون- ولو سقط علم من العلوم الانسانية فعلا في النسبية المحضة، ولم يساعدنا على «الحكم» (حتى تتحول المعرفة إلى فعل فاضل) فإنه يتحول إلى تجربة جمالية او تمرين ذهني. ولكن العلم الذي يقفز إلى الحكم دون تفهم للمنطق الداخلي للأحداث هو علم تجريدي ينحو نحو الاطلاق، وبالتالي يفقد صفة العلم. ولذا لا بد من أن يحاول عالم اجتماع المعرفة أن يفهم منطق النسق الفكري الداخلي، بوصفه كيانا متكاملا مكثفا بذاته، حتى يفهم قوانينه الداخلية. وقد حاولنا أن نفعل ذلك حينما حاولنا دراسة منطق الأسطورة أو الأيديولوجية الصهيونية من الداخل، وأن نحدد قانونها الأساسي، وقد اسقطنا أهمية «المضامين» الفكرية والأيديولوجية والدينية المختلفة التي تستوعبها وتتبناها الأيديولوجية الصهيونية. ولكن محاولة الفهم من الداخل لم تكن نهاية في حد ذاتها، وإنما هي وسيلة لمعرفة الملامح الخاصة للنسق، حتى يمكننا مراقبته في احتكاكه مع الواقع، وحتى يمكن أن نتنبأ بالتوترات التي ستنشأ داخله، والصراعات التي ستنشأ بينه وبين الواقع الذي سيحتك به.

أما القول إن البناء الحضاري الفوقي قد تصبح له حياته الخاصة، ويتحول إلى جزء من تراث حضاري دائم فهو أمر مقبول أيضا، ولكن حتى عناصر التراث الحضاري، «الدائمة الثابتة» حينما تتواجد داخل نسق فكري ما فانها تكتسب أبعادا جديدة، لا يمكن فهمها إلا في ضوء الواقع الاجتماعي لهذا النسق. وفي دراستنا لمفهوم «صهيون» على سبيل المال، بينا أن «حب صهيون» جزء من تجربة إنسانية دينية، وأن فكرة «المكان المقدس» تكاد تكون فكرة إنسانية عالية، وأنها تشكل جزءا من اتراث الديني اليهودي، وهو تراث لا ترتبط أشكاله بالضرورة الآن بواقع اجتماعي محدد، إذ يؤمن بهذا التراث اليهود الأمريكيون الذين يعيشون في الولايات المتحدة في القرن العشرين، وكذا يهود اليمن في العصور الوسطى، ويشاركهم المسلمون والمسيحيون في التعلق بأماكنهم المقدسة. ولكن

هذه الفكرة أو الصورة الدينية اكتسبت أبعادا جديدة كليا في النسق الفكري اليهودي الاندماجي (إذ أصبحت مجرد تعبير عن الرغبة في التسامي الديني، وبذا أصبحت قريبة للغاية من التصور الاسلامي). أما في النسق الفكري الصهيوني فقد أصبحت مكانا تخرج منه الجيوش المسلحة. وبالتالي فالقول بوجود الاشكال الحضارية «الدائمة»، التي لها حياتها الخاصة، لا ينفي، بالضرورة، أنها تكتسب حياة وأبعادا سياسية واجتماعية تختلف باختلاف النسق الذي تتواجد داخله. ويمكن الرد على كافة الاعتراضات الأخرى بالطريقة نفسها، أعني أن نقطة القصور يمكن أن تصبح نقطة قوة (والعكس صحيح) بحسب المستوى التحليلي وبحسب السياق، فالخاص لا ينفي العام، والدائم لا ينفي المتغير، والداخلي لا ينفي الخارجي. فظاهرة ما قد يكون لها منطقها الخاص والداخلي، ووجودها الذي يتخطى تتابع المراحل التاريخية والنظم الاجتماعية (مثل اللغة)، ولكنها يمكنها أن تخضع، أيضا، وفي الوقت ذاته، للمنطق الاجتماعي العام الذي يسود مجتمعا ما. ولعل موقفنا من الاعتراضات الموجهة لعلم اجتماع المعرفة هو موقفنا نفسه من محاولة تصنيف التيارات المختلفة الموجودة في علم اجتماع المعرفة إلى تيارين، أو موقفين، (موقف «نقدي انعتاقي»، وآخر «اجتماعي تكنولوجي») إذ إنني أجد انه من الممكن تبني الموقفين أو المنهجين حتى يكمل الواحد منهما الآخر، وهذا- في تصوري- ما حاولت تطبيقه في هذه الدراسة. فقد اتبعت المنهج «الاجتماعي/التكنولوجي» في «المرحلة الاولى» ثم المنهج «النقدي/ الانعتاقي» في «المرحلة الثانية». فنحن لم نستبعد دراسة الأنماط المتكررة في السلوك الإنساني، وإن كنا حاولنا، أيضا، كشف القوى الاجتماعية المستغلة. وإذا كنا قد افترضنا أن الانسان كائن خلاق قادر على إحداث تغييرات عميقة (ومن هنا إيماننا بمقدرة الإنسان العربي والانسان اليهودي على الانعتاق) فإننا أيضا لم نستبعد امكان أن يجد الإنسان نفسه في موقف تصبح فيه للقيم الاجتماعية الأولوية على الفرد، ويصبح النسق هو المهيمن (كما هو الحال مع الإنسان الإسرائيلي). وبالتالي فنحن قد تبنّينا صورتين متناقضتين للمجتمع: صورة المجتمع ككيان عضوي متماسك

يكاد يكون ساكنا (الأيديولوجية الصهيونية والمجتمع الصهيوني من الداخل)، ولكننا، أيضا، أكملناها بصورة جدلية مبنية على الصراع (الإنسان العربي الذي يحارب ضد هذا المجتمع من الخارج، يقرع الأبواب ليزعزع الفكرة والمجتمع الصهيوني). ومرة أخرى إذا كان المنطق الخاص لا يجبّ المنطق العام ولا يستبعده، فالتوازن الداخلي للنسق الفكري/ الاجتماعي لا ينفي وجود الصراع الخارجي والداخلي والجدل. وعلى عالم اجتماع المعرفة إذاً أن يكون الخبير أو المستشار المحترف الذي يحاول اكتشاف الأنماط المتكررة في السلوك الانساني، وأن يكون أيضا، الناقد الثوري العقلاني الذي يعمق من وعي الجماهير.



الملحق الثاني
في الايديولوجية

وهذه الدراسة هي دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، والحالة التي درسناها هي «الأيديولوجية الصهيونية». وقد وصف أحد علماء الاجتماع مفهوم الأيديولوجية بأنه، في واقع الأمر، مجموعة أو عائلة من المفاهيم، كما وصفه عبد الله العروي بأنه «مشكل» «وغير بريء» وقد يصلح أداة للتحليل، ولكن بعد «عملية فرز وتجريد»(٨). ولن نحاول القيام بهذه العملية في هذا الملحق، وإنما سنعرض لبعض التعريفات حتى نصل الى التعريف الملائم لهذا البحث، وتعريفات الأيديولوجية تصل، أحيانا، إلى درجة عالية من العمومية فقد عرفت على أنها «نسق من الأفكار عن العالم الاجتماعي تضرب بجذور عميقة في مجموعة محدودة من القيم والمصالح»(١). وهذاالتعريف لا يختلف عن تعريف ستارك الذي يرى أن كل أشكال الفكر تضرب بجذورها في المجتمع، ولكن الأيديولوجية لاتضرب بجذورها في الواقع الاجتماعي فحسب، وإنما في تطلعات الأفراد. (٢)

اما د. /عاطف غيث في قاموس علم الاجتماع فيرى أن ثمة معنى حياديا للمصطلح، هو كما يلي: «الأيديولوجية نسق من المعتقدات والمفاهيم (واقعية ومعيارية) يسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منطق يوجه ويبسط الاختيارات السياسية/الاجتماعية للأفراد والجماعات». ثم يورد معنى آخر (لا يذكر د. غيث هل هو معنى حيادي أم لا؟): الأيديولوجية هي نظام الأفكار المتداخلة (كالمعتقدات والتقاليد والمبادىء والاساطير) التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما، وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية والنظامية، وتبررها في الوقت نفسه». ثم يطرح ما يسمى بالاستخدام الفني الذي «يميل إلى عد الأيديولوجية» محصلة عدة عناصر، فهي لا تدل فقط على المعتقدات التي توجد لدى الناس فقط، أو نسق القيم، أو محصلة

الأهداف والمعايير، وإنما تتضمن كل هذه الجوانب مجتمعة، بالاضافة إلى نظرة الانسان للأشياء المحيطة به، والتصور الذي يطوره عن العالم، وهي في الوقت نفسه تشير إلى مجموعة الخبرات والأفكار والآراء التي يستند إليها في تقويمه للظواهر المحيطة به. (ثم أورد بعد ذلك معالجة كارل مانهايم الموضوع، وبعض استخدامات علماء الاجتماع السياسي لمصطلح الأيديولوجية السياسية)(٣).

ويلخص عبد الله العروي القضية على النحو التالي:

١ - يستعمل المفهوم في ميدان المناظرة السياسية حينما نقول: إن الحزب الفلاني يحمل أيديولوجية، أي مجموع القيم والأخلاق والأهداف التي ينوي تحقيقها على المدى القريب والبعيد (الأيديولوجية/قناع).

٢ - يستعمل المفهوم في وصف رؤية المجتمع (في اجتماعيات الثقافة) في دور من أدواره التاريخية حين نقول: «أيديولوجية عصر النهضة» - أي نظرة رجال ذلك العصر للكون والمجتمع والفرد «أو» الأفق الذهني الذي كان يحد إنسان ذلك العصر (الايديولوجية/رؤية كونية).

٣ - يستعمل المفهوم في نظرية المعرفة ونظرية الكائن (كائن الانسان المتعامل مع محيطه الطبيعي)، والسؤال الذي يطرح في هذا المجال هو لم لا يرى الانسان الأشياء كما هي، بل يراها طبقا لتصوراته ودعواه وموقعه؟

٤ - أما المجال الرابع فهو مشترك بين المجالات الثلاثة الأخرى، وهو يدرس تأثير الأيديولوجية على الفكر أو الحدود الموضوعية التي ترسم أفق ذلك الفكر (ونحن هنا نعارض الفكر الأيديولوجي بالفكر الموضوعي أو العلمي)(٤).

ولعل السمة الأساسية المشتركة بين كل التعريفات هي أن كل التصورات المطروحة ترى أن ثمة علاقة مركبة بين الأيديولوجية والواقع، فهي لا تعكسه فحسب، بل تحاول تسويغه أيضا، والواقع ليس مجرد واقع اجتماعي مادي، وإنما هو واقع اجتماعي نفسي روحي، بل إنه ليس مجرد واقع فحسب، وإنما هو ايضا

تطلعات وآمال. ولعل هذا يفسر ظاهرة اعوجاج الفكر الايديولوجي.

وقد حاول مؤلف مدخل «الأيديولوجية» في موسوعة «معجم تاريخ الأفكار أن يصل إلى تعريف متكامل، من خلال عرض كافة النتائج التي وصل إليها معظم المناهج المعروفة. فالتفسير المعرفي للأيديولوجية (المرتبط بعصر التنوير والعقلانية) يستند إلى نظرية حسية في المعرفة، وإلى الايمان بامكان تحديد مدى صدق أو كذب الأفكار بالرجوع إلى عالم الحواس الخمس، فان تطابقت الأفكار مع هذا الواقع، فهي صادقة، وإن لم تطابقه فهي زائفة. أما التفسير الاجتماعي فيرى أن الايديولوجية نسق من الأفكار التي تتشكل من خلال الواقع الاجتماعي، وأنها ليست بالضرورة حقيقية بالضرورة، ولكنها، مع هذا، قادرة على إشاعة التضامن الاجتماعي وعلى تجنيد الجماهير وتحريكها، وعلى الضبط الاجتماعي. والأيديولوجية قد تبرر (أو تفند) مجموعة من الأهداف والقيم، وتضفي شرعية (أو تكشف) سلطة سياسية، أي أنها قناع وسلاح معا.

أما التفسير النفسي فيرى أن وظيفة الأيديولوجية هي تهدئة التوترات النفسية عن طريق طرح رؤية تعطي تفسيرا جديدا يجعل من الممكن تقبل الموقف (الاجتماعي أو التاريخي) المسبب للقلق والتوتر، أي أن الأيديولوجية عرض وعلاج.

أما كليفورد جيرتز (وهو ممثل التصور/الحضاري/الاجتماعي للأيديولوجية) فيرى أن التصورين الاجتماعي والنفسي قاصران، ويرى أن الأيديولوجية تستمد قوتها من مقدرتها على الاحاطة بالحقائق الاجتماعية، وعلى صياغتها صياغة جديدة، والتعبير عنها بلغة تستعصي على لغة العلم، وأنها تقوم بدور الوسيط لمعان أكثر تركيبا مما قد يوحي به معناها الحرفي. وهي تستطيع القيام بدور الوسيط، لأنها نسق رمزي يستخدم نموذجا لأنساق أخرى (رمزية وعضوية واجتماعية ونفسية). والنسق الرمزي يمكن إدراكه ادراكا مباشرا، وعن طريقه يمكن إدراك الأنساق الأخرى، وبذا تكون عملية الادراك هي نتاج تماثل الأنساق الرمزية المختلطة بالأنساق الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية.

فالأيديولوجية ليست علامة تلصق على الأشياء والظواهر، وإنما هي استعارة أساسا، والاستعارة ليست صادقة أو كاذبة، وإنما هي محاولة للتعبير عن الواقع، قد تفلح، وقد تخيب. والاستعارة - من منظور حرفي - قد تخطىء الواقع وتشوهه، ولكنه تشويه يعكس حقائق معينة (ويطمس حقائق أخرى)، وبالتالي يوصل «رسالة» محددة للمؤمنين بها. وبهذا المعنى يمكن النظر إلى الأيديولوجية الاستعارة على أنها صورة مرتبة للنظام الاجتماعي (القائم أو المرغوب فيه) ، عن طريقها يصبح الانسان حيوانا سياسيا، إنها تشبه الخريطة التي تحول العالم الواقعي إلى أماكن تربطها طرق لها أسماء وأرقام، إنها الصورة المحورية أو الاستعارة الأساسية التي يمكن عن طريقها إدراك الواقع السياسي بحيث يصبح كلا متكاملا(٥).

لكل هذا يمكن القول إن الأيديولوجية لا تضم عنصرا وتستبعد آخر، ولكنها تضم كل العناصر (السياسية والحضارية والنفسية والاجتماعية) في نسق متكامل يماثل الواقع (الحقيقي والنفس) الذي تدعو له الأيديولوجية. ومن هذا المنظور يصبح السؤال التقليدي عن مدى مطابقة الأيديولوجية على الواقع سؤالا تختلف الاجابة عنه باختلاف الأيديولوجية التي هي موضوع البحث، ويصبح السؤال هو عن مدى فعالية الأيديولوجية في رسم صورة للواقع الاجتماعي وتقديم خريطة له ومحورا لخلق الوعي الجمعي.

بعد هذا العرض يصل شريف الى تعريفه المركب (المتأثر بموقف جيرتز)، وهو أن الأيديولوجية نسق من الأفكار والقيم، مثقل بالمشاعر، مشبع بالاساطير، مرتبط بالممارسة، يتناول الانسان والمجتمع، والشرعية والسلطة، ويتبنى الانسان هذا النسق بشكل روتيني، ويتأكد ويتوطد بحكم العادة. ويتم نقل هذه الأساطير والقيم بطريقة مبسطة وكفأة، من خلال الرمز والصور، والاعتقادات الأيديولوجية المتماسكة مع نفسها إلى حد ما، وتتسم بدرجة من الوضوح. كما أنها متفتحة على الأمثلة والمعلومات الجديدة، والايديولوجيات عندها إمكانية كبيرة في تجنيد الجماهير وتسييرها(٦).

ويقسم العروي الكتاب الذين يستخدمون مفهوم الأيديولوجية إلى ثلاثة أقسام: موقف من يضع فكره خارج نطاق المفهوم، وموقف من يقبل المفهوم، أما الفريق الثالث فهو يستعمل المفهوم أداة تحليلية مجردا من أي اختيار فلسفي. وكاتب هذه الدراسة يعتقد أنه من هذا الفريق الثالث، فعلى الرغم من أنني قد تبنيت- في الدراسة ذاتها- موقفا فلسفيا وسياسيا محددا إلا أنني حاولت ان اكون «وفيا لمنهج المادة التي أبحث فيها». ولذا استخدمت المفهوم المركب للأيديولوجية، الذي ينطوي على مفاهيم فلسفية مختلفة، وبالتالي يصبح محايدا إلى حد كبير ويصبح أداة تحليلية.

وقد أشرنا من قبل إلى رؤية العروي للأيديولوجية قناعا، ورؤية كونية، وأداة لإدراك الواقع، وإلى معارضة الفكر الأيديولوجي بالفكر العلمي. وقد استخلص العروي أنه يوجد مستويان: مستوى الأيديولوجية الذي نظن فيه بأنها مطابقة للواقع، ويستلزم هذا المستوى من الباحث أن يتوخى الدقة في وصف السمات الأساسية للأيديولوجية، بما في ذلك ادعاءاتها عن نفسها، أما المستوى الثاني فهو الذي يقف عنده البحث عندما يحكم على الأيديولوجية أنها أيديولوجية لا تعكس الواقع على الوجه الصحيح. ويرى العروي أن الظاهرة النقدية هي التي تميز الأيديولوجية عن المفاهيم الأخرى (مثل فكرية- ذهنية- عقيدة- فلسفة). هذان المستويان- في تصوري- يقابلان المستويين، أو الموقفين الاجتماعي/التكنولوجي، والنقدي/الانعتاقي.

ونحن نحاول- في هذه الدراسة- أن ننظر إلى الأيديولوجية الصهيونية على المستويين اللذين أشار اليهما العروي، فننظر إليها لنصفها، ولندرك منطقها الداخلي، بغض النظر عن مطابقتها على الواقع. كما أننا ننظر إليها على أنها برنامج سياسي تبشيري يحاول أن يغير الواقع لحساب رؤية جديدة ومصالح محددة. وقد حاولنا كشف هذه المصالح عن طريق دراسة نشأة الفكرة الصهيونية، كما أننا حاولنا أن نبين كيف تحولت هذه الفكرة نفسها إلى واقع، سواء من خلال الدعم الأمبريالي. أو من خلال الممارسات الصهيونية في فلسطين والغرب. إننا- في

دراستنا الصهيونية- حاولنا تفهمها بوصف سماتها ودراسة أصولها، وحاولنا تفسيرها بوضعها في سياقها مع الظواهر المماثلة، وحاولنا الحكم عليها أيضا بأن ندرس البدائل التاريخية المتاحة، وبالنظر إلى نتائجها على الانسان والأرض، منطلقين من الاعتقاد بأن ثمة حدا ادنى من القيم متعارفا عليه بين البشر (على الرغم من نسبية الأخلاق، وعى الرغم من تاريخية الوجود الإنساني).

وقد تبنينا تعريف شريف المركب كنقطة انطلاق، لأنه يشتمل على كل العناصر النفسية والسياسية والاجتماعية والحضارية (الواعية وغير الواعية)، ولكن هذا التعريف، على الرغم من تركيبيته، أو ربما بسببها، قد لا يكون هو أحسن الأدوات التحليلية، ولذلك أكملناه، بالمفهوم الماركسي للبناء الفوقي والبناء التحتي، بعد تعديله وتحويره ليتخطى التبسيط والميكانيكية اللذين التصقا به، ودون أن نتبنى الموقف الفلسفي التقليدي المرتبط بالمفهوم.

ونحن نرى أن النظريات التي تحاول تفسير الظاهرة الصهيونية تفسيرا علميا (وليس غيبيا أو تآمريا أو أخلاقيا) لا تأخذ في الحسبان مشكلة الشكل الخاص والمتعين للظاهرة، ولذا فهي تفشل في تفسير لم ترجمت مشاكل اليهود الاجتماعية/الاقتصادية نفسها إلى بنية تاريخية محددة، تعرف باسم «المسألة اليهودية» وهي بنية تشترك، في بعض قسماتها وملامحها العامة، مع البنيات المماثلة، ولكنها تختلف عنها في الملامح الخاصة، وفي الحلول المطروحة. وتفشل النظريات العلمية في تفسير لم وطّن الامبرياليون في فلسطين يهودا، ولم يوطنوا أوروبيين مسيحيين كما فعلوا في الجزائر أو روديسيا؟ أليست كلها مصالح امبريالية تخدم المخطط الامبريالي! أو ليس المستوطنون هم مجرد «الفائض الإنساني» الذي كان لابد من أن تصدره أوروبا الرأسمالية إلى الشرق؟ إننا حينما نتحدث عن «فائض انساني» يجب ألا نفرق بين يهودي ومسيحي!! كما أن هذه النظريات لا يمكنها أن تفسر تعيين البرنامج الصهيوني وخصوصيته، فالاستعمار الصهيوني ليس استعمارا بالمعنى العام، بل هو استعمار استيطاني، كما أنه استعمار استيطاني يختلف عن الأنماط الاستيطانية التقليدية في أنه لا يهدف إلى الاستيطان فحسب،

بل يهدف إلى الإحلال أيضا. ويمكننا القول ـ بشيء من التبسيط ـ إنه بينما تدرس بعض النظريات البناء الفوقي اليهودي (التلمودي) منفصلا عن البناء التحتي، وبذلك تضيع في أشكال هندسية متكررة منذ قديم الأزل، تدرس النظريات العلمية البناء التحتي الأوروبي وتضيع بدورها في محتوى اقتصادي عام مجرد غير متعين، أي أنهما يشتركان في سمة بنيوية واحدة: هي تجاهل علاقة البناء الفوقي بالبناء التحتي (أو علاقة الشكل بالمضمون أو الأفكار بالواقع).. وهي علاقة لا يمكن فهم الواقع فهما كاملا دون دراستها واستيعابها.

ولذا فدراسة الأشكال والبناء الفوقي مهمة في دراسة البناء التحتي . وفي تصوري أن البناء الفوقي (منفصلا عن البناء التحتي) هو، اساسا، مجموعة من الامكانات أو (السيناريوهات) الفكرية أو النظرية البريئة التي قد تكون متناقضة ودائرية، ويمكننا أن ننظر إليها على أنها مجموعة من الرموز السالبة والموجبة التي تتواجد في حالة اتزان كامل (هذه الحالة هي حالة سكون افتراضية محضة توجد خارج التاريخ)، ولكن حينما تدخل هذه الدائرة المتزنة في علاقة مع الواقع الاجتماعي أو البناء التحتي فان دائريتها تنكسر ويتحدد اتجاهها، إذ يقوم هذا الواقع بتنشيط ما متغير على حساب نقيضه، أي أن الواقع يخل باتزان البناء الكلي المتعادل، ويمكن أن نضرب بعض الأمثلة على ذلك:

١ ـ أول هذه الامثلة هو ظاهرة معاداة السامية. فمن المعروف أن صورة اليهودي القاتل الشرير ترسخت في الوجدان الأوروبي، ولذلك فالجماهير المؤمنة في العصور الوسطى في أوروبا كانت تتربص دائما باليهود قتلة الرب (السالب)، ولكن إلى جانب هذا يوجد الايمان بأنهم كانوا شعب الله، وهم الذين أعطوا العالم المسيح نفسه، بل إنهم، بفقرهم وبؤسهم، ليقومون شاهدا على عظمة الكنيسة، ولذا يجب البر بهم (موجب)، أي أن الاسطورة المسيحية كانت تتسم بالغموض والحياد، لهذا ظلت العداوة ضد اليهود كامنة دائما، طالما كانت الأقليات اليهودية تلعب دورا هاما وحيويا في نقل السلع الزائدة عن الحاجة، وفي نقل السلع الاستهلاكية بين المجتمعات

الزراعية، وطالما كانت تزود هذه المجتمعات بنظام ائتماني عالمي يسهل التجارة. ولذلك فقد كان كثير من الملوك يستقدمون اليهود إلى ممالكهم، ويدافعون عنهم دفاعا مستميتا، بل يقفون ضد «تنصيرهم». لأن في هذا تقليلا لدخل الملك، واضعافا للنشاط التجاري. ولكن حينما كانت حركة البناء التحتي تتغير، كأن تظهر طبقة رأسمالية محلية (مسيحية)، كانت العداوة الكامنة (السالب) سرعان ما تنشط وتتحول من كره أو عدم اكتراث نحو أقلية دينية غريبة إلى محاولات لطرد اليهود أو دمجهم، بوصفهم صورة الشر المتجسدة (على مستوى البناء الفوقي)، وأنهم طبقة منافسة للتجار الناشئين، وطبقة مستغلة وطفيلية بالنسبة للفلاحين (على مستوى البناء التحتي)،

٢ ـ ولنأخذ مثلا آخر أكثر تركيبا وطرافة، وهو أسطورة الأحلام الألفية أو الاسترجاعية التي تربط بين الخلاص وعودة اليهود إلى أرض الميعاد وتنصيرهم. ويمكن تقسيم هذه الفكرة أو الأسطورة (البناء الفوقي) إلى أقسامها الأساسية:

أ ـ لابد من استرجاع اليهود قتلة المسيح (سالب)
ب ـ لتوطينهم في أرض الميعاد (موجب)
جـ ـ لتنصيرهم حتى يأتي الخلاص (سالب)

ويمكن تبسيط هذه الأسطورة الى عنصرين سالبين (تنصير قتلة المسيح)، وعنصر موجب (عودتهم الى أرض الميعاد). حينما دخلت هذه الأسطورة الدينية البريئة في علاقة مع البناء التحتي الرأسمالي التجاري ثم الامبريالي الغربي تغيرت هويتها إلى أن وصلنا إلى الصيغة الحالية، وهي ضرورة توطين اليهود في أرض الميعاد، ونسى تماما أنهم قتلة المسيح، كما نسى أيضا ضرورة تنصيرهم. وقد نسيت هذه العناصر، وتنوسيت، لأنه ليس هناك ما يساندها في الواقع الاجتماعي. كما دخلت على الأسطورة عناصر جديدة، فأرض الميعاد أصبحت

أيضا موقعا استراتيجيا هاما، وأصبح الصهاينة لا مجرد يهود، وإنما هم أيضا جزء من الحضارة الغربية، بل إن البعض بدأ يكتشف صلة قربى بين اللاهوت المسيحي والفكر الديني اليهودي، أي أن الاسطورة المسيحية، التي كانت تستخدم ضد اليهود وكانت تعد أساسا لمعاداة السامية، تحولت إلى أسطورة دينية سياسية تخدم مصالح الصهيونية (والامبريالية) نتيجة دخولها في علاقة مع بناء تحتي محدد.

٣ ـ والأمر لا يختلف كثيرا بالنسبة لعلاقة الصهيونية باليهود، فالصهيونية لم يكن لها من أثر بين جماهير اليهود، وإنما كانت مقصورة على الكتابات الدينية التي كانت تحرم حتى التفكير في العودة الفردية قبل مقدم الماشيح، ولكن بدأت فكرة العودة الى صهيون تكتسب حياة جديدة في ثمانينات القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي ظهرت فيها قوانين مايو الشهيرة في روسيا، وهي القوانين التي حرمت على اليهود الاتجار أو امتلاك أي شيء؛ أو حتى السكنى خارج مناطق معينة حددها القانون، فحولت بهذا اليهود إلى أقلية منبوذة اقتصاديا، الأمر الذي وجدت الصهيونية معه صدى في قلوب بعض قطاعات اليهود، وخصوصا مثقفي البورجوازية اليهودية الصغيرة الذين أضرت بهم هذه القوانين أيما ضرر، وقضت على فرص الاندماج الحضاري والاقتصادي السريع أمامهم، حينئذ عادوا مرة أخرى إلى التلمود الذي كانوا يتناسونه، وإلى التوراة التي كانوا قد توقفوا عن قراءتها، وبدأوا في تعلم العبرية بدلا من الروسية.

هذا عن أثر البناء التحتي على البناء الفوقي، ولكن اي علاقة جدلية هي في نهاية الامر علاقة تبادلية أيضا، قد يكون التبادل بين الطرفين غير متساو (بل لابد من أن يكون غير متساو، وإلا انتفى الجدل). ولكن، مع هذا، لابد من أن يكون هناك تبادل. ونحن نرى أن الظواهر السابقة لم تكتسب بنيتها المتكاملة إلا من خلال البناء الفوقي أيضا؛ بل يمكننا القول إن البناء التحتي بمفرده لا يمكنه التعبير عن نفسه في خواء فكري أو حضاري، لكنه لابد من أن يعبر عن نفسه من

خلال بناء فوقي وأشكال فكرية وحضارية متحدة، والبناء التحتي دون البناء الفوقي قد يظل هو، الآخر، امكانية جامدة شبه محايدة، فكلاهما ضروري، ولكنه ليس كافيا.

ولننظر الى الأمثلة الثلاثة السابقة من منظور أثر البناء الفوقي في البناء التحتي:

١ ـ كان إحباط الجماهير المسيحية يعبر عن نفسه على هيئة محاولة الفتك باليهودي / التاجر، بسبب الأشكال الحضارية التي نشأت فيها هذه الجماهير، ومن دون هذه الأشكال ما كان من الممكن أن توجد معاداة السامية، فمعاداة السامية ليست محصلة الواقع الاقتصادي وحده، إذ يمكن للإحباط ان يعبر عن نفسه بشكل آخر (الزار، شنق الساحرات، الزهد، وربما الثورة، في حالة اقتراب الوعي من الواقع). ولهذا نجد أن البلاد الافريقية والآسيوية التي لا توجد فيها أساطير بخصوص اليهود لا يوجد فيها أثر لمعاداة السامية، على الرغم من وجود جاليات يهودية في بعض منها. فالحقد الطبقي يعبر عن نفسه في أشكال اخرى، كما انه في مصر، رغم وجود أقلية يهودية كبيرة ذات طابع أجنبي، لم يحدث أي هجوم على اليهود كما هو معروف بسبب نوعية الأفكار السائدة في المجتمع، أي أن معاداة السامية هي نتاج الوضع الاقتصادي والشكل الحضاري.

٢ ـ ولنأخذ الأحلام الألفية الاسترجاعية مثلا آخر. فعلى الرغم من أن اهتمام بلفور بفلسطين هو اهتمام سياسي اقتصادي بالشرق المتخلف الغني، إلا أن هذا الاهتمام العام ترجم نفسه إلى شكل خاص، وهو وعد بلفور الذي منح اليهود، اليهود دون سواهم، حق العودة. لقد كان من الممكن أن يتوجه بلفور إلى أي أقلية دينية أو عرقية أخرى، ولكن وعد بلفور أخذ هذا الشكل الخاص بسبب وجود الأشكال أو المتغيرات الدينية الكامنة، بشكل محايد، في وجدانه، أي أن وعد بلفور هو نتاج حركة الواقع الذي يكتسب

شكلا معينا، ويتحول إلى حقيقة واقعة من خلال البناء الفوقي أو الأفكار.

٣ ـ ولننظر، أخيرا، إلى الحل الصهيوني ذاته لم تكن الأقلية اليهودية في روسيا هي الوحيدة في معاناتها من الاضطهاد والاستغلال، ولكن لم يفكر سوى بعض مثقفي اليهود في «الهجرة» إلى «أرض الميعاد» حلا للمسألة اليهودية، وذلك بسبب تراثهم الديني، أو البناء الفوقي، الذي يتحركون في إطاره، وهو تراث ديني يحتوي على كم هائل من التصورات الطوباوية الخاصة بالأرض والمنفى والشعب المختار. أما أعضاء القوميات في روسيا فكانوا يحسمون موقفهم إما بالمطالبة بالاستقلال عن روسيا، وإما بالانضمام إلى صفوف الحركة الثورية الصاعدة. ولعل استيطانية الاستعمار الصهيوني قد تفهم في إطار المصالح الامبريالية في القرن التاسع عشر، ولكن احلاليته لايمكن أن «تفهم» إلا في إطار «يهوديته» بوصفه تعبيرا عن وضع اليهود الخاص في روسيا، ونتيجة سيادة بعض الأفكار الدينية الغيبية عليهم التي جعلت انتماءهم لحضاراتهم ضعيفا ومشوشا، وسهل بالتالي تهجيرهم الى فلسطين، لا ليستوطنوها فحسب ـ على عادة المستوطنين البيض ـ وإنما ليحلوا محل سكانها، لينفذوا تعاليم العهد القديم وأحلامهم الأسطورية الجيتوية بالانفصال.

إن ما نريد تأكيده في هذا المضمار أننا يجب ألا ننزلق في دراستنا أي ظاهرة إلى دراسة البناء الفوقي على أنه عالم ثابت منفصل عن البناء التحتي، أو إلى دراسة البناء التحتي على أنه «سبب» وجود البناء الفوقي، أو أنه العنصر الوحيد الهام في تحققه، وان البناء الفوقي «إن هو» إلا تعبير عن الواقع «المتمثل في البناء التحتي» أو تشويه له، لكن يجب أن ننظر إلى البناءين، الفوقي والتحتي، بوصفهما سببا ونتيجة في الوقت ذاته. وباختصار شديد يمكننا القول إن تعيين الظاهرة هو نتاج تفاعل البناء الفوقي بالبناء التحتي، وأن البناء الفوقي ـ هو حركة مستمرة مجردة موجودة في أكثر من مكان وزمان، وأن كلا من البناءين الفوقي والتحتي يكتسب هويته المتعينة من خلال الآخر. ولا يمكننا فهم الظاهرة كلها أو فهم البنية بشكل

متكامل، إلا برؤية الشكل في علاقاته مع المحتوى، والمحتوى في علاقته مع الشكل، أو كما أفضل القول: رؤية البنية العامة للظاهرة، والتي تتضمن الشكل والمضمون سويا وتتخطاهما، كما تتضمن كل المتغيرات الملموسة في علاقتها الكلية المتكاملة حتى يصبح المتغير لا وجود له خارج العلاقة. هذا الربط الجدلي بين البناء الفوقي والبناء التحتي يجعل من اليسير علينا أن نتخطى الازدواجية القديمة بين الارادة المستقلة والحتمية المطلقة، فالظاهرة هي مفتاح تفاعل الارادة الانسانية مع قوانين الواقع، وتظل الارادة جامدة عاجزة دون تطوير قوانين الواقع، وتظل قوانين الواقع إمكانية محضة دون الارادة الانسانية التي تكشفها وتتحدّد من خلالها.

هذا بخصوص علاقة البناء الفوقي بالبناء التحتي بشكل عام. أما بالنسبة لإسرائيل (وكل الأيديولوجيات الفاشية على وجه العموم) فتتعاظم أهمية البناء الفوقي، لأن الانسان الفاشي هو ضحية وعيه الهندسي الدائري الزائف. وكما بينا من قبل تحاول الأيديولوجية أن تعكس الواقع، كما تحاول تبريره، وهي تضم الحقائق والأساطير، وهي قد تصبح أيديولوجية علمية أو أيديولوجية أسطورية. ولذا فاننا لو تصورنا مقياسا يكون أقصى يمينه الأسطورة (الرغبة والتطلع والذاتية والزيف الكامل) وأقصى يساره العلم (الواقع والموضوعية الكاملة والحقيقة الكاملة) (مع العلم بأن الأسطورة الكاملة هي من نصيب الدراويش، والعلم الكامل هو من نصيب الله) لو تصورنا مثل هذا المقياس لوجدنا ان الصهيونية تقترب من الأسطورة أكثر من اقترابها من العلم، بل إنني أرى أن الصهيونية هي من أكثر الايديولوجيات أسطورية، لأن جوهرها مبني على اكذوبة كاملة، افتراض وجود شعب يهودي خالص، وافتراض غياب شعب آخر، وكلاهما افتراض لا سند له في الواقع.

وترجع هذه السمة في الايديولوجية الصهيونية الى شذوذ بنيوي اصيل فيها، فنحن نتحدث عادة عن علاقة البناء الفوقي بالبناء التحتي، ولكن الايديولوجية الصهيونية هي بناء فوقي على علاقة بثلاث بنى تحتية:

١ ـ وضع يهود شرق أوروبا الاقتصادي والحضاري والديني
٢ ـ الامبريالية الغربية ويهود الشتات.
٣ ـ المجتمع الإسرائيلي.

وقد بينا في الفصل السابع من هذا الكتاب أثر هـذا الشذوذ البنيـوي على الانسان الاسرائيلي، ولكن ما يهما هنا هو تأكيد أننا، برغم تبنينا لمصطلح البناء الفوقي والبناء التحتي، فاننا لم نقتنع بالصيغة التقليدية الجاهزة، ولم ننظر الى البناء التحتي بحسبانه وجودا ماديا بل بوصفه وجودا ماديا وحضاريا وفكريا (وضع يهود شرق أوروبا)، كما أنه يكون بناء تحتيا قد اختفى كليا أو ليس على علاقة عضوية بالبناء الفوقي. ونحن في محاولتنا البحث عن صيغة خـاصة نحـاول أن نفسر خصوصية الظاهرة (فدرسنا منطقها الكامل) دون إسقاط فكرة القانون العـام (القوانين التي تتحكم في الظاهرة موضوع الـدراسة والـظواهر المماثلة). وأنا انطلق من إنكار فكرة وحدة الوجود التاريخية (البانثيزم التاريخية) التي تفترض أن ثمة وجودا تاريخيا عاما ينتظم البشر كلهم، وان ثمة قوانين عامة تتحكم فيهم. ومع أننا لاننكر وجود القوانين العامة، فاننا ايضا نؤمن بأن التاريخ لا يتـطور بالمستوى نفسه ولا بالمعدل نفسه ولا بالطريقة نفسها من مجتمع لآخر، كما انني اؤمن أننا لانقف على المسافة نفسها من الظاهرة نفسها، وبـالتالي، ثمـة مجال للاختلاف في شكل الظاهرة الواحدة نفسها باختلاف المجتمعات، وثمـة مجال للاختلاف في طريقه إدراكهـا باختـلاف المسافـة. ولنأخـذ الصهيونيـة مثلا، فالصهيونية، من وجهة نظر مجموعة من الباحثين، هي أيديولوجيـة استيطانيـة عنصرية، وهذا هو القانون العام الذي يتحكم فيها ولكن الصهيونية تختلف عن البيـورتيانيـة التي كانت أيـديولـوجية الـرواد الذين استـوطنوا أمـريكـا (وهي أيديولوجية استيطانية عنصرية أخرى) وعن أيديولوجية المستوطنين الفرنسيين. كما أن إدراك الباحث الأمريكي الذي يرفض الأيديولوجية الصهيـونية يختلف عن إدراك الباحث التركي أو الفلسطيني الذي يرفض الصهيونية، رغم اتفاقهم جميعا في الأسس الفلسفية والسياسية للرفض، فالمسافة بين الأمريكي والفلسطيني من

جهة، والظاهرة الصهيونية من جهة أخرى مختلفة، أي أن الصهيونية التي لها شكلها الخاص نتيجة ظروفها الاجتماعية/التاريخية الخاصة تتواجد على مستويات ادراكية مختلفة. وفي تصوري أن الرؤية الحقة هي التي تحاول أن تصل إلى القانون العام، ثم إلى القانون الخاص، وتأخذ في حسبانها المسافة بين المدرك والظاهرة.

وتأكيد الخصوصية (خصوصية الظاهرة، وخصوصية الإدراك) وهو ما سميته المنحنى الخاص للظاهرة، ليس الغرض منه تأكيد انفصال كل الظواهر بعضها عن بعض، وانعزال كل الباحثين الواحد عن الآخر، ولكن الغرض منه هو ربط عملية الإدراك بالممارسة الثورية ذاتها. فالإدراك الأكاديمي «العلمي» المحايد الذي يقنع بالقوانين العامة للظاهرة هو ادراك كسول «مضموني» يقنع باجترار نتائج الآخرين دون معاناة وقلق، ودون تفكير في الواقع الذي سيكون مجالا للممارسة والتطبيق. أما إذا بحثنا الظاهرة من منظور الممارسة فإننا سنهتم بالنتوء والخصوصية، وبالقوانين الفرعية المختلفة التي تهمني أنا ولا تهم المدرك العام، أو الشخص الذي يدرك الظاهرة من مسافة أو من زاوية مغايرة لمسافتي وزاويتي. هذا فضلا عن أن الادراك الاكاديمي العام لايمكنه أن يترجم عن نفسه في برنامج سياسي للعمل يتفق مع امكانات كل فرد وكل قطاع، حسب موقعه من الظاهرة، ولكنه يترجم عن نفسه في شعارات جامدة ميتة، يسهل الايمان بها، والدفاع النظري المتشنج عنها، دون ممارستها. أما البحث عن خصوصية الظاهرة والتوصل إليه (وهو بحث لاينتج إلا عن قلق ومعاناة حقيقيين، وعن احساس من جانب الباحث بموقفه الوجودي الخاص)، فإنه سيجعل من الممكن أن نطور برامج سياسية تتفق مع موقع كل فرد من الظاهرة وامكاناته الحقيقية، ولذا لايمكنني أن أطلب من الثوري الأمريكي أن يحمل السلاح لتحرير فلسطين، كما لا يمكنني أن اقنع من الفلسطيني بأن يتبرع بماله للثورة المسلحة، بل لابد من ان يتفق البرنامج السياسي مع خصوصية الظاهرة وخصوصية الإدراك.

الملحق الثالث

«القاء الحجارة في الضفة الغربية»*
نص المقال الذي نشر في جريدة الرياض (السعودية)
بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٨٤

من المقولات التي لايمكن للعدو الصهيوني مواجهتها مقولة العربي أو الفلسطيني، فاعترافه بوجود العربي هو اعتراف ضمني يكذب ايديولوجيته من أساسها، ولذا نجد الصهاينة يبذلون قصارى جهدهم في ان يزيلوا الوجود الفلسطيني تماما لامن الوجود وحسب، وانما من وجدانهم ووجدان الآخرين.

ويتبع الصهيانة مناهج عديدة للوصول لهذا الهدف، فيسمون العربي بأنه متخلف (وبالتالي لا حقوق له)، أو انه لا هوية محددة له (وبالتالي يمكن توطينه في اي مكان)،أوانه لا وجود له (ولذا قالوا عن فلسطين الآهلة بالسكان والتي كانت تعد من ازحم بقاع العالم: ارض بلا شعب، اي ارض خالية).

وكل هذه المناهج كانت تصلح للتعامل مع الفلسطينيين عن بعد، ولكن بعد حرب ١٩٦٧ اختلت الامور، وكان على العدو الاسرائيلي ان يتعامل مع الفلسطينيين، وكان عليه ان يقاتل ضدهم وان يحاول التصدي لمظاهراتهم وان يهرب من رصاصاتهم، واصبح من الصعب عليه ان ينادي بانهم لاوجود لهم، وإلا بما يفسر تلك القلاقل التي يثيرها هذا العربي الغائب، ولذا لجأ العدو، شأنه شأن كل المستعمرين، الى تقسيم الفلسطينيين الى اقلية مناضلة «شريرة»يسميها الارهابيين او المتسللين او المتشردين او اتباع المنظمة (ولا يسمونهم قط الفدائيين او المدافعين عن الحرية)، وأغلبية طيبة خيرة طيعة مستسلمة تستمع الى اوامره وتنصاع لها. ويجب ان تنتبه الى ان مثل هذه التقسيمات الساذجة بل واضحة البلاهة ليست من قبيل التدليس علىالآخرين وحسب، ولا من قبيل خداع الرأي

* بقلم الدكتور عبدالوهاب المسيري.

العام العالمي، بل هو قناعة اسرائيلية حقيقية تحدد سلوك العدو وتفسر العديد من برامجه الفاشلة. ويظهر في الصحف الاسرائيلية من آونة لاخرى انباء توحي بأنه «تم أخيرا السيطرة على الموقف سيطرة تامة»، أو «ان المقاومة قد اجتثت تماما من جذورها»، أو أن «اهل الضفة قد بدأوا يظهرون الثقة في القيادة الاسرائيلية الحكيمة الرشيدة». وقد امتلأت الصحف الاسرائيلية بانباء عن نجاح غزو لبنان وعن ان القوات الاسرائيلية قد حققت ما تصبو اليه (وهم يسمون غزو لبنان «عملية سلام الجليل»، وهكذا يصبح الفلسطيني الذي يدافع عن حقه ارهابيا، والصهيوني الذي يستولي على ارض الآخرين مدافعا عن السلام).

ومن اطرف الامثلة على هذا الاتجاه التصريح الذي ادلى به الجنرال بنيامين بن اليعازر (الذي يشغل وظيفة «منظم الانشطة في يهودا والسامرة اي الضفة الغربية) الجيروساليم بوست ٤/١١/١٩٨٣ بانه لاحظ اخيرا علامات وقرائن على ما سماه اتجاها مترددا او حذرا نحو البرجماتية بين عرب الضفة والقطاع.

والبرجماتية تعني في نهاية الامر التكيف مع الامر الواقع وتقبله، والامر الواقع هو القهر الاسرائيلي. وكي يرتدي مسوح الموضوعية قال الجنرال الصهيوني ان الوضع الآن مختلف عما كان عليه بين عامي ١٩٧٨ و ١٩٨١ (حينما كان يشغل منصب الحاكم العسكري في الضفة الغربية).

وقد حاول الجنرال تفسير التغير الذي حدث بانه يعود الى هزيمة المنظمة في بيروت وانقسامها في طرابلس، وإلى انشغال الدول العربية كل بمشاكلها ومصالحها. ثم اضاف ان ٥٥٪ من كل الفلسطينيين في المناطق المحتلة ولدوا بعد ١٩٦٧ ولا يعرفون الاردن ورمزهم الاساسي هو منظمة التحرير، و ٤٠٪ منهم يذهب للمدارس والجامعات. وقد سألته الجريدة كيف ينوي ان يكسب قلوب هؤلاء الشبان المرتبطين بالمنظمة. فكان رده متواضعا اذ قال انه لن يحاول بطبيعة الحال ان يحولهم الى مؤيدين للصهيونية، وإنما سيساعدهم على حل مشاكلهم المحلية بان ينشىء عددا اكبر من المصارف، وان يؤسس شركة استثمارية، ولا داعي للحديث عن القضايا السياسية العريضة!

وهكذا ستحل اسرائيل المسألة الفلسطينية بتحويل انتباه الشباب الفلسطيني الى امور المال والدنيا بدلا من قضايا الوطن والارض.

ولا يعدم الصهاينة ان يجدوا من يتعاون معهم ويؤازرهم ويقدم لهم العون والنصح والاستشارة.

فالولايات المتحدة الأمريكية، التي تود التوصل إلى حل سريع ودائم وشامل للمشكلة الفلسطينية عن طريق تقوية قبضة الاحتلال الاسرائيلي وعن طريق فرض الكيان الصهيوني كامر نهائي، وجدت ان من الضروري مد يد المساعدة للجنرال بنيامين بن اليعازر ولذا تمت دعوته لزيارة الولايات المتحدة ليجتمع مع وزير الخارجية الامريكية وكبار موظفي الوزارة ليبحث معهم عن كيفية تحسين مستوى معيشة العرب في الاراضي المحتلة (اي مزيد من المصارف)، وكيف يمكن للولايات المتحدة ان تساهم في التخفيف من حدة بعض جوانب الاحتلال الاسرائيلي عن طريق المساعدات الفنية والتنموية. (وتأتي زيارة بن اليعازر ردا على زيارة وفد امريكي رسمي قام بزيارة الضفة الغربية وبدراسة المشاكل التي يواجهها الاحتلال الاسرائيلي هناك) (الجيروزاليم بوست ١٩٨٣/١٢/١). وتوجد عناصر اخرى من الفلسطينيين العرب تساند هذه المحاولات البرجماتية ولا تشغل بالها بمشاكل الوطن او الارض، وهذه العناصر ممثلة فيما كان يسمى روابط القرى، التي اصيبت بالسكتة القلبية او ماتت دون ان يرثيها احد (لا العدو ولا الحبيب).

ولكن بعد مرور عشرة ايام وحسب من تصريحات الجنرال المتفائلة وجد نفسه يحضر اجتماعا مع وزير الدفاع لمناقشة اعمال الشغب والفوضى بالضفة الغربية، وقد صرح لمعاريف (٨٣/١١/١٤) ان الحكومة لن تسمح بتدهور الاحوال (وهو الذي كان يتحدث عن التحسن الملحوظ) وقد انذر الجنرال انه سيضع حدا لظاهرة القاء الحجارة.

اضاف قائلا: ولكن هذا لن يتم الا حسب معايير الدولة الصهيونية وجيش

الدفاع الاسرائيلي (وهذه المعايير المتحضرة لاتستبعد سد مداخل مخيمات اللاجئين،او انشاء أسوار عالية مثل أسوار السجون وأسوار حول مباني المدارس، أو فرض ساعات طويلة من حظر التجول). ولكن حسب ما جاء في الجيروزاليم بوست، باءت كل هذه المحاولات بالفشل ولم يظهر الفلسطينيون الذين ولدوا في الارض المحتلة اي استعداد لتقبل الكيان الصهيوني. ولعل الجنرال المتفائل قد قرأ هذه الافتتاحية التي اقتبسنا منها هذه المعلومة عن شباب الارض المحتلة، خصوصا وانهم هم محط امله ومصدر تفاؤله!

وبعد مرور اسبوعين وحسب من تصريحات الجنرال المتفائل كان جنرال اخر هو شلومو اليا، رئيس الادارة المدنية في الضفة الغربية، يقوم بافتتاح مبنى البلدية الجديد في احدى مدن الضفة، وقد اصطحبه في هذه الزيارة مصطفى دودين مؤسس روابط القرى. ولكن الجماهير الفلسطينية العنيدة لم تبد اي برجماتية او اعتدال، ولم تقابل ابطال المصارف والاستثمارات والقضايا المحلية بالزهور وانما بالحجارة (الجيروساليم بوست ١٦/١١/١٩٨٣). وقد اندلعت الاضطرابات في اليوم نفسه في مدينة نابلس واحاطت الجماهير الغاضبة بسائق تاكسي اسرائيلي والقت عليه الحجارة مما اضطره الى اطلاق النار عليهم، والقى البوليس القبض على ثلاثة طلاب من جامعة النجاح.

ويبدو ان القاء الحجارة اصبح سلاحا اساسيا في يد الجماهير العزل من السلاح في الضفة الغربية. ولكن يجب ان ندرك مدى اهميته في الحرب ضد المستعمر الاستيطاني الاحلالي. فهذا المستعمر لايود استغلالنا او استغلال مواردنا الطبيعية وحسب (كما كان الحال مع الاستعمار الانجليزي في مصر)،وانما يود استلاب الارض والعيش فيها ينعم براحة البال والهدوء، كما انه يود ان يسلبنا اسباب الحياة والاستمرار حتى نرحل عن الارض ليحل محلنا فيها. وكما قلنا من قبل يتميز المستوطنون الصهاينة الجدد بانهم اساسا من المرتزقة الذين استوطنوا الضفة الغربية لاغراض اقتصادية نفعية.ولذا فالمنظمة الصهيونية تدفع لهم الرشاوى الباهظة على هيئة منازل مريحة وطرق معبدة خصيصا لهم ومدارس

لاطفالهم حتى ينعموا بالعيش في هواء ارض الميعاد المكيف! ولذا فكل ما ينغص عليهم حياتهم هو في نهايته احباط للمخطط الصهيوني. وبالفعل يبدو ان هذا السلاح، رغم ضعفه وبدائيته، قد اصبح سلاحا فعالا، ولذا نجد ان المحاكم الاسرائيلية قد حكمت على شاب عمره ١٧ عاما بالسجن ستة شهور وبالغرامة ٣٠ الف شيقل لالقائه حجارة على الصهاينة (الجيروساليم بوست ٨٣/١١/٢٢). بل يطالب ممثلو المستوطنين الصهاينة بتوقيع عقوبة السجن مدة ٢٥ عاما لمن يقذف الحجارة، وذلك في اجتماع حضره وزير الخزانة كوهين اورجاد(الذي يعيش في منزل فاخر في الضفة الغربية)، والوزير تسيبوري، والوزيرة سارة دورون. وقد قال ممثلو المستوطنات إن منظمة التحرير الفلسطينية لها اذرع ممتدة في الاراضي المحتلة تتلقى التعليمات من وراء الحدود، بل يطالب المستوطنون كذلك بتوقيع عقوبة الطرد على من يلقي الحجارة (على همشمار ١٩٨٣/١٢/١٤). وفي اجتماع سابق ناقش المستوطنون الطرائق اللازم اتخاذها للقضاء على ظاهرة القاء الحجارة وطالبوا بتدخل الجيش. وقد قام المستوطنون بمظاهرة احتجاج قادها الحاخام موشيه ليفنجر (احد زعماء الجوش ايمونيم) لاظهار استيائهم. كما اقتحمت جماعة اخرى من المستوطنين احدى المدارس العربية وانذروا الناظر بتوقيع العقوبات عليه ان قام اي من تلاميذ مدرسته بالقاء الحجارة (الجيروساليم بوست ١٩٨٣/١١/٢٢، بل أن بعض المستوطنين اقتحم إحدى المدارس بعد أن القت طفلة لا تتعدى العاشرة الحجارة عليهم.

وتصل المأساة/الملهاة ذروتها حينما نجد رئيس وزراء الكيان الصهيوني (في ١٩٨٤/١/٢٤ الجيروساليم بوست) وقد اجتمع مع عضوي الكنيست من كتلة هتحيا ليخبرهما ان القاء الحجارة من اسباب قلقه العميق.ويعد بانه سيدرس القضية شخصيا، كما قال انه يجب اتخاذ الخطوات اللازمة لوقف هذه المضايقات خصوصا على الطرق السريعة.وقد ادلى بتصريحات مماثلة!

وهكذا يمكن القول ان تفاؤل الجنرال بن اليعازر كان من قبيل تهدئة الذات،

وان العدو الاسرائيلي قادر على خداع نفسه. بل ان خداعه لنفسه ضرورة لبقائه. ولذلك علينا الا نقنع باقتباس ما يقول وكأنه الحقيقـة، وعلينا الا نخـاف من مخططاته لانها هي الاخرى قد تكون من قبيل خداع الذات.

وهذا لايعني بطبيعة الحال ان العدو لايردد سوى الاكاذيب، ولكنه يعني الا نندفع لتصديق كل ما يقول، وان نحكم على كلماته بمحك الواقع.



الحواشي والملاحق

«الفصل الأول»

هذا الفصل مكون من مدخلي «الجماعات اليهودية وعملية التحديث»، و«المسألة اليهودية» من الموسوعة العربية للمفاهيم والمصطلحات اليهودية الصهيونية للدكتور عبدالوهاب المسيرى التي ستنشر العام القادم ١٩٨٩. وقد اعتمدنا في هذا الجزء على المراجع التالية:

١ ـ سالو بارون واخرون، تاريخ اليهود الاقتصادي، ص ٣٠ـ يضم هذا الكتاب كل المداخل التي تتناول تاريخ اليهود الاقتصادي في الموسوعة اليهودية (١٦ جزءا) التي حررها سيسل روث، وسنكتفي بالاشارة للموسوعة اليهودية نظرا لانها متداولة اكثر من الكتاب. واهم المداخل التي اعتمدنا عليها هو «ملحق تاريخ اليهود الاقتصادي» ومدخل «التجارة» ومدخل «الربا» وان كنا اعتمدنا ايضا على مداخل اخرى مثل «المصارف والصيارفة».

٢ ـ ابراهام ليون، الماركسية والمسألة اليهودية.

٣ ـ ول ديورانت، «قصة الحضارة»، عصر الايمان، الجزء الثالث من المجلد الرابع.

٤ ـ سولومون جرايزيل، تاريخ اليهود من النفي البابلي الى الوقت الحاضر ٥٧٢٨ـ ١٩٦٨.

٥ ـ بديعة أمين، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية.

٦ ـ ول ديوارنت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، الجزء الثاني من المجلد الاول.

٧ ـ سيسيل روث، تاريخ اليهود منذ اوائل العصور حتى حرب الايام الستة.

٨ ـ فردريك م، شفايتزر، تاريخ اليهود منذ القرن الاول الميلادي.

٩ ـ رفائيل ماهلر، تاريخ اليهود في العصر الحديث ١٧٨٠ـ ١٨١٥.

١٠ـ صبري جريس، تاريخ الصهيونية، الجزء الأول.

١١ـ حادثة الذئب، يديعوت احرونوت، ١٣/مارس/ ١٩٨٧. في الارض، السنة الرابعة عشر، العدد السابع ٧/ابريل/ ١٩٨٧، ص ٨٧ـ ٨٨.

١٢ـ الفكرة الصهيونية، ص ١٢٠.

١٣ـ الجيروساليم بوست ، ١٩ نوفمبر، ١٩٨٣.

١٤ـ الارض، السنة الثالثة عشرة، العدد السابع عشر، ٢١/مايو/١٩٨٦، ص ٤١.

١٥ـ كروسمان، أمة تولد من جديد، ص ١٣، التأكيد ليس في الأصل.

١٦ـ المصدر السابق، ص ١٣١.

١٧ـ الجيروساليم بوست ، ١٩/نوفمبر/١٩٨٣.

١٨ـ وردت في القبس الكويتية ١٢/اكتوبر/١٩٨٤ نقلا عن علي غانم في مرجع سبق ذكره.

١٩ـ الجيروساليم بوست ، ١٤/ابريل/١٩٨٦.

٢٠ـ سبير في مرجع سبق ذكره.
٢١ـ وايزمان، المحاولة والخطأ ص ١٩١ .
٢٢ـ بن هرمان في درابر، الصهيونية واسرائيل والعرب، ص ٣١ـ ٢٧ .
٢٣ـ ميخائيل بارزوهار، بن جوريون- النبي المسلح , ص ٣٩.
٢٤ـ المصدر السابق، ص ٥٦.
٢٥ـ القدسي ولوبل، العالم العربي واسرائيل، ص ٦٨ .
٢٦ـ جوزيف ب شختمان مقاتل ونبي : قصة فلاديمير جابوتنسكي- السنوات الاخيرة، ص ١٧٨ .
٢٧ـ بارزوورهار، بن جوريون، ص ٨٩.
٢٨ـ ورد في موشيه مينوهين، نقاد الصهيونية اليهود، ص ٩ .
٢٩ـ اليوميات الجزء الاول، ص ٣٤٢.
٣٠ـ المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٧١١.
٣١ـ المصدر السابق، ٧٠١ـ ٧٠٢.
٣٢ـ امانويل راكمان، ظهور دستور اسرائيل ٨ ١٩٢ـ ١٩٥١، ص ١٤٨ .
٣٣ـ ورد في سامي هداوي، فلسطين في الامم المتحدة، ص ٣٦.
٣٤ـ معاريف (٧ يوليه ١٩٦٨) ورد في ماخوفير، رد على سول شتيرن، ازراكا (٥ يناير ١٩٧٣) ص ٢٨ .
٣٥ـ نعوم تشومسكي، السلام في الشرق الأوسط، ص ٢٨ .
٣٦ـ سلزر: اضفاء الصبغة الآرية على الدولة اليهودية، ص ٥٠ .
٣٧ـ المصدر نفسه، ص ٦٦ .
٣٨ـ المصدر نفسه، ص ٦٩ .
٣٩ـ سيجال، «تأملات في الدولة اليهودية»، مجلة اشوز، المجلد الخامس عشر (سبتمبر ١٩٧٢) .
٤٠ـ ثيرد ورلدريبورت، المجلد الخامس، العدد السابع (سبتمبر ١٩٧٤).
٤١ـ سلزر، اضفاء الصبغة، ص ٦٧ .
٤٢ـ المصدر نفسه، ص ٦٥ .
٤٣ـ المصدر نفسه، ص ٧٥ـ ٧٦.
٤٤ـ المصدر نفسه، ص ٧٨.
٤٥ـ المصدر نفسه، ص ٥١ .
٤٦ـ عاموس كينان «بين غزة وتل ابيب نحن نعيش بالفعل في دولة ثنائية القومية»، جاري سميث (محرر)، الصهيونية- الحلم والواقع، ص ١٨٩ .

٤٧ـستيفنز، «الدولة الاستيطانية ورد الفعل الغربي»، في عابدين جبارة وجانيس تيري، العالم العربي، ص ١٦٧ـ ١٦٨.
٤٨ـ كروسمان، امة تولد من جديد ص ٥٨.
٤٩ـ ستيورات، هرتزل، ص ١٩٢.
٥٠ـ محاكمة مجرمي الحرب الرئيسين امام المحكمة العسكرية الدولية: نورمبرج، ١٤ نوفمبر ١٩٤٥ـ ١١اكتوبر ١٩٣٦، الجزء الحادي عشر، ص ٤٥٠، (النص الرسمي باللغة الانجليزية، جلسات ٨ ابريل ١٩٤٦ـ ١٧ ابريل ١٩٤٩).
٥١ـ الموسوعة البريطانية الجديدة (الماكروبيديا) المجلد الخامس عشر، «العنصرية».
٥٢ـ ارثر روبين، اليهود اليوم ص ٢١٣ـ ٢١٤.
٥٣ـ المصدر السابق، ص ٢٧.
٥٤ـ المصدر السابق، ص ٩٦.
٥٥ـ المصدر السابق، ص ٩٣ـ ٢٤٩.
٥٦ـ المصدر السابق، ص ٢١٧.
٥٧ـ المصدر السابق، ص ٢٩٤.
٥٨ـ اليوميات، الجزء الرابع، ص ١٣٦١.
٥٩ـ ورد في جبور، الاستعمار الاستيطاني في جنوب افريقيا والشرق الاوسط، ص ٢٨.
٦٠ـ الموسوعة البريطانية، المجلد الثاني عشر، «العلاقات العنصرية».
٦١ـ اليوميات، الجزء الاول، ص ٣٤٣، ٣٣٨.
٦٢ـ دافيد بن جوريون، بعث اسرائيل ومصيرها، ص ٩.
٦٣ـ المصدر السابق، ص ٥ـ ٦.
٦٤ـ وايزمان، المحاولة والخطأ، ص ٢٧٧.
٦٥ـ المصدر السابق، انظر خاصة الفصل ٣١.
٦٦ـ هاري ترومان، المذكرات، الجزء الاول، ص ١٥٩.
٦٧ـ ماثير بن هورين، ماكس نوردو: فيلسوف التضامن الانساني، ص ١٩٩.
٦٨ـ يديعوت احرونوت (١٧ اكتوبر ١٩٦٩)، ورد في بوبر، اسرائيل الاخرى، ص٧٧ـ٧٨.
٦٩ـ علموس ايلون، الاسرائيليون: الآباء المؤسسون والابناء، ص ١١٥.
٧٠ـ بن جوريون، بعث اسرائيل ومصيرها، ص ٣٨.
٧١ـ رابينوفتيش «هرتزل وانجلترا»، كتاب هرتزل السنوي، المجلد الثالث، ص ٤١.
٧٢ـ كورت جراسمان، «الصهاينة وغير الصهاينة في ظل الحكم النازي في الثلاثينات»، كتاب هرتزل السنوي المجلد الرابع ص٣٤١ التأكيد ليس في الأصل.

٧٣ـ الصلات المعاصرة بين جنوب افريقيا وإسرائيل، وردت في ابراهيم العابد، ١٢٧ سؤالا وجوابا عن الصراع العربي الاسرائيلي، ص ١٣٦.

٧٤ـ الفكرة الصهيونية، ص ٣٤١.

٧٥ـ ايلون، الاسرائيليون ص ١١٢.

٧٦ـ بن جوريون، بعث اسرائيل ومصيرها، ص ٥.

٧٧ـ سميث، الصهيونية الحلم والواقع، ص ١٨٩.

٧٨ـ امجود بن عيزر (محرر)، قلق في صهيون، ص ٨٣.

«الفصل الثاني»

١ـ الموسوعة اليهودية، المجلد السادس، «دوفنوف» ومقال دفنوف «عقيدة القومية اليهودية» التي يمكن للقارىء ان يجدها في اي مختارات مترجمة من اعمال دوفنوف.

٢ـ الموسوعة البريطانية الجديدة الماكروبيديا، المجلد الرابع، «الاستعمار»، وبيرنز ورالف حضارات العالم ص ٢٣٥ـ ٢٣٦.

٣ـ جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، ص ٥٦.

٤ـ المصدر السابق، ص ١٢٩ـ ١٣٢.

٥ـ الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية، المجلد السابع، «الامبريالية».

٦ـ موسوعة الصهيونية واسرائيل، المجلد الثاني، «حركة استرجاع اليهود».

٧ـ ناحوم سوكولوف، تاريخ الصهيونية، الجزء الاول، ص ٢٨.

٨ـ رافائيل باتاي (محرر)، يوميات هرتزل، الجزء الثاني، ص ٧٥٩. من الآن سنكتفي بالاشارة اليها على النحو التالي: اليوميات.

٩ـ ليونارد شتاين، وعد بلفور، ص ٩.

١٠ـ رسالة كتبها وايزمان الى تشرشل وان كان لم يرسلها له قط، وردت في ريتشارد كروسمان، امة تبعث من جديد، ص ١٣٠.

١١ـ المصدر السابق.

١٢ـ سوكولوف، تاريخ الصهيونية، الجزء الاول، ص ٦٣.

١٣ـ الاقتباس من «المسألة الشرقية الجديدة» (١٨٦٠)، ورد في ستيفن هالبروك، الفلسفة الصهيونية: تفسير مادي، في ابراهيم ابو لغد وبهاء ابولبن، النظم الاستيطانية في افريقيا والعالم العربي، ووهم البقاء، ص ٢٢.

١٤ـ شتاين، وعد بلفور ص ١١.

١٥ـ سوكولوف، تاريخ الصهيونية، الجزء الاول، ص ١٣٨ .
١٦ـ وردت في جورج جبور، الاستعمار الاستيطاني في جنوب افريقيا والشرق الاوسط، ص ٢٢ .
١٧ـ موسوعة الصهيونية واسرائيل، الجزء الثاني، «هكلر» .
١٨ـ دافيد م. ستاملر، «المصالح اليهودية في فلسطين»، ورد في كتاب وليام بولك، خلفية المأساة، ص ١٣٧ .
١٩ـ ن. أ. روز، الصهاينة الاغيار، ص ٧٤ .
٢٠ـ المصدر السابق، ص ٧٣ .
٢١ـ ديفيد بن جوريون «صديقنا: ماالذي فعله ونجيت لنا» جويش اوبزرفر اندميدل ايسيت ريفيو ٢٧ سبتمبر١٩٦٣ ،اعيد نشره في وليد الخالدي، من المأوى الى الغزو ص ٣٨٢ .
٢٢ـ المصدر السابق، ص ٣٨٧ .
٢٣ـ لطفي العابد، وموسى عنز (ترجمة) واشراف الدكتور انيس صايغ، وتعريف الدكتور اسعد رزوق، الفكرة الصهيونية: النصوص الاساسية، وهو ترجمة كتاب ارثر هرتزبرج، الفكرة الصهيونية: تحليل تاريخي ومختارات. احب ان اشير هنا الى انني اضطررت في بعض الاحيان الى تغيير الترجمة حتى تتفق مع الاصل والى تعديلها بشكل طفيف احيانا اخرى حتى تتفق لغويا مع سياق الدراسة. من الآن سنكتفي بالاشارة الى هذا الكتاب بالشكل التالي: الفكرة الصهيونية، ص ٤٥١ .
٢٤ـ تحسين بشير، ادوين مونتاجو ووعد بلفور، ص ١٣ .
٢٥ـ ورد في ريتشارد ستيفنز، «سمتس ووايزمان. دراسة في التعاون بين جنوب افريقيا والصهيونية» في ابولغد وابو لبن، النظم الاستيطانية في افريقيا والعالم العربي، ص ١٨٣ .
٢٦ـ حاييم وايزمان، المحاولة والخطأ،ص ١٧٩ .
٢٧ـ المصدر السابق، ص ٢٠٥ .
٢٨ـ ورد في كروسمان، امة تولد من جديد، ص ١٣١ .
٢٩ـ دزموند ستيوارت، تيودور هرتزل، ص ١٩٢ .
٣٠ـ حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، ص ١٥١ .
٣١ـ اوسكار رابينوفيتش،«هرتزل وانجلترا» كتاب هرتزل السنوي، الجزء الثالث، ص ٤٢ .
٣٢ـ اليوميات، الجزء الثاني، ص ١١٧٩ .
٣٣ـ المصدر السابق، ص ١١٩٤ .
٣٤ـ المصدر السابق.
٣٥ـ المصدر السابق، الجزء الاول، ص ٩١.

٣٦ـ احمد القدسي ولويل، العالم العربي واسرائيل، ص ١١٦ .
٣٧ـ المصدر السابق .
٣٨ـ اليوميات الجزء الاول، ص ٣٣٣ .
٣٩ـ الفكرة الصهيونية، ص ١٢٠ .
٤٠ـ الفكرة الصهيونية، ص ١٢٠ .
٤١ـ المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ١٦٠٠ .
٤٢ـ ناحوم جولدمان، سيرة ناحوم جولدمان الذاتية، ص ١٦٠ـ ١٦٣ . ووايزمان المحاولة والخطأ ص ٣٦٨ـ ٣٧٢ .
٤٣ـ اليوميات الجزء الاول، ص ٣٦٣ .
٤٤ـ موشيه بيرلمان، «فصول من الدبلوماسية العربية ـ اليهودية : ١٩١٨ ١٩٢٢، جويش سوشيال ستديز، المجلد ٦ (ابريل ١٩٤٤)، ص ١٢٨ .
٤٥ـ اليكس بابن، «هرتزل والقيصر في فلسطين» من تيودور هرتزل سيرة حياة وردت في جوردون لفين (محرر)، الحركة الصهيونية في فلسطين والسياسة العالمية، ص ٧٦ـ ٧٧ .
٤٦ـ بديعة امين، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية، ص ١٥٢ .
٤٧ـ كارل اشلوينز، الطريق الملتوي الى اشويتز، ص ١٨٢ـ ١٨٤ .
٤٨ـ رابينوفيتش، هرتزل وانجلترا، في كتاب هرتزل السنوي، المجلد الثالث، ص ٣٨ .
٤٩ـ المصدر السابق، ص ٤٢ـ ٤٣ .

«الفصل الثالث»

١ـ الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية، المجلد السابع، «الامبريالية» .
٢ـ قدري حفني، «أي حرب تعني» وأي سلام تستهدف؟ الثقافة الوطنية، (يناير ١٩٨١ ص ٤٠ـ ٥١) .
٣ـ كارل كاوتسكي، هل يشكل اليهود جنسا؟ ص ٢١٢ .
٤ـ اليوميات الجزء الثالث، ص ٨٩٩ .
٥ـ ليون، المسألة اليهودية، ص ١٨٢ .
٦ـ العظم، الصهيونية والصراع الطبقي، ص ٨٤ .
٧ـ بديعة امين، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ص ١٥٢ .
٨ـ المصدر السابق، ص ١٤٠ .
٩ـ المصدر السابق، ص ١٤٢ .
١٠ـ اليوميات، الجزء الرابع، ص ١٣٠٩ .

١١ـ المصدر السابق، ص ١٣٦٦ .
١٢ـ ماكس نوردو، ماكس نوردو يتحدث الى شعبه، ص ٢٠٩ .
١٣ـ كروسمان، امة تولد من جديد، ص ٣٦ .
١٤ـ وايزمان، المحاولة والخطأ، ص ١٩٢ .
١٥ـ كروسمان، امة تولد من جديد، ص ١٢٥ .
١٦ـ تيودور بن هرمان، «الصهيونية والأسد» في هال درابر (محرر). الصهيونية واسرائيل والعرب، ص ٢٧ .
١٧ـ مايكل سلزر، اعادة النظر في الصهيونية، ص ٢٤٧ .
١٨ـ سوكولوف، تاريخ الصهيونية، الجزء الثاني، ص ٢٢١ .
١٩ـ المصدر السابق، ص ٢٢٢ ، التأكيد في الأصل.
٢٠ـ الفكرة الصهيونية ص ٣٦ .
٢١ـ اليوميات، الجزء الرابع، ص ١٦٠٠ .
٢٢ـ المصدر السابق، ص ١٣٦٧ .
٢٣ـ كلمة القيت في لندن في ١٦ يوليه ١٩٢٠ ، وردت في ماكس نوردو يتحدث الى شعبه، ص ٢٠٨ .
٢٤ـ مايربن هورين، ماكس نوردو فيلسوف التضامن الانساني، ص ٢٠١ .
٢٥ـ ورد في بن هرمان، في داربر، الصهيونية واسرائيل والعرب، ص ٢٧ .
٢٦ـ ورد في كروسمان، امة تولد من جديد، ص ١٣١ـ ١٣٢ .
٢٧ـ اريه بوبر (محرر)، اسرائيل الأخرى، ص ١٩٣ .
٢٨ـ «مجتمع يتغذى على الهبات الخارجية»، «الأرض»، السنة الثالثة عشرة، العدد السابع عشر، ٢١/مايو/١٩٨٦، ص ٤ .
٢٩ـ «اسرائيل كثروه استراتيجية للولايات المتحدة» معراخوت ، عدد ٢٩١ ، ينـاير ١٩٨٤ ، الملف، المجلد الأول، العدد٢ ، مايو ١٩٨٤ ، ص ٩٩ـ ١٠٥ .
٣٠ـ ورد في هيثم الأيوبي، دروس الحرب الرابعة ، في مقال علي غانم «خواطر وآراء في الصراع العربي الاسرائيلي»، آفاق عربية ، السنة الحادية عشرة، ديسمبر ١٩٨١ ، ص ١١ .

«الفصل الرابع»

١ـ الفكرة الصهيونية، ص ٣٨ .
٢ـ المصدر السابق، ٧١ ، التأكد ليس في الأصل.
٣ـ المصدر السابق، ص ٢٠٤ .

٤ـ سلزر، اعادة النظر في الصهيونية ص ٦ .
٥ـ ستيوارت، نيودورهرتزل ص، ١٧٨ .
٦ـ ملاحظات حول الصهيونية لماكس نوردو، اختيار حاييم بلوخ .كتاب هرتزل السنوي، المجلد السابع ص ٣٤ .
٧ـ كروسمان، امة تولد من جديد، ص ٢٣ .
٨ـ ايلون، الاسرائيليون، ص ٣٢٩ .
٩ـ ميلفوردا اسبيرو، الكيبوتس، ص ٤٩ .
١٠ـ سلزر، اعادة النظر في الصهيونية، ص ٥٥ .
١١ـ د. ح تندولكار، المهاتما: حياة موهانداس كرمشاند غاندي، الجزء الربع، ص ٣١٤ .
١٢ـ بلوخ، «ملاحظات حول الصهيونية لماكس نوردو»، كتاب هرتزل السنوي، المجلد السابع، ص ٣٢ .
١٣ـ سلزر، اعادة النظر في الصهيونية، ص ١٣ .
١٤ـ بن هورين، ماكس نوردو، ١٩٩ .
١٥ـ اليوميات، الجزء الاول ص ١٣٣ .
١٦ـ المصدر السابق .
١٧ـ الفكرة الصهيونية، ص ٩٥ .
١٨ـ المصدر السابق، ص ٩٢ .
١٩ـ المصدر السابق، ص ٩٥ .
٢٠ـ اليوميات، الجزء الرابع، ص ١٦٠٤ .
٢١ـ المصدر السابق، ص ٥٩٤ .
٢٢ـ موسوعة الصهيونية واسرائيل، المجلد الاول، «مشروع شرق افريقيا» (المعروف خطأ باسم مشروع اوغندا) .
٢٣ـ الموسوعة اليهودية، المجلد الخامس عشر، مشروع أوغندا .
٢٤ـ سميث، الصهيونية ـ الحلم والواقع، ص ٢٣١ .
٢٥ـ فيليب سيجال، «تأملات في القومية اليهودية»، ايشوز، المجلد ١٥ (خريف ١٩٦١) .
٢٦ـ ستيوارت، تيودور هرتزل، ص ٣٢٥ .
٢٧ـ سيجال، «تأملات في القومية اليهودية»، ص ٢١ .
٢٨ـ اليوميات، الجزء الرابع، ص ١٥٩٩ .
٢٩ـ موشيه بيرلمان، بن جوريون ينظر الى الماضي، ص ٢٣٠ .
٣٠ـ الفكرة الصهيونية، ص٥١ .

٣١ـ المصدر السابق، ص ١٣٧ .
٣٢ـ ملاحظة تمهيدية لكلمة حاخام برجر، النبوة والصهيونية ودولة اسرائيل، ص ٣. (القيت كلمة الحاخام في ٢٠ مارس ١٩٦٨) .
٣٣ـ ورد في ١ . رابينوفيتش، «الصهيونية السياسية ودولة اسرائيل، قضايا أخلاقية»، ذي جويش جارديان، فبراير ١٩٧٥، ص ٩ .
٣٤ـ المصدر السابق، ص ٢٠٧ .
٣٥ـ سلزر، اعادة النظر في الصهيونية، ص ١٣ .
٣٦ـ بن هورين، ماكس نوردو، ص ١٩٩ .
٣٧ـ اليوميات، الجزء الثالث، ص ٨٩٩.
٣٨ـ المصدر السابق، الجزء الاول، ص ٥٦ .
٣٩ـ الفكرة الصهيونية، ص ١٢٠ .
٤٠ـ يوسف ادلر، «الدين وهرتزل: حقيقة أم خيال»، كتاب هرتزل السنوي، ١٩٦١-١٩٦٢، ص ٢٧١ .
٤١ـ واعتقد أن العلاقة بين العلمانية والحلولية لم تدرس بمافيه الكفاية، ويمكننا أن نبدأ بدراسة علاقة الطرق الصوفية بالتجارة (سواء في الشرق أم الغرب)، وأن ندرس الانفجارة الحلولية التي سادت في أوروبا بعد عصر النهضة أثناء عصر الاصلاح الديني، وهي الفترة التي بدأت فيها علمنة العقل الاوروبي بسرعة، (ولكن هذا لايعني أننا نعادل بين الحلولية والعلمانية، فالتمرد الرومانسي على العلمانية أخذ أيضا شكلا حلوليا، بحيث كان الفكر الرومانسي يخلع القداسة حتى على أصغر الأشياء واقلها شأنا بعد أن قامت الثورة الصناعية، وقام العلم بتجريد العالم من الجمال والسحر والخيال والقداسة وتحويل كل شيء الى مادة استعمالية) .
٤٢ـ اميل مارمورشتاين، سماء مكبلة، ص ٧١ .
٤٣ـ موشيه مينوهين، انهيار اليهودية في عصرنا، ص ١٠٧ .
٤٤ـ المرجع نفسه، ص ٣٨.
٤٥ـ المصدر السابق، ص ٣٣٧.
٤٦ـ المصدر السابق، ص ٢٩٧ .
٤٧ـ المصدر السابق، ص ٣٠٠.
٤٨ـ المصدر السابق، ص ٣٠٤.
٤٩ـ المصدر السابق، ص ٣٣١.
٥٠ـ المصدر السابق، ص ٣٣٣.
٥١ـ الفاروقي، اصول الصهيونية في الدين اليهودي ص ٤ .

٥٢ـ مارفن هالفرسون، مرشد الى اللاهوت المسيحي، ص ١٧٣ـ ١٧٦.

٥٣ـ الفكرة الصهيونية، ص ٣٠٤.

٥٤ـ المصدر السابق، ص ٣٧٨.

٥٥ـ المصدر السابق، ص ١٧٣.

٥٦ـ المصدر السابق، ص ٢٦٥.

٥٧ـ ورد في مقال السيرجون ريتشموند، «تنقية الجوانب»، «ميدل ايست انترناشيونال، (سبتمبر) ص ٩.

٥٨ـ هوارس مايركالن، الطوباويون يدافعون عن انفسهم بضراوة! ص ٢٧٨.

٥٩ـ الفكرة الصهيونية، ص ٢١٩.

٦٠ـ بحث بعنوان «أمل يهودي وأمل علماني» القي في كلية سانت زافيير في يونيه ١٩٦٧، وورد في هـ. حداد، «الاسس الانجيلية للاستعمار الصهيوني»، في ابولغد وابولبن، النظم الاستيطانية في افريقيا والعالم العربي، ص ٧.

٦١ـ الفكرة الصهيونية، ص ٣٠٩.

٦٢ـ المصدر السابق، ص ٢٩٤.

٦٣ـ المصدر السابق، ص ٣٤٠ـ ٣٤١.

٦٤ـ المصدر السابق، ص ١٠.

٦٥ـ المصدر السابق، ص ٢٦٥.

٦٦ـ ادلى ديان بتصريحه في اغسطس ١٩٦٧، ونشر في النهار (٢٨ مايو ١٩٦٨)، وورد في اسعد رزوق، اسرائيل الكبرى، ص ٦٠٤.

٦٧ـ المصدر السابق، ص ٣٣١.

٦٨ـ المصدر السابق، ص ٣٣٦.

٦٩ـ المصدر السابق، ص ٢١٧.

٧٠ـ الوان، الاسرائيليون، ص ٣٢٩.

٧١ـ الفكرة الصهيونية، ص ٣٣٣.

٧٢ـ المصدر السابق، ص ٢٩٧.

٧٣ـ المصدر السابق، ص ٣١٠.

٧٤ـ المصدر السابق، ص ٢٢٨.

٧٥ـ بن جوريون، ولادة وبعث اسرائيل، ص ١٩٥.

٧٦ـ المصدر السابق، ص ٤٣٣.

٧٧ـ الفكرة الصهيونية، ص ٣٢.

٧٨ـ المصدر السابق، ص ٤٥٧ .
٧٩ـ المصدر السابق، ص ١٦ .
٨٠ـ بن جوريون، ولادة وبعث اسرائيل، ص ٣١٠ .
٨١ـ بلوخ، «مذكرات عن الصهيونية بقلم ماكس نوردو»، كتاب هرتزل السنوي، المجلد الثاني، ص ٣٤.
٨٢ـ المصدر السابق، ص ١٨٢ .
٨٣ـ المصدر السابق، ص ١٨٦ .
٨٤ـ لطفي العابد، العنف والسلام في اسرائيل، ص ١١ .
٨٥ـ بربارة حداد، «فلاديمير جابوتنسكي»، شئون فلسطينية (نوفمبر١٩٧١)، ص ٧٩ـ ٩١ .
٨٦ـ الفكرة الصهيونية، ص ١٨٥ .
٨٧ـ المصدر السابق، ص ٣٩٢ .
٨٨ـ اليوميات، الجزء الثاني، ص ٥٨١ .
٨٩ـ المصدر السابق، ص ٧٠٠ـ ٧٠١ .
٩٠ـ الفكرة الصهيونية، ص ٤٧٧ .
٩١ـ المصدر السابق، ص ٤٧٦ .
٩٢ـ المصدر السابق، ٤٧٩ .
٩٣ـ بيرلمان، بن جوريون ينظر الى الماضي، ص ٢٣٦ .
٩٤ـ رزوق، اسرائيل الكبرى، ص ١٣٣ـ ١٣٤ .
٩٥ـ المصدر السابق، ص ٤٧٢ .
٩٦ـ مناحم بيجين، الثورة : قصة الارجون، ص ٤٦ . والمقدمة .
٩٧ـ تهاني هلسة، بن جوريون، ص ٢٣ .
٩٨ـ بن جوريون، ميلاد وبعث اسرائيل، ص ٤٢٣ .
٩٩ـ سوكولوف تاريخ الصهيونية، الجزء الاول، ص ٢٠٦ـ ٢٠٧ .
١٠٠ـ مارفن لونتال (محرر)، يوميات هرتزل، ص ١٦، (نظرا للظروف البحثية الموجودة في الوقت الحالي في القاهرة والتي يواجهها المهتمون بالدراسات الفلسطينية والصهيونية لم اتمكن من الحصول على نسخة من يوميات هرتزل (تحرير باتاي) التي استخدمناها في بقية هذه الدراسة اثناء كتابة هذا الجزء ولذا استميح القارىء عذرا اذ احيله الى مصدرين مختلفين لليوميات نفسها.
١٠١ـ المصدر السابق، ص ١٩٩ .
١٠٢ـ المصدر السابق، ص ٣٧٧ .

١٠٣ـ المصدر السابق، ص ٢٨٢ .
١٠٤ـ المصدر السابق، ص ١١٩ .
١٠٥ـ المصدر السابق، ص ١١٩ .
١٠٦ـ المصدر السابق، ص ١٣٩ .
١٠٧ـ المصدر السابق، ص ١٠١ .
١٠٨ـ المصدر السابق، ص ١٣٩ .
١٠٩ـ المصدر السابق ٣٣٤.
١١٠ـ المصدر السابق، ص ١٤٣ .
١١١ـ المصدر السابق «المقدمة».
١١٢ـ الفكرة الصهيونية ص ٣٧ .
١١٣ـ المصدر السابق ص ٧٣ .
١١٤ـ المصدر السابق ص ٩٥ .

الفصل الخامس

١ـ بيرلمان، بن جوريون ينظر الى الماضي، ص ٢٤٤ .
٢ـ المصدر السابق، ص ٤٤٥ .
٣ـ الفكرة الصهيونية، ص ٣٥٥ .
٤ـ كانديان جويش نيوز، ورد في سبشيال انترست ريبرت، المجلد ٨ (ابريل ١٩٧٧) .
٥ـ بن عيزر، قلق في صهيون، ص ٥٩ .
٦ـ الفكرة الصهيونية، ص ٢١١ .
٧ـ مايكل سلزر، السياسة وامكانية الكمال الانساني: منظر يهودي «ورد في سميث، الصهيونيةـ الحلم والواقع، ص ٢٩٨ هامش ٣٠».
٨ـ ورد في بنيامين ماتوفو، «الرغبة الصهيونية والفعل النازي»، مجلة ايشوز، المجلد العشرون (شتاء ١٩٦٦ـ ١٩٦٧)، ص ١٠ .
٩ـ كروسمان، أمة تولد من جديد ص١٩ .
١٠ـ بن جوريون، بعث اسرائيل ومصيرها، ص ٤٢٠ـ ٤٢١ .
١١ـ جويش ديلي فورواد (٦ يناير ١٩٥٩)، ورد في الفريد م. ليلينتال، الوجه الآخر للعملة، ص ٨١.

١٢ـ بيرلمان، بن جوريون ينظر الى الماضي، ص ٢٤٦ .

١٣ـ برقية لمارتس في ٢٢ يوليوه ١٩٧٣ . وردت في نشرة فيوبوينت (يوليو ١٩٧٣).

١٤ـ باتريك مارنهام، «هل اسرائيل عنصرية»، سبكتاتور (٦ مارس ١٩٧٦).

١٥ـ اسرائيل وفلسطين (مارس ١٩٧٥).

١٦ـ يديعوت احرونوت (ديسمبر ١٩٧٤) وردت في اسرائيل وفلسطين ٦ مارس ١٩٧٥ .

١٧ـ انظر بعد الحرب: فصول في التأمل والقواعد والبحث، كتيب نشرته قيادة حاخامية الجيش الاسرائيلي،وقد نشر نبأ صدور الكتيب وبعض محتوياته في الصحف الاسرائيلية. انظر على سبيل المثال هاعولام هازيه (١٥ مايو١٩٧٤)،(وردت هذه المعلومات في فري بالستاين. سبتمبر ١٩٧٤)،وانظر ايضا عال همشمار (٢٨ مارس ١٩٧٥) (وردت هذه المعلومات في سواسيا، ٦ يونيه ١٩٧٤)، وردت الفقرة كاملة التي اقتبسنا منها في نشرة فيوبوينت (يوليه ١٩٧٤).

١٨ـ الفكرة الصهيونية، ص ٣٣٠.

١٩ـ المصدر السابق، ص ٢٠٥ .

٢٠ـ المصدر السابق، ٢٥ .

٢١ـ روبين، اليهود اليوم، ص ٢١١ .

٢٢ـ الفكرة الصهيونية ص ٢١١ .

٢٣ـ المصدر السابق، ص ٢٣٠ .

٢٤ـ وايزمان، المحاولة والخطأ، ص ٣٤٦.

٢٥ـ نشرة بريف (يناير- فبراير ١٩٦٥).

٢٦ـ المصدر السابق، (سبتمبر ١٩٥٩).

٢٧ـ سيتورات، تيودو هرتزل، ص ٢٤٧ .

٢٨ـ اليوميات، الجزء الاول، ص ١٩٦ .

٢٩ـ المصدر السابق، ص ١١١ .

٣٠ـ المصدر السابق، ص ٧.

٣١ـ الفكرة الصهيونية، ص ١١٢ .

٣٢ـ المصدر السابق.

٣٣ـ المصدر السابق، ص ٣٣ .

٣٤ـ المصدر السابق، ص ٣٤٦ .

٣٥ـ المصدر السابق، ص ٨٣.

٣٦ـ المصدر السابق، ص ٨٤.

٣٧ـ كروسمان، امة تولد من جديد ٢١ـ ٢٢ .

٣٨ـ الفكرة الصهيونية، ص ٣٧٢ .

٣٩ـ المصدر السابق، ص ١٦٢ .

٤٠ـ ستيوارت، تيودور هرتزل، ص ١٧٨ .

٤١ـ جاكوب برنارد اجوس، معنى التاريخ اليهودي، الجزء الثاني، ص ٤٢٥ .

٤٢ـ اليوميات، الجزء الاول ص ١٧١ .

٤٣ـ المصدر السابق، ص ١٨١ .

٤٤ـ المصدر السابق، ص ١٨٢ .

٤٥ـ حزقيال كوفمان، «دمار الروح»، في سلزر اعادة النظر في الصهيونية، ص ١٢١ .

٤٦ـ الفكرة الصهيونية، ص ٢٠٠ .

٤٧ـ المصدر السابق، ص ١٩٦ .

٤٨ـ المصدر السابق، ص ١٩٥ .

٤٩ـ المصدر السابق، ص ٢٥٩ .

٥٠ـ المصدر السابق، ص ٢٦٢ .

٥١ـ المصدر السابق، ص ٢٦١ .

٥٢ـ المصدر السابق، ص ١٩٧ .

٥٣ـ المصدر السابق، ص ٢٠٨ .

٥٤ـ كوفمان، «دمار الروح»، في سلزر، اعادة النظر في الصهيونية ص ١٢١، هامش ٧ .

٥٥ـ اليوميات، الجزء الاول، ص ٨٤ .

٥٦ـ المصدر السابق، ص ٣٤ .

٥٧ـ اجوس، معنى التاريخ اليهودي، الجزء الثاني، ص ٤٢٥ .

٥٨ـ مايكل سلزر، «يهود الصهيونية» مجلة اشوز (يونيه ١٩٦٨)، ص ١٢ـ ٢٢ .

٥٩ـ شتاين، وعد بلفور، ص ١٠ .

٦٠ـ ستيوارت، تيودو هرتزل، ص ٣٠٤ .

٦١ـ وايزمان، المحاولة والخطأ، ص ١٥١ .

٦٢ـ اشتاين، وعد بلفور، ص ١٤٣ .

٦٣ـ المصدر السابق، ص ١٤٩ .

٦٤ـ المصدر السابق، ص ٧٩ .

٦٥ـ سوكولوف، تاريخ الصهيونية، الجزء الاول، ص ١ .

٦٦ـ شتاين، وعد بلفور، ص ١٥٤ .

٦٧ـ سوكولوف، تاريخ الصهيونية، الجزء الاول «المقدمة»، ص ١٧٠.
٦٨ـ الفكرة الصهيونية، ص ٢٨٠.
٦٩ـ بن عيزر، قلق في صهيون، ص ٧٢.
٧٠ـ الموسوعة الصهيونية المجلد السابع، «موسى هس».
٧١ـ ستيوارت، تيودور هرتزل، ص ١٧٨.
٧٢ـ اليوميات، الجزء الأول، ص ١١.
٧٣ـ الفكرة الصهيونية، ص ٢٠٥.
٧٤ـ روبين، اليهود اليوم، ص ٢٣١، هامش ١.
٧٥ـ المصدر السابق، ص ٢٢٧ـ ٢٢٨.
٧٦ـ المصدر نفسه.
٧٧ـ المصدر نفسه.
٧٨ـ سميث، الصهيونية الحلم والواقع، ص ٥٠.
٧٩ـ بشير، ادوين مونتاجو ووعد بلفور، ص ٢٠.
٨٠ـ لويس برانديز، مجموعة كلمات وبيانات لويس برانديز، ص ١٤ـ ١٥.
٨١ـ شتاين، وعد بلفور، ص ٥٤٧.
٨٢ـ الموسوعة البريطانية الجديدة (الماكرو بيديا)، المجلد الخامس عشر، «العنصرية».
٨٣ـ سيمحاكنج، ناحوم سوكولوف: خادم شعبه، ص ١٧٦ـ ١٧٧.
٨٤ـ المصدر السابق، ص ١٧٧.
٨٥ـ ستيوارت، تيودور هرتزل، ص ٢١٠.
٨٦ـ هومرجاك، «هل الصهيونية حركة عنصرية؟» المناظرة التي جرت في هيئة الامم عام ١٩٧٥، منشورات بحوث مجلس الكنائس العالمي.
٨٧ـ اليوميات الجزء الاول، ص ٢٣١.
٨٨ـ روبين اليهود اليوم . ص٢١٧.
٨٩ـ ورد في ل. همفري والتز، «صهيونية عنصرية، ماذا تعني؟ نشرة ذي لنك، (شتاء ١٩٧٥ـ ١٩٧٦).
٩٠ـ ريتشاردكورن، «مشروع اشكول الرسمي حول اسرائيل والشتات»، مجلة ايشوز، (شتاء). (١٩٦٥ ـ ١٩٦٦)
(٩١) كالن، الطوباويون يدافعون عن انفسهم بضراوة، ص ١٢١ ـ ١٢٢
(٩٢) يوهانان بيريس، «العلاقات الاثنية في اسرائيل، امريكان جورنال اوف سوسيولوجي، مجلد٧٦، (مايو ١٩٧١)، ص١٠٤١

(٩٣)اليوميات ، الجزء الرابع ، ص١٤٤٩

(٩٤) كالر، الطوباويون يدافعون عن انفسهم بضراوة، ص ١٢١ ـ ١٢٢

(٩٥) اليوميات، الجزء الثاني، ص٧٠٢

(٩٦) المسيري، اليهودية والصهيونية واسرائيل، الفصل الحادي عشر، ص١٧٣ ـ ٢٠٠

(٩٧) اسرائيل شاهاك، «الاحصائيات الاسرائيلية»، اسرائيل وفلسطين (سبتمبر اكتوبر ١٩٧٥)

(٩٨) ايلون، الاسرائيليون ، ص ١٧٢

(٩٩) لاكير، تاريخ الصهيونية ، ص ٢١٦

(١٠٠) بن عيزر، قلق في صهيون، ص ١٨٣

(١٠١) المصدر السابق ، ص ٢٤٥

(١٠٢) المصدر السابق، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥

(١٠٣) المصدر السابق ، ص٥٤

(١٠٤) المصدر السابق، ص ١٨٣

(١٠٥) ايلون ، الاسرائيليون ، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤

(١٠٦) بن عيزر ، قلق في صهيون ، ص ٢٠٣

« الفصل السادس »

(١) آجوس ، معنى التاريخ اليهودي، الجزء الثاني ، ص ٤٦٨

(٢) ابراهيم العابد، دليل المسألة الفلسطينية، ص ٤٣

(٣) مقدمة كتاب الحكومة الاسرائيلية السنوي لعام١٩٥٢ ،ورد في العابد، ١٢٧ سؤالا وجوابا عن الصراع العربي الاسرائيلي.

(٤) المصدر السابق .

(٥) موسوعة الصهيونية واسرائيل، المجلد الأول، «اسرائيل والشتات».

(٦) ورد في نشرةبريف،(ربيع ـ صيف ١٩٧٢).

(٧) بن جوريون ، بعث اسرائيل ومصيرها، ص٤٨٩

(٨) ورد في ليلينتال ، الوجه الآخر للعملة، ص٧٥

(٩) « البقاء اليهودي»، فيكتاب الحكومة الاسرائيلية السنوي ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤، ص٥٣، ورد في ليلينتال، المصدر السابق، ص٧٩.

(١٠) ورد في نشرة بريف، (فبراير ١٩٦١).

(١١) نشرة بريف، (يناير ـ وفبراير ١٩٦٠).

(١٢) تيندولكار ، المهاتما ، الجزء الرابع، ص ٣١٢.

(١٣) آجوس ، معنى التاريخ اليهودي، الجزء الثاني، ص٣٩٧

(١٤) الفكرة الصهيونية ، ص ١٠٨

(١٥) باريوتشاي (اسم مستعار) ، « نسب للشتات»، اسرائيل وفلسطين، (ابريل ١٩٧٥)، ص٤

(١٦) ليليتتال، الوجه الآخر للعملة، ص٤٧.

(١٧) جاكوب أ. بينوتشوفسكي، «النزعة الخيرية والسياسية» ورد في سميث، الصهيونية ـ الحلم والواقع، ص١٥٥

(١٨) نشرةبريف، (يناير ـ فبراير ١٩٦٠).

(١٩) بن عيزر، قلق في صهيون، ص٥٦.

(٢٠) الموسوعة اليهودية، المجلد السادس، «مصر».

(٢١) المعلومات الواردة في هذا الجزء ،ماعداالمشار اليها بخلاف ذلك، مأخوذة في معظمها من، موسوعة الصهيونية واسرائيل، الجزء الأول، «الصهيونية والعراق»، «الصهيونية في مصر» والجزء الثاني «الصهيونية في شمال افريقيا».

(٢٢) الموسوعة اليهودية، المجلد السادس، «مصر».

(٢٣) نشرة بريف (يناير ـ فبراير ١٩٦٢).

(٢٤) الموسوعة اليهودية، المجلد السادس، «مصر».

(٢٥) المصدر السابق، المجلد الحادي عشر، «موسى مرزوق».

(٢٦) يوري افنيري ـ اسرائيل من دون صهاينة ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٢٧) الموسوعة اليهودية، المجلد الحادي عشر، «موسى مرزوق».

(٢٨) ايمتاي بن يونا، « ما الذي تفعله اسرائيل مع مواطنيها الفلسطينيين ـ رسالة من اسرائيل الى يهود اليسار الأمريكي، النشرة الاعلامية لمنظمة خريجي الجامعات الامريكية العرب، العدد الثاني (سبتمبر ١٩٧٠).

(٢٩) الموسوعة اليهودية، المجلد الحادي عشر، «موسى مرزوق».

(٣٠) كريستوفر سايكس، ملتقى الطرق الى اسرائيل، ص٢٤٣ ـ ٢٢٤.

(٣١) المصدر السابق.

(٣٢) الجار ديانز ، (يوليو ١٩٧٤).

(٣٣) سايكس، ملتقى الطرق الى اسرائيل، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٣٤) ورد في ليلى سليم القاضي، المنظمة الاشتراكية، ص٥٥ .

(٣٥) الفريد ليلينتال ، ما ثمن اسرائيل؟ ص١٩٦ .

(٣٦) فوبيون باورز، «وحيد وبمفرده في أمريكا»، مجلة النيويورك تايمز (٢٥ سبتمبر ١٩٧٦) .

(٣٧) المصدر السابق.

(٣٨) كورن، خطة اشكول الرسمية اسرائيل والشتات، مجلة ايشوز،(شتاء ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦) .

(٣٩) أ. ف. ستون، « نحو معالجة جديدة للصراع العربي ـ الاسرائيلي» في سميث ـ الصهيونية ـ الحلم الواقع، ص٢١١ .

(٤٠) انظر النيويورك تايمز، (١٢ سبتمبر ١٩٧٦) .

(٤١) واشنجتون بوست، (٢٧ سبتمبر ١٩٧٦) .

(٤٢) ليلينتال، ما ثمن اسرائيل؟ ص٢٠٧ .

(٤٣) ا. ف. ستون ، « نحو معالجة جديدة للصراع العربي الاسرائيلي»، في سميث، الصهيونية ـ الحلم والواقع، ص٢١١ .

(٤٤) موسوعة الصهيونية واسرائيل، الجزء الأول، «الصهيونية في العراق». تفضل السيد السفير وسام الزهاوي، بوزارة الخارجية في العراق، بتزويدي بالمراجع والمقالات التي استفدت منها في هذا الجزء فله منا الشكر.

(٤٥) ورد في خطاب محمود طربوش لجريدة المانشستر جارديان ،(٢١ ديسمبر ١٩٧٦) .

(٤٦) دوجلاس ل. جرين، « من النفي البالي الى رامات جان»، اسرائيل دايجست،(٣٠ اغسطس ١٩٤٤) .

(٤٧) الموسوعة اليهودية، المجلد الثامن، «العراق» .

(٤٨) مراسل خاص، «كيف جاء يهود العراق الى إسرائيل»، ميدل ايست انترناشيونال، (يناير ١٩٧٣) .

(٤٩) موسوعة الصهيونية واسرائيل، المجلد الأول، «الصهيونية في العراق» .

(٥٠) المصدر السابق.

(٥١) المصدر السابق.

(٥٢) ليلينتال، الوجه الآخر للعملة، ص٣٧ .

(٥٣) خطاب محمد طربوش للمانشستر جارديان ،(٢١ ديسمبر ١٩٧٦) .

(٥٤) بارشاس هاباس، محطمو البوابات، ورد في ماريون دولفون، قطع شطرنج في اللعبة

الصهيونية، ميدل ايست انترناشيونال، (نوفمبر ١٩٧٥).
(٥٥) المربرجر، من يعرف أكثر من هذا فليتكلم، ص٣٠.
(٥٦) المصدر السابق، ص٣١.
(٥٧) منديس، «الهجرة العراقية والحكومة الاسرائيلية» هآرتس، ورد في القدسي ولوبل، العالم العربي واسرائيل، ص٢٦.
(٥٨) الموسوعة اليهودية المجلد الثامن، «العراق».
(٥٩) مراسل خاص، «كيف جاء يهود العراق الى اسرائيل»، ميدل ايست انترناشيونال، (يناير ١٩٧٣)، ص١٩.
(٦٠) ولفسون، «قطع شطرنج في اللعبة الصهيونية»، ميدل ايست انترناشيونال، (نوفمبر ١٩٧٤).
(٦١) مراسل خاص، «كيف جاء يهود العراق الى إسرائيل»؟
(٦٢) برجر، من يعرف اكثر من هذا فليتكلم؟ ص ٣٣.
(٦٣) مراسل خاص، «كيف جاء يهود العراق الى إسرائيل ؟
(٦٤) ورد في المصدر السابق.
(٦٥) المصدر السابق.
(٦٦) المصدر السابق.
(٦٧) لاكير، تاريخ الصهيونية، ص٣٦١ - ٣٦٢.
(٦٨) شختمان، مقاتل ونبي، ص٢١٦.
(٦٩) المصدر السابق، ص٢٦٧.
(٧٠) حاييم كابلان، مخطوطات العذاب، ص١١٠.
(٧١) آجوس، معنى التاريخ اليهودي، الجزء الثاني، ص٩٤.
(٧٢) لاكير، تاريخ الصهيونية، ص ٦٤.
(٧٣) الفكرة الصهيونية، ص٦٤.
(٧٤) المصدر السابق، ص٢١.
(٧٥) المصدر السابق، ص ٢٩.
(٧٦) آجوس، معنى التاريخ اليهودي، الجزء الثاني، ص٤٢١.
(٧٧) الموسوعة البريطانية، المجلد العاشر، الاشتراكية الوطنية.

(٧٨) محاكمة مجرمي الحرب الرئيسين امام المحكمة العسكرية الدولية، نورمبرج، الجزء الثاني عشر، ص٣١٥.

(٧٩) اليوميات، الجزء الثاني، ص٥٨١.

(٨٠) فيوبوينت، (مارس ١٩٧٤).

(٨١) محاكمة مجرمي الحرب الرئيسين امام المحكمة العسكرية الدولية، نورمبرج، الجزء الثاني عشر ص ٣٤٦.

(٨٢) آجوس، معنى التاريخ اليهودي، الجزء الثاني، ص٤٨٦.

(٨٣) موتافو، «الرغبة الصهيونية والفعل النازي»، مجلة اشوز، المجلد العشرون، (شتاء ١٨٦٦) - ١٩٦٧)، ص١٠.

(٨٤) القدسي ولويل، العالم العربي واسرائيل، ص١٢٩ - ١٣٠.

(٨٥) الجارديانر، (فبراير ١٩٧٥).

(٨٦) المصدر السابق.

(٨٧) حنا أرنت، ايخمان في اورشليم، ص٥٩.

(٨٨) بوبر، اسرائيل الاخرى، ص ١٧١.

(٨٩) ارنت، ايخمان في اورشليم، ص٤٢.

(٩٠) المصدر السابق، ص ٤١.

(٩١) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٩٢) المصدر السابق، ص ٦٠ - ٦١.

(٩٣) الموسوعة اليهودية، المجلد السابع، «الهعفراه»، وموسوعة الصهيونية واسرائيل، المجلد الأول، «الهعفراه».

(٩٤) موسوعة الصهيونية واسرائيل، المجلد الثاني، «كاستنز»، وانظر ايضا كتاب بن هخت، الخيانة.

الفصل السابع

(١) موسوعة الصهيونية واسرائيل، المجلد الأول، معاداة الصهيونية، التأكيد ليس في الأصل.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) مينوهين، انهيار اليهودية في عصرنا، ص٧٠ ـ ٧٨.

(٦) ا. ف. ستون في سميث، الصهيونية ـ الحلم والواقع، ص٢١١.

(٧) موسوعة الصهيونية واسرائيل، المجلد الأول، نيرنباوم.

(٨) بشير، دوين مونتاجو ووعد بلفور، ص ٧ ـ ١١.

(٩) مينوهين، انهيار اليهودية في عصرنا، ص ٦٣.

(١٠) هانزكوهين في سميث، الصهيونية ـ الحلم والواقع، ص٣٢.

(١١) المصدر السابق، ص ٣٦.

(١٢) مينوهين، انهيار اليهودية في عصرنا، ص١١.

(١٣) مينوهين، نقاد الصهيونية اليهود، ص٢.

(١٤) الفكرة الصهيونية، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥.

(١٥) البرت اينشتاين ، من سنواتي الاخيرة، ص٢٦٣.

(١٦) كلارك ، اينشتاين، ص ٣٨١.

(١٧) الفريد ليلينتال، وهكذا يذهب الشرق الاوسط، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(١٨) كلارك، اينشتاين، ص ٢٠٤.

(١٩) ليلينتال، وهكذا يذهب الشرق الأوسط، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢٠) سيشيال انترست ريبورت، المجلد السابع (اكتوبر ١٩٧٦).

(٢١) دافار ، ٢٠ ديسمبر ١٩٨٢.

(٢٢) دون بيرتس، الحكومة والسياسة في اسرائيل، ص ٢٢٥.

(٢٣) « درس في الصهيونية ودرس في الديمقراطية» بقلم شموئيل شنيتس، معاريف، ٢٣ يناير ١٩٨١، في نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، فبراير ١٩٨١، ص٢١٠.

(٢٤) الفكرة الصهيونية، ص ١٦٤.

(٢٥) سلزر، اضفاء الصبغات الآرية على الدولة اليهودية، ص١١١.

(٢٦) هوم نيوز ، (١٩ ديسمبر ١٩٧٦).

(٢٧) جويش فلوريديان، (٥ مارس ١٩٧٦)، وشيكاغو تريبيون، (٢٨ فبراير ١٩٧٦)، ورد في سيشيال انترست ريبورت، المجلد الثالث ابريل ١٩٧٢.

(٢٨) تايم، (١ نوفمبر ١٩٧٦).

(٢٩) فيليب روث، شكوى بورتنوي، ص٢٥٦.

(٣٠) المصدر السابق، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٣١) المصدر السابق، ص ٢٦٥ .

(٣٢) آجوس ، معنى التاريخ اليهودي، الجزء الثاني، ص٤٧٧ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٤٨٣ .

(٣٤) سلزر، اضفاء الصبغة الآرية على الدولة اليهودية، ص١١٢ .

(٣٥) واسر شتاين ، في نظرة شاملة في الشؤون اليهودية، ص١٥٨ .

(٣٦) الجويش بوست، ١٣ سبتمبر ١٩٧٤ .

(٣٧) الواشنطن بوست، ١٠ مارس ١٩٨٧ .

(٣٨) الفكرة الصهيونية ، ص١٦٤ .

(٣٩) بريف ، (ربيع ١٩٧٦) .

(٤٠) ورد في « تنويعات شخصية على موضوعات شرق/ اوسطية»، ميدل ايست انترناشيونال، (اكتوبر ١٩٧٥) ص٢٤ .

(٤١) رسالة من مايك اشلي الى فيوبوينت، (مارس ١٩٧٤) .

(٤٢) بيرلمان، بن جوريون ينظر الى الماضي، ص٢٣٨ - ٢٤٠ .

(٤٣) كورن،« مشروع اشكول الرسمي حول اسرائيل والشتات»، مجلة ايشوز، المجلد التاسع عشر، (شتاء ١٩٦٥ - ١٩٦٦)، ص١٥ .

(٤٤) ورد في يواكيم برنز، مأزق الصهيونية المعاصرة، ص١٤٥ .

(٤٥) بينو تشوفسكي، «النزعة الخيرية والنزعة السياسية» في سميث، الصهيونية - الحلم والواقع - ، ص١٥٠ - ١٥١ .

(٤٦) كروسمان ، أمة تولد من جديد، ص١٩ .

(٤٧) الفكرة الصهيونية ص٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٤٨) الواشنطن بوست ، ١٨ سبتمبر ١٩٧٤ .

(٤٩) النيويورك تايمز ماجازين، ٢٦ سبتمبر ١٩٧٦ .

(٥٠) المصدر نفسه .

(٥١) الجيروساليم بوست، ٣٠ ابريل ١٩٨٧ .

(٥٢) ورد في فيو بوينت، مارس ١٩٧٤ .

(٥٣) « مساعدة عقلية من الدياسبورا» بقلم تسفي يسك، الجيروساليم بوست، ١٩ يونية ١٩٨٣ .

(٥٤) واسرشتاين، نظرة شاملة في الشؤون اليهودية، ص١٥٨ .

(٥٥) ولتر روبي، اليمين الأمريكي الجديد يعتقد ان الحلول القديمة ليست ذات جدوى في الشرق الأوسط، الجيروساليم بوست، ٢٩/يناير/ ١٩٨٨ .

(٥٦) ثيودور ايلينوف ، « خطاب مفتوح كتب دون أي أوهام»، الجيروساليم بوست، ٢ فبراير/١٩٨٨ .

(٥٧) ديفيد شيلر، « يهود الولايات المتحدة ممزقون بسبب ضرب العرب»، النيويورك تايمز، ٢٦ يناير ١٩٨٨ .

(٥٨) تشارلز هوفمان، شندلر: الوقت ليست في صالح «اسرائيل»، الجيروساليم بوست، ٢١ فبراير ١٩٨٨ .

« الفصل الثامن »

(١) دوف بارنير، عل همشمار، ٢ ديسمبر ١٩٨٢، من صبري جريس، «المؤتمر الصهيوني الثلاثون»، شؤون فلسطينية، يناير ١٩٨٣ .

(٢) استير هرليتس، دافار، ١٦ يونية ١٩٨٧، في الملف، يوليو ١٩٨٧ .

(٣) عل همشمار، ٣٠ يونية ١٩٨٥ .

(٤) الشرق الأوسط، ٣ ديسمبر ١٩٨٧ .

(٥) باب The Fifth Column، في عدد ١٥ ديسمبر ١٩٨٧ من الجيروزاليم بوست.

(٦) فينال، أصول الصهيونية، ص ٣٠٧.

(٧) سلزر، ص ١٦٦ .

(٨) الايكونومست (سيركي) ، ٢٠ يولية ١٩٨٥ .

(٩) الجيروساليم بوست ، ٢٤ ديسمبر ١٩٨٥ .

(١٠) حبيب قهوجي، الصهيونية والعنصرية بين الفكر والممارسة، ص ٨٤.

(١١) أمنون روبنشتاين، « ان نصبح شعبا حرا»، في لورنس ماير، اسرائيل الآن، ص١٣٣ .

(١٢) يو إس نيوز آندورلد ربورت، «سيف ذو حدين يسبب خسارتين»، ١ فبراير ١٩٨٨ .

(١٣) سيفر بلوتسكر ، « لا يمكن ان يحل احد محل العمال العرب الذين يتقاضون ١٢دولارا في اليوم»، يديعوت احرونوت، ١٥ يناير ١٩٨٨ .

(١٤) الجيروساليم بوست، ٨ فبراير ١٩٨٨ .

(١٥) انظر كتابنا الذي « سينشر هذا العام تحت عنوان الاستعمار الاستيطاني الصهيوني وتطبيع

الشخصية اليهودية، (مؤسسة الابحاث العربية).
(١٦) سبير ، مرجع سبق ذكره.
(١٧) ياريف، «رجلنا الذي في واشنطن»، الأرض، ص ٨٦.
(١٨) الجيروساليم بوست، ١٩٨٨/٢/٧.
(١٩) «رسالة خديعة» ، الجيروساليم بوست، ١٩٨٧/١٢/١٢.
(٢٠) الايكونومست (سيرفي) ، ٢٠ يولية، ١٩٨٥.
(٢١) سبير، مرجع سبق ذكره.
(٢٢) معاريف ، ٣ مارس ١٩٨٧ ، الأرض، السنة الرابعة عشرة العدد السابع ، ابريل ١٩٨٧ ، ص٧٣.
(٢٣) سبير، مرجع سبق ذكره.
(٢٤) شنيتسر، مرجع سبق ذكره.
(٢٥) المرجع نفسه.
(٢٦) سبير ، مرجع سبق ذكره.
(٢٧) مارك جولدبرج، «مسيرة الحماقة»، الجيروساليم بوست، ٣ فبراير ١٩٨٨.
(٢٨) هآرتس ، ٢٤ اغسطس ١٩٨٧.
(٢٩) هتسوفيه ، ٢ سبتمبر ١٩٨٧.
(٣٠) نقلا عن الأرض ، ديسمبر ١٩٨٧.
(٣١) الجيروساليم بوست، ٢٩ يناير ١٩٨٨.
(٣٢) هآرتس ، ١٩ اغسطس ١٩٨٧.
(٣٣) الجيروساليم بوست، ٣٠ ابريل ١٩٨٧.
(٣٤) المصدر نفسه، ٤ فبراير ١٩٨٨.
(٣٥) المصدر نفسه ، ٤ فبراير ١٩٨٨.
(٣٦) هآرتس، ١٠ يونية ١٩٨٦، في مقال «الهجرة والوضع الديموغرافي» ان اورنده شرارة، نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
(٣٧) الجيروساليم بوست، ٤ فبراير ١٩٨٨.
(٣٨) عل همشمار، ٥ ابريل ١٩٨٧ ، نقلا عن الملف، مايو ١٩٨٧.
(٣٩) هآرتس ، ١٦ ابريل ١٩٨٦ ، في مقال رنده شرارة، مرجع سبق ذكره.
(٤٠) تايم، ١٨ يناير ١٩٨٣.

(٤١) دافار، ٧ اغسطس ١٩٨٧ .

(٤٢) عل همشمار، ٢٥ مارس ١٩٨٧ .

(٤٣) المرجع نفسه .

(٤٤) تايم ، ٨ يونية ١٩٨٧ .

(٤٥) هآرتس ، ١٧ يونية ١٩٨٦ .

(٤٦) الجيروزاليم بوست، ٥ يونية ١٩٨٧ .

(٤٧) عل همشمار ، ٢٥ مارس ١٩٨٧ .

(٤٨) عل همشمار ٣٠ يونية ١٩٨٥ .

(٤٩) الجيروزاليم بوست، ٤ فبراير ١٩٨٨ .

(٥٠) ٨ فبراير ١٩٨٨ .

(٥١) ابراهام رابيتوفتش ، « سحب فوق السامرة»، الجيروزاليم بوست، ٣٠ يناير ١٩٨٨ .

(٥٢) اعتمدنا في هذا الجزء من الدراسة على الاطروحة التي وردت في كتاب نزيه قورة، المشروع الصهيوني في مواجهة أزمته الداخلية .

(٥٣) أشرف راضي، الفجوة: الصراع الطائفي في التجمع الصهيوني، ص١٥٤ .

(٥٤) قدري حفني، « السفارديم لماذا؟» مقدمة لنظرة جديدة في التحالف الصهيوني الامبريالي، تأليف وجيه حسن قاسم .

(٥٥) سامي سموحا ، « الطائفية والجيش في اسرائيل»، مدنياه عشال فيحاسيم بينلوئييم ٣ مايو ١٩٨٤ نقلا عن الملف، ديسمبر ١٩٨٤ .

(٥٦) الجيروزاليم بوست، ٢٦ ابريل ١٩٨٥ .

(٥٧) برنارد أفيشاي، مأساة الصهيونية، ص٢٢٦ ، والايكونومست، ٢١ يولية ١٩٨٤ .

(٥٨) الجيروزاليم بوست، ١٥ ديسمبر ١٩٨٧ .

الفصل التاسع

(١) بن عيزر، قلق في صهيون، ص١٣٣ .

(٢) ايلون ، الاسرائيليون، ص٢٦٨ ـ ٢٧١ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦١ .

(٤) جرنوم شوكن، « نظرة جديدة الى الصهيونية»، في هآرتس ١٠ سبتمبر ١٩٨٠، نقلا عن نشرة

مؤسسة الدراسات الفلسطينية، فبراير ١٩٨١ .

(٥) كريستيان ساينس، مونيتور، نقلا من القبس، ٢٨ يناير ١٩٨٨ .

(٦) دافار، ٢٥ يولية ١٩٨٧ .

(٧) معاريف ، ٧ سبتمبر ١٩٨٧ ، نقلا عن نشرة الأرض.

٨) لابينوفتش ، « سحب فوق السامرة»، الجيروزاليم بوست، ٣٠ يناير ١٩٨٨ ، ص٤٠٤

(٩) نيويورك تايمز، ٣١ يناير ١٩٨٨ .

(١٠) هاعولام هازيه، ١٣ يناير ١٩٨٨ .

(١١) عبد العظيم حماد ومحمد الحناوي، « انتفاضة الحجارة»، الاهرام ٢ فبراير ١٩٨٨ .

(١٢) بن عيزر، قلق في صهيون، ص٣٢٧ .

(١٣) المصدر السابق، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

(١٤) المصدر السابق، ص١٥٥ .

(١٥) بن عيزر، قلق في صهيون، ص٣١٣ ـ ٣١٤ .

(١٦) ورد في العابد، دليل المسألة الفلسطينية، ص٤٦ .

(١٧) بوبر، اسرائيل الاخرى، ص ١٠٩ .

(١٨) تقرير شينوى، ورد في النيويورك تايمز، (٢١ يونيو ١٩٧٥).

(١٩) بوبر، اسرائيل الاخرى، ص١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٢٠) ايلون، الاسرائيليون، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

(٢١) فيوبوينت، (يوليو ١٩٧٤). ص٣٢ .

(٢٢) المصدر السابق.

(٢٣) انترتشينج ، (يناير ١٩٧٦)، ص٥ .

(٢٤) ايلون، الاسرائيليون ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

(٢٥) بن عيزر، قلق في صهيون، ص١٩٩ .

(٢٦) دافار، (٢ مايو ١٩٥٦)

(٢٧) ورد فيفيوبوينت، (يوليو ١٩٧٣) ص٢٣ .

(٢٨) بن عيزر، قلق في صهيون، ص٣٣٢ .

(٢٩) المصدر السابق، ص١٧٩ .

(٣٠) المصدر السابق، ص ٨٠ .

(٣١) ديورانت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح ، الجزء الثالث من المجلد الثالث.

«الملحق الأول»

١ ـ الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية المجلد الثامن، علم اجتماع المعرفة، لويس كوزر، كبار مفكري علم الاجتماع، والدكتور محمد محمود الجوهري وآخرون، ميادين علم الاجتماع.
٢ ـ عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، «علم اجتماع المعرفة».
٣ ـ الطاهر لبيب، سوسيولوجية الثقافة، ص ٣٥.
٤ ـ معجم فونتانا للفكر الحديث، «علم اجتماع المعرفة».
٥ ـ بيتربرجر وتوماس لكمان، التكوين الاجتماعي للواقع، ص ١ ـ ١٩.
٦ ـ الزورث فورمان، علم اجتماع المعرفة في الولايات المتحدة ١٨٨٣ ـ ١٩١٥، ص ١٨ ـ ٢٠.
٧ ـ معجم فونتانا للفكر الحديث «علم اجتماع المعرفة».
٨ ـ عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجيات (الأدلوجة) ص ١٢٧.

الملحق الثاني

١ ـ هاري جونسون، علم الاجتماع: مقدمة منهجية، ص ٦٣٩.
٢ ـ ورنر ستارك، علم اجتماع المعرفة: مقال للمساعدة في فهم اعمق لتاريخ الافكار، ص ٩٩ـ ١٥٢.
٣ ـ عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، «الايديولوجية» التأكيد ليس في الاصل.
٤ ـ العروي، مفهوم الايديولوجيا (الادلوجة) ص ٩ ـ ١٤.
٥ ـ كليفورد جيرتز، تفسير الحضارة، ص ٢١٨.
٦ ـ معجم تاريخ الافكار، المجلد الثاني، «الايديولوجية».



ثبت المراجع

يضم هذا الثبت كل المراجع، سواء العربية او الانجليزية، التي اعتمد عليها الكاتب، وقد رتبت ترتيبا ابحديا حسب الاسم الأخير للمؤلف، فكتاب بديعة أمين، المشكلة اليهودية مدرج تحت «امين»، وكتاب يوري افنيري. اسرائيل دون صهاينة، مدرج تحت «افنيري» وفي حالة الكتب التي صدرت بالانجليزية اكتفينا بترجمة اسم المؤلف والعنوان الاساسي للكتاب، يليها مباشرة وباللغة الانجليزية، اسم المؤلف والعنوان الاساسي والفرعي، ان وجد، وحقائق النشر كاملة وفي حالة المعاجم والمجلات التي لايرد اسم مؤلفها في الثبت فقد رتبت ابجديا حسب الكلمة الاولى من العنوان. فمعجم الافكار يرد في حرف «الميم»، ومجلة تايم في حرف «التاء». وقد قسم الثبت إلى ثلاثة أقسام: ١ـ الكتب، ٢ـ الوثائق والموسوعات، ٣ـ المجلات والصحف والدوريات.

أولا : الكتب

اجوس، جاكوب برنارد. معنى التاريخ اليهودي. «حزءان».

Agus,Jacob Bernard . The Meaning of Jewish History (2 Vols) . London : Abelard -Schuman , 1963 .

ابولعد، ابراهيم، وابولبن، بهاء. النظم الاستيطانية في افريقيا والعالم العربي.

Abu -Lughod Ibrahim , and Abu -Laban Bahaa (Els) Settler Regimes in Africa and the Arab World : The Illusion of Endurance . Wilmette , III : Medina University Press , 1974

أرنت، حنا. أيخمان في أورشليم.

Arendt , Hannah . Eichmann in Jerusalem : A Report on the Banality of Evil . New York : The Viking Press , 1963.

أفنيري، يوري، اسرائيل بدون صهاينة.

Avnery , Uri .Israel Without Zionists : A Plea for Peace in the Middle East . New York : The Macmillan Company , 1970 .

أفيشاي، برنارد، مأساة الصهيونية.

Avishai , Bernard . The Tragedy of Zionism Revolution and Democracy in the Land of Israel, New York Farrar **Siruus** Siruus .

أمين بديعة . المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية بيروت : دار الطليعة
إيلون عاموس . الاسرائيليون .
Elon, Amos. Thr Esraeli's : Founders and Sons . New York : Holt , Rinehart , and Winston , 1971 .
اينشتاين، البرت . من سنواتي الأخيرة .
Einstein, Albert , Out of My Later Years . New York : Philosophical Library , 1950 .
باتاي، رافائيل «محرر» . يوميات هرتزل، «خمسة اجزاء» .
Patrai, Raphael. The Complete Diaries of Theodore Herzl (5 Vols .) . New York : Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960 . Trans . Harry Zohn .
بار زوهار، ميخائيل، بن جوريون النبي المسلح .
Bar- Zohar, Micharl. Ben Gurion .The Armed Prophet .Englewood Cliffs . N .J : Prentice Hall. 1962, Trans. Lenortzen .
بارون، سالو وكان، أركاديوس، وأخرون . تاريخ اليهود الاقتصادي .
Baron, Salo, W. and Kahn. Arcadius et al . Economic History of the Jews Ed . Nachum Gross . 1975 .
برانديز، لويس، مجموعة كلمات وبيانات لويس برانديز .
Brandeis , Louis, A. Collection of Addresses and Statements by Louis Brandeis , With Felix Frankfurter . Washington D C .: Zionist Organization of America, 1942.
برجر، المر، النبوة والصهيونية ودولة اسرائيل .
Berger, Elmer. Prophecy, Zionism and the State of Israel. New York : American Jewish Alternative to Zionism (n. d.)
من يعرف اكثر من هذا فليتكلم .
Who Knows Better Must Say So. New York : The Bookmailer, 1955.
برجر، بيتر ولكمان، توماس . التكوين الاجتماعي للواقع .
Berger, Peter and Luckman, Thomas. The Social Construction of Reality : A Treatise in the Sociology of Knowledge. Garden City, New York : Doubleday, 1971.
برنز، يواكيم . مأزق اليهود المعاصر .
Prinz, Joachim. The Dilemma of the Modern Jew. Boston : Little, Brown. 1962.

بشير، تحسين، ادوين مونتاجو ووعد بلفور.
Basheer. Tahseen (Ed) Edwin Montagu and the Balfour Declaration. New York : Arab League Office. (n.d.).

بن جوريون، دافيد. بعث اسرائيل ومصيرها.
Ben Gurion, David. Rebirth and Destiny of Israel. New York : Philosophical Library. 1954.

بن عيزر، إيجود (محرر). قلق في صهيون.
Ben Ezer Ebua (Ed). Unease in Zion. New York : Quadrangle. The New York Times Book Co.. 1974.

Ben Hecht. Perfidy. New York : Julian Messner. 1961.

بن هورين، ماير. ماكس نوردو، فيلسوف التضامن الانساني.
Ben-Horin Meir. Max Nordau : Philosopher of Human Solidarity. New York : Conference of Jewish Social Studies. 1956

بوبر، اريه (محرر). إسرائيل الأخرى.
Bober. Arie (Ed). The Other Israel : The Radical Case Against Zionism. Garden City, New York : Doubleday, 1972.

بيجين، مناحم، الثورة.
Begin. Manachem . The Revolt. With a Foreward byRabbimeir Kohane. Los-Angeles: Nash Publishikg, 1972.

بيرلمان، موشيه. بن جوريون ينظر الى الماضي.
Pearlman Moshe. Ben Gurion Looks Back in Talks with Moshe Pearlman, New York : Simon and Schuster, 1965.

ترومان، هاري. المذكرات، (جزءان).
Truman. Harry s. Memours (2 Vols). Garden City. New York : Doubleday, 1955.

تشومسكي، نعوم، السلام في الشرق الاوسط.
Chomsky, Naom. Peace in the Middle East ? Reflection on Justice and Nationhood. New York: Page Books, 1969.

تندولكار، د. ج. : المهاتما: حياة موهانداس كرمشاند غاندي (ثمانية اجزاء).
Tendulkar, D. G. Mahatma : Life of Mohandas Karamchand Gandi (8 vols). New Delhi: Patalia House. 1961.

توما، اميل، جذور القضية الفلسطينية. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، ١٩٦١

جبارة، عابدين تيري، جانيس. العالم العربي من القومية الى الثورة.

Jabara, Abdeen and Terry Janice (Eds .) The Arab World : From Nationalism to Revolution, Wilmette, 111 : Medina University Press, 1971.

جبور، جورج، الاستعمار الاستيطاني في حنوب افريقيا والشرق الاوسط.

Jabbour, George. Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East. Beirut: P. L.O, Research Center, 1970.

جرايزيل سولومون، تاريخ اليهود من النفي البابلي الى الوقت الحاضر.

Grayzel, Solomon. A History of the Jews from the Babylonian Exile to the Present 5728 - 1968. New York : The New American Libray, 1968.

جريس، صبري. تاريخ الصهيونية، الجزء الاول- بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث. ١٩٧٧

جولدمان، ناحوم. سيرة ناحوم جولدمان الذاتية.

Goldmann. Nahum. The Autobiography of Nahum Goldmann : Sixty Years of Jewish Life. New York : Holt Rinehart and Winston 1969. Trans. Helen Sabba.

جونسون، هاري. علم الاجتماع.

Johnson. Harry M. Sociology: A Systematic Introduction. New York : Harcourt. Brace, 1960.

الجوهري، محمد محمود. ميادين علم الاجتماع. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠

جيرتز، كليفورد تفسير الحضارة: مقالات مختارة.

Geertz, Clifford. Interpretations of Culture : Selected Essays. New York : Basic Books, 1973.

حمدان، جمال، استراتيجية الاستعمار والتحرير، القاهرة، كتاب الهلال- دار الهلال ١٩٦٨.

خالدي، وليد، من المأوى الى الغزو.

Khalidi, Walid. From Haven to Conquest. Beirut : Institute for Palestine Studies, 1971

درابر، هال (محرر). الصهيونية واسرائيل والعرب.

Draper. Hal (Ed) Zionism, Israel and the Arabs. Berkely, Californa : Independent Socialist Clippingbooks, 1967.

ديورانت، ول. قصة الحضارة ترجمة محمد بدران، القاهرة: جامعة الدول العربية، الطبعة الأولى من الاجزاء الخمسة عشر التي نشرت ما بين عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦٤ .

راضي، أشرف، الفجوة: الصراع الطائفي في التجمع الصهيوني. القاهرة: البيادر، ١٩٨٨،

راكمان، امانويل ظهور دستور اسرائيل، ١٩٤٨- ١٩٥١ .

Rackman, Emmanuel. Israel's Emerging Constitution, 1948- 1952. New York : Columbia University, Press. 1955.

رزوق، أسعد، اسرائيل الكبرى دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، ١٩٦٨ .

روبين، ارثر، اليهود اليوم.

Ruppin, Arthur. The Jews of Today. London G. Bell and Sons, 1913. Trans. Margery Benwitch.

روث، سيسل. تاريخ اليهود من اول العصور الى حرب الايام الستة .

Roth, Cecil. A History of the Jews from Eearliest Times Through the Six Day War. New York, Schocken Book, 1970.

روث، فيليب، شكوى بورتنوي.

Roth, Philip. Portnoy's Complaint. New York: Random House 1968.

روز. ن. ا. الصهاينة الأغيار.

Rose, N. A. The Gentile Zionists : A Study In Anglo-Zionist Diplomacy, 1929-1939. Frank Cass, 1963.

ساخار، هوارد مورلي، مسار التاريخ اليهودي الحديث.

Sachar, Howard Morley. The Course of Modern Jewish History. New York : Dell, 1958.

سايكس، كريستوفر. ملتقى الطرق الى اسرائيل.

Sykes, Christopher. Crossroads. to Israel. Cleveland The World Publishing Company 1965.

سبيرو، ميلفورد. ا. الكيبوتس.

Spiro, E. Melford. Kibbutz : Venture In Utopia. Cambridge, Mass : Harvard University Press 1956.

ستارك، ورنر. علم اجتماع المعرفة.

Stark, Werner. The Sociology of Knowledge : An Essay in Aid of a Deeper Under ustanding of the History of Ideas. London Routledge & Kegan Paul. 1979.

ستيوارت دزموند. تيودور هرتزل.

Stewart, Desmond. Theodor Herzl. Garden City, N. Y. : Doubleday, 1974.

سلزر، مايكل (محرر). اعادة النظر في الصهيونية.

Selzer, Michael. (Ed.) Zionism Reconsidered : The Rejection of Jewish Normalcy, New York : The Macmillan Company, 1970.

اضفاء الصبغة الآرية على الدولة الصهيونية.

The Aryanization of the Jewish State. New York : Blackstone, 1968.

اناء الخمر الجلدي والساحر.

The Wine Skin and the Wizard, the Problem of Jewish Power in the Context of East European Jewish History. New York : Macmillan,

سميث، جاري (محرر). الصهيونية- الحلم والواقع.

Smith. Gary (Ed .). Zionism - The Dream and Reality : A Jewish Critique. New York: Barnes and Noble, 1974.

سوكولوف، ناحوم. تاريخ الصهيونية (جزءان).

Sokolov, Nahum. History of Zionism, 1600 - 1918 (2 vols .). New York : KTAV Publishing House, 1964.

شتاين، ليونارد، وعد بلفور.

Stein. Leonard. The Balfour Declaration. London : Vallentine, Mitchell. 1961.

شختمان، جوزيف ب. مقاتل ونبي : قصة فلاديمير جابوتنسكي- السنوات الأخيرة.

Schechtman, Joseph B. Fighter and Prophet : The Vladimir Jabotinsky Story - The Last Years- New York : Thomas Yoseloff 1961.

شفايتزر، فردريك. تاريخ اليهود منذ القرن الاول الميلادي.

Schweitzer, Fredrick M. A History of The Jews Since the First Century A. D. New York : Macmillan, 1971.

شلوينز، كارل، الطريق الملتوي الى اشويتز.

Schleunes, Karl. A. The Twisted Road to Auschwitz : Nazi Policy Toward German Jews 1933 - 1939. Urbana, Ill : University of Illinois Press. 1970.

العابد، ابراهيم. الدولة الفلسطينية.

Al-Abid, Ibrahim. A Handbook to the Palestine Question · Questions and Answers Beirut : Palestine Liberation Organization Research Center, 1969.

العابد، ابراهيم، ١٢٧ سؤالا وجوابا عن الصراع العربي الاسرائيلي.
Al-Abid, Ibrahim. 127 Questions And Answers on the Arab - Israeli conflict Beirut, Plo, Research center, 1973.
العابد. لطفي. العنف والسلام في اسرائيل، دراسة في الاستراتيجية الصهيونية، بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، ١٩٦٧.
العابد، لطفي وعنز، موسى (ترجمة)، اشراف انيس صايغ، تعريف الدكتور اسعد مرزوق. الفكرة الصهيونية، النصوص الاساسية بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، ١٩٧٠.
العروي، عبد الله، مفهوم الايديولوجيا (الأدلوجة). بيروت: دار العودة، ١٩٧٥.
العظم، صادق جلال. الصهيونية والصراع الطبقي، بيروت، دار العودة، ١٩٧٥.
غيث، عاطف، قاموس علم الاجتماع، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٩.
الفاروقي، اسماعيل راجي، اصول الصهيونية في الدين اليهودي، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٣/١٩٦٤.
الملل المعاصرة في الدين اليهودي. القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٨.
فورمان، الزورث. علم اجتماع المعرفة في الولايات المتحدة ١٨٨٣ـ ١٩١٥.
Fuhrman, Ellsworth R. The Sociology of Knowledge in America 1883-1915. Charlottesville, Virginia : University Press of Virginia, 1980.
فيتال، دافيد أصول الصهيونية.
Vital, David. The Origins of Zionism Oxford : The Clarendon Press, 1975.
قاسم، ، وجيه حسن. نظرة جديدة في التحالف الصهيوني الامبريالي، مقدمة «السفارديم لماذا؟» لقدري حفني. القاهرة: البادر، ١٩٨٧.
القاضي، ليلى سليم، المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية، ماتسبن بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، ١٩٧١.
القدسي، احمد ولوبل، إلى العالم العربي واسرائيل.
El-Kudsi, Ahmed, and Lobel, Ell. The Arab World and Israel, New York : Monthly Review Press, 1970
قوره بانزيه، المشروع الصهيوني في مواجهة أزمته الداخلية. وثورة مؤسسة الأرض، ١٩٧٧.
قهوجي حبيب، الصهيونية والعنصرية: الفكر والممارسة. دمشق: مؤسسة الأرض، ١٩٨٠.
كابلان، حاييم. مخطوطات العذاب.
Kaplan A. The Scrolls of Agony : The Warsaw Diary of Chaim A. Kaplan New York : The Macmillan Company, 1965.

كالن، هوراس ماير ، الطوباويون يدافعون عن انفسهم بضراوة .
Kallen, Horace M. Utopians at Bay. New York : Theodore Herzl Foundation, 1958
كاوتسكي كارل. هل يشكل اليهود جنسا؟
Kautsky, Karl. Are the Jews a Race ? New York : International Publishers, 1926. (Translated from the Second German edition.)

كروسمان، ريتشارد. أمة تبعث من جديد .
Crossman, Richard. A Nation Reborn : The Israel of Weizman, Bevin and Ben Gurion. London : Hamish Hamilton, 1969.
كلارك، رونالدو. اينشتاين .
Clark, Ronald W. Einstein : The Life and Times. New York : The World Publishing Company, 1971.
كنج، سيمحا. ناحوم سوكولوف: خادم شعبه .
King, Simcha. Nachum Sokolow : Servant of His People. New York : Herzl Press, 1960.
كوزر، لويس . ا. كبار مفكري علم الاجتماع .
Cozer, Lewis A. Masters of Sociological Thought : Ideas in Historical and Social Context. New York : Harcourt Brace, 1971.
لاكير، والتر، تاريخ الصهيونية .
Laquer, Walter. A History of Zionism. New York : Holt, Rinehart and Winston, 1972.
لبيب، الطاهر. سوسيولوجية الثقافة . القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨ .
لفين، جوردون (محرر). الحركة الصهيونية في فلسطين والسياسة العالمية .
Levin Gordon (Ed.) The Zionist Movement in Palestine and World Politics, 1880-1918. Leington, Mass Heath. 1974.
لونتال، مارتن (محرر ومترجم) يوميات هرتزل .
Lovinthal, Martin (Ed. and Trans.) Diaries of Theodore Herzl. New York : Gerasset and Dunlop, 1962.
ليلينتال، الفريد. ما ثمن اسرائيل؟
Lilienthal, Alfred. What Price Israel ? Chicago : Henry Regnery, 1953.
الوجه الآخر للعملة .
The Other Side of the Coin : An American Perspective of The Arab-Israeli Conflict. New York : Devin-Adair, 1957

وهكذا يضيع الشرق الاوسط.
There Goes the Middle East. New York : Devin-Adair, 1965.
ليون، ابراهام، الماركسية والمسألة اليهودية، ترجمة وتقديم عماد نويهض، بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٩.
مارمورشتاين، اميل. سماء مكبلة.
Marmorstein,Emile.Heaven at Bay : The Jewish Kulturkampt in the HolyLand. London : Oxford University Press 1969.
ماهلر، رفائيل، تاريخ اليهود في العصر الحديث ١٧٨٠ـ ١٨١٥.
Mohler, Raphael. A History of Modern Jewry 1780-1815. London : Vallentine, Mitchell, 1971.
ماير، لورنس. اسرائيل الآن.
Meyer Lawrence. Israel Now : Portrait of a Troubled Land. New York : Dela Corte Press, 1982.
المسيري. عبد الوهاب.
ـ ارض الوعد.
Elmessiri Abdelwahab. The Land of Promise : A Critique of Political Zıonism. New Brunswick, N. J. : North American, 1977.
ـ الاستعمار الاستيطاني الصهيوني وتطبيع الشخصية (تحت الطبع) قبرص: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٨.
ـ الأقليات اليهودية بين التجارة والادعاء القومي. القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥.
ـ موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، رؤية نقدية القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ـ الاهرام، ٧١٩٧٥
الموسوعة العربية للمفاهيم والمصطلحات اليهودية والصهيونية، جزآن، (تحت الطبع) القاهرة: الدار العربية، ١٩٨٩.
ـ نهاية التاريخ، دراسة في بنية الفكر الصهيوني، بيروت: المؤسسة العربية والنشر، ١٩٧٩.
ـ الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات عن الحضارة الاميركية الحديثة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩.
ـ اليهودية والصهيونية واسرائيل: دراسات في انتشار وانحسار الرؤية الصهيونية للواقع. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥.
ـ مينوهين، موشيه، انهيار اليهودية في عصرنا.

Menuhin, Moshe. The Decadence of Judaism in our Time. Beirut. Institute for Palestine Studies, 1969.

مينوهين، موشيه. نقاد الصهيونية اليهود.

Menuhin, Moshe. Jewish Critics of Zionism A Testament Essay with The Strif-likg and Smearing of a Dissenter. New York: Arab Information Center (n.d.).

نوردو، ماكس. ماكس نوردو يتحدث الى شعبه.

Nordau, Max. Max Nordau to His People: Summons and a Challenge. New York: Scopus Publishing Society, 1941.

هالفرسون، مارفن، مرشد الى اللاهوت المسيحي.

Halverson, Marvin. A Handbook of Christian Theology. New York: Merridian Books, 1960.

هداوي، سامي. فلسطين في الأمم المتحدة.

Hadawi, Sami. Palestine in the United Nations. New York: Arab Information Center,1964.

هرتزبرج ، آرثر. الفكرة الصهيونية: تحليل تاريخي ومختارات.

Hertzburg, Arthur (Ed.). The Zionist Idea: A Hisorical Analysis and Reader.

حركة التنوير الفرنسية واليهود.

The French Enlightenment and the Jews. New York: Columbia University Press, 1968.

هلسه، تهاني، بن جوريون. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، ١٩٦٥.

وايزمان، حاييم. المحاولة والخطأ.

Weizmann, Chaim Trial and and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann. New York: Harper, 1919.

ياسين السيد، وهلال علي. الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين (١٨٨٢-١٩٤٨) الجزء الاول القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥.

ياسين، السيد. الشخصية العربية (بين المفهوم العربي والمفهوم الاسرائيلي). القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، ١٩٧٤.



ثانيا: وثائق وموسوعات

كتاب هرتزل السنوي .

Herzl Year Book.

محاكمة مجرمي الحرب الرئيسين امام المحكمة العسكرية الدولية: نورمبرج، ١٤ نوفمبر ١٩٤٥- ١١ اكتوبر ١٩٤٦ .

Trial of the Major War Criminals Before The International Military Tribunal: Nuremberg, 14 Novenber 1945 — 1 October 1946. (Nuremberg, Germany, 1947) Vol XI (Official text in the English Language, Proceedings April 8, 1946, April 17, 1946).

معجم تاريخ الافكار

Philip Wiener (ed.). Dictionary of the History of Ideas: Stndies of Selected Pivotal Ideas, New York: Charles Scribner's, 1973.

معجم فونتانا للفكر الحديث .

Buullock Alan, & Stallybrass, Oliver (eds.). The Fontana Dictionary of Modern Thought. London: Fontana 1977.

الموسوعة الأمريكية .

Encyclopedia Americana. New York, Americana Corporation, 1961.

الموسوعة البريطانية .

Encyclopedia Britannica (23 Vols.). Chicago: Encyclopedia Britannaica, 1968.

الموسوعة البريطانية الجديدة .

New Encyclopedia Britannica. Chicago: Encyclopedia Britannica, 1974.

الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية

Mternational Encyclopedia of the Social Sciences.

موسوعة الصهيونية واسرائيل .

Encyclopedia of Zionism and Israel.

الموسوعة اليهودية .

Encyclopedia Judaica. Cecil Roth (Ed.). New York: The Macmillan Company, 1971.

وثائق مختلفة اصدرتها هيئة الامم ومجلس الكنائس العالمي الخ .

ثالثا: مجلات وصحف ودوريات

آفاق عربية .	
أرض .	
ازراكا .	Israca.
إسرائيل دايجست .	Israel Digest.
إسرائيل وفلسطين .	Israel and Palestine.
أمريكان جورنال أوف سوسيولوجي .	American Journal of Sociology.
انترتشينج .	Inter change.
انترناشيونال افيرز .	International Affairs.
ايشوز .	Issues.
الايكونومست	Economist.
بريف .	Brief.
تايم .	Time
الثقافة الوطنية .	
ثيرد ورلد ريبورت .	Third World Report.
ذي جارديانز .	The Guardıans.
ذي لنك .	The Link.
جويش جارديان .	Jewish Guardian.
جويش سوشيال ستاديز .	Jewish Social Studies.
سبشال انترست ريبورت .	Special Interest Report.
سبكتاتور .	Spectator
سواسيا .	Swasia
شؤون فلسطينية	
فري بالتستاين	Free Palestine
فيوبونيت .	Viewpoint
القبس	
المانشستر جارديان .	Manchester Guardian
مريب ايست .	Merip Report
الملف .	

ميدل ايست انترناشيونال . Middle East International

النشرة الاعلامية لمنظمة خريجي الجامعات الأمريكية العرب .

نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية . AAUG News Bulletin

النيويورك تايمز New York Times

النيويورك تايمز ماجازين New York Times Magazine

هوم نيوز . Home News (New Brunwick , N.J.)

واشنجتون بوست . Washington Post.

المحتوى



المؤلف في سطور

الدكتور عبدالوهاب محمد المسيري

- حصل على الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة رتجرز بالولايات المتحدة.
- استاذ الأدب الانجليزي والمقارن بجامعتي عين شمس (القاهرة) والملك سعود (الرياض).
- شغل وظيفة خبير (الصهيونية) بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام (١٩٧١ - ١٩٧٥).
- عمل مستشارا ثقافيا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية بهيئة الأمم المتحدة (١٩٧٥ - ١٩٧٩).
- له عدة دراسات في الصهيونية والتاريخ والنقد الأدبي من أهمها الكتب التالية:

١ - موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية.

٢ - إسرائيل وجنوب افريقيا: تطور العلاقة بينهما (بالانجليزية)

٣ - الشعر الرومانتيكي الانجليزي: النصوص الأساسية وبعض الدراسات التاريخية النقدية.

٤ - الفردوس الأرضي، دراسات وانطباعات في الحضارة الأمريكية الحديثة.

٥ - العرس الفلسطيني: مختارات مزدوجة اللغة من شعر المقاومة الفلسطيني (بالعربية والانجليزية).

٦ - كافين رايلي: الغرب والعالم (جزآن، مترجم عن الانجليزية بالاشتراك مع د. هدى حجازي وصدر في سلسلة عالم المعرفة).

وسيصدر له هذا العام (١٩٨٨) «الاستعمار الاستيطاني الصهيوني وتطبيع الشخصية العربية» (مؤسسة الابحاث العربية) و«الموسوعة العربية للمفاهيم والمصطلحات اليهودية والصهيونية» (الدار العربية).

صدر عن هذه السلسلة

١ـالحضـــارة	تأليف : د/ حسين مؤنس
٢ـاتجاهات الشعر العربي المعاصر	تأليف : د/ إحسان عباس
٣ ـ التفكير العلمي	تأليف : د/ فؤاد زكريا
٤ ـ الولايات المتحدة والمشرق العربي	تأليف : د/ أحمد عبدالرحيم مصطفى
٥ ـ العلم ومشكلات الإنسان المعاصر	تأليف : زهير الكرمي
٦ ـ الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها	تأليف :د/ عزت حجازي
٧ـالأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية	تأليف : د/ محمد عزيز شكري
٨ـتراث الإسلام (الجزء الأول)	ترجمة : د/ زهير السمهوري تحقيق وتعليق : د/ شاكر مصطفى مراجعة : د/ فؤاد زكريا
٩ـأضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة	تأليف : د/ نايف خرما
١٠ـ جحـا العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار
١١ـتراث الإسلام (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ حسين مؤنس د/ إحسان العمد مراجعة . د/ فؤاد زكريا
١٢ـتراث الإسلام (الجزء الثالث)	ترجمة : د/ حسين مؤنس د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا
١٣ـالملاحة وعلوم البحار عند العرب	تأليف : د/ أنور عبد العليم
١٤ ـ جمالية الفن العربي	تأليف : د/ عفيف بهنسي
١٥ـالإنسان الحائر بين العلم والخرافة	تأليف : د/ عبد المحسن صالح
١٦ـالنفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية	تأليف : د/ محمود عبد الفضيل

١٧ـالكون والثقوب السوداء	إعداد رؤوف وصفي مراجعة · زهير الكرمي
١٨ـالكوميديا والتراجيديـا	ترجمة : د/ علي أحمد محمود مراجعة : د/ شوقي السكري د/ علي الراعي
١٩ ـ المخرج في المسرح المعاصر	تأليف . سعد أردش
٢٠ ـ التفكير المستقيم والتفكير الأعوج	ترجمة : حسن سعيد الكرمي مراجعة : صدقي حطاب
٢١ـمشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي	تأليف : د/ محمد علي القرا
٢٢ـالبيئـة ومشكلاتهـا	تأليف : رشيد الحمد د/ محمد سعيد صاريني
٢٣ـالســرق	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني
٢٤ـالإبداع في الفن والعلم	تأليف · د/ حسن أحمد عيسى
٢٥ـالمسرح في الوطن العربي	تأليف : د/ علي الراعي
٢٦ـمصر وفلسطين	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
٢٧ـالعلاج النفسي الحديث	تأليف · د/ عبدالستار إبراهيم
٢٨ـأفريقيا في عصر التحول الاجتماعي	ترجمة : شوقي جــلال
٢٩ـالعرب والتحـدي	تأليف : د/ محمد عماره
٣٠ ـ العــدالـة والحـريـة في فجـر النهضـة العربية الحديثة	تأليف : د/ عزت قرني
٣١ ـ الموشحات الأندلسية	تأليف : د/ محمد زكريا عناني
٣٢ـتكنولوجيا السلوك الإنساني	ترجمة : د/ عبدالقادر يوسف مراجعة : د/ رجا الدريني
٣٣ـالإنسـان والثروات المعدنية	تأليف : د/ محمد فتحي عوض الله
٣٤ـقضايـا أفريقيـة	تأليف : د/ محمد عبدالغني سعودي
٣٥ـتحولات الفكـر والسياسـة في الشرق العربي (١٩٣٠ ـ ١٩٧٠)	تأليف : د/ محمد جابر الأنصاري

٣٦ـالحب في التراث العربي	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله
٣٧ـالمســـاجد	تأليف : د/ حسين مؤنس
٣٨ـتكنولوجيا الطاقة البديلة	تأليف : د/ سعود يوسف عياش
٣٩ـارتقــاء الإنســـان	ترجمة : د/ موفق شخاشيرو
	مراجعة : زهير الكرمي
٤٠ـالرواية الروسية في القرن التاسع عشر	تأليف : د/ مكارم الغمري
٤١ـالشعـر في السودان	تأليف : د/ عبـده بـدوي
٤٢ـدور المشروعات العامة في التنمية الاقتصادية	تأليف : د/ علي خليفة الكواري
٤٣ ـ الإســلام في الصــين	تأليف : فهمي هويدي
٤٤ـاتجاهات نظرية في علم الاجتماع	تأليف : د/ عبدالباسط عبدالمعطي
٤٥ـحكايات الشطار والعيارين في التراث العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار
٤٦ـدعــوة إلـى الموسيقـا	تأليف : د/ يوسف السيسي
٤٧ـفكـرة القانـون	ترجمة : سليم الصويص
	مراجعة : سليم بسيسو
٤٨ـالتنبؤ العلمي ومستقبل الإنسـان	تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
٤٩ـصراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي	تأليف : صلاح الدين حافظ
٥٠ـالتكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية	تأليف : د/ محمد عبدالسلام
٥١ ـ السينما في الوطن العربي	تأليف : جـان الكســان
٥٢ـالنفط والعلاقات الدولية	تأليف : د/ محمد الرميحي
٥٣ـالبدائيــة	ترجمة : د/ محمد عصفور
٥٤ـالحشرات الناقلة للأمراض	تأليف : د/ جليل أبو الحب
٥٥ـالعالم بعد مائتي عام	ترجمة : شوقي جلال
٥٦ـالإدمــان	تأليف : د/ عادل الدمرداش
٥٧ـالبيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية	تأليف : د/ أسامة عبدالرحمن
٥٨ـالوجوديــة	ترجمة : د/ إمام عبد الفتاح
٥٩ـالعرب أمام تحديات التكنولوجيا	تأليف : د/ انطونيوس كـرم
٦٠ـالايديولوجية الصهيونية (الجزء الأول)	تأليف : د/ عبد الوهاب المسيري

٦١ـالايديولوجية الصهيونية (الجزء الثاني)	تأليف : د/ عبد الوهاب المسيري
٦٢ـحكمة الغرب (الجزء الأول)	ترجمة : د/ فؤاد زكريا
٦٣ـالإسلام والاقتصاد	تأليف . د/ عبدالهادي علي النجار
٦٤ـصناعة الجوع (خرافة الندرة)	ترجمة : أحمد حسان عبد الواحد
٦٥ـمدخل إلى تاريخ الموسيقا المغربية	تأليف . د/ عبدالعزيز بن عبدالجليل
٦٦ـالإسلام والشعر	تأليف : د/ سامي مكي العاني
٦٧ـسـو الإنســان	ترجمة : زهير الكرمي
٦٨ـالثقافة الألبانية في الأبجدية العربية	تأليف : د/ محمد موفاكـو
٦٩ـظاهرة العلم الحديث	تأليف : د/ عبدالله العمـر
٧٠ـنظريات التعلم (دراسة مقارنة)	ترجمة : د/ علي حسين حجاج
القسم الأول	مراجعة : د/ عطيه محمود هنا
٧١ـالاستيطان الأجنبي في الوطن العربي	تأليف : د/ عبدالمالك خلف التميمي
٧٢ـحكمة الغرب (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ فؤاد زكريا
٧٣ـالتخطيط للتقدم الاقتصادي والاجتماعي	تأليف : د/ مجيـد مسعود
٧٤ ـ مشاريع الاستيطان اليهودي	تأليف : د/ أمين عبدالله محمود
٧٥ـالتصويـر والحيـاة	تأليف : د/ محمد نبهان سويلم
٧٦ـالموت في الفكر الغربي	ترجمة : كامل يوسف حسين
	مراجعة : د/ إمام عبد الفتاح
٧٧ـالشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً	تأليف : د/ أحمـد عتمـان
٧٨ـقضايا التبعية الإعلامية والثقافية	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
٧٩ـمفاهيـم قرآنيـة	تأليف : د/ محمد أحمد خلف الله
٨٠ـالزواج عند العرب (في الجاهلية والإسلام)	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني
٨١ـالأدب اليوغسلافي المعاصر	تأليف : د/ جمال الدين سيد محمد
٨٢ـتشكيل العقل الحديث	ترجمة : شوقي جلال
	مراجعة : صدقي حطاب
٨٣ـالبيولوجيا ومصير الإنسـان	تأليف : د/ سعيد الحفار

١٠٠ ـ الوراثة والإنسان	تأليف : د/ محمد علي الربيعي
١٠١ ـ الأدب في البرازيل	تأليف : د/ شاكر مصطفى
١٠٢ ـ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية	تأليف : د/ رشاد الشامي
١٠٣ ـ التنمية في دول مجلس التعاون	تأليف : د/ محمد توفيق صادق
١٠٤ ـ العالم الثالث وتحديات البقاء	تأليف : جاك لوب ترجمة : أحمد فؤاد بلبع
١٠٥ ـ المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي	تأليف : د/ ابراهيم عبدالله غلوم
١٠٦ ـ «المتلاعبون بالعقول»	تأليف : هربرت. أ. شيللر ترجمة عبدالسلام رضوان
١٠٧ ـ الشركات عابرة القومية	تأليف : د/ محمد السيد سعيد
١٠٨ ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) الجزء الثاني	ترجمة : د/ علي حسين حجاج مراجعة : د/ عطية محمود هنا
١٠٩ ـ العملية الإبداعية في فن التصوير	تأليف : د/ شاكر عبد الحميد
١١٠ ـ مفاهيم نقدية	ترجمة : د/ محمد عصفور
١١١ ـ قلق الموت	تأليف : د/ أحمد محمد عبدالخالق
١١٢ ـ العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث	
١١٣ ـ الفكر التربوي العربي الحديث	تأليف : د/ سعيد اسماعيل علي
١١٤ ـ الرياضيات في حياتنا	ترجمة : د/ فاطمة عبد القادر الما
١١٥ ـ معالم على طريق تحديث الفكر العربي	تأليف : د/ معن زيادة
١١٦ ـ أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات القسم الأول	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبد الواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى

العنوان	المؤلف
١١٧ ـ الأحزاب السياسية في العالم الثالث	تأليف : د/ اسامة الغزالي حرب
١١٨ ـ التاريخ النقدي للتخلف	تأليف : د/ رمزي زكي
١١٩ ـ قصيدة وصورة	تأليف : د/ عبدالغفار مكاوي
١٢٠ ـ سيكولوجية اللعب	تأليف : د/ سوزاناميلر ترجمة : د/ حسن عيسىٰ مراجعة : د/ محمد عماد الدين إسماعيل
١٢١ ـ الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم	تأليف: د/ رياض رمضان العلمي
١٢٢ ـ أدب أمريكا اللاتينية القسم الثاني	تنسيق وتقديم . سيزار فرناندث مورينو ترجمة: أحمد حسان عبدالواحد مراجعة د/ شاكر مصطفى
١٢٣ ـ ثقافة الأطفال	تأليف : د/ هادي نعمان الهيتي
١٢٤ ـ مرض القلق	تأليف: د/ دافيد. ف. شيهان ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة
١٢٥ ـ طبيعة الحياة	تأليف : فرانسيس كريك ترجمة : د/ أحمد مستجير مراجعة : د/ عبدالحافظ حلمي
١٢٦ ـ اللغات الاجنبية (تعليمها وتعلمها)	تأليف : د. نايف خرما د. علي حجاج
١٢٧ ـ اقتصاديات الإسكان	تأليف: د. اسماعيل ابراهيم درة

سلسلة عالم المعرفة

عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت ـ وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير ١٩٧٨ ويتولى الاشراف عليها لجنة تضم عددا من الشخصيات العلمية المعروفة على مستوى الوطن العربي كله.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارىء العربي بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة وكذا ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها ـ ترجمة وتأليفا:

١ ـ **الدراسات الإنسانية** : الفلسفة، علم النفس والتربية، علم الاجتماع، السياسة والاقتصاد، التاريخ، الدراسات الحضارية، والجغرافيا وأدب الرحلات.

٢ ـ **الدراسات الأدبية واللغوية** : الآداب العالمية، الأدب العربي، علم اللغة.

٣ ـ **الدراسات الفنية** : علم الجمال وفلسفة الفن، المسرح، الموسيقا، الفنون التشكيلية، الفنون الشعبية.

٤ ـ **الدراسات العلمية** : تاريخ العلم وفلسفته، التكنولوجيا والإنسان، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة،

فلك) والرياضة التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم).

أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية، المترجمة أو المؤلفة، من شعر وقصة ومسرحية فأمر غير وارد في الوقت الحالي.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المؤلف أو المترجم تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل خمسة عشر فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي أو تسعمائة دينار أيهما أكثر بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطة المؤلفة أو المترجمة من نسختين مطبوعة على الآله الكاتبة.



الاشتراك السنوي : وهو مقصور على الفئات التالية :

● المؤسسات والهيئات داخل الكويت	١٠ دنانير
● المؤسسات والهيئات في الوطن العربي	١٢ ديناراً
● المؤسسات والهيئات خارج الوطن العربي	٨٠ دولارا امريكيا
● الافراد خارج الوطن العربي	٤٠ دولارا امريكيا

الاشتراكات :

ترسل باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب ٢٣٩٩٦ الصفاة/ الكويت ـ 13100

برقيا ثقف ـ تلكس ٤٤٥٥٤ TLX No 44554 NCCAL



مطابع الرسالة - الكويت

البلد	سعر النسخة
❊ الكويـت	٥٠٠ فلس
❊ السعودية	١٠ ريالات
❊ العراق	دينار واحد
❊ الأردن	٧٥٠ فلس
❊ سوريا	١٥ ليـرة
❊ لبنان	١٥ ليرة
❊ ليبيا	دينار واحد
❊ المغرب	١٥ درهم
❊ تونس	١ ١/٤ دينار
❊ الجزائر	٢٠,ـ دينار
❊ مصر	١,ـ جنيه
❊ السودان	١,ـ جنيه
❊ عمان	١ ريال
❊ اليمن الجنوبية	٨٠٠ فلس
❊ اليمن الشمالية	١٠ ريالات
❊ البحرين	دينار واحد
❊ قطر	١٠ ريالات
❊ الامارات العربية	١٠ دراهم

طبع من هذا الكتاب خمسون ألف نسخة



مطابع الرسالة - الكويت